فهرس مباحث كتاب أسرار البلاغة

صفحة

١ ـ ح مقدمة ناشر الكتاب وفيها تحقيق معنى البلاغة وتفضيل كتب عبد القاهر على كتب السعد وأمثالها . تنبيهات لقراء الطبعة الثانية

١ مقدمة المصنف وفيها أن المقصود بالكلام المعانى و بحث السجع والتجنيس

٤ القول فى التجنيس

١٠ شرط استحسان الجناس والسجع

١٢و٣٥ أمثلة التجنيس الحسن والقبيح

١٤ فصل فى قسمة التجنيس وتنويعه . الاستعارة والتطبيق

١٧ تحقيق كون حسن الكلام بالمعانى لا الالفاظ .

١٩ بيان كيفية اتفاق المعانى واختلافها وأبنية اجتماعها وافتراقها الخ

٢٥ اشتراك اللغات فى التجوز وانفراد العربية

٢٧ الاعتبار بترجمة الاستعارة

٣٢ القول فى الاستعارة المفيدة

٣٤ فصل فى تقسيم آخر للاستعارة المفيدة

٣٧ الاستعارة والتطبيق

٤٢ « المختلفة الجنس والأنواع

٤٤و٥٨ « القريبة من الحقيقة

٤٦و٦٠ « فيما وجه الشبه فيه حقيقى

٤٨ التفرقة بين نوعى الاستعارة فى الجنس

٥٢و٦٢ وجه الشبه العقلى فى الاستعارة

٥٤و٦٤ تشبيه مايصلح به الناس أو الكلام بالملح

٥٦ تشبيه المعقول بالمعقول

٦٦ تحقيق معنى الغنى والفقر

صفحة

٦٨ اعتراض على أن تنزيل الوجود منزلة العدم وعكسه ليس من حديث التشبيه
٧٤ التشبيه الذى يحتاج إلى التأويل
٧٨ فصل فى التشبيه للاشتراك فى نفس الصفة وفى مقتضاها
٨٠ « فى وجوه الشبه المنتزعة من شىء أو أشياء
٨٢ التشبيه المعقود على أمرين وليس بتمثيل
٨٣ فصل فى حال انتزاع الشبه من الوصف
٨٤ بحث دقيق فى تمثيل حال اليهود بالحمار يحمل أسفارا
٨٦ فروق بين التشبيه والتمثيل
٩٠ وجوه الشبه فى جمل من التمثيل
٩٢ التمثيل فى المدح والذم وأمثلتها
٩٤ « فى الحجاج والافتخار والاعتذار
٩٥ « فى الوعظ
٩٦ « « ضروب الكلام المختلفة
٩٨ تعليل بلاغة الكلام بتأثيرها فى النفس
١٠٠ الفرق بين تأثير الكلام فى التمثيل وعدمه
١٠٢ أسباب قوة تأثير التمثيل وعلله النفسية
١٠٤ سبب تأثير التمثيل فى ضربيه
١٠٦ زيادة تأثير التمثيل بالأمثال المشاهدة
١٠٨ تعليل دقيق جليل ، فى فلسفة التمثيل
١١٠ تأثير اختلاف الجنس بين المشبه والمشبه به
١١٤ جعل التمثيل الشىء كعدمه أو ضده
١١٦ مآخذ التمثيل من الموجودات
١١٨ فصل آخر فى الفرق بين التمثيل الدقيق والتعقيد

صفحة

١٢٢ التعقيد والكلام البليغ المتوقف على دقة الفكر
١٢٤و١٣٤ مكانة ما لا يدرك إلا بالتعب
١٢٦ سبب قبح الكلام المعقد
١٣٠ شرط حسن التأليف بين مختلفى الجنس
١٣٢ التشبيه المتوقف على دقة الفكر
١٣٨ الادراك الاجمالى والتفصيلى الذى به التفاضل
١٤٠ التشبيه التفصيلى المتوقف على دقة الفكر
١٤٦ العبرة والتفصيل فى ضروب التشبيه والتمثيل
١٥٤و١٧٤ التفصيل لدقائق التشبيه المركب
١٥٦ التشبيه فى الهيئة التى تقع عليها الحركات
١٥٨و١٦٤ الجمع بين الشكل وهيئة الحركة فى التشبيه
١٦٢ مآخذ التشبيه من هيئات الحركة والسكون
١٦٦ النفيس يبتذل بكثرة الاستعمال
١٧٨ قلب التشبيه
١٨٦ القلب أو العكس فى طرفى التشبيه
١٩٦ رد الفرع الى الأصل فى التمثيل وعكسه
٢٠٢ القياس فى التشبيه وتشبيه الحقيقة بالمجاز
٢٠٤ جعل الفرع أصلا فى التشبيه وعكسه
٢٠٧و٢٢٢و٢٢٤ فصل فى الفرق بين الاستعارة والتمثيل
٢١٨ الاستعارة والمبالغة فى التشبيه
٢٢٠ صناعة أبى تمام وفساد ذوقه
٢٢٣ فصل فى وقوع الاسم مستعاراً بحسب الحس وهو ليس كذلك
٢٣٤ بناء الشعر والخطابة على التخييل لا المعقول

صفحة

٢٣٦و٢٥٢ من قال خير الشعر أكذبه وضده
٢٣٨ بيان أن الاستعارة ليست من التخييل
٢٤٢ التخييل الشبيه بالحقيقة مما أصله التشبيه
٢٤٧ براعة ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد
٢٥٦ الفرق بين المعنى الحقيقى والتخييل
٢٥٧ فصل فى نوع آخر من التعليل
٢٥٨ الأخذ والسرقة فى التخييل مع حسن التعليل
٢٦٢و٢٧٤ فصل فى التخييل بغير تعليل
٢٦٨ وجه الشبه المقصود بالذات والحاصل بالتبع
٢٧٢ عود على ادعاء المجاز حقيقة
٢٧٦ بناء الاستعارة والتخييل على تناسى التشبيه
٢٧٧ فصل فى الفرق بين التشبيه والاستعارة
٢٩٣ « « الاتفاق فى الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة
٣٠٢ « « حدى الحقيقة والمجاز
٣١٦ « « المجاز العقلى واللغوى والفرق بينهما
٣٢٩ « منه فى ماقيل فيه انه استعارة وليس كذلك بل هو حقيقة
٣٣٠ المجاز العقلى والمجاز اللغوى ومنه الاستعارة
٣٤٢ ذكر المجاز وبيان معناه وحقيقته وكونه اعم من الاستعارة
٣٤٨ معنى المجاز وحقيقته ومكان الاستعارة منه
٣٥٤و٣٥٥ تقسيم المجاز إلى لغوى وعقلى واللغوى إلى الاستعارة ومجاز مرسل
٣٦٠ كون « العقلى فى الجمل لا المفردات
٣٦٢ فصل فى الحذف والزيادة وهل هما من المجاز أم لا
٣٦٦ بيان أن الحذف والاسقاط على وجهين

تم

تصحيح ما وقع من خطأ الطبع فى كتاب أسرار البلاغة

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
١٣	٩	تخنلف	تختلف	٨٢	٥	ويمر(٢)	ويمر(١)
«	١٦	قانه	فانه	٨٧	١٦	الحمل	الجمل
١٦	١	التسيم	النسيم	٩٥	٧	وأنره	وأثره
١٩	٧	وضعت	وضعته	«	١٩	لا تنكروا	لا تنكروا
٢٤	١٧	أتك	أنك	«	٢٢	العزارى	الفزارى
٢٨	١٢	ورائر	وزائر	«	٢٥	مشاتين	مثناتين
٣٥	١٢	بقلبه	يقلبه	٩٦	٧	زرغا	زرعا
٣٦	٥	المنزع	المنتزع	٩٧	٢	و	أو
٤٢	١٩	وتحافه	وتخافه	٩٨	١٢	برسبن	يرسبن
٤٥	٦	إنك	أنك	١٠٣	١	الدرك	المدرك
«	٢٠	العاطع	القاطع	١١٧	٤	ريادته	زيادته
٥١	٥	القسطاط	القسطاس	١٢٢	١٥	يحتهد	يجتهد
«	٧	والقسطاط	والقسطاس	١٢٣	١٩	يدرك	يدرك
٥٩	٩	القضيلة	الفضيلة	١٢٦	١٨	حنى	جنى
٦٠	٥	هدا	هذا	«	٢٠	والعلوقة	والعلوفة
٦٢	١	مكروهاَ	مكروهاً	«	«	الناقه	الناقة
٦٥	٦	عروفوا	عرفوا	١٢٩	١٢	المحدت	المحدث
٦٧	٩	لا بعجز	لا يعجز	١٣٠	٩	حيت	حيث
٧٦	١٤	مطلفة	مطلقة	١٣٢	١١	يقولى	يقول
٧٩	٦	جعلت	جعل	١٣٣	٢٠	قتلك	فتلك

ص	س	خطأ	صواب
١٣٥	١٢	وقكر	وفكر
»	١٨	نطر	نظرت
١٣٧	١٨	كالاؤلؤة	كاللؤلؤة
١٣٩	٢٠	المفحل	الفحل
١٤١	١٩	ولايجيب يراه	ولا يراه
١٤٥	٥	الامرر	الامور
١٤٧	١٧	احدـهما	أحدهما
١٤٨	١٦	بياض	ببياض
١٥١	١٣	عجاجه	عجاجة
»	»	جانبيها	جانبيها
١٥٢	١١	تتلافى	تتلاقى
»	١٢	تم	ثم
١٥٤	٦	الآذريوتة	الآذريونة
١٦٠	١٩	والغثرا.	والغثراء
١٦٥	١٠	لاجابته	اجابته
١٦٨	٤	حيت	حيث
١٧٥	٦	تريني	تزيني
١٧٧	١١	اعتبرتة	اعتبرته
١٨٢	١٣	جثس	جنس
١٨٣	٣	الاختبار	الاختيار
١٨٤	٧	قضيبٌ	قضيبُ
١٨٥	٢١	الأدوية	الاودية
١٩٨	١٣	الأخر	الآخر

ص	س	خطأ	صواب
٢٠٢	١٨	الوعبد	الوعيد
٢٠٣	٢٠	ما ادعاء	ادعاء
٢٠٤		٤٠٤	٢٠٤
٢٠٩	١٤	الدى	الذى
٢١١	١٣	ويتفذ	وينفذ
٢١٨	١٣	بعينيها	بعينها
٢٢٤	٥	يراها	براها
»	١٦	وتشبيهه	وتشبيه
٢٢٦	٩	بقعم	بفم
٢٣٥	٨	تجرى	نجرى
٢٣٨	١٣	طريقة	طريقه
٢٣٩	١٦	خيز	حيز
٢٤٢	٢٢	مات	مات
٢٤٩	١٥	جيينه	جبينه
٢٥٠	٣	الايداع	الابداع
٢٥٢	١٩	هفياء	هيفاء
٢٥٣	١	فأثيت	فأثبت
٢٥٤	٣	باشبيه	ياشبيه
٢٥٦	٢١	وجيبا	وجيبا
٢٥٨	٢٠	وفى نسخةقلوا	وفى نسخةفلوا
٢٦٠	١٧	الصير	الصبر
٢٦٨	١٢	بصير	يصير
٢٧١	١٧	المراخ	المراح

ص	س	خطأ	صواب
٢٧٤	٢١	حهما	جهما
٢٧٥	١٤	الامو	الامر
٢٩٦	١١	عادله	عاذله
٢٩٩	١٤	والبلوع	والبلوغ
٣٠٣	١٧	الى الى	الى
٣١١	١٧	بتماسك	يتماسك
٣١٣	٢٠	قال	وقال
٣٣١	١٣	صاع	صاغ
٣٣٥	٨	يأذن	بإذن
٣٥٠	٢	وفيه قول	وفيه قوم
»	»	الى قوم	الى قول
٣٦٧	١٤	صير	صبر

هذه الطبعة الثالثة لـكتاب أسرار البلاغة مصححة على النسخة التى صححها وعلق حواشيها العالمان الجليلان الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى دروسه التى كان يلقيها فى الأزهر الشريف . والسيد الامام محمد رشيد رضا فى أثناء تصحيح طبع الـكتاب للمرتين الأولى والثانية .

أسرار البلاغة

في علم البيان

تأليف

الإمام عبد القاهر الجرجاني

وعلق حواشيه المرحوم

السيد الإمام محمد رشيد رضا

منشىء مجلة « المنار » الاسلامى بمصر

وحقوق الطبع محفوظة لورثته

الطبعة الثالثة فى سنة ١٣٥٨ ﻫ و ١٩٣٩ م

صححت على نسخة الأستاذ الامام التى قرأها دروسا فى الجامع الازهر وأودع فيها جل تعليقاته على حواشيها ووضع بجانبها حرف (ش) المقتطع من كلمة شيخنا

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

مقدمة

ناشر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمن علم القرآن * خلق الانسان علمه البيان * فله الحمد أن علم ، والشكر على ما أنعم ، ومنه الصلاة والتسليم ، على نبيه الرؤوف الرحيم ، الذى جاء بتوحيد اللغة والدين ، وجعل الكتاب والحكمة فى الأميين ، فكانوا بذلك أئمة وكانوا هم الوارثين

الانسان يمتاز بالعلم ، وانما العلم بالتعلم ، والتعلم باللغة ، واللغات تتفاضل فى حقيقتها وجوهرها بالبيان ، وهو تأدية المعانى التى تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب الى القبول وأدعى الى التأثير . وفى صورتها وأجراس كلمها بعذوبة النطق ، وسهولة اللفظ والالقاء ، والخفة على السمع . وان للغة العربية من هذه المميزات الميزان الراجح ، والجواد القارح ، يعرف ذلك من أخذها بحق ، وجرى فيها على عرق ، فكان من مفرداتها على علم ، وضرب فى أساليبها بسهم . ومن آية ذلك لغير العارف ، أن أولئك الشراذم والاوزاع من أهلها قد حملوها الى الأمم ، التى كان للغاتها فى العلوم قدم ، ولم يحملوهم عليها بالالزام ، ولا بالتعليم العام . وكان من أمرها مع هذا أن نسخت بطبيعتها لغة المصريين من مصرهم ، والرومانيين من شامهم ، واستعلت على الفارسية العذبة فى مهدها وموطنها ،

مدونة لسان العرب
http://lisaanularab.blogspot.com

وامتد شعاعها الى الأندلس فى غربى أوربة بعد ماطاف ساحل افريقا الشمالى ، والى جدار الصين من الشرق — كل ذلك فى زمن قريب لم يعرف فى التاريخ مثله للغة أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم ، وتعميمها بالتعليم العام ، وضروب الترغيب والترهيب .

كانت لغة أميين وثنيين جاهليين ، فظهر فيها أكمل الأديان ، فكانت له أكمل مظهر ، وتجلى لها العلم فكانت له خير مَجْلى . وصارت بذلك لغة الدين والشريعة ، وعلوم العقل والطبيعة ، ولكن عدت على أهلها عواد كونية ، وطرأت عليهم أمراض اجتماعية ، فضعف فيهم كل مقوّم من مقومات الأمم الحية . ومن تلك المقومات الحقيقية اللغة فقد فسدت ملكتها فى الألسنة ، والتوى طريق تعليمها فى المدارس ، حتى كادت تكون من اللغات الدوارس .

ظهر ضعف اللغة فى القرن الخامس ، وكانت فى ريعان شبابها ، وأوج عزها وشرفها ، وكان أول مرض ألم بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو ، ومدلول الألفاظ المفردة ، والجمل المركبة ، والانصراف عن معانى الأساليب ، ومغازى التراكيب ، وعدم الاحتفال بتصريف القول ومناحيه ، وضروب التجوز والكناية فيه — وهذا ما بعث عزيمة الشيخ عبد القاهر الجرجانى إمام علوم اللغة فى عصره الى تدوين علم البلاغة ، ووضع قوانين للمعانى والبيان ، كما وضعت قوانين النحو عند ظهور الخطأ فى الاعراب . فوضع هذا الكتاب فى البيان ، ومن فاتحته يتنسم القارىء أن دولة الألفاظ كانت قد تحكمت فى عصره ، واستبدت على المعانى ، وأنه يحاول بكتابه تأييد المعانى ونصرها ، وتعزيز جانبها وشد أسرها .

كتب قبل عبد القاهر فى مسائل من البيان بعض البلغاء كالجاحظ وابن دريد وقدامة الكاتب ، ولكنهم لم يبلغوا فيما بنوه أن جعلوه فناً مرفوع القواعد مفتح الأبواب كما فعل عبد القاهر من بعدهم ، فهو واضع علم البلاغة كما صرح به بعض علمائها ، وإن لم يذكر له هذه المنقبة المؤرخون الذين رأينا ترجمته فى كتبهم ، حتى ان ابن خلدون الذى تصدى دون القوم للالمام بتاريخ الفنون

أهمل ذكره ، وزعم أن الذى هذب الفن بعد أولئك الذين كتبوا فى مسائل متفرقة منه هو السكاكى وما كان السكاكى الا عيالا على عبد القاهر ، تلا تلوه ، وأخذ عنه ، مع المخالفة فى شيء من الترتيب والتبويب . ولكنه لم يسلم من التكلف فى بعض عبارته ، والتعقيد فى بعض منازعه فاذا جاز لنا أن نقول : انه فاق لتأخره بالترتيب المعلوم ، وبما حرره من الحدود والرسوم . فاننا لاننسى من فضل المتقدم سلامة عبارته ، وصفاء ديباجته ، وغوصه على أسرار الكلام ، ووضع دررها فى ابدع نظام .

كان السكاكى وسطا بين عبد القاهر الذى جمع فى البلاغة بين العلم والعمل وأضرابه من البلغاء العاملين ، وبين المتكلفين من المتأخرين الذين سلكوا بالبيان مسلك العلوم النظرية ، وفسروا اصطلاحاته كما يفسرون المفردات اللغوية ، ثم تنافسوا فى الاختصار والايجاز ، حتى صارت كتب البيان أشبه بالمعميات والألغاز ، فضاعت حدوده بتلك الحدود ، ودرست رسومه بهاتيك الرسوم ، وكان من أثر فساد ذوق اللغة اختيار هذه الكتب التى ملكت العجمة عليها أمرها ، على الكتب التى تهديك الى العلم الصحيح بمعانيها ، وتهدى اليك الذوق السليم بأساليبها ومناحيها ، فكادت كتب عبد القاهر تمحى وتنسخ ، وصارت حواشى السعد تطبع وتنسخ ، وهذا هو حظ العلم النافع اذا ألقى الى الأمة فى طور التدلى والضعف ، فمثل عبد القاهر فى أسرار بلاغته ودلائل إعجازه ، كمثل ابن خلدون فى مقدمته والسلطان سليمان العثمانى فى قوانينه .

ربّ غذاء طيب نافع عافته النفس لمرض ألمّ بها حتى اذا نقهت أو أبلّت اشتهته وطلبته . وهذا هو مثلنا أمس واليوم ، فقد كنا متفقين على أخذ العلم من كتب علمائنا المتأخرين كما يختار المريض الغذاء الضار ، فظهر فينا هداة مرشدون يسعون فى إحياء ما أماته الجهل من آثار سلفنا ومصنفات أئمتنا . ويدلوننا على العلم الحى الذى تفجر من ينابيع النفوس الحية ، لنفرق بينه وبين الرسوم الميتة التى سماها الجهل علما .

ولما هاجرت الى مصر فى سنة ١٣١٥ لانشاء (المنار) الاسلامى ألفيت

إمام النهضة الاسلامية الحديثة الأستاذ الحكيم الشيخ محمداً عبده رئيس جمعية إحياء العلوم العربية ومفتي الديار المصرية اليوم مشتغلا فى بعض وقته بتصحيح كتاب دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى . وقد استحضر نسخه من المدينة المنورة ومن بغداد ليقابلها على النسخة التى عنده ، فسألته عن كتاب (أسرار البلاغة) للامام المذكور فقال : انه لا يوجد فى هذه الديار . فأخبرته بأن فى أحد بيوت العلم فى طرابلس الشام نسخة منه ، فحثنى على استحضارها وطبعها فطلبتها من صديق الحميم العالم الأديب عبد القادر افندى المغربى ، وهى مما تركه له والده فلبى الطلب . وعلمنا أن نسخة أخرى من الكتاب فى إحدى دور الكتب السلطانية فى دار السلطنة السنية ، فندبنا بعض طلاب العلم الأذكياء لمقابلة نسختنا بتلك النسخة . فخرج لنا من مجموعهما نسخة صحيحة شرعنا فى طبعها ووضعنا فى ذيل المطبوع شرحاً لطيفاً ضبطنا فيه الكلمات الغريبة وفسرنا منها ومن جمل الكتاب ما رأيناه يستحق التفسير . وأشرنا الى الخلاف بين النسختين ، فيما يحتمل صحة الاثنتين .

أما كون عبد القاهر هو واضع الفن ومؤسسه . فقد صرح به غير واحد من العلماء الأعلام ، أجلهم قدراً وأرفعهم ذكراً ، أمير المؤمنين ، محي علوم اللغة والدين ، السيد يحيي بن حمزة الحسينى صاحب كتاب (الطراز ، فى علوم حقائق الاعجاز) فقد قال فى فاتحة كتابه هذا وهو من أحسن ما كتب فى البلاغة بعد عبد القاهر ما نصه :

« وأول من أسس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانينه ، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجانى ، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزاهره من أكامها ، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها ، فجزاه الله عن الاسلام أفضل الجزاء ، وجعل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب والاجزاء ، وله من المصنفات فيه كتابان أحدهما لقبه بدلائل الاعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة ، ولم أقف على شيء منهما . مع شغفى بحبهما وشدة إعجابي بهما ، الا ما نقله العلماء فى تعاليقهم منهما »

وأما مكانة هذا الكتاب وبيان مايمتاز به على كتب البيان فحسبي من بيانها عرضه على الأنظار مع التنبيه على مسئلتين نافعتين (إحداهما) أن العلم هو صورة المعلوم مأخوذة عنه بواسطة الادراك كما تؤخذ الصورة الشمسية بالآلة المعروفة فان كان المعنى المنتزع من الجزئيات قانوناً كلياً يرشد اليها فهو القاعدة وان كان صورة تناسبها وتقربها من الفهم فهو المثل . (والثانية) أن القاعدة الكلية هى صورة إجمالية للمعلومات الجزئية ، والأمثلة والشواهد صور تفصيلية لها . والتعليم النافع انما يكون بقرن الصور المفصلة بالصورة المجملة ، إذ بالتفصيل تعرف المسائل ، وبالاجمال تحفظ فى العقل . وبهذه الطريقة يجمع بين العلم والعمل الذى يثبت به العلم ، وهى طريقة عبدالقاهر فى كتابه هذا وكتاب دلائل الاعجاز ، على أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى كله من آيات البلاغة فهو يعطيك علمها بمعانيه ، وعملها بمبانيه ، وبهذه المميزات يفضل هذا الكتاب جميع مابين أيدينا من كتب الفن لأنها انما تقتصر على سرد القواعد والأحكام بعبارات اصطلاحية ، تنكرها بلاغة الأساليب العربية . ولا تذكر من الشواهد والأمثلة الا القليل النادر ، الذى أدلى به السابق الى اللاحق والأول الى الآخر .

لهذا بادر الأستاذ الامام ، مفتى الديار المصرية فى هذه الأعوام ، الى تدريس الكتاب فى الأزهر الشريف عقيب شروعنا فى طبعه فأقبل على حضور درسه مع أذكياء الطلاب كثيرون من العلماء والمدرسين وأساتذة المدارس الأميرية . وقد قال أحد فضلاء هؤلاء الأستاذين [1] بعد حضور الدرس الأول « اننا قد اكتشفنا فى هذه الليلة معنى علم البيان » .

وقد ظهر للأستاذ فى غضون التدريس والمطالعة أغلاط فى الكتاب بعضها من الطبع ، وبعضها من تحريف النساخ فى الأصل ، وأغلاط أخرى فى التعليقات فأحصيناها كلها من نسخته ، ووضعنا لها جدولا فى آخر الكتاب إتماما للفائدة .

(١) هو المرحوم الشيخ محمد مهدى بك مدرس البلاغة وآداب اللغة العربية فى المدارس العليا : دار العلوم فمدرسة القضاء الشرعى والجامعة المصرية

ومما يجب التنبيه عليه أن بعض تراجم فصول الكتاب هى من وضعنا فان المصنف رحمه الله تعالى كان يكتفى فى كثير منها بكلمة (فصل) .

ونختم هذه المقدمة بملخص ترجمة المصنف رحمه الله تعالى فنقول :

اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم والدين ولقبوه بالامام واشتهر بالنحوى من قبل أن يضع علم البلاغة . على أنه كان متكلما وفقيها أيضا ، قال الحافظ الذهبى فى تاريخه (دول الاسلام) . « وفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة مات إمام النحاة أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى صاحب التصانيف » وقال تاج الدين السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى « عبد القاهر بن عبد الرحمن الشيخ الكبير أبو بكر الجرجانى النحوى المتكلم على مذهب الأشعرى الفقيه على مذهب الشافعى أخذ النحو بجرجان عن أبى الحسين محمد بن الحسن الفارسى ابن أخت الشيخ أبى على الفارسى ، وصار الامام المشهور المقصود من جميع الجهات ، مع الدين المتين ، والورع والسكون . قال السلفى : كان ورعاً قانعاً دخل عليه لص وهو فى الصلاة فأخذ ماوجد وعبد القاهر ينظر ولم يقطع صلاته . (ثم قال السبكى) : ومن مصنفاته كتاب المغنى على شرح الايضاح فى نحو ثلاثين مجلداً وكتاب المقصد فى شرح الايضاح أيضا ثلاث مجلدات وكتاب إعجاز القرآن الصغير والعوامل المائة والمفتاح وشرح الفاتحة والعمدة فى التصريف وكتاب الجمل المختصر المشهور » .

وفى كتاب (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) نحو من ذلك وزاد فى ذكر المصنفات شرح كتاب الجمل . وذكر أن على بن أبى زيد الفصيحى أخذ عنه . وذكروا له شعراً فمنه ما أورده الصلاح الكتبى فى فوات الوفيات .

لا تأمن النفثة من شاعر   مادام حياً سالما ناطقا
فان من يمدحكم كاذباً   يحسن أن يهجوكم صادقا

واتفقوا على أنه توفى سنة ٤٧١ قال السبكى « وقيل ٤٧٤ » رحمه الله تعالى

محمد رشيد رضا
منشىء مجلة (المنار)

تنبيهات لقراء الطبعة الثانية

(١) نفدت نسخ الطبعة الأولى من أسرار البلاغة منذ بضعة عشرة سنة بعد أن صارت النسخة من الورق غير الجيد تباع بثلاثين قرشا صحيحا وكانت تباع بخمسة عشر ولم نوفق لاعادة طبعه الا فى هذه الأيام ، بعد إلحاح وزارة المعارف بطلبه فى كل عام .

(٢) كنا ذكرنا فى مقدمة الطبع أننا أحصينا ماصححه شيخنا الأستاذ الامام من الكتاب فى أثناء قراءته له فى الجامع الأزهر ووضعنا له جدولا فى آخر الكتاب ولكن لم يتم لنا هذا فى الطبعة الأولى كما كنا نؤمل عند ماطبعنا المقدمة . فاننا لم نجمع من تلك التصحيحات فى جدول الخطأ والصواب الا ما كان منها الى غاية صفحة ١٥٨ وهى أقل من النصف وانما تم لنا ذلك فى هذه الطبعة (الثانية) .

(٣) اننا زدنا على تصحيحات الأستاذ الامام فى هذه الطبعة ماعلقه على الكتاب من تفسيره لبعض غريبه ، أو ماغمض من عباراته ، وبعض مارأينا من الزيادة على ذلك من عندنا ، وبذلك زادت صفحات هذه على ما قبلها ٢١ صفحة وفى بعض زياداتنا استدراك فى بعض المواضع على شيخنا رحمه الله تعالى .

(٤) اننا الى الآن لم نعثر على نسخة مخطوطة من هذا الكتاب فالنسخة التى طبعناها بتصحيح شيخنا لها مع الاستعانة بامام اللغة وأدبياتها فى هذا العصر الشيخ محمد محمود الشنقيطى (رحمهما الله تعالى) — هى الأصل الصحيح الوحيد لهذا الكتاب — لهذا لم يتجرأ أحد على طبعه ولو غفلا من التعليق عليه لانه يحاكم فيحكم عليه .

(٥) ينبغى لقارىء هذا الكتاب وصنوه دلائل الاعجاز أن يتأمل حق التأمل ماانفرد به الامام عبد القاهر من جعله علوم البلاغة — البيان والمعانى والبديع — من قبيل العلوم الطبيعية كعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الفلسفة العقلية — لا مجرد مواضعات واصطلاحات — فانه يقيم فيها الدلائل ويسوق الحجج على كون البليغ من الكلام باشتماله على التشبيه والتمثيل والمجاز العقلى أو اللغوى من قواعد البيان ، أو بمراعاة نكت المعانى فى التعريف والتنكير والحصر والتأكيد والفصل والوصل وغير ذلك — انما كان بليغاً بذلك لأمور حقيقية فى عقول الناس وشعورهم وتأثير الكلام فى أنفسهم . ولم يسبقه بهذا التحقيق سابق ، ولم يلحقه فيه لاحق ، ولا يتم الانتفاع بكتابيه الا لمن يفقه ذلك منهما ويذوقه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله أجمعين .

اعلم أن الكلام هو الذى يعطى العلوم منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجنى صنوف ثمرها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها ، وبه أبان الله تعالى الانسان من سائر الحيوان ، ونبه فيه على عظم الامتنان ، فقال عز من قائل (الرحمن علم القرآن * خلق الانسان علمه البيان) فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ، ولاصح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية فى موجودها وفانيها ، نعم ولوقع الحىّ الحساس فى مرتبة الجماد ، ولكان الادراك كالذى ينافيه من الاضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعانى مسجونة فى مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة ، والأذهان عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان ، ولما ظهر فرق بين مدح وتزيين ، وذم وتهجين ، ثم إن الوصف الخاص

به ، والمعنى المثبت لنسبه ، انه يريك المعلومات بأوصافها التى وجدها العلم عليها ، ويقرر كيفياتها التى تناولها (١) المعرفة اذا سمت اليها

وإذا كان هذا الوصف مقوّمَ ذاته ، وأخصَّ صفاته ، كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر ، وبه أولى وأجدر ، ومن ههنا يبين للمحصل ، ويتقرر فى نفس المتأمل ، كيف ينبغى أن يحكم فى تفاضل الأقوال اذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ، ومن البين الجلى أن التباين فى هذه الفضيلة ، والتباعد عنها الى ماينافيها من الرذيلة ، ليس بمجرد اللفظ (٢) كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها الى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، فلو أنك عمدت الى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق ، وأبطلت نضده (٣) ونظامه الذى عليه بنى ، وفيه أفرغ المعنى وأجرى ، وغيرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد كما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد ، نحو أن تقول فى (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) « منزل قفا ذكرى من نبك حبيب » أخرجته من كمال البيان ، الى محال الهذيان ، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه ، بل أحلت أن يكون له إضافة الى قائل ، ونسب يختص بمتكلم ، وفى ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذى له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب ، هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة ، وهذا الحكم ــ أعنى الاختصاص فى

---

(١) أصله تتناولها وفى نسخة تناولتها

(٢) وفى نسخة الالفاظ

(٣) نضد المتاع نضدا بسكون الضاد من باب ضرب ضم بعضه الى بعض متسقا أو مركوما وقد أجراه فى تركيب الكلام تجوزا والنضد بالتحريك والنضيد الشىء المنضود

الترتيب ــ يقع فى الألفاظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل، ولن يتصور فى الالفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصيص فى ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل فى الجمل المركبة، وأقسام الكلام المدونة فقيل من حق هذا أن يسبق ذلك، ومن حكم ما هاهنا (١) أن يقع هنالك (٢) كما قيل فى المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل، حتى حظر فى جنس من الكلم بعينه أن يقع إلا سابقا، وفى آخر أن يوجد إلا مبنياً على غيره وبه لاحقاً، كقولنا إن الاستفهام له صدر الكلام، وإن الصفة لا تتقدم على الموصوف إلا أن تزال عن الوصفية ــ الى غيرها من الأحكام، فاذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً، أو يستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع الى أجراس الحروف (٣) والى ظاهر الوضع اللغوى، بل الى أمر يقع من المرء فى فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده.

وأما رجوع الاستحسان الى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه، وكونه من أسبابه ودواعيه، فلا يكاد يعدو نمطا واحداً، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم، ويتداولونه فى زمانهم، ولا يكون وحشياً غريباً، أو عامياً سخيفا: سخفه (٤) بازالته عن موضوع اللغة، وإخراجه عما فرضته من الحكم والصفة؛ كقول العامة «أشغلت» و «انفسد» وانما شرطت هذا الشرط فانه ربما استسخف اللفظ بأمر يرجع الى المعنى دون مجرد اللفظ كما يحكى من قول عبيد الله بن زياد لما

---

(١) فى نسخة هنا

(٢) وفى نسخة هناك

(٣) جمع جرس بكسر الجيم وبفتحها وهو الصوت أو الخفى منه

(٤) السخف بالضم مصدر كالسخافة وأكثر مايستعمل الاول فى رقة العقل وضعفه والجملة بيان للعامى السخيف

دهش «افتحوا لى سيفى» وذلك أن الفتح خلاف الاغلاق فحقه أن يتناول شيئا هو فى حكم المغلق والمسدود وليس السيف بمسدود؛ وأقصى أحواله أن يكون كونه فى الغمد بمنزلة كون الثوب فى العكم [١] والدرهم فى الكيس والمتاع فى الصندوق. والفتح فى هذا الجنس [٢] يتعدى أبداً الى الوعاء المسدود على الشيء الحاوى له لا الى مافيه فلا يقال: افتح الثوب، وإنما يقال افتح العكم وأخرج الثوب وافتح الكيس

وههنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة.. وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح فيها لايتعدى اللفظ والجرس، الى ما يناجى فيه العقل النفس، ولها إذا حقق النظر مرجع الى ذلك، ومنصرف فيما هنالك، منها التجنيس والحشو

***

أما التجنيس فانك لاتستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً، أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله:

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ... فيه الظنون أمَذهب أم مُذهبُ

واستحسنت تجنيس القائل «حتى نجا من خوفه وما نجا» [٣] وقول المحدث [٤]

ناظراه فيما جنى ناظراه ... أو دعانى أمت بما أودعانى

---

(١) العكم بالكسر كالعدل وزنا ومعنى. والمرادبالعدل هنا الغرارةوالجوالق. والعكم أيضا نمط تجعل المرأة فيه ذخيرتها

(٢) وفى نسخة المعنى

(٣) نجا الاولى بمعنى أحدث والثانية بمعنى خلص

(٤) هو أبو الفتح البستى وقبله:

قيل للقلب مادهاك أجبنى ... قال لى بائع الفرانى فرانى

ـ لامر [١] يرجع الى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كانه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كانه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس ـ وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة ـ من حلى الشعر ومذكوراً فى أقسام البديع ،

فقد تبين لك أن مايعطى التجنيسُ من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى اذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به . وذلك أن المعانى لاتدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس اليه إذ الألفاظ خَدَمُ المعانى والمصرَّفة فى حكمها ، وكانت المعاني هى المالكة سياستها ، المستحقه طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشىء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين ، ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجية الطبع ، أمكن فى العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوى التحصيل ، وأسلم من التفاوت [٢] وأكشف عن الأغراض ، وأنصر للجهة التى تنحو نحو العقل ، وأبعد من التعمد [٣] الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق ، والرضى بأن تقع النقيصة فى نفس الصورة وذات الخلقة

(١) متعلق بقوله أتراك استضعفت .. واستحسنت ..

(٢) التفاوت التباعد والاختلاف

(٣) التعمد التصنع

اذا أكثر فيها من الوشم والنقش ، وأثقل صاحبها بالحلى والوشى ، قياس الحلى على السيف الدّدان [١] والتوسع فى الدعوى بغير برهان ، كما قال :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها[٢] وأعضائها فالحسن عنك مغيَّب

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع الى ماله اسم فى البديع الى أن ينسى أنه يتكلم ليُفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل اليه أنه اذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ماعناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس [٣] بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها . فان أردت أن تعرف مثالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، وإلا حيث يأمنون جناية منه عليه ، وانتقاصا له وتعويقا دونه ، فانظر الى خطب الجاحظ فى أوائل كتبه ، هذا ـ والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والاسجاع فانها تروى وتتناقل تناقل الأشعار ، ومحلها محل النسيب والتشبيب [٤] من الشعر الذى هو كأنه لا يراد منه إلا الاحتفال فى الصنعة ،

---

(١) فى نسخة بالسيف والددان بالفتح الكايل فهو كالكهام وزنا ومعنى، ويطلق على ضده وهو القطاع

(٢) الشيات جمع شية كعدة وعدات وهى كل لون فى الشىء يخالف معظم لونه الاصلى وهو من الوشى والكلام فى الخيل وقبله:

وما الخيل الا كالصديق قليلة وان كثرت فى عين من لا يجرب

(٣) وفى نسخة على العروس

(٤) نسب بالمرأة كنصر وضرب : وصف محاسنها بالشعر . والنسيب والتشبيب بالنساء واحد

والدلالة على مقدار شوط القريحة [1] والاخبار عن فضل القوة والاقتدار على التفنن فى الصفة . قال فى أول كتاب الحيوان :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سببا ، وبين الصدق نسباً ، وحبب اليك التثبت ، وزين فى عينك الانصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس وعرفك مافى الباطل من الزلة ، ومافى الجهل من القلة »

فقد ترك أولا أن يوفق بين الشبهة والحيرة فى الاعراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف الى الانصاف ، ويشفع الحق بالصدق ولم يعن بأن يطلب لليأس قرينة تصل جناحه ، وشيئا يكون رديفاً له ، لأنه رأى التوفيق بين المعانى أحق ، والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى تكون اخوة من أب وأم ، ويذرها على ذلك تتفق بالوداد ؛ على حسب اتفاقها بالميلاد ، أولى من أن يدعها لنصرة السجع ، وطلب الوزن ، أولاد عَلة عسى أن لايوجد بينها وفاق إلا فى الظواهر ، فاما أن يتعدى ذلك الى الضمائر ، ويخلص الى العقائد والسرائر ، ففى الأقل النادر .

وعلى الجملة فانك لاتجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لاتبتغى به بدلا ، ولاتجد عنه حولا ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه . ماوقع من غير قصد من المتكلم الى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ماهو لحسن ملاءمته - وإن كان مطلوباً - بهذه المنزلة وفى هذه الصورة . وذلك كما يمثلون به أبداً من قول

(١) الشوط: هو الجرى مرة واحدة الى غاية

الشافعي رحمه الله تعالى وقد سئل عن النبيذ فقال «أجمع أهل الحرمين على تحريمه» ومما تجده كذلك قول البحتري :

يمشَى عن المجد الغبيُّ ولن ترى　　في سؤدد أرباً لغير أريب

وقوله :

فقد أصبحت أغلب تغلبياً　　على أيدى العشيرة والقلوب

ومما هو شبيه به قوله :

وهوًى هوى بدموعه فتبادرت　　نسقا يطأن تجلداً مغلوبا

وقوله :

مازلت تقرع باب بابل بالقنا　　وتزوره في غارة شعواء

وقوله :

ذهب الأعالى حيث تذهب مقلة　　فيه بناظرها حديد الأسفل(١)

ومثال ما جاء من السجع هذا المجيء وجرى هذا المجرى في لين مقادته ، وحل

---

(١) البيت في وصف الفرس وقبله

جذلان ينقض عذرة في غرة　　يقق تسيل حجوله في جندل

كالرائح النشوان أكثر مشيه　　عرضا على السنن البعيد الاطول

العرض بالضم مشى محمود في الخيل مذموم في الابل والعذرة علامة تعلق على ناصية الفرس وينقضها يحل فتاها من نشاطه وخفة حركته . هذا ما كتبته في حاشية الطبعة الاولى ولكن الشنقيطي كتب الى الاستاذ الامام أن الرواية الصحيحة ينفض بالفاء فالمناسب إذاً أن يراد بالعذرة شعر الناصية وإن كان فيها خلاف فقد قيل هى شعر الكاهل أو شعرات في القفا . والنفض تحريك خاص للشيء يراد به خروج الغبار منه شبه كثرة تحريك الفرس لغرته بتحريك رأسه

هذا المحل من القبول قول القائل : اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجداً ، فلا مجد الا بفعال (١) ولا فعال الا بمال . وقول ابن العميد : فان الابقاء على خدم السلطان عِدل الابقاء على ماله ، والاشفاق على حاشيته وحشمه ، عدل الاشفاق على ديناره ودرهمه.

ولست تجد هذا الضرب يكثر فى شيء ويستمر كثرته واستمراره فى كلام القدماء كقول خالد : ماالانسان لولا اللسان الا صورة ممثلة ، وبهيمة مهملة . وقول الفضل ابن عيسى الرَّقَاشى : سل الأرض فقل من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فان لم تجبك حِوارا ، أجابتك اعتباراً . وان أنت تتبعته من الأثر وكلام النبى صلى الله عليه وسلم تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التى قدمت ، وذلك كقول النبى عليه السلام « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله صلوات الله عليه « لاتزال أمتى بخير مالم تر الغنى مغنما ، والصدقة مغرما » وقوله « ياأيها الناس أفشوا السلام ، واطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » فأنت لاتجد فى جميع ماذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع ، وترك لهماهو أحق بالمعنى منه وأبرُّ به ، وأهدى الى مذهبه ، ولذلك أنكر الاعرابى حين شكا الى عامل ألما بقوله « حَلَّأت ركابى (٢) وشققت ثيابى ، وضربت صحابى . فقال له العامل ! ويسجع أيضا » إنكارَ (٣) العامل السجع ، حتى قال : فكيف أقول ؟ وذلك انه لم يعلم

(١) الفعال بالفتح: الكرم ويؤيده مابعده

(٢) الركاب بالكسر المطىّ واحدتها راحلة من غير لفظها ، وأما الركوبة بالفتح فهى الناقة التى تركب كذا فى أصل اللغة ثم استعيرت لكل مايركب . وحلأت الركاب بالتخفيف والتشديد: منعتها ورود الماء

(٣) إنكار مفعول لانكر الاعرابى

أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخلاً بمعنى ،أو محدثا فى الكلام استكراها ، أو خارجا الى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه . وقال الجاحظ: لانه لو قال حلأت إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعرانى أو صرمتى[١] لكان لم يعبر عن خفى معناه ، وانما حلئت ركابه فكيف يدع الركاب الى غير الركاب . وكذلك قوله : وشققت ثيابى وضربت صحابى .

فقد تبين من هذه الجملة ان المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع بل قاده المعنى اليهما ، وعبر به الفرق عليهما[٢] حتى انه لو رام تركهما الى خلافهما مما لاتجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه فى شبيه بما ينسب اليه المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر .

ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولا وآخراً ، وأهدى الى الاحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ . فانها اذا تركت وما تريد لم تكتس الا مايليق بها ، ولم تلبس من المعارض الا مايزينها[٣] فاما أن تضع فى نفسك انه لابد من ان تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض[٤] الاستكراه ؛ وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم ، فان ساعدك الجدّ كما ساعد فى قوله « أودعانى أمت بما أودعانى » وكما ساعد أبا تمام فى نحو قوله :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

(١) الصرمة بالكسر: القطعة من الابل بين ٣٠ الى ٤٠ أو ٥٠ أو من ١٠ الى ٤٠
(٢) الفرق بالفتح : الفصل بين الشيئين ومن معانيه بالكسر الموجة
(٣) المعارض جمع معرض كمنبر ثوب تجلى فيه الجارية ليلة العرس
(٤) نظر اليه عن عرض وعرض أى عن جانب . والعرض الجانب والناحية اهـ ش

وقوله :

هنَّ الحمام فان كسرت عيافة (١) من حائهن فانهن حِمام

فذاك . والا أطلقت ألسنة العيب ، وأفضى بك طلب الاحسان من حيث لم يحسن الطلب ، الى أفحش الاساءة وأكبر الذنب ، ووقعت فيما ترى من ينصرك لايرى أحسن من أن لايرويه لك ، ويود لو قدر على نفيه عنك ، وذلك كما تجده لأبى تمام اذ أسلم نفسه للتكلف ، ويرى أنه ان مر على اسم موضع يحتاج الى ذكره ، أو يتصل بقصة يذكرها فى شعره ، من دون أن يشتق منه تجنيساً ، أو يعمل فيه بديعا ، فقد باء بإثم ، وأخل بفرض حتم ، من نحو قوله :

سيف الأنام الذى سمته هيبته لما تخرم أهل الأرض مخترما

ان الخليفة لما صال كنت له خليفة الموت فيمن جار أوظلما

قرت بقرّان عين الدين واشتترت (٢) بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

وكقول بعض المتأخرين :

البس جلابيب القنا عة أنها أوقى رداء

ينجيك من داء الحر ص معاً ومن أوقار داء (٣)

(١) عفت الطير أعيفها عيافة زجرتها وهو أن تعتبر بأسمائها وما يقرب أو يشتق منها أو يحرف اليها وبمساقطها وأصواتها فتتفاءل أو تتشاءم ، والحمام بالكسر الموت

(٢) الشتر انقلاب الجفن من أعلى وأسفل واسترخاؤه. وقران بالضم وتشديد الراء والاشتران مواضع والجناس فى البيت يسمونه المطلق .

(٣) قوله أو قارداء : الأوقار فيه جمع وقر بالفتح وهو الحمل الثقيل أى أثقال داء والجناس فى قافية البيتين يسمونه المركب وتركيبه فى الطرفين .

وكقول أبي الفتح البستى :

جفوا فمافى طينهم للذى يعصره من بلة بالله

وقوله : أخ لى لفظه در وكل فعاله بر

تلقاني فحياني بوجه بَشره بِشر (١)

لم يساعدها حسن التوفيق كما ساعد فى نحو قوله :

وكل غنى يتيه به غنى فرتجع بموت أو زوال

وهب جدى طوى لى الأرض طراً أليس الموت يزوى مازوى لى

ونحوه : منزلتى تحفظ من ذلتى وباحتى تكرم ديباجتى (٢)

واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس وجعلتها العلة فى استيجابه الفضيلة وهى حسن الافادة ، مع أن الصورة صورة التكرير والاعادة ، وان كانت لا تظهر الظهور التام الذى لا يمكن دفعه الا فى المستوفى المتفق الصورة منه كقوله :

مامات من كرم الزمان فانه يحيا لدى يحيي بن عبد الله

أو المرفوّ الجارى هذا المجرى كقوله « أو دعانى أمت بما أو دعانى » فقد (٣) يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضا . فما يظهر ذاك فيه ما كان نحو قول أبي تمام :

(١) البشر بالتحريك جمع بشرة وهى ظاهر الجلد وسكن الشين للضرورة .

(٢) الباحة بالمهملة : الساحة والنخل الكثير ، وقال شيخنا فى الجناس انه شيء من المصحف المطرّف . وأظن أن الباجة بالجيم وهى الطريقة المستوية ، أو كناية عن الضيافة من قولهم اجعل البأجات واحدة ، أى ألوان الطعام . وهو معرب وأصله الهمز ويترك . وكل من المعنى والجناس فيه أظهر .

(٣) جواب وان كانت أى النكتة لا تظهر الخ

يعدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب [١]

وقول البحترى :

لئن صدفت عنا فربّتَ أنفسٍ صوادٍ الى تلك الوجوه الصوادف

وذلك انك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم والباء من قواضب أنها هى التى مضت وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود اليك مؤكدة ، حتى اذا تمكن فى نفسك تمامها ؛ ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ، وفى ذلك ماذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال .

فأما مايقع التجانس فيه على العكس من هذا [٢] وذلك أن تختلف الكلمات من أولها كقول البحترى :

بسيوف إيماضها أوجال للأعادى ووقعها آجال

وكذا قول المتأخر [٣]

وكم سبقت منه الىَّ عوارف ثنائى من تلك العوارف وارف

وكم غرر من بره ولطائف لشكرى [٤] على تلك اللطائف طائف

وذلك أن زيادة عوارف على وارف بحرف اختلاف من مبدإ الكلمة فى الجملة فانه [٥] لايبعد كل البعد عن اعتراض طرف من هذا التخيل فيه [٦] وان كان لايقوى تلك القوة كأنك ترى أن اللفظة أعيدت

(١) الجناس فى كل من المصراعين من المطرف الناقص

(٢) أى المطرف الناقص

(٣) ذكر بعضهم انه هو المصنف وهو خطأ وكتبه شيخنا

(٤) وفى معاهد التنصيص : فشكرى

(٥) جواب فاما

(٦) وفى نسخة التخييل

عليك مبدلا من بعض حروفها غيره أو محذوفا منها . ويبقى فى تتبع هذا الموضع كلام حقه غير هذا الفصل وذلك حيث يوضع .

فصل

فى قسمة التجنيس وتنويعه

فالذى يجب عليه الاعتماد فى هذا الفن أن التوهم على ضربين ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقاداً ، وضرب لايبلغ ذلك المبلغ ولكنه شيء يجرى فى الخاطر ، وأنت تعرف ذلك وتتصور وزنه اذا نظرت الى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشبه التام ، والشيئين يشبه أحدهما بالآخر على ضرب من التقريب فاعرفه .

* * *

وأما الحشو فإنما كره وذم ، وانكر ورد ، لأنه خلا من الفائدة ، ولم يحل [١] منه بعائدة ولو أفاد لم يكن حشواً ولم يُدعَ لغواً ، وقد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعاً من القبول أحسن موقع ، ومدركا من الرضى أجزل حظ ، ذلك لافادته إياك على مجيئه مجيء مالا يعول فى الافادة عليه ، ولا طائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترقبها ، والنافعة أتتك ولم تحتسبها ، وربما رزق الطفيلى ظرفاً يحظى به حتى يحل محل الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم ، والأحباب الذين وثق بالأنس منهم وبهم .

* * *

وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبه أن الحسن

(١) هو من حلى — كرضى — بمعنى تزين

والقبح لايعترض الكلام بهما الا من جهة المعانى خاصة من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك نصيب ، أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب .

أما الاستعارة فهى ضرب من التشبيه ، ونمط من التمثيل ، والتشبيه قياس ، والقياس يجرى فيما تعيه القلوب ، وتدركه العقول ، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والآذان.

وأما التطبيق فأمره أبين ، وكونه معنوياً أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشيء بضده ، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال ، وليس لأحكام المقابلة ثم مجال ، فخذ اليك الآن بيت الفرزدق الذى يضرب به المثل فى تعسف اللفظ .

وما مثله فى الناس الا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

فانظر أتتصور أن يكون ذلك للفظه من حيث انك أنكرت شيئا من حروفه ، أو صادفت وحشيا غريبا ، أو سوقيا ضعيفا ؟ أم ليس الا لأنه لم يرتب الألفاظ فى الذكر ، على موجب ترتيب المعانى فى الفكر ، فكد وكدر ، ومنع السامع أن يفهم الغرض الا بأن يقدم ويؤخر ، ثم أسرف فى إبطال النظام ، وإبعاد المرام ، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة ولكن بعد أن يراجع فيها باباً من الهندسة ، لفرط ماعادى بين أشكالها ، وشدة ماخالف بين أوضاعها .

واذا وجدت ذلك أمراً بيناً لا يعارضك فيه شك ، ولا يملكك معه امتراء ، فانظر الى الأشعار التى أثنوا عليها من جهة الألفاظ ، ووصفوها بالسلاسة ، ونسبوها الى الدماثة ، وقالوا كأنها الماء جريانا ، والهواء لطفا ،

والرياض حسناً ، وكأنها النسيم ، وكأنها الرحيق مزاجها التسنيم ، وكأنها الديباج الخسرواني في مرامي الأبصار ، ووشي اليمن منشوراً على أذرع التجار ، كقوله :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

ثم راجع فكرتك ، واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجوز في الرأي ، ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفا الا الى استعارة وقعت موقعها ، وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى الى القلب ، مع وصول اللفظ الى السمع ، واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن ، والا الى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد ، والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد ، وشيء (١) داخل المعاني المقصودة مداخلة الطفيلي الذي يستثقل مكانه ، والأجنبي الذي يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذي يفتقر معه السامع الى تطلب زيادة بقيت في نفس المتكلم فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها ، واعتمد دليل حال غير مفصح ، أو نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح ، وذلك ان أول مايتلقاك من محاسن هذا الشعر انه قال * ولما قضينا من منى كل حاجة * فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ وهو طريقة العموم . ثم نبه بقوله * ومسح بالأركان من هو ماسح * على طواف الوداع الذي

(١) معطوف على الحشو غير المفيد

هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ، ثم قال * أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا * فوصل بذكر مسح الأركان ، ما وليه من زم الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول وشجون الحديث ، أوما هو عادة المتظرفين من الاشارة والتلويح والرمز والايماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الاياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والاخوان ، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه ، فصرح أولا بما أومأ اليه فى الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفى حال التوجه الى المنازل ، وأخبر بعد بسرعة السير ، ووطأة الظهر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبله لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك فى نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً . ثم قال « بأعناق المطى » ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً فى أعناقها ، ويبين أمرهما من هواديها وصدورها ، وسائر أجزائها تستند اليها فى الحركة ، وتتبعها فى الثقل والخفة . ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا فى أنفسها بأفاعيل لها خاصة فى العنق والرأس . ويدل عليهما بشمائل مخصوصة فى المقاديم . فقل الآن هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها ، حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظه ولو ذكرت على الانفراد

وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه ، وحتى تكون فى ذلك كالجوهرة التى هى ــ وإن ازدادت حسنا بمصاحبة أخواتها . واكتسترونقاً بضامة أترابها ــ فانها اذا جليت للعين فردة ، وتركت فى الخيط فذة ، لم تعدم الفضيلة الذاتية ، والبهجة التى فى ذاتها مطوية ، والشذرة من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها فى القلادة ، واكتنافها لهـا فى عنق الغادة ، وصلتها بريق حمرتها ، والتهاب جوهرها . بأنوار تلك الدرر التى تجاورها ، ولألاء اللآلىء التى تناظرها ، تزداد جمالا فى العين ، ولطف موقع من حقيقة الزين . ثم هى إن حرمت صحبة تلك العقائل وفرق الدهر الخئون بينها وبين هاتيك النفائس .لم تعر من بهجتها الأصلية ، ولم تذهب عنها فضيلة الذهبية ، كذا [1] ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ ، وإن كان لا يبعد أن يتخيله من لاينعم النظر ، ولا يتم التدبر ، بل حق هذا المثل أن يوضع فى نصرة بعض المعانى [2] الحكمية والتشبيهية بعضاً وازدياد الحسن منها بأن يجامع شكل منها شكلا وأن يصل الذكر بين متدانيات فى ولادة العقول إياها ، ومتجاورات فى تنزيل الافهام لها .

واعلم أن هـذه الفصول التى قدمتهـا وان كانت قضايا لا يكاد يخالف فيهـا من به طرق [3] فانه قد يذكر الأمر المتفق عليـه ، ليبنى عليه المختلف فيه ، هـذا ورب وفاق من موافق قد بقيت عليه زيادات أغفل النظر فيهـا ، وضروب من التخليص والتهذيب لم يبحث عن أوائلها وثوانيهـا ، وطريقة

(١) ــ كلا أو مثل ماذكرت لك سابقا اه (ش)

(٢) أى فالحسن دائما راجع الى المعانى اه (ش)

(٣) ــ الطرق بالفتح ضعف العقل ومن معانيه بالكسر القوة وهو المراد

فى العبارة عن المغزى فى تلك الموافقة لم يمهدها ، ودقيقة فى الكشف عن الحجة على مخالف — لو عرض من المتكلفين — لم يجدها ، حتى تراه يطلق فى عرض كلامه مابرز منه وفاقا فى معرض خلاف ، ويعطيك انكاراً وقد هم باعتراف ، ورب صديق والاك قلبه وعاداك فعله ، فتركك مكدوداً لا تشتفى من دائك بعلاج ، وتبقى منه فى سوء مزاج .

﴿ المقصـــــد ﴾

واعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته ، والأساس الذى وضعت (١) أن أتوصل الى بيـان أمر المعانى كيف تتفق وتختلف (٢) ومن أين تجتمع وتفترق ، وأفصل أجناسها وأنواعها ، وأتتبع خاصها ومشاعها ، وأبين أحوالهـا فى كرم منصبها من العقل ، وتمكنها فى نصابه ، وقرب رحمها منه ، أوبعدها حين تنسب عنه وكونها كالحليف الجارى مجرى النسب ، أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه ، ولا يمتعضون له ولا يذبون دونه . وان من الكلام ما هو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الابريز الذى تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات وجل المعول فى شرفه على ذاته ، وان كان التصوير قد يزيد فى قيمته ويرفع فى قدره . ومنه ماهو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها — ما دامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض ، وأثر الصنعة باقيا معهـا لم يبطل — قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو ،

(١) هذا نص من المصنف بأنه هو الواضع لهذا الفن ، وهو مالم ينكره عليه أحد

(٢) لو أخر تتفق لجاءت السجعة مقفاة مع تفترق فيما بعدها ولكنه راعى المعنى دون اللفظ على قاعدته

وللرغبة اليها انصباب ، وللنفوس بها اعجاب ، حتى اذا خانت الأيام فيها أصحابها ، وضامت الحادثات أربابها ، وفجعتهم فيها بما يسلب حسنها المكتسب بالصنعة ، وجمالها المستفاد من طريق العرض فم يبق الا المادة العارية من التصوير ، والطينة الخالية من التشكيل ، سقطت قيمتها ، وانحطت رتبتها ، وعادت الرغبات التي كانت فيها زهداً ، وأوسعتها عيون كانت تطمح اليها إعراضاً دونها وصداً ، وصارت كمن أحظاه الجد (١) بغير فضل كان يرجع اليه في نفسه ، وقدمه البخت من غير معنى يقضي بتقدمه ، ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته ، وتنبه لغلطته ، فأعاده الى دقة أصله ، وقلة فضله ، وهذا غرض لاينال على وجهه ، وطلبة لا تدرك كما ينبغي ، إلا بعد مقدمات تقدم وأصول تمهد ، وأشياء هي كالأدوات فيه حقها أن تجمع ، وضروب من القول هي كالمسافات دونه يجب أن يسار فيها بالفكر وتقطع

وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه ، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة . فان هذه أصول كثيرة كان جل محاسن الكلام ان لم نقل كلها متفرعة عنها وراجعة اليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها ، وأقطار تحيط بها من جهاتها . ولا مثل قولهم « الفكرة فخ العمل » وقوله * وعُرِّي أفراس الصبا ورواحله * وقوله « السفر ميزان القوم » وقول الاعرابي « كانوا اذا اصطفوا سفرت بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف قفز الحمام » والتمثيل كقوله * فانك كالليل الذي هو مدركي * ويؤتى بأمثلة اذا حُقق النظر في الأشياء يجمعها الاسم الأعم ، وينفرد كل منها بخاصة من لم يقف (٢) عليها كان قصير الهمة في طلب

(١) في تاج العروس . أحظيت فلانا على فلان فضلته عليه (ش) والجد بالفتح الحظ والبخت

(٢) جملة من لم يقف عليها في محل خفض صفة خاصة

الحقائق ، ضعيف المنة فى البحث عن الدقائق (١) قليل التوق الى معرفة اللطائف . يرضى بالجمْل والظواهر (٢) ويرى أن لا يطيل سفر الخاطر ، ولعمرى ان ذلك أروح للنفس ، وأقل للشغل ، الا ان من طلب الراحة مايعقب تعبا ، ومن اختيار ماتقل معه الكلفة ، مايفضى الى أشد الكلفة ، وذلك أن الأمور التى تلتقى عند الجملة وتتباين لدى التفصيل ، وتجتمع فى وحدة ثم يذهب بها التشعب ويقسمها قبيلا بعد قبيل ، اذا لم تعرف حقيقة الحال فى تلاقيها حيث التقت ، وافتراقها حيث افترقت ، كان قياس من يحكم فيها اذا توسط الأمر (٣) قياس من أراد الحكم بين رجلين فى شرفهما وكرم أصلهما ، وذهاب عرقهما فى الفضل ، ليعلم أيهما أقعد فى السؤدد وأحق بالفخر ، وأرسخ فى أرومة المجد (٤) ، وهو لا يعرف من نسبتهما أكثر من ولادة الأب الأعلى والجد الأكبر لجواز أن يكون واحد منهما قرشياً أو تميمياً ، فيكون فى العجز عن أن يبرم قضية فى معناها ؛ ويبين فضلا أو نقصاً فى منتماهما ، فى حكم من لايعلم أكثر من أن كل واحد منهما آدمىّ ذكر ، أو خلق مصور

واعلم أن الذى يوجبه ظاهر الأمر ، وما يسبق اليه الفكر ، أن نبدأ بجملة من القول فى الحقيقة والمجاز ، ونتبع ذلك القول فى التشبيه والتمثيل ؛ ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما ، ونأتى بها فى أثرهما ، وذلك أن المجاز

(١) المنة بالضم القوة

(٢) ـ الجمل بالفتح الجمع

(٣) وسطهم وتوسطهم جلس وسطهم

(٤) ـ أرومة المجد أصله (ش) وهو مجاز والارومة بفتح الهمزة وضمها أصل الشجرة

أعم من الاستعارة ، والواجب فى قضايا المراتب أن نبدأ بالعام قبل الخاص والتشبيه كالأصل فى الاستعارة وهى شبيه بالفرع له أو صورة مقتضية من صوره . إلا أن ههنا أموراً اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة وبيان صدر منها ، والتنبيه على طريق الانقسام فيها ، حتى اذا عرف بعض ما يكشف عن حالها ، ويقف على سعة مجالها ، عطف عنان الشرح الى الفصلين الآخرين فوفى حقوقهما ، وبين فروقهما ، ثم ننصرف الى استقصاء القول فى الاستعارة

﴿ تعريف الاستعارة ﴾

اعلم أن الاستعارة فى الجملة أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل وينقله اليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية

﴿ تقسيم الاستعارة ﴾

ثم إنها تنقسم أولا قسمين أحدهما أن لا يكون لنقله فائدة والثانى أن يكون له فائدة . وأنا أبدأ بذكر غير المفيد فانه قصير الباع ، قليل الاتساع ، ثم أتكلم على المفيد الذى هو المقصود . وموضع هذا الذى لا يفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع فى أوضاع اللغة والتنوق (١) فى مراعاة دقائق فى الفروق فى المعانى

(١) التنوق فى الامر التأنق فيه والاسم منه النيقة وفى المثل «خرقاء ذات نيقة» يضرب للجاهل بالامر ومع جهله يدعى المعرفة ويتأنق فى الارادة

المدلول عليها ، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع الشفة للانسان والمشفر للبعير والجحفلة للفرس وما شاكل ذلك من فروق ربما وجدت فى غير لغة العرب وربما لم توجد ، فاذا استعمل الشاعر شيئا منها فى غير الجنس الذى وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه ، كقول العجاج « وفاحماً ومَرْسِناً مُسَرَّجا » يعنى أنفا برق كالسراج . والمرسن فى الأصل للحيوان لأنه الموضع الذى يقع عليه الرسن . وقال الآخر يصف إبلا :

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريدها وبين الجحفل [1]

وقال آخر : * والحشو من حَفَّانها كالحنظل * [2] فأجرى الحفان على صغار الابل وهو موضوع لصغار النعام . وقال آخر :

فبتنا جلوساً لدى مهرنا ننزع من شفتيه الصفارا [3]

فاستعمل الشفة فى الفرس وهى موضوعة للانسان . فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا لو لزمت [4] الأصلى لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله : من شفتيه ، وقوله : من جحفلتيه ، لو قاله . إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب . بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك جزءاً من الفائدة أشبه . وذلك أن الاسم فى هذا النحو اذا نفيت عن نفسك دخول

---

(١) المسحل كمنبر بالحاء حمار الوحش له حشرجة يشبهون بها كثيرا وهو من سحل سحيلا وسحالا . ومن المجاز خطيب مسحل ولسان مسحل ، جعل كالمبرد كما فى الأساس . والمسحل آلة السحل أى النحت والسحق والقشر والبرد ومنه المبرد

(٢) الحشو صغار الابل ورذال الناس

(٣) الصفار بالضم القراد وما بقى فى أصول أسنان الدابة من تبن ونحوه وهو المراد هنا

(٤) جملة لو لزمت فى محل نصب صفة شيئا

الاشتراك عليه بالاستعارة دل ذكره على العضو وما هو منه . فاذا قلت الشفة دلت على الانسان أعنى تدل على أنك قصدت هذا العضو من الانسان دون غيره . فاذا توهمت جرى الاستعارة فى الاسم زالت عنها هذه الدلالة بانقلاب اختصاصها الى الاشتراك . فاذا قلت الشفة فى موضع قد جرى فيه ذكر الانسان والفرس دخل على السامع بعض الشبهة لتجويزه أن تكون استعرت الاسم للفرس . ولو فرضنا أن تعدم هذه الاستعارة من أصلها وتحظر لما كان لهذه الشبه طريق على المخاطب فاعرفه

***

وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعانى وغرض من الأغراض لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك ، وجملة تلك الفائدة وذلك الغرض التشبيه الا أن طرقه تختلف حتى تفوت النهاية ، ومذاهبه تتشعب حتى لاغاية ، ولا يمكن الانفصال منه الا بفصول جمة [1] وقسمة بعد قسمة . وأنا أرى أن أقتصر الآن على اشارة تعرّف صورته على الجملة بقدر ماأراه وقد قابل خلافه الذى هو غير المفيد فيتم تصورك للغرض والمراد ، فان الأشياء تزداد بيانا بالأضداد ، ومثاله قولنا : رأيت أسداً — وأنت تعنى رجلا شجاعاً ، وبحراً — تريد رجلا جواداً ، وبدراً وشمساً — تريد انسانا مضيء الوجه متهللا ، وسللت سيفا على العدو — تريد رجلا ماضياً فى نصرتك أو رأياً نافذاً ، وما شا كل ذلك . فقد استعرت اسم الاسد للرجل ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة مالولاها لم يحصل لك وهو المبالغة فى وصف المقصود بالشجاعة وايقاعك منه فى نفس السامع صورة الاسد فى بطشه واقدامه وبأسه

(١) وفى نسخة الاتصاف بدل الانفصال

وشدته ، وسائر المعانى المركوزة فى طبيعته ، مما يعود الى الجرأة ، وهكذا أفدت باستعارة البحر سعته فى الجود وفيض الكف ، وبالشمس والبدر مالها من الجمال والبهاء والحسن المالى للعيون والباهر للنواظر .

وإذ قد عرفت المثال فى كون الاستعارة مفيدة على الجملة وتبين لك مخالفة هذا الضرب للضرب الأول الذى هو غير المفيد فانى أذكر بقية قول مما يتعلق به أعنى بغير المفيد ثم اعطف على أقسام المفيد وأنواعه وما يتصل به ويدخل فى جملة من فنون القول بتوفيق الله عز وجل واسأله عز اسمه المعونة ، وأبرأ اليه من الحول والقوة ، وأرغب اليه فى أن يجعل كل ماينصرف فيه منصرفا الى مايتصل برضاه[١] ومصروفاً عما يؤدى الى سخطه .

اعلم أنه اذا ثبت أن اختصاص المرسن بغير الآدمى لايفيد أكثر مما يفيده الأنف فى الآدمى وهو فصل هذا العضو من غيره ، ولم يكن باستعارته للآدمى مفيداً مالا يفيد بالأنف ، لم يتصور[٢] أن يكون استعارة من جهة المعنى . واذا كان مدار أمره على اللفظ لم يتصور أن يكون فى غير لغة العرب ، بلى ان وجد فى لغة الفرس مراعاة نحو هذه الفروق ثم نقلوا الشيء من الجنس المخصوص به الى جنس آخر كانوا قد سلكوا فى لغتهم مسلك العرب فى لغتها ؛ وليس كذلك المفيد فان الكثير منه تراه فى عداد ما يشترك فيه أجيال الناس ويجرى به العرف فى جميع اللغات فقولك رأيت أسداً — تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة — أمر يستوى فيه العربى والعجمى ، وتجده فى كل جيل ، وتسمعه

(١) وفى نسخة الى مايرضاه

(٢) قوله لم يتصور جواب اذا ثبت

من كل قبيل ، كما أن قولنا زيد كالأسد على التصريح بالتشبيه كذلك ، فلا يمكن أن يدعى أننا اذا استعملنا هذا النحو من الاستعارة فقد عمدنا الى طريقة فى المعقولات لايعرفها غير العرب أو لم تتفق لمن سواهم ، لان ذلك بمنزلة أن تقول : ان تركيب الكلام من الاسمين أو من الاسم والفعل يختص بلغة العرب ، وان الحقائق التى تذكر فى أقسام الخبر ونحوه مما لانعقله الا من لغة العرب ، وذلك مما لايخفى فساده .

فاذا ذكر المجاز وأريد أن يعد هذا النحو من الاستعارة فيه فالوجه أن يضاف الى العقلاء جملة ، ولا تستعمل لفظة توهم أنه من عرف هذه اللغة وطرقها الخاصة بها ، كما تقول مثلا فيما يختص باللغة العربية من الأحكام نحو الاعراب بالحركات والصرف ومنع الصرف ووضع المصدر مثلا موضع اسم الفاعل نحو رجل صوم وضيف ، وجمع الاسم على ضروب نحو جمع السلامة والتكسير وجمع الجمع ، وإعطاء الاسم الواحد فى التكسير عدة أمثلة نحو فرخ وأفرخ وفراخ وفروخ ، وكالفرق بين المذكر والمؤنث فى الخطاب وجملة الضمائر وما شاكل ذلك . ولاغفال هذا الموضع ، والتجوز فى العبارة عنه ، دخل الغلط على من جعل الشىء من هذا الباب سرقة وأخذاً حتى نعى عليه ، وبين أنه من المعانى العامية والأمور المشتركة التى لافضل فيها للعربى على العجمى ، ولا اختصاص له بجيل دون جيل على ماترى القول فيه — إن شاء الله تعالى — فى موضعه وهو تعالى ولى المن بالتوفيق له بفضله وجوده .

ولو أن مترجما ترجم قوله * والا النعام وحفانه * ففسر الحفان باللفظ المشترك الذى هو كالأولاد والصغار لانه لايجد فى اللغة التى بها يترجم

لفظا خاصا لكان مصيبا ومؤديا للكلام كما هو . ولو أنه ترجم قولنا رأيت أسداً يريد رجلا شجاعا ، فذكر ما معناه معنى قولك « شجاعا شديداً » وترك أن يذكر الاسم الخاص فى تلك اللغة بالأسد على هذه الصورة لم يكن مترجما للكلام ، بل كان مستأنفاً من عند نفسه كلاما . وهذا باب من الاعتبار يحتاج اليه ، فحقه أن يحفظ ، وعسى أن يجيء له زيادة بسط فيما يستقبل .

فاعلم أنك قد تجد الشيء يخلط بالضرب الأول الذى هو استعارة من طريق اللفظ ويعد فى قبيله وهو — اذا حققت — ناظر الى الضرب الآخر فهو مستعار من جهة المعنى وجار فى سبيله ، فمن ذلك قولهم « انه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر » وذلك انه كلام يصدر عنهم فى مواضع الذم فصار بمنزلة أن يقال : كأن شفته فى الغلظ مشفر البعير وجحفلة الفرس وعلى ذلك قول الفرزدق :

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتى   ولكنّ زنجيا غليظ المشافر

فهذا يتضمن معنى قولك « ولكن زنجيا كأنه جمل لايعرفنى ولا يهتدى لشرفى » وهكذا ينبغى أن يكون القول فى قولهم « أنشب فيه مخالبه » لان المعنى على أن يجعل له فى التعلق بالشىء والاستيلاء عليه حالة كحالة الأسد مع فريسته والبازى مع صيده ، وكذا قول الحطيئة :

قرَوْا جارك العيمان لما جفوته   وقلّص عن برد الشراب مشافره (١)

حقه اذا حققت أن يكون فى القبيل المعنوى ، وذلك انه وان كان عنى نفسه بالجار فقد يجوز أن يقصد الى وصف نفسه بنوع من سوء

(١) العيمان العطشان الى اللبن أشد العطش وقلص يستعمل لازما ومتعديا

الحال ويعطيها صفة من صفات النقص لتزيد بذلك فى التهكم بالزبرقان [١] ويؤكد ماقصده من رميه باضاعة الضيف واطّراحه واسلامه للضر والبؤس ، وليس ببعيد من هذه الطريقة من ابتدأ شعراً فى ذم نفسه ولم يرض فى نفسه ، ولم يرض فى وصف وجهه بالتقبيح والتشويه ، الا بالتصريح الصريح دون الاشارة والتنبيه .

وأما قول مُزَرِّد [٢] :

فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر [٣]

فقد قالوا : انه أراد أن يقول بساق وقدم فلما لم تطاوعه القافية وضع الحافر موضع القدم ، وهو وان كان قد قال بعد هذا البيت مايدل على قصده أن يحسن القول فى الضيف وتباعده من أن يكون قصد الزراية عليه أو يحول حول الهزء به والاحتقار له [٤] وذلك قوله :

فقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا بهذا المحيَّا من محيٍّ وزائر

فليس بالبعيد أن يكون فيه شوب مما مضى وأن يكون الذى أفضى به الى ذكر الحافر قصده أن يصفه بسوء الحال فى مسيره وتقاذف نواحى الارض به ، وأن يبالغ فى ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره ، واستفراغ مجهوده فى نفسه ، ويؤنس بذلك أن تنظر الى قوله قبل :

(١) الزبرقان بكسر الزاى والراء لقب الحصين بن بدر الصحابى لقب به لجماله أو لصفرة عمامته كما فى القاموس فالأول لان الزبرقان اسم للقمر وقيده الليث بالقمر فى الليلة الخامسة عشرة — والثانى من الزبرقة وهى صبغ الثوب بالأحمر أو الأصفر

(٢) من شعراء الصحابة رضى الله عنهم وفى نسخة لقب أخى الشماخ

(٣) معنى يمريه: يستخرج ماعنده من الجرى

(٤) يحول أى يتحرك

وأشعث مسترخى العلابى طوحت به الأرض من باد عريض وحاضر (١)
فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت بعلياء نشز للعيون النواظر (٢)

وبعده (فما رقد الولدان) فاذا جعله أشعث مسترخى العلابى فقد قربت المسافة بينه وبين أن يجعل قدمه حافراً ، ليعطيه من الصلابة وشدة الوقع على جنب البكر حظاً وافراً ، وهكذا قول الآخر :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها الى ملك أظلافه لم تشقق

هو فى حد التشبيه والاستعارة لان المعنى على أن الأظلاف لمن تزيّا بالملك عن مشابهة كأنه قال اجعل أمرها الى ملك لاالى عبد جاف ، متشقق الأظلاف . ويدل على ذلك أن أبا بكر بن دريد قال فى أول الباب الذى وضعه للاستعارة «يقولون للرجل اذا عابوه جاءنا حافياً متشقق الأظلاف » ثم أنشد البيت . فاذا كان من شروط هذه الاستعارة أن يؤتى بها فى موضع العيب والنقص فلا شك فى أنها معنوية وكذا قوله :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا (٣)

فأجرى التولب على ولد المرأة وهو لولد الحمار فى الأصل وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس ويذكر امرأة بائسة فقيرة والعادة فى مثل ذلك الصفة بأوصاف البهائم ليكون أبلغ فى سوء الحالة وشدة الاختلال ومثله سواء قول الآخر .

---

(١) العلابى جمع علباء بالكسر وهى عصبة صفراء فى صفحة العنق وهما علباوان بينهما منبت العرف

(٢) النشز المكان المرتفع

(٣) البيت لأوس بن حجر والهدم بالكسر الثوب البالى أو المرقع . والنواشر جمع ناشرة وهى عصب فى الذراع من داخل وخارج وقيل عروق وعصب فى باطن الذراع . وتصمت تسكت ولدها بالصمتة وهى (بالضم) مايسكت به . والجدع السيء الغذاء

وذكرت أهلي بالعرا ق وحاجة الشعث التوالب

كأنه قال الشعث التي لو رأيتها حسبتها توالب لما بها من الغبرة وبذاذة الهيئة [(١)] والجدع في البيت بالدال غير معجمة . حكى شيخنا رحمه الله قال انشد المفضل * تصمت بالماء تولباً جذعاً * بالذال المعجمة فأنكره الأصمعي وقال انما هو « تصمت بالماء تولباً جدعاً » وهو السيء الغذاء قال فجعل المفضل يصيح فقال الأصمعي : لو نفخت في الشبور ما نفعك [(٢)] تكلم بكلام الحكل وأصب [(٣)] .

وأما قول الأعرابي : كيف الطلا وأمه ؟ [(٤)] فمن جنس المفيد أيضاً لأنه أشار الى شيء من تشبيه المولود بولد الظبي . ألا تراه قال ذاك بعد أن انصرف عن السخط الى الرضى وبعد أن سكن عنه فورة الجوع الذى دعاه الى أن قال « ماأصنع به ؟ آكله أم أشربه ؟ » حتى قالت المرأة « غرثان فاربكوا له » [(٥)] وأما قوله :

---

(١) بذاذة الهيئة : رثاثتها

(٢) الشبور البوق أو النفير معرب شوفر عبرانية

(٣) الحكل بالضم مالا يسمع له صوت كالذر وتكلم كلام الحكل أى كلاما لايفهم . ومنه سمى سليمان عليه السلام نبي الحكل

(٤) الطلا بالفتح ولد الظبي ساعة يولد أو الولد الصغير من كل شيء

(٥) أصل المثل ان ابن لسان الحمرة دخل على أهله وهو جائع عطشان فبشروه بمولود وأتوه به فقال ما أدرى أآكله أم أشربه ؟ فقالت امرأته (غرثان فاربكوا له) من الربيكة وهو شيء من حسا وأقط . وفى رواية فابكلوا له من البكيلة وهى أقط يلت بسمن فلما طعم وشرب قال (كيف الطلا وأمه) فأرسلها مثلا يضرب لمن ذهب همه وتفرغ لغيره . وضبط شيخنا الحمرة بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة قال واسمه عبد الله بن حصين أو ورقاء ابن الأشعر .

اذا أصبح الديك يدعو بعض أسرته   عند الصباح وهم قوم معازيل (١)

فاستعارة القوم ههنا وان كانت فى الظاهر لاتفيد أكثر من معنى الجمع فانها مفيدة من حيث أراد أن يعطيها شبهاً مما يعقل . على أن هذا — اذا حققنا — فى غير مانحن فيه وبصدده فى هذا الفصل ، وذلك أنه لم يجتلب الاسم المخصوص بالآدميين حتى قدم تنزيلها منزلتهم فقال (هم) فأتى بضمير من يعقل . واذا كان الأمر كذلك كان القوم جاريا مجرى الحقيقة . ونظيره انك تقول : أين الأسود الضارية ؟ وأنت تعنى قوماً من الشجعان فيلزم فى الصفة حكم مالا يعقل فتقول « الضارية » ولا تقول « الضارون » البتة لأنك وضعت كلامك على أنك كأنك تحدث عن الأسود فى الحقيقة وعلى هذه الطريقة ينبغى أن يجرى بيت المتنبى :

زحل ـ على أن الكواكب قومه ـ   لو كان منك لكان أكرم معشراً

وان لم يكن معنا اسم آخر سابق يثبت حكم مايعقل للكواكب كالضمير فى قوله « هم قوم » وذلك أن مايفصح به الحال من قصده أن يدعى (٢) للكواكب هذه المنزلة يجرى مجرى التصريح بذلك ألا ترى أنه لا يتضح وجه المدح فيه الا بدعوى أحوال الآدميين ومعارفهم للكواكب لأنه يفاضل بينه وبينها فى الأوصاف العقلية بدلالة قوله « لكان أكرم معشراً » ولن يتحصل ثبوت وصف شريف معقول لها ولا الكرم على الوجه الذى يتعارف فى الناس حتى تجعل كأنها تعقل وتميز ، ولو كانت الفاضلة

---

(١) قوله معازيل جمع معزال ومن معانيه كما كتب (ش) الراعى المتعزل ، والنازل ناحية من السفر ، أى المنعزل عن جماعة المسافرين ، ومن لارمح معه

(٢) قوله أن يدعى فى تأويل مصدر مفعول قصده وجملة يجرى هى خبر أن .

فى النور والبهاء وعلو المحل وما شاكل ذلك لكان لايلزم حينئذ ماذكرت . وحق القول فى هذا القبيل — أعنى مايدعى فيه لما لايعقل العقل — فصل يفرد به ولعله يجىء فى موضعه بمشيئة الله وتوفيقه.

القول فى الاستعارة المفيدة

اعلم أن الاستعارة فى الحقيقة هى هذا الضرب دون الأول وهى أمد ميداناً ، وأشد افتناناً (١) وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً فى الصناعة وغوراً ، من أن تجمع شعبها وشعوبها ، وتحصر فنونها وضروبها ، نعم وأسحر سحراً ، وأملأ بكل مايملأ صدراً (٢) ويمتع عقلا ، ويؤنس نفساً ، ويوفر أنساً ، وأهدى الى أن تهدى اليك عذارى قد تخير لها الجمال ، وعُنىَ بها الكمال ، وأن تخرج لك من بحرها جواهر ان باهتها الجواهر مدت فى الشرف والفضيلة باعاً لايقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لاتنكر ، وردت تلك بصفرة الخجل، ووكلتها الى نسبتها من الحجر ، وأن تثير من معدنها تبراً لم تر مثله، ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلى وتريك الحلى الحقيقى،وأن تأتيك على الجملة بعقائل (٣) يأنس اليها الدين والدنيا ، وشرائف (٤) لها من الشرف الرتبة العليا ، وهى أجل من أن تأتى الصفة على حقيقة حالها ، وتستوفى جملة جمالها .

ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً فى صورة مستجدة

(١) افتن افتناناً أخذ فى فنون من القول اهـ (ش)

(٢) أى أملك وأكفل

(٣) هو جمع عقيلة كسفينة وهى من النساء الكريمة المخدرة ، ومن القوم سيدهم، ومن كل شىء أكرمه . وعقيلة البحر : درته .

(٤) وفى نسخة وفضائل بدل وشرائف .

تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وانك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة فى مواضع ، ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخلابة مرموقة ، ومن خصائصها التى تذكر بها ، وهى عنوان مناقبها ، انها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنىَ من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر ، واذا تأملت أقسام الصنعة التى بها يكون الكلام فى حد البلاغة ، ومعها يستحق وصف البراعة ، وجدتها تفتقر الى أن تعيرها حلاها ، وتقصر عن تنازعها مداها ، وصادفتها نجوما هى بدرها ، وروضاً هى زهرها ، وعرائس مالم تعرها حليها فهى عواطل ، وكواعب مالم تحسنها فليس لها فى الحسن حظ كامل ، فانك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفية ، بادية جلية ، واذا نظرت فى أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها ، ولا رونق لها مالم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة مالم تكنها ، إن شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لاتنالها الا الظنون ، وهذه اشارات وتلويحات فى بدائعها ، وانما ينجلى الغرض منها ويبين اذا تكلم على التفاصيل ، وأفرد كل فن بالتمثيل ، وسترى ذلك إن شاء الله ، واليه الرغبة فى أن نوفق للبلوغ اليه ، والتوفر عليه.

وإذ قد عرفتك أن لها هذا المجال الفسيح ، والشأو البعيد ، فانى أضع لك فصلا بعد فصل ، واجتهد بقدر الطاقة فى الكشف والبحث .

فصل

وهذا فصل قسمتها فيه قسمة عامية . ومعنى العامية أنك لا تجد فى هذه الاستعارة قسمة الا أخص من هذه القسمة وانها قسمة الاستعارة من حيث المعقول المتعارف فى طبقات الناس وأصناف اللغات وما تجد وتسمع أبداً نظيره [1] من عوامهم ، كما تسمع من خواصهم .

اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فانها لاتخلو من أن تكون اسماً أو فعلا فاذا كانت اسماً فانه يقع مستعاراً على قسمين (أحدهما) أن تنقله عن مسماه الأصلى الى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه وتجعله متناولا له تناول الصفة مثلا للموصوف. وذلك قولك رأيت أسداً ــ وأنت تعنى رجلا شجاعاً ــ ورنت لناظبية [2] وأنت تعنى امرأة ، وأبديت نوراً تعنى [3] هدى وبياناً وحجة ، وما شاكل ذلك . فالاسم فى هذا كله كما تراه متناولا شيئاً معلوما يمكن أن ينص عليه فيقال انه عُنى بالاسم وكُنى به عنه ، ونقل عن مسماه الأصلى فجعل اسماً له على سبيل الاستعارة والمبالغة فى التشبيه .

(والثانى) أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لايبين فيه شيء يشار اليه فيقال هذا هو المراد بالاسم والذى استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلى ونائباً منابه . ومثاله قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقِرَّة اذا أصبحت بيد الشَّمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يداً ومعلوم أنه ليس هناك مشار اليه ، يمكن أن تجرى اليد عليه ، كاجراء الأسد والسيف على الرجل فى قولك : انبرى لى أسد يزأر ، وسللت سيفاً على العدو لايفل — والظباء على النساء فى قوله « من الظباء الغيد » والنور على الهدى والبيان فى قولك « أبديت

(١) كلمة نظيره مفعول تجد وتسمع والضمير المضاف اليه يعود الى ماتجد

(٢) أى نظرت وفى نسخة وعنت بتشديد النون

(٣) وفى نسخة وأنت تعنى

نوراً ساطعاً » وكاجراء اليد نفسها على من يعز مكانه كقولك « أتنازعنى فى يدبها ابطش ، وعين بها ابصر » يريد انساناً له حكم اليد وفعلها ، وغناؤها ودفعها ، وخاصة العين وفائدتها ، وعزة موقعها ، ولطف موضعها ، لأن معك فى هذا كله ذاتاً ينص عليها ، وترى مكانها فى النفس ، اذا لم تجد ذكرها فى اللفظ ، وليس لك شىء من ذلك فى بيت لبيد بل ليس أكثر من أن تخيل الى نفسك أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر المصرف لما زمامه بيده ، ومقادته فى كفه . وذلك كله لايتعدى التخيل والوهم ، والتقدير فى النفس ، من غير أن يكون هناك شىء يحس ، وذات تتحصل . ولا سبيل لك الى أن تقول كنى باليد عن كذا وأراد باليد هذا الشىء أو جعل الشىء الفلانى يداً كما تقول كنى بالأسد عن زيد وعنى به زيداً وجعل زيداً أسداً . وأنما غايتك التى لامطلع وراءها أن تقول أراد أن يثبت للشمال فى الغداة تصرفاً كتصرف الانسان فى الشىء بقلبه فاستعار لها اليد حتى يبالغ فى تحقيق التشبيه ، وحكم الزمام فى استعارته للغداة حكم اليد فى استعارتها للشمال ، إذ ليس هناك مشار اليه يكون الزمام كناية عنه ، ولكنه وفى المبالغة شرطها من الطرفين فجعل على الغداة زماماً يكون أتم فى إثباتها مصرفة ، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ فى تصييرها مصرفة . ويفصل بين القسمين أنك اذا رجعت فى القسم الأول الى التشبيه الذى هو المغزى من كل استعارة تفيد وجدته يأتيك عفواً كقولك فى « رأيت أسداً » رأيت رجلا كالأسد ورأيت مثل الأسد أو شبيها بالأسد . وان رمته فى القسم الثانى وجدته لايواتيك تلك المواتاة إذ لاوجه لأن يقول « اذ أصبح شىء مثل اليد للشمال » أو « حصل شبيه

باليـد للشمال » وإنمـا يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق اليه ستراً ، وتعمل تأملا وفـكراً . وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحد الأول [١] كقولك اذ أصبحت الشمال ولها فى قوة تأثيرها فى الغـداة شَبَهُ المالك تصريف الشيء بيـده ، وإجراءه على موافقته ، وجذبه نحو الجهة التى تقتضيها طبيعته ، وتنحوها إرادته ، فأنت كما ترى تجـد الشبه المنزع ههنا اذا رجعت الى الحقيقة ووضعت الاسم المستعار فى موضعه الأصـلى لايلقاك من المستعار نفسه بل ممـا يضاف اليـه . ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد ومشبهة باليـد ، كما جعلت الرجل كالأسد ومشبهاً بالأسد ، ولـكنك أردت أن تجعل الشمال كذى اليد من الأحياء . فأنت تجعل فى هذا الضرب المستعار له وهو نحو الشمال ذا شيء وغرضك أن تثبت له حكم من يـكون له ذلك الشيء فى فعل أو غيره لانفس ذلك الشيء فاعرفه .

وهـكذا قول زهير « وعرِّى أفراس الصبا ورواحـله » لاتستطيع أن تثبت ذواتاً أو شبه الذوات تتناولها الأفراس والرواحل فى البيت على حـد تناول الأسدِ الرجلَ الموصوف بالشجاعة، والبدرِ الموصوفَ بالحسن أو البهاء ، والسحابِ المذكورَ بالسخاء والسماحة ، والنورِ العلمَ والهدى والبيانَ . وليس الا أنك أردت أن الصبا قد ترك وأهمل ، وفقد نزاع النفس اليه وبطل ، فصار كالأمر يُنصرف عنه فتعطل آلاته ، وتطرح أداته ، وكالجهة من جهات المسير نحو الحج أو الغزو أو التجارة يقضى منها الوطر فتحط عن الخيل التى كانت تركب اليها لبودُها ، وتلقى عن الابل التى كانت تحمل لهـا قتودها [٢] وقد يجيء وان كان كالتـكلف أن تقول ان الأفراس عبارة

(١) وفى نسخة الحذو الأول

(٢) جمع قتد بالتحريك و بالـكسر خشب الرحل .

عن دواعى النفوس وشهواتها ، وقواها فى لذاتهـا ، أو الأسباب التى تفتل فى حبل الصبا ، وتنصر جانب الهوى ، وتلهب أريحيـة النشاط ، وتحرك مرح الشباب ، كما قال * ونعم مطية الجهل الشباب * وقال * كان الشباب مطية الجهل * وليس من من حقك أن تتكلف هـذا فى كل موضع فانه ربمـا خرج بك الى مايفسد المعنى وينبو عنـه طبع الشعر . وقد يتعاطاه من يخالطه شىء من طباع التعمق فتجد مايفسد أكثر مما يصلح ، ولو أنك تطلبت للمطية فى بيت الفرزدق :

لعمرى لئن قيدت نفسى لطالمـا سعيت وأوضعت المطية فى الجهل

مثلَ هـذا التأول تباعدت عن الصواب ، وعدلت عما يسبق الى القلب ، وذلك أن المعنى على قولك : لطالمـا سعيت فى الباطل وقديمـاً كنت فى الاسراع الى الجهل بصورة من يوضع المطية فى سفره . وهـذا الموضع يتجلى تمـام التجلى اذا تُكلم على الفرق بين التشبيه والتمثيل وسيأتيك ذلك إن شاء الله تعالى . وكذا قولهم : هو مرخىٌّ العنان ومُلقى الزمام . لا وجـه لأن تتوقع الا أن تجرى العنان عليـه ويتناوله المعنى على انتزاع الشبه من الفرس فى حال مايرخى عنانه ؛ وأن ينظر الى الصورة التى توجـد من حاله تلك فى العقل ، ثم يجاء بهـا فيعار لها الرجل ، ويتصور بمقتضاها فى النفس ويتمثل . ولو قلت : ان العنان ههنا بمعنى النهى وان المراد أن النهى قد أبعـد عنه ونحو ذلك ، دخلت فى ظاهر من التكلف ، وأتعبت نفسك فى غير جـدوى ، وعادت زيادتك نقصاناً ، وطلبك الاحسان إساءة .

واعـلم أن إغفال هـذا الأصل الذى عرفتك من أن الاستعارة لاتكون على هـذا الوجـه الثانى كما تكون على الأول ممـا يدعو الى مثل هـذا التعمق

وانه نفسه قد يصير سبباً الى أن يقع قوم فى التشبيه ؛ وذلك انهم اذا وضعوا فى أنفسهم ان كل اسم يستعار فلابد أن يكون هناك شىء يمكن الاشارة اليه يتناوله فى حال المجاز كما يتناول مسماه فى حال الحقيقة ، ثم نظروا فى مخرج قوله تعالى (ولتصنع على عينى * واصنع الفلك بأعيننا) فلم يجدوا للفظة العين مايتناوله على حد تناول النور مثلا للهدى والبيان . ارتبكوا فى الشك وحاموا حول الظاهر ، وحملوا أنفسهم على لزومه حتى يفضى بهم الى الضلال البعيد ، وارتكاب مايقدح فى التوحيد، ونعوذ بالله من الخذلان .

﴿ وطريقة أخرى ﴾ فى بيان الفرق بين القسمين ، وهو أن الشبه فى القسم الأول الذى هو نحو : رأيت أسداً — تريد رجلا شجاعاً — وصف موجود فى الشىء الذى له استعرت . واليد ليست توصف بالشبه ، ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها ، وتحصل له بها ، وهى التصرف على وجه مخصوص . وكذا قولك « افراس الصبا » ليس الشبه الذى استعرت له الأفراس موجوداً فى الأفراس بل هو شبه يحصل لما يضاف اليه الأفراس حيث يراد الحقيقة نحو قولنا « عُرِّىَ أفراس الغزو . وأجمت خيل الجهاد » وذلك مايوجبه الفعل الواقع على الأفراس نحو ان وقوع الفعل الذى هو عُرِىَ على أفراس الغزو يوجب الامساك عن الغزو والترك له — وعلى هذا القياس .

واذا تقرر أمر الاسم فى كون استعارته على هذين القسمين فمن حقنا أن ننظر فى الفعل هل يحتمل هذا الانقسام ؟ والذى يجب العمل عليه أن الفعل لايتصور فيه أن يتناول ذات شىء كما يتصور فى الاسم ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذى اشتق منه للشىء فى الزمان الذى تدل صيغته عليه . فاذا قلت ضرب زيد — أثبت الضرب لزيد فى زمان ماض واذا

كان كذلك فاذا استعير الفعل لما ليس له فى الأصل فانه يثبت باستعارته له وصفا هو شبيه بالمعنى الذى ذلك الفعل مشتق منه .

بيان ذلك أن تقول ؛ نطقت الحال بكذا ؛ وأخبرتنى أسارير وجهه بما فى ضميره ، وكلمتنى عيناه بما يحوى قلبه . فتجد فى الحال وصفاً هو شبيه بالنطق من الانسان ، وذلك ان الحال تدل على الأمر ويكون فيها أمارات يعرف بها الشىء كما أن النطق كذلك. وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التى تظهر فيها وفى نظرها وخواص أوصاف يتحدد بها مافى القلوب من الانكار والقبول . ألا ترى الى حديث الجحى ؟

حكى عن بعضهم قال أتيت الجحى أستشيره فى امرأة أردت التزوج بها فقال أقصيرة هى أم غير قصيرة ؟ قال فلم أفهم ذلك ، فقال لى كأنك لم تفهم ماقلت ، انى لأعرف فى عين الرجل اذا عرف ، وأعرف فيها اذا أنكر ، وأعرف اذا لم يعرف ولم ينكر . أما اذا عرف فانها تخاوص ، واذا لم يعرف ولم ينكر فانها تسجو ، واذا أنكر فانها تجحظ [1] أردت بقولى قصيرة أى هى قصيرة النسب تعرف بأبيها أو جدها . قال الشيخ أبو الحسن وهذا من قول النسابة البكرى لرؤبة بن العجاج لما أتاه فقال له من أنت ؟ قال رؤبة ابن العجاج . فقال قصرت وعرفت . قال وعلى هذا المعنى قول رؤبة :

قد رفع العجاج ذكرى فادعنى باسم اذا الانساب طالت يكفنى

وأمر العين أظهر من أن تحتاج فيه الى دليل ، ولكن اذا جرى الشىء فى

(١) تخاوص أصله تتخاوص مضارع من تخاوص اذا غض من بصره قليلا مع تحديق كمن يقوّم سهما ، وتسجو تسكن ، وتجحظ من جحظت العين اذا عظمت مقلتها ونتأت وجاء « جحظ اليه » بالتشديد أى حدد النظر .

الكلام هو دعوى فى الجملة كان الآنس للقارىء أن يقترن به ماهو شاهد فيه فلم يُرَ شىء أحسن من إيصال دعوى ببرهان .

واذا كان أمر الفعل فى الاستعارة على هذه الجملة رجع بنا التحقيق الى ان وصف الفعل بأنه مستعار حكم يرجع الى مصدره الذى اشتق منه . فاذا قلنا فى قولهم « نطقت الحال » ان نطق مستعار فالمعنى ان النطق مستعار واذا كانت الاستعارة تنصرف الى المصدر كان الكلام فيه على مامضى .

ومما تجب مراعاته أن الفعل يكون استعارة مرة من جهة فاعله الذى رفع به ومثاله مامضى ويكون أخرى استعارة من جهة مفعوله وذلك نحو قول ابن المعتز :

جمع الحق لنا فى إمام قتل البخل وأحيا السماحا

فقتل وأحيا انما صارا مستعارين بأن عديا الى البخل والسماح ولو قال قتل الأعداء وأحيا لم يكن « قتل » استعارة بوجه ولم يكن « أحيا » استعارة على هذا الوجه وكذا قوله :

وأقرى الهمومَ الطارقات حزامة (١)

هو استعارة من جهة المفعولين جميعاً فأما من جهة الفاعل فهو محتمل للحقيقة وذلك أن تقول : أقرى الأضياف النازلين اللحم العبيط (٢) ومثله قوله : « قرى الهم إذ ضاف الزماع) (٣) وقد يكون الذى يعطيه حكم الاستعارة أحد المفعولين دون الآخر كقوله :

نقريهم لهذميات نقدُّ بها ما كان خاط عليهم كل زرّاد

(١) أقرى للمتكلم من قرى الضيف. وحزامة مفعوله وهو مصدر حزم فهو بمعنى الحزم أى أقرى الطارقات حزما .

(٢) العبيط الطرى .

(٣) المعنى انه اذا نزل به الهم يقريه الشجاعة والمضاء لان هذا هو معنى الزماع .

فصل

اعلم أن الاستعارة كما علمت تعتمد التشبيه أبداً وقد قلت إن طرقه تختلف ووعدتك الكلام فيه وهذا الفصل يعطى بعض القول فى ذلك باذن الله تعالى وأنا أريد أن أدرجها من الضعف الى القوة وأبدأ فى تنزيلها ثم بما يزيد فى الارتفاع لأن التقسيم اذا ارتفع فى خارج من الأصل فالواجب أن يبدأ بما كان أقل خروجا منه وأدنى مدى فى مفارقته . وإذا كان الأمر كذلك فالذى يستحق بحكم هذه الجملة أن يكون أولا من ضروب الاستعارة أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجوداً فى المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، الا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب فى الفضيلة والنقص ، والقوة والضعف ، فانت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه ومثاله استعارة الطيران لغير ذى الجناح اذا أردت السرعة ، وانقضاض الكواكب للفرس اذا أسرع فى حركته من علو ، والسباحة له اذا عدا عدواً كان حاله فيه شبيهاً بحالة السابح فى الماء . ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد من حيث الحركة على الاطلاق الا أنهم نظروا الى خصائص الأجسام فى حركتها فأفردوا حركة كل نوع منها باسم . ثم انهم اذا وجدوا فى الشىء فى بعض الأحوال شبها من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك الجنس فقالوا فى غير ذى الجناح طار كقوله :

* وطرت بمنصلى فى يعملات [1] *

---

(١) المنصل بوزن القنفذ: السيف وتفتح الصاد . واليعملات: جمع يعملة بالفتح وهى الناقة النجيبة المطبوعة على العمل

وكما جاء فى الخبر « كلما سمع هيعة طار اليها » (١) وكما قال :

لو يشا طار به ذو ميعة لاحق الآطال نهد ذو خصل (٢)

ومن ذلك ان « فاض » موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص وذلك أن يفارق مكانه دفعة فينبسط ثم انه استعير للفجر كقوله :

* كالفجر فاض على نجوم الغيهب *

لان للفجر انبساطا وحالة شبيهة بانبساط الماء وحركته فى فيضه

فأما استعارة فاض بمعنى الجود فنوع آخر غير ما هو المقصود ههنا لأن القصد الآن الى المستعار الذى توجد حقيقة معناه من حيث الجنس فى المستعار له وكذلك قول أبى تمام :

وقد نثرتهم روعة ثم أحدقوا به مثلما ألّفت عقداً منظماً

وقول المتنبى :

نثرتهم فوق الاحيدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم

استعارة لأن النثر فى الأصل للأجسام الصغار كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها لأن لها هيئة مخصوصة فى التفرق لا تأتى فى الاجسام الكبار ، ولأن القصد بالنثر أن تجتمع أشياء فى كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة واحدة ، والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك لكنه لما اتفق فى الحرب تساقط المنهزمين على غير ترتيب ونظام كما يكون

---

(١) ولفظ الحديث « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها » والهيعة الصوت تفزع منه وتخافه من عدو اهـ (ش)

(٢) البيت لامرأة من بنى الحارث والميعة أول جرى الفرس وأنشطه والآطال جمع إطل بكسر فسكون وبكسرتين وهى الخاصرة والمراد ضامر الجنبين والنهد بالفتح الفرس العظيم المشرف وخصل الشعر معروفة

فى الشيء المنثور عبر عنه بالنثر ، ونسب ذلك الى الممدوح اذ كان هو سبب ذلك الانتثار . فالتفرق الذى هو حقيقة النثر من حيث جنس المعنى وعمومه موجود فى المستعار له بلا شبهة . ويبينه أن النظم فى الأصل لجمع الجواهر وما كان مثلها فى السلوك ثم لما حصل فى الشخصين من الرجال أن يجمعهما الحاذق المبدع فى الطعن فى رمح واحد ذلك الضرب (١) من الجمع عبر عنه بالنظم كقولهم « انتظمهما برمحه » وكقوله :

* قالوا أينظم فارسين بطعنة *

وكان ذلك استعارة لأن اللفظة وقعت فى الأصل لما يجمع فى السلوك من الحبوب والأجسام الصغار إذ كانت تلك الهيئة فى الجمع تخصها فى الغالب ، وكان حصولها فى أشخاص الرجال من النادر الذى لا يكاد يقع وإلا فلو فرضنا أن يكثر وجوده فى الأشخاص الكبيرة لكان لفظ النظم أصلا وحقيقة فيها كما يكون حقيقة فى نحو الحبوب وهذا النحو لشدة الشبه فيه يكاد يلحق بالحقيقه ومن هذا الحد قوله :

وفى يدك السيف الذى امتنعت به صفاة الهدى من أن ترق فتخرقا

وذلك أن أصل الخرق أن يكون فى الثوب وهو فى الصفاة استعارة لأنه لما قال « ترق » قربت حالها من حال الثوب وعلى ذلك فانا نعلم أن الشق والصدع حقيقة فى الصفاة ونعلم أن الخرق يجامعها فى الجنس لأن الكل تفريق وقطع ولو لم يكن الخرق والشق واحداً لما قلت : شققت الثوب ، والشق عيب فى الثوب « وتشقق الثوب » قول من لا يستعير ولكن لو قلت « خرق الحشمة » لم يكن من الحقيقة فى شيء وكان خارجاً

(١) قوله ذلك الضرب ـ مفعول مطلق لقوله يجمعهما الحاذق مبين للنوع «ش»

من هذا الفن الذى نحن فيه لأنه ليس هناك شق . ولو جاء شق الحشمة أو صدع مثلا كان كذلك أعنى لا يكون له أصل فى الحقيقة ولا شبه بها

ومن هذا الضرب قوله تعالى (ومزقناهم كل ممزق) يعد استعارة من حيث إن التمزيق للثوب فى أصل اللغة إلا أنه على ذلك راجع الى الحقيقة من حيث إنه تفريق على كل حال وليس يحسن غيره إلا أنهم خصوا ما كان مثل الثوب بالتمزيق كما خصوه بالخرق ، وإلا فأنت تعلم أن تمزيق الثوب تفريق بعضه من بعض . ومثله أن القطع اذا أطلق فهو لازالة الاتصال من الأجسام التى تلتزق أجزاؤها واذا جاء فى تفريق الجماعة وإبعاد بعضهم من بعض كقوله تعالى : (وقطعناهم فى الأرض أمما) كان شبه الاستعارة وإن كان المعنى فى الموضعين على إزالة الاجتماع ونفيه فان قلت « قطع عليه كلامه » أو قلت « تقطع الوقت » بكذا كان نوعا آخر .

ومن الاستعارة القريبة من الحقيقة قولهم « أثرى فلان من المجد وأفلس من المروءة » . وكقوله :

إن كان أغناها السلو فانني   أمسيت من كبدى ومنها معدما

وذلك أن حقيقة الأثراء من الشىء كثرته عندك ووصف الرجل بأنه كثير المجد أو قليل المروءة كوصفه بأنه كثير العلم أو قليل المعرفة فى كونه حقيقة . وكذلك اذا قلت أثرى من الشوق أو الوجد أو الحزن كما قال :

وفى الركاب حريب   من الغرام ومثرى (١)

فهو كقولك كثر شوقه وحزنه وغرامه . وإذا كان كذلك فهو فى انه نقل الى شىء جنسه جنس الذى هو حقيقة فيه بمنزلة « طار » أو « طر »

---

(١) الحريب: المحروب أى مسلوب المال يقال حر به ماله أى سلبه إياه وتركه بلا شىء

أمراً منه . وكذا معنى أعدم من المال أنه خلا منه وأن المال يزول عنه ، فاذا أخبر أن كبده قد ذهبت عنه فهو فى حقيقة من ذهب ماله وعدمه ، والعدْم [١] فى المال وفى غير المال بمنزلة واحدة لا تتغير له فائدة ، والمعدم موضوع لمن عدم مايحتاج اليه ، فالكبد مما يحتاج اليه ، وكذلك المحبوبة فانما تقع هذه العبارة فى نفسك موقع الغريب من حيث إن العرف جرى فى الاعدام [٢] بأن يطلق على من عدم ماجنسه جنس المال . ويؤنسك بما قلت إنك لو قلت : عدم كبده ـ لم يكن مجازاً ، ولم تجد بينه وبين : خلا من كبده وزالت عنه كبده ، كبير فرق . ألا تراك تقول الفرس عادم للطحال تريد ليس له طحال ، وهذا كلام لا استعارة فيه ، كما انك لو قلت : الطحال معدوم فى الفرس — كان كذلك.

ومن اللائق بهذا الباب البين أمره ما أنشده أبو العباس فى الكامل من قول الشاعر :

لم تلق قوماً هُمُ شر لاخوتهم منا عشية يجرى بالدم الوادى
نَقريهمُ لهذَميات نقُدُّ بها ما كان خاط عليهم كل زرَّاد [٣]

قال لان الخياطة تضم خرق القميص والزراد يضم حلق [٤] الدرع أفلا تراه بين أن جنسهما واحد وأن كلا منهما ضمٌّ ووصل ، وإنما يقع الفرق

(١) العدم بالضم و بضمتين و بالتحريك: الفقدان للشيء وغلب على فقدان المال «ش»

(٢) الاعدام مصدر أعدم وهو لازم كقولك أعدم فلان بمعنى افتقر وهو المراد ومتعد لمفعول واحد كاعدمه الشيء اذالم يجده والى مفعولين كأعدمه إياه أى أفقده إياه.

(٣) اللهذميات : جمع لهذم كجعفر وهو السنان القاطع

(٤) الحلق : بكسر ففتح و بفتحتين جمع حلقة فهى كقصعة وقصع وخشبة وخشب

من حيث إن الخياطة ضم أطراف الخرق بخيط يسلك فيها على الوجه المعلوم والزَّرْدُ ضم حلق الدرع بمداخلة توجد بينها إلا أن الشكاك (١) الذى يُلزم أحد طرفى الحلقة الآخر بدخوله فى ثقبتيهما فى صورة الخيط الذى يذهب فى منافذ الابرة (٢) واستقصاء القول فى هذا الضرب والبحث عن أسراره لا يمكن إلا بعد أن تقرر الضروب المخالفةله من الاستعارة فأقتصر منه على القدر المذكور وأعود الى القسمة

﴿ ضرب ثان ﴾ يشبه هذا الضرب الذى مضى وإن لم يكن إياه وذلك أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة هى موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة وذلك قولك « رأيت شمساً » تريد إنسانا يتهلل وجهه كالشمس فهذا له شبه باستعارة « طار » لغير ذى الجناح وذلك أن الشبه مراعى فى التلألؤ وهو كما يعلم موجود فى نفس الانسان المتهلل ، لأن رونق الوجه الحسن من حس (٣) البصر مجانس لضوء الأجسام النيرة . وكذلك اذا قلت « رأيت أسداً » تريد رجلا فالوصف الجامع بينهما هو الشجاعة وهى على حقيقتها موجودة فى الانسان وإنما يقع الفرق بينه وبين السبع الذى استعرت اسمه له فيها من جهة القوة والضعف والزيادةوالنقصان ، وربما ادعى لبعض الكماة والبهم (٤) مساواة الأسد فى حقيقة

---

(١) الشكاك ككتاب : البيوت أو الخيام المصطفة ولكنه هنا ما به الشك ونظم أشياء متعددة فى نظام واحد

(٢) الحلقات غير مفرغة فالذى يجمع بين طرفى كل حلقة هو الشكاك : يذهب هكذا فى الحلقات يجمع طرفى كل واحدة اه «ش»

(٣) وفى نسخة « فى حس »

(٤) الكماة جمع كمى على غير قياس وقيل جمع كام وجعلوه لكمى لان فاعلا وفعيلا يشتركان كثيرا كعالم وعليم والكمى الشجاع أو لابس السلاح وهو الذى يشهد له =

الشجاعة التى عمود صورتها انتفاء المخافة عن القلب حتى لا تخامره ، وتفرق خواطره ، وتحلل عزيمته فى الاقدام على الذى يباطشه ويريد قهره . وربما كف الشجاع عن الاقدام على العدو لا لخوف يملك قلبه ويسلبه قواه ولكن كما يكف المنهى عن الفعل لا تخونه فى تعاطيه قوة . وذلك أن العاقل من حيث الشرع منهى عن أن يهلك نفسه ألا ترى أن البطل الكمى اذا عدم سلاحاً يقابل به [1] فلم ينهض الى العدو كان فاقداً شجاعته وبأسه ومتبرئاً من النجدة التى يعرف بها

ثم إن الفرق بين هذا الضرب وبين الاول أن الاشتراك ههنا فى صفة توجد فى جنسين مختلفين مثل أن جنس الانسان غير جنس الشمس وكذلك جنسه غير جنس الاسد ، وليس كذلك الطيران وجرى الفرس فانهما جنس واحد بلا شبه ، وكلاهما مرور وقطع للمسافة وانما يقع الاختلاف بالسرعة . وحقيقة السرعة قلة تخلل السكون للحركات وذلك لا يوجب اختلافا فى الجنس [2] (فان قلت) : فاذن لا فرق بين استعارة « طار » للفرس

= الاشتقاق لان كمى الشىء وكماه بالتشديد بمعنى ستره والكمى يستر نفسه بالدرع والبيضه . والبهم بضم ففتح جمع بهمة (كغرفة وغرف) وهو الشجاع الذى يستبهم على أقرانه مأتاه

(١) المقابلة الدفاع أى يقابل به العدو ويلقاه عندما يعتدى عليه ، وفرق بين الهجوم والدفاع فترك الهجوم لعدم السلاح لاينافى الشجاعة كترك الدفاع والمقابلة.

(٢) تقدم أن من ذلك النوع المستعار لحركة الفرس مستعارا من انقضاض الكواكب والظاهر أن الجنس مختلف هنا والجواب أن الكلام فى اختلاف المستعار والمستعار له من حيث وجه الشبه فاختلاف الجنس واقع فى وجه الشبه أيضا فان تلألؤ الشمس غير تلألؤ الوجه فى الجنس وشجاعة الاسد ليست مثل شجاعة الانسان فان شجاعة الانسان يدخل فيها العقل بخلاف شجاعة الاسد واما الحركات التى ذكرها =

وبين استعارة الشفة للفرس فهلا عددت هذا فى القسم اللفظى غير المفيد ؟ ثم انك ان اعتذرت بأن فى « طار » خصوص وصف ليس فى « عدا » و « جرى » فكذلك فى الشفة خصوص وصف ليس فى الجحفلة . (فالجواب) انى لم أعده فى ذلك القسم لأجل أن خصوص الوصف الكائن فى « طار » يراعى فى استعارته للفرس ، ألا تراك لا تقوله فى كل حال بل فى حال مخصوصة ؟ وكذا السباحة لانك لا تستعيرها للفرس فى كل أحوال جريه ، نعم وتأبى أن تعطيها كل فرس ، فالقطوف [١] البليد لا يوصف بأنه سابح . وأما استعارة اسم لعضو نحو الشفة والأنف فلم يراع فيه خصوص الوصف ، ألا ترى أن العجاج لم يرد بقوله « ومرسنا مسرجا » أن يشبه أنف المرأة بأنف نوع من الحيوان لأن هذا العضو من غير الانسان لا يوصف بالحسن كما يكون ذلك فى العين والجيد . وهكذا استعارة الفرسن للشاة فى قول عائشة رضى الله عنها : « ولو فرسن شاة » [٢] وهو للبعير فى الأصل ليس

= فانها جنس واحد والخلاف فى عرض وهو السرعة والجواب الافضل أن الضرب الاول يكون فيه المستعار له على قرب من الشبه فى مفهوم المستعار منه لولا غلبة التفرق بالتخصيص وأما فى الضرب الثانى فذلك القرب فى وجه الشبه أتم فشجاعة البطل تدخل فى حد شجاعة الاسد لكن المستعار له لا يمكن أن يدخل فى جنس المستعار منه على وجه الحقيقة بحال ، فلا يدخل الرجل فى الاسد ولا فى الشمس الخ هذا الذى يظهر من من عبارة المصنف اه (ش)

(١) القطوف : سيء السير بطيئه

(٢) الحديث « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو فرسن شاة » والفرسن بكسر الفاء والسين وهو خف البعير ويستعار لظلف الشاة كما فى الحديث . وكتب شيخنا فى حاشية نسخة الدرس : وفى الفراسن السلامى (بالضم) وهى عظام الفرسن وقصبها ثم الرسغ فوق ذلك ثم الوظيف ثم فوق الوظيف من يد البعير

لان يشبه هذا العضو من الشاة به من البعير كيف ولا شبه هناك وليس إذن فى مجىء الفرسن بدل الظلف أمر أكثر من العضو نفسه .

* * *

﴿ ضرب ثالث ﴾ وهو الصميم الخالص من الاستعارة . وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافيــة للريب كما جاء فى التنزيل من نحو قوله عز وجل (واتبعوا النور الذى أنزل معه) وكاستعارة الصراط للدين فى قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم * وانك لتهدى الى صراط مستقيم) فأنت لاتشك فى انه ليس بين النور والحجة مابين طيران الطائر وجرى الفرس من الاشتراك فى عموم الجنس ، لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة والحجة كلام ، وكذا ليس بينهما مابين الرجل والأسد من الاشتراك فى طبيعة معلومة تكون فى الحيوان كالشجاعة ، فليس الشبه الحاصل من النور فى البيان والحجة ونحوهما الا أن القلب اذا وردت عليــه الحجة صار فى حالة شبيهة بحال البصر اذا صادف النور ووجهت طلائعــه نحوه ، وجال فى معارفه (١) وانتشر ، وانبث فى المسافة

ــــــــ

= الذراع ثم فوق الذراع العضد ثم فوق العضد الكتف . وفى رجله بعد الفرسن الرسغ ثم الوظيف ثم الساق ثم الفخذ ثم الورك اه .

(١) معارف الانسان مايعرف به ويتميز به من غيره فى شكل وجهه . وكتب شيخنا فى نسخة الدرس هنا مانصه :

المعارف من الضياء مايظهر فيه وأصلها مايظهر من المرأة والوجوه والمعروفون (كذا) من الناس . وقد يعود الضمير فى معارفه على البصر أى جال فى الأشياء التى يعرفها البصر ، ويفسره قوله : وانبث فى المسافة الخ أو معارف البصر مايعرف منه كالمقلة اه

التى يسافر طرف الانسان فيها . وهـذا كما تعلم شبه لست تحصل منـه على جنس ، ولا على طبيعة وغريزة ، ولا على هيئة وصورة تدخـل فى الخلقة ، وانما هو صورة عقلية .

واعلم أن هـذا الضرب هو المنزلة التى تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لهـا كيف شاءت المجال فى تفننها وتصرفها ، وههنا تخلص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها الا ذوو الأذهان الصافيـة ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعى الحـكمة ، وتعرف فصل الخطاب . ولهـا ههنا أساليب كثيرة ؛ ومسالك دقيقة مختلفة . والقول الذى يجرى مجرى القانون والقسمة يغمض فيها الا أن مايجب أن تعـلم فى معنى التقسيم لهـا أنهـا على أصول :

(أحـدها) أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجمـلة للمعانى المعقولة (والثاني) أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها الا أن الشبه مع ذلك عقلى (والأصل الثالث) أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول . فمثال مايجرى على الأصل الأول ماذكرت لك من استعارة النور للبيان والحجة ، فهذا شبه أخـذ من محسوس لمعقول . ألا ترى أن النور مشاهد محسوس بالبصر والبيان والحجة ممـا يؤديه اليـك العقل من غير واسطة من العين أو غيرها من الحواس ، وذلك [١] أن الشبه ينصرف الى المفهوم من الحروف والأصوات ، ومـدلول الألفاظ هو الذى ينور القلب لا الألفاظ . هـذا والنور يستعار للعـلم نفسه أيضاً والايمان ،

---

(١) قوله وذلك الخ دفع لما يقال : ان الحجة كلام والكلام أصوات محسوسة فالاستعارة فى محسوس لمحسوس (ش) .

وكذلك حكم الظلمة اذا استعيرت للشبهة والجهل والكفر، لأنه لاشبهة فى أن الشبهة والشكوك من المعقول . ووجه التشبيه أن القلب يحصل بالشبهة والجهل فى صفة البصر اذا قيده دجى الليل فلم يجد منصرفا [١] وان استعيرت للضلالة والكفر فلأن صاحبهما كمن يسعى فى الظلمة فيذهب فى غير الطريق وربما دفع الى هلك وتردى فى أهوية [٢] ومن ذلك استعارة القسطاط للعدل ونحو ذلك من المعانى المعقولة التى تعطى غيرها صفة الاستقامة والسداد كما استعاره الجاحظ فى فصل يذكر فيه علم الكلام فقال : « وهو العيار على كل صناعة ، والزمام على كل عبارة ، والقسطاط الذى به يستبان نقصان كل شيء ورجحانه ، والراووق الذى به يعرف صفاء كل شيء وكدره ، » وهكذا اذا قيل فى النحو انه ميزان الكلام ومعياره فهو أخذ شبه من شيء هو جسم يحس ويشاهد لمعنى يعلم ويعقل ولا يدخل فى الحاسة وذلك أظهر وأبين من أن يحتاج فيه الى فضل بيان . وأما تفننه وسعته وتصرفه من مرضى ومسخوط ومقبول ومرذول فحق الكلام فيه بعد أن يقع الفراغ من تقرير الأصول .

ومثال الأصل الثانى وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس ثم الشبه عقلى قول النبى صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن » [٣] الشبه

---

(١) يعنى أن العقل يصير بسبب الشبهة والجهل المانعين من إدراك الحقائق العلمية كالبصر اذا اشتدت على صاحبه ظلمة الليل فلم يدر أين يذهب .

(٢) فى نسخة وقع بدل دفع والهلك بالضم اسم مصدر ، وهلك من باب ضرب هلاكا والأهوية بضم الهمزة وتشديد الياء : الوهدة العميقة.

(٣) تتمة الحديث : قيل وما ذاك ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المنبت السوء » شبه المرأة بما ينبت فى الدمن من الكلأ يكون له غضارة وهو وبىء المرعى منتن الأصل قال زفر بن الحارث : =

مأخوذ للمرأة من النبات كما لايخفى وكلاهما جسم الا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك ولا مايسمى طبعاً كالحرارة والبرودة المنسوبتين فى العادة الى العقاقير وغيرها مما يسخن [1] بدن الحيوان ويبرد بحصوله فيه ولا شيء من هذا الباب بل القصد شبه عقلى بين المرأة الحسناء فى المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر فى رأى العين مع فساد الباطن وطيب الفرع مع خبث الأصل كما أنهم اذا قالوا :

هو عسل اذا ياسرته وان عاسرته فهو صاب

كما قال : عسل الأخلاق ماياسرته فاذا عاسرت ذقت السلعا [2]

فالتشبيه عقلى ، إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفم واللسان ، وانما المعنى أنك تجد منه فى حالة الرضى والموافقة مايملؤك سروراً وبهجة حسب مايجد ذائق العسل من لذة الحلاوة ، ويهجم عليك فى حالة السخط والإباء ما يشدد كراهتك ويكسبك كرباً ويجعلك فى حال من يذوق المر الشديد المرارة ، وهذا أظهر من أن يخفى .

ومن هذا الأصل استعارة الشمس للرجل تصفه بالنباهة والرفعة والشرف والشهرة ، وما شاكل ذلك من الأوصاف العقلية المحضة ، التى لاتلابسها الا بغريزة العقل ، ولا تعقلها الا بنظر القلب .

ويظهر من ههنا أصل آخر وهو أن اللفظة الواحدة تستعار على

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

والدمنة الموضع الذى فيه السرقين (الزبل) وكذلك هو ماالختلط من الماء والطين عند الحوض (ش) .

(١) سخن الماء وغيره مثلث الخاء أى جاء من جميع الأبواب .

(٢) السلع بالتحريك : شجر مر يقال انه ضرب من الصبر .

طريقين مختلفين ، ويذهب بهـا فى القياس والتشبيه مذهبين ؛ أحـدهما يفضى الى ماتناله العيون ، والآخر يومىء الى ماتمثله الظنون ، ومثال ذلك قولك : « نجوم الهـدى » تعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ورضى الله عنهم ، فانه استعارة توجب شبها عقلياً لأن المعنى أن الخلق بعـد رسول الله صلى الله عليـه وسلم اهتـدوا بهم فى الدين كما يهتدى السارون بالنجوم . وهـذا الشبه باق لهم الى يوم القيامة ، فبالرجوع الى علومهم وآثارهم وفعالهم وهـديهم تنال النجاة من الضـلالة ، ومن لم يطلب الهـدى من جهتهم فقد حرم الهـدى ووقع فى الضـلال ، كما أن من لم ينظر الى النجوم فى ظلام الليل ولم يتلق دلالتها على المسالك التى تفضى الى العمارة ومعادن السلامة وخالفها وقع فى غير الطريق ، وصار بتركه الاهتـداء بهـا الى الضلال البعيد ، والهلك المبيـد ، فالقياس على النجوم فى هـذا ليس على حـد تشبيه المصابيح بالنجوم أو النيران فى الأماكن المتفرقة ، لان الشبه هناك من حيث الحس والمشاهـدة لان القصـد الى نفس الضوء واللمعان والشبهُ ههنا من حيث العقل ، لأن القصد الى مقتضى ضوء النجوم وحكمه وعائدته ثم مافيها من الدلالة على المنهاج ، والامن من الزيغ عنه والاعوجاج ، والوصول بهذه الجملة منها الى دار القرار ومحل الـكرامة ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك ، ويديم توفيقنا للزوم ذلك الاهتداء ، والتصرف فى هـذا الضياء ، انه عز وجل ولى ذلك والقادر عليه .

وممـا لايـكون الشبه فيـه الا عقلياً قولنا فى أصحاب رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملح الأنام » وهو مأخوذ من قوله عليـه السلام : « مثل أصحابى كمثل الملح فى الطعام لايصلح الطعام إلا بالملح » قالوا فـكان

الحسن رحمة الله عليه يقول : فقد ذهب ملحنا فكيف نصنع ؟ فأنت تعلم أن لاوجه ههنا للتشبيه الا من طريق الصورة العقلية ، وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح ، والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوساً . وينطوى هذا التشبيه على وجوب موالاة الصحابة رضى الله عنهم ، وأن تمزج محبتهم بالقلوب والأرواح ، كما يمزج الملح بالطعام ، فباتحاده به ومداخلته لأجزائه يطيب طعمه ، وتذهب عنه وخامته ، ويصير نافعاً مغذياً . كذلك بمحبة الصحابة رضى الله عنهم تصلح الاعتقادات ، وتنتفى عنها الأوصاف المذمومة ، وتطيب وتغذو القلوب ، وتنمى حياتها . وتحفظ صحتها وسلامتها ، وتقيها الزيغ والضلال والشك والشبهة والحيرة . وأما حكمه فى حال القلب [١] من حيث العقل فحكم الفساد الذى يعرض لمزاج البدن من أكل الطعام الذى لم يصلح بالملح ، ولم تنتف عنه المضار التى من شأن الملح أن يزيلها . وعلى ذلك جاء فى صفتهم أن حبهم إيمان وبغضهم نفاق . هذا ولا معنى لصلاح الرجل بالرجل الاصلاح نيته واعتقاده ومحال أن تصلح نيتك واعتقادك بصاحبك وأنت لاتراه معدن الخير ومعانه [٢] ، وموضع الرشد ومكانه ، ومن علمته كذلك مازجتك محبته لامحالة . وسيط وده بلحمك ودمك [٣] وهل تحصل من المحبة إلا على الطاعة والموافقة فى الارادة والاعتقاد . وقياسه قياس الممازجة بين الأجسام . ألا تراك تقول

(١) القلب هنا مصدر قلب أى العكس وهو عدم المحبة بدل المحبة .

(٢) المعان: المباءة والمنزل .

(٣) سيط ماض مبنى للمفعول من ساط بمعنى خلط ويِنسب لعلى كرم الله وجهه من أبيات

و بنت محمد سكنى وعرسى   مسوط لحمها بدمى ولحمى

فلان قريب من قلبي تريد الوفاق والمحبة . وعلى هذه الطريقة جرى تمثيلهم النحو بالملح في قولهم : « النحو في الكلام ، كالملح في الطعام » إذ المعنى أن الكلام لايستقيم ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الاعراب والترتيب الخاص كمالا يجدى الطعام ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه وهي التغذية مالم يصلح بالملح .

فأما ما يتخيلونه من أن معنى ذلك أن القليل من النحو يغنى وان الكثير منه يفسد الكلام كما يفسد الملح الطعام اذا كثر فيه فتحريف وقول بما لا يتحصل على البحث . وذلك انه لاتتصور الزيادة والنقصان في جريان أحكام النحو في الكلام . ألا ترى أنه اذا كان من حكمه في قولنا « كان زيد ذاهباً » أن يرفع الاسم وينصب الخبر لم يخل هذا الحكم من أن يوجد أو لايوجد فان وجد فقد حصل النحو في الكلام وعدل مزاجه به ونفى عنه الفساد وأن يكون كالطعام الذى لايغذو البدن [1] وان لم يوجد فيه فهو فاسد كائن بمنزلة طعام لم يصلح بالملح فسامعه لاينتفع به بل يستضر ، لوقوعه في عمياء وهجوم الوحشة عليه كما يوجبه الكلام الفاسد العارى من الفائدة . وليس بين هاتين المنزلتين واسطة يكون استعمال النحو فيها مذموما ، وهكذا القول في كل كلام . وذلك أن إصلاح الكلام الأول باجرائه على حكم النحو لايغنى عنه في الكلام الثاني والثالث حتى يتوهم أن حصول النحو في جملة واحدة من قصيدة أو رسالة يصلح سائر الجمل ، وحتى يكون افراد كل جملة بحكمها منه تكريراً له وتكثيراً لأجزائه ، فيكون مثله مثل زيادة أجزاء الملح على قدر الكفاية . وكذلك لا يتصور في قولنا

---

(١) جملة وأن يكون عطف على الفساد أى ونفى عنه كونه كالطعام الخ .

« كان زيد منطلقاً » أن يتكرر هذا الحكم ويتكثر على هذا الكلام فيصير النحو كذلك موصوفاً بأن له كثيراً هو مذموم ، وان المحمود منه القليل ، وانما وزانه فى الكلام وزان وقوف لسان الميزان حتى ينبىء عن مساواة مافى إحدى الكفتين الأخرى . فكما لايتصور فى تلك الصفة زيادة ونقصان حتى يكون كثيرها مذموماً وقليلها محموداً ، كذلك الحكم فى الصفة التى تحصل للكلام باجرائه على حكم النحو ووزنه بميزانه . فقول أبى بكر الخوارزمى : « والبغض عندى كثرة الاعراب » كلام لاتحصل منه على طائل ، لان الاعراب لايقع فيه قلة وكثرة ان اعتبرنا الكلام الواحد والجملة الواحدة وان اعتبرنا الجمل الكثيرة وجعلنا إعراب هذه الجملة مضموماً الى إعراب تلك فهى الكثرة التى لابد منها ، ولاصلاح مع تركها ، والخليق بالبغض من ذمها [1] وان كان أراد نحو قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس الا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

وما كان من الكلام معقداً موضوعاً على التأويلات المتكلفة فليس ذلك بكثرة وزيادة فى الاعراب بل هو بأن يكون نقصاً له ونقضاً أولى لان الاعراب هو أن يعرب المتكلم عما فى نفسه ويبينه ويوضح الغرض ويكشف اللبس ، والواضع كلامه على المجازفة فى التقديم والتأخير زائل عن الاعراب ؛ زائغ عن الصواب ، متعرض للتلبيس والتعمية ، فكيف يكون ذلك كثرة فى الاعراب ؟ انما هو كثرة عناء على من رام أن يرده الى الاعراب ، لا لكثرة الاعراب ، وهذا هو كالاعتراض على طريق شجون الحديث ، ويحتاج اليه فى أصل كبير وهو أن من حق العاقل أن لا

(١) مبتدأ وخبر

يتعدى بالتشبيه الجهة المقصودة ولاسيما فى العقليات . وارجع الى النسق

« مثال الأصل الثالث » وهو أخذ الشبه من المعقول للمعقول . أول ذلك وأعمه تشبيه الوجود من الشيء مرة بالعدم ، والعدم مرة بالوجود ، أما الأول فعلى معنى أنه لما قل فى المعانى التى بها يظهر للشيء قدر ، ويصير له ذكر ، صار وجوده كلا وجود (١) وأما الثانى فعلى معنى أن الفانى كان موجوداً ثم فقد وعدم ، إلا أنه لما خلف آثاراً جميلة تحيي ذكره ، وتديم فى الناس اسمه ، صار لذلك كأنه لم يعدم . وأما ماعداها من الأوصاف فيجيء فيها طريقان (أحدهما) هذا (٢) وذلك فى كل موضع كان موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وان كانت موجودة لخلوها مما هو ثمرتها والمقصود منها ، والذى اذا خلت منه لم تستحق الشرف والفضل

تفسير هذا أنك وصفت الجاهل بأنه ميت وجعلت الجهل كأنه موت على معنى أن فائدة الحياة والمقصود منها هو العلم والاحساس فمتى عدمهما الحى فكأنه قد خرج عن حكم الحى ، ولذلك جعل النوم موتاً اذ كان النائم لايشعر بما بحضرته كما لا يشعر الميت

والدرجة الأولى فى هذا أن يقال : فلان لا يعقل وهو بهيمة وحمار وما أشبه ذلك مما تحطه عن معانى المعرفة الشريفة ، ثم أن يقال : فلان لا يعلم ولا يفقه ولا يحس فينفى عنه العلم والاحساس جملة لضعف أمره

---

(١) نظم هذا المعنى بعضهم فقال :

خلقوا وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

(٢) الطريق الثانى هو ما يأتى من قول المصنف (والطريق الثانى) فى شبه المعقول الخ فى ص ٦١ أى بعد ٤ صفحات

فيه ، وغلبة الجهل عليه ، ثم تجعل التعريض تصريحاً فيقال : هو ميت خارج من الحياة وهو جماد ، توكيداً وتناهياً فى ابعاده عن العلم والمعرفة وتشدداً فى الحكم بأن لامطمع فى انحسار غياية الجهل عنه (١) وافاقته مما به من سكرة الغى والغفلة ، وأن يؤثر فيه الوعظ والتنبيه .

ثم لما كان هذا مستقرى فى العادة أعنى جعل الجاهل ميتاً خرج منه أن يكون المستحق لصفة الحياة هو العالم المتيقظ لوجه الرشد ثم لما لم يكن علم أشرف وأعلى من العلم بوحدانية الله تعالى وبما نزله على النبى صلى الله عليه وسلم جعل من حصل له (٢) العلم بعد أن لم يكن كأنه انما وجد الحياة وصارت صفة له مع وجود نور الايمان فى قلبه وجعل حالته السابقة التى خلا فيها من الايمان كحالة الموت التى تعدم معه الحياة وذلك قوله تعالى « أومن كان ميتاً فأحييناه » وأشباه ذلك

ومن هذا الباب قولهم « فلان حى القلب » يريدون أنه ثاقب الفهم جيد النظر مستعد لتمييز الحق من الباطل فيما يرد عليه ، بعيد من الغفلة التى كالموت . ويذهبون به فى وجه آخر وهو أنه حرك (٣) نافذ فى الأمور غير بطىء النهوض ، وذلك أن هذه الأوصاف من أمارات الصحة واعتدال المزاج وتوقد نار الحياة ، وهذا يصلح فى الانسان والبهائم لأنه تعريض بالقدرة والقوة . والمذهب الأول اشارة الى العلم والعقل وكلتا الصفتين أعنى القدرة والعلم مما يشرف به الحى ومما يضاده الموت وينافيه ، ولما كان الأمر كذلك صار اطلاق الحياة مرة عبارة عن العلم وأخرى عن القدرة ، واطلاق الموت

(١) الغياية : كل ما أظل الانسان من فوق رأسه كالسحابة والغبرة
(٢) المناسب هذا العلم
(٣) غلام حرك : بوزن فرح : خفيف ذكى

إشارة الى عدم القدرة وضعفها تارة والى عدم العلم وضعفه أخرى .

والقول الجامع فى هذا أن تنزيل الوجود منزلة العدم اذا اريد المبالغة فى حط الشيء والوضع منه وخروجه عن أن يعتد به كقولهم هو والعدم سواء معروف متمكن فى العادات وربما دعاهم الايغال وحب السرف الى أن يطلبوا بعد العدم منزلة هى أدون منه حتى يقعوا فى ضرب من التهوس كقول أبى تمام :

* وأنت أنزر من لاشيء فى العدد * (١)

وقول ابن نباتة (٢) :

ما زلت أعطف أيامى فتمنحنى نيلا أدق من المعدوم فى العدم

ويتفرع على هذا إثبات الفضيلة للمذكور باثبات اسم الشيء له ويكون ذلك على وجهين (أحدهما) أن يريد المدح وإثبات المزية والفضل على غاية المبالغة حتى لايحصّل عليه مزيداً فاذا أردت ذلك جعلت الاثبات كأنه مقصور عليه لا يشارك فيه وذلك قولك « هذا هو الشيء وما عداه فليس

---

(١) المصراع الاول من البيت (أفى تنظم قول الزور والفند) والفند بالتحريك الخطأ فى القول والرأى والكذب . ويطلق أيضا على الخرف وانكار العقل لهرم أو مرض. وفى نسخة زيادة وهى : وقال أيضا :

هب من له شيء يريد حجابه مابال لاشيء عليه حجاب

والبيت الاول من أبيات فى هجو محمد بن يزيد . والثانى من قصيدة فى هجو موسى بن ابراهيم الرافعى

(٢) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن احمد الملقب بالسعدى ينتهى نسبه الى زيد مناة من تميم. كان شاعرا مجيدا جمع بين حسن السبك وجودة المعنى ومدح الملوك والوزراء والرؤساء كسيف الدولة ابن حمدان وغيره وطاف البلاد ، ولد سنة ٣٢٧ وتوفى سنة ٤٠٥ فى بغداد وهو غير ابن نباتة الخطيب وابن نباتة المصرى

بشىء » أى ان ماعداه اذا قيس اليه صغر وحقر حتى لايدخل فى اعتداد وحتى يكون وجدانه كفقدانه ، فقد نزلت الوجود فيمن عدا المذكور منزلة العدم . وإما أن يكون التفضيل على توسط ويكون القصد الاخبار بأنه غير ناقص على الجملة ولا ملغى منزل منزلة المعدوم وذلك قولك « هذا شىء » أى داخل فى الاعتداد . وفى هذه الطريقة أيضا تفاوت فانك تقول مرة « هذا إما لاشىء » تريد أن تقول إن الآخر ليس بشىء ولااعتداد به أصلا . وتقول أخرى « هذا شىء » تريد شىء له قدر وخطر ، وتجرى لك هذه الوجوه فى أسماء الأجناس كلها تقول : هذا هو الرجل ومن عداه فليس من الرجولية فى شىء . وهذا هو الشعر فحسب : تبالغ فى التفضيل وتجعل حقيقة الجنسية مقصورة على المذكور ، وتقول « هذا رجل » تريد كامل من الرجال ، لاأن من عداه فليس برجل على الكمال ، وقد تقول « هذا إما لارجل» تريد يستحق أن يعدّ فى الرجال ، ويكون قصدك أن تشير الى أن هناك واحداً آخر لا يدخل فى الاعتداد أصلا ولا يستحق اسم الرجل

واذا كان هذا هو الطريق المهيع (١) فى الوضع من الشىء وترك الاعتداد به والتفضيل له والمبالغة فى الاعتداد به ، فكل صفتين تضادتا ثم أريد نقص الفاضلة منهما عبر عن نقصها باسم ضدها فجعلت الحياة العارية من فضيلة العلم والقدرة موتاً والبصرَ والسمعَ — اذا لم ينتفع صاحبهما بما يسمع ويبصر فلم يفهم معنى المسموع ولم يعتبر بالمبصر أو لم يعرف حقيقته — عمًى وصمما ، وقيل للرجل « هو أعمى أصم » — يراد أنه لا يستفيد شيئا مما يسمع

(١) أى الواسع وهو من الهيع بمعنى الانبساط على وجه الارض لامن الهيوع : الجبن

ويبصر فكأنه لم يسمع ولم يبصر . وسواء عبرت عن نقص الصفة بوجود ضدها أو وصفها بمجرد العدم (١) وذلك أن فى اثبات أحد الضدين وصفا للشيء ونفيا للضد الآخر لاستحالة أن يوجدا معاً فيه فيكون الشخص حياً ميتاً معاً ، أصم سميعاً فى حالة واحدة . فقولك فى الجاهل : هو ميت بمنزلة قولك : ليس بحى ، وان الوجود فى حياته بمنزلة العدم . هذا هو ظاهر المذهب فى الأمر والحكم اذا أطلق القول . فأما اذا قيد كقوله : « أصم عما ساءه سميع » فتثبت له الصفتان معا على الجملة . الا أن مرجع ذلك الى أن يقال انه كان يفقد السمع فى حال ويعود اليه فى حال أو أنه فى حق هذا الجنس فاقد الادراك مسلوبه وفيما عداه كائن على حكم السميع فلم يثبت له الصمم على الجملة الا للحكم بأن وجود سمعه كالعدم ، الا أن ذلك فى شيء دون شيء وعلى التقييد دون الاطلاق

فقد تبين اذن أن أصل هذا الباب تنزيل الوجود منزلة المعدوم لكونه بحيث لايعتد به وخلوه من الفضيلة .

***

﴿ والطريق الثانى ﴾ فى شبه المعقول من المعقول أن لا يكون على تنزيل الوجود منزلة العدم ولكن على اعتبار صفة معقولة (٢) يتصور وجودها مع ضد ما استعرت اسمه . فمن ذلك أن يراد وصف الامر بالشدة والصعوبة والبلوغ فى كونه مكروها الى الغاية القصوى فيقال « لقى الموت » يريدون لقى الأمر الأشد الصعب الذى هو فى كراهة النفس له كالموت .

(١) وفى نسخة « أو وصفتها »

(٢) الصفة المعقولة كشدة الصعوبة والكراهة ويتصور وجودها مع الحياة وهو ضد مااستعرت لها اسمه وهو للوت (ش)

ومعلوم أن كون الشيء شديداً صعباً مكروهاً صفة معلومة لا تنافى الحياة ولا يمنع وجودها معه كما يمنع وجود الموت مع الحياة . ألا ترى أن كراهة الموت موجودة فى الانسان قبل حصوله ؟ كيف وأكره ما يكون الموت اذا صفت مشارع الحياة ، وخصبت [1] مسارح اللذات ، فكلما كانت الحياة أمكن وأتم ، كانت الكراهة للموت أقوى وأشد ، ولم تخف كراهته على العارفين [2] إلا لرغبتهم فى الحياة الدائمة الصافية من الشوائب بعد أن تزول عنهم هذه الحياة الفانيةويدركهم الموت فيها ، فتصورهم لذة الأمن منه ، قلل كراهتهم له ، كما أن ثقة العالم بما يعقبه الدواء من الصحة يهون عليه مرارته . فقد عبرت ههنا عن شدة الأمر بالموت واستعرته له من أجلها . والشدة وحصولها الكراهة موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه فليس التشبيه اذن من طريق الحكم على الوجود بالعدم وتنزيل ما هو موجود كأنه قد خلع صفة الوجود، وذلك أن هذا الحكم إنما جرى فى تشبيه الجهل بالموت وجعل الجاهل ميتا من حيث كان للجهل ضد يتافى الموت ويضاده وهو العلم ، فلما أردت أن تبالغ فى نفى العلم الذى يجب مع نفيه الجهل ، جعلت الجهل موتا لتؤيس من حصول العلم للمذكور وليس لك هذا فى وصف الامر الشديد المكروه بأنه موت ، ألا ترى أن قوله :

لاتحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

لايفيد أن للسؤال ضداً ينافى الموت أو يضاده على الحقيقة وأن هذا القائل قصد بجعل السؤال موتا نفى ذلك الضد وأن يؤيس من وجوده وحصوله بل أراد أن فى السؤال كراهة ومرارة مثل ما فى الموت . وان نفس الحر

---

(١) خصب من بابى ضرب وعلم

(٢) أى العارفين بالله المنصرفين لعبادته

تنفر منه كما تنفر نفوس الحيوان جملة من الموت وتطلب الحياة ما أمكن فى الخلاص منه

فان قلت : المعنى فيه أن السؤال يكسب الذل وينفى العز ، والذليل كالميت لفقد القدرة والتصرف ، فصار كتسميتهم خمول الذكر موتاً ، والذكر بعد الموت حياة ، كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه « مات خُزان المال والعلماء باقون مابقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة ، » (قلت) انى آنس أنهم لم يقصدوا هذا المعنى فى السؤال وانما أرادوا الكراهة ، ولذلك قال بعد البيت الذى كتبته :

كلاهما موت ولكن ذا   أشد من ذاك لذل السؤال (١)

هذا . وليس كل ما يعبر عنه بالموت لأنه يكره ويصعب ولا يستسلم له العاقل الا بعد أن تعوزه الحيل فانه يحمل هذا الحمل وينقاد لهذا التأويل ، أترى المتنبى فى قوله :

وقد مت أمس بها (٢) موتة   ولا يشتهى الموت من ذاقه

أراد شيئا غير أنه لقى شدة . وأما العبارة عن خمول الذكر بالموت فانه وان كان يدخل فى تنزيل الوجود منزلة العدم من حيث يقال ان الخامل لما لم

(١) وفى نسخة . أشد من ذاك على كل حال

(٢) الضمير راجع الى الخمر فان الكلام فيها ، قال قبل البيت :

وجدت المدامة غلابة   تهيج للقلب أشواقه
تسىء من المرء تأديبه   ولكن تحسن أخلاقه
وأنفس ما للفتى لبه   وذو اللب يكره انفاقه

قال شيخنا فى قوله تسىء من المرء تأديبه الخ أى تغلبه فتخرجه عن قيود الحشمة فى اللفظ والحركات ، ولكنها تغلب منه الخوف والبخل فيشجع و يسخو وهذا مايريده من تحسينها لأخلاقه

يذكر ولم يبن منه مايتحدث به صار كالميت الذى لا يكون منه قول بل ولا فعل يدل على وجوده ، فليس دخوله فيه ذلك الدخول ؛ وذلك أن الجهل ينافى العلم ويضاده كما لا يخفى ، والعلم اذا وجد فقد وجدت الحياة حتما واجبا ، وليس كذلك خمول الذكر والذكرُ ، لانه ليس اذا وجد الذكر فقد وجدت الحياة لأنك تحدث عن الميت بأفعاله التى كانت منه فى حال الحياة فيتصور الذكر ولا حياة على الحقيقة، ولا يتصور العلم ولا حياة على الحقيقة ، وهكذا القول فى الطرف الآخر وهو تسمية من لا يعلم ميتا وذلك أن الموت هاهنا عبارة عن عدم العلم وانتفائه : وعدم العلم على الاطلاق حتى لا يوجد منه شيء أصلا وحتى لا يصح وجوده يقتضى وجود الموت على الحقيقة . ولا يمكن أن يقال ان خمول الذكر يوجب الموت على الحقيقة . فانت اذن فى هذا تنزل الوجود منزلة العدم على وجه لا ينصرف الى الحقيقة ولا يصير اليها وانما يمثل ويخيل . وأما فى الضرب الاول وهو جعل من لا يعلم ميتا ومن يعلم هو الحى فانك تلاحظ الحقيقة وتشير اليها وتحطب فى حبلها[1] فاعرفه .

وأما قولهم فى الغنى اذا كان بخيلا لا ينتفع بماله « ان غناه فقر » فهو فى الضرب الأول أعنى تنزيل الوجود منزلة العدم لتعرى الوجود مما هو المقصود منه . وذلك أن المال لا يراد لذاته وانما يراد للانتفاع به فى الوجوه التى تعدها العقلاء انتفاعا ، فاذا حرم مالكه هذه الجدوى وهذه الفائدة فملكه له وعدم الملك سواء . والغنى اذا صرف الى المال فلا معنى له سوى ملك الانسان الشيء الكثير منه ، ألا تراه يذكر مع الثروة فيقال

(١) أى تنصرها وتميل اليها (ش) وحطب من باب ضرب

« غنى مثر مكثر » فاذا تبين بالعلة التى مضت انه لايستفيد بملكه هـذا المال معنى ، وأن لاطائل له فيه ، فقد ثبت أن غناه والفقر سواء لان الفقر أن لايملك المـال الـكثير . وأما قول اللؤماء : ان انتفاعه فى اعتقاده أنه متى شاء انتفع به ، وما يجد فى نفسه من عزة الاستظهار ، وانه يهاب ويكرم من أجله ؛ فمن أضاليل المنى : وقد يهان ويذل ويعذب بسببه حتى تنزع الروح دونه .

ثم ان هـذا الـكلام وضعه العقلاء الذين عروفوا ما الانتفاع ، وهـذا المخالف لاينـكر أن الانتفاع لو عدم كان ملـكه الآن لـمال وعدم ملـكه سواء ، وانمـا جاء يتطلب عذراً ، ويرخى دون لؤمه ستراً ، ونظير هـذا انك ترى الظالم المجترىء على الأفعال القبيحة يدعى لنفسه الفضيلة بأنه مديد الباع طويل اليد ، وانه قادر على أن يلجىء غيره الى التطامن له ثم لايزيده احتجاجه الا خزياً وذلا عند الله وعند الناس . وترى المصدق له فى دعواه أذم له وأهجى من المـكذب لأن الذى صدقه أيس من أن ينزع الى الانسانيـة بحال والذى كذب رجا أن ينزع عند التنبيه والـكشف عن القبيـح .

وأما قولهم فى القناعة انها الغنى كقوله : * إن القنوع [1] الغنى لا كثرة المال * يريد القناعة وكما قال الآخر :

ان القناعة فاعلمنّ غـنى والحرص يورث أهله الفقرا

(١) القنوع بالضم السؤال ، فقنع يقنع كسأل يسأل وزنا ومعنى . ومنه (وأطعموا القانع والمعتر) أى السائل والمعترض الذى يطيف ولا يسأل ، وأما القناعة فهى ضد القنوع ومعناها الرضى بما قسمه الله تعالى وعدم السؤال والاستشراف وفعلها من باب فرح قنعا (بالتحريك) وقناعة فهو قنع (كفرح) وقنوع قال شيخنا ومن دعائهم : نسأل الله القناعة ونعوذ به من القنوع . وفى الأساس : العز فى القناعة والذل فى القنوع وهو السؤال .

وجعلهم الكثير المال [١] اذا كان شرها حريصاً على الازدياد فقيراً . فما يرجع الى الحقيقة المحضة وان كان فى ظاهر الكلام كالتشبيه والتمثيل . وذلك أن حقيقة الغنى هو انتفاء الحاجة ، والحاجة أن تريد الشيء ولا تجده ، والكثير المال اذا كان الحرص عليه غالباً ، والشره له أبداً صاحباً ، وكان حاله كحال من به كلب الجوع يأكل ولا يشبع ، أو من به البغر [٢] يشرب ولا يروى فكما أن اصابته من الطعام والشراب القدر الذى يشبع ويروى — اذا كان المزاج معتدلا والصحة صحيحة — لا تنفى عنه صفة الجائع والظمآن لوجود الشهوة ودوام مطالبة النفس وبقاء لهيب الظمأ وجهد العطش كذلك الكثير المال لا تحصل له صفة الغنى ولا تزول عنه صفة الفقر مع بقاء حرصه الذى يديم له القرَم [٣] والشهوة والحاجة والطلب والضجر حين يفقد الزيادة التى يريدها وحين يفوته الربح من تجاراته ، وسائر متصرفاته ، حتى لا يكاد يفصل بين حاله وقد فاته ماطلب ، وبينها وقد أخذ بعض ماله وغصب ، ومن أين تحصل حقيقة الغنى لذى المال الكثير وقد تراه من بخله وشحه كالقيد دون ماملكه والمغلول اليد يموت صبراً ويعانى بؤساً ولا تمتد يده الى مايزعم أنه يملكه فينفقه فى لذة نفس أو فيما يكسب حمداً اليوم وأجراً غداً . ذلك لانه عدم كرماً يبسط أنامله ، وجوداً ينصر آمله ، وعقلا يبصره ، وهمة تمكنه مما لديه ، وتسلطه عليه ، كما قال البحترى :

وواجد مال أعوزته سجية   تسلطه يوماً على ذلك الوُجد

---

(١) هذا مقابل ماسبق من عزم الانتفاع بالمال فان ذلك مجازه اذا سمى فقيرا . وأما الحريص مع كثرة المال اذا سمى فقيرا فهو حقيقة (كتبه ش) .

(٢) البغر بالغين المعجمة محركا عطش يصيب الابل فتشرب ولا تروى وفعله كفرح ومنع .

(٣) القرم شدة شهوة أكل اللحم وتجوز به عن الشوق الشديد للشيء .

فقولهم إذن « ان القناعة هى الغنى لا كثرة المال » اخبار عن حقيقة نفذت بها قضايا العقول وصححتها الخبرة والعبرة ، ولكن رب قضية من العقل نافذة قد صارت كأنها من الأمور المتجوز فيها أو دون ذلك فى الصحة لغلبة الجهل والسفه على الطباع ، وذهاب من يعمل بالعقل ويذعن له ، ويطرح الهوى ويصبو الى الجميل ، ويأنف من القبيح ولذهاب الحياء وبطلانه ، وخروج الناس من سلطانه ، ويأس العاقل من أن يصادف عندهم ـ ان نبّه أو ذكر ـ سمعاً يعى ، وعقلاً يراعى ، فجرىُ الغنى على كثرة المال والفقر على قلته مما يزيله العرف عن حقيقته فى اللغة . ولما كان الظاهر من حال الكثير المال انه لايعجز عن شىء يريده من لذاته وسائر مطالبه سمى المال الكثير غنى ، وكذلك لما كان من قل ماله عجز عن إرادته سمى قلة المال فقراً ، فهو من جنس تسمية السبب باسم المسبب والا فحقيقة الغنى انتفاء الاحتياج وحقيقة الفقر الاحتياج ، والله تعالى الغنى على الحقيقة لاستحالة الاحتياج عليه جل وتعالى عن صفات المخلوقين . وعلى ذاك ماجاء فى الخبر من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ماالمفلس ؟ قالوا المفلس فينا يارسول الله من لادرهم له ولا متاع » قال : « المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وزكاته وصيامه فيأتى وقد شتم هذا وأكل مال هذا وقذف هذا وضرب هذا وسفك دم هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يفنى ماعليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » وذاك أنه صلى الله عليه وسلم بين الحكم فى الآخرة فلما كان الانسان انما يعد غنياً فى الدنيا بماله لانه يجتلب به المسرة ، ويدفع المضرة ، وكان هذا الحكم فى الآخرة للعمل الصالح ؛ ثبت لامحالة أن يكون

الخالى — نعوذ بالله — من ذلك المفلس ، إذ قد عرى مما لأجله يسمى الخالى من المال فى الدنيا مفلساً ، وهو مايوصله الى الخير والنعيم ، ويقيه الشر والعذاب ، نسأل الله التوفيق لما يؤمن من عقابه .

واذا كان البحث والنظر يقتضى أن الغنى والفقر فى هـذا الوجه دالان على حقيقة هـذا التركيب فى اللغـة (١) كقولك غنيت عن الشيء واستغنيت عنه اذا لم تحتج اليـه ، وافتقرت الى كذا اذا احتجت اليـه ، وجب أن لايعدواها ههنا فى المستعار والمنقول عن أصله .

فصل

ان قال قائل ان تنزيل الوجود منزلة العـدم أو العدم منزلة الوجود ليس من حديث التشبيه فى شيء لان التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معانى ذاك أو حـكماً من أحـكامه كاثباتك للرجل شجاعة الأسـد ، وللحجة حكم النور ، فى انك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء . واذا قلت فى الرجل القليل المعانى هو معـدوم أو قلت هو والعـدم سواء فلست تأخذ له شبهاً من شيء ولـكنك تنفيه وتبطل وجوده كما أنك اذا قلت ليس هو بشيء أو ليس برجل كان كذلك . وكما لايسمى أحـد نحو قولنا « ليس بشيء » تشبيهاً كذلك ينبغى أن لايـكون قولك وأنت تقلل الشيء أخبرت عنه « معـدوم » تشبيهاً . وكذلك اذا جعلت المعدوم موجوداً كقولك مثلا للمال يذهب ويفنى ويثمر صاحبـه ذكراً جميـلا وثناء حسناً

(١) قوله حقيقة هذا التركيب أى الحاجة الى الشيء أوعدم الحاجة اليه قال شيخنا والمراد من هذا التركيب ماذكره بقوله . غنيت عن الشيء واستغنيت عنه .

« انه باق لك موجود » لم يكن ذلك تشبيهاً بل إنكاراً لقول من نفى عنه الوجود حتى كأنك تقول عينه باقية كما كانت : وانما استبدل بصورة صورة فصار جمالا ، بعد ما كان مالا ، ومكارم ، بعد أن كان دراهم . واذا ثبت هذا فى نفس الوجود والعدم ثبت فى كل ما كان على طريق تنزيل الصفة الموجودة كأنها غير موجودة نحو ماذكرت من جعل الموت عبارة عن الجهل فلم يكن ذلك تشبيهاً لانه اذا كان لايراد بجعل الجاهل ميتاً الا نفى الحياة عنه مبالغة ونفى العلم والتمييز والاحساس الذى لايكون الا مع الحياة كان محصوله انك لم تعتد بحياته ، وترك الاعتداد بالصفة لا يكون تشبيها انما هو نفى لها وإنكار لقول من أثبتها .

فالجواب أن الأمر كما ذكرت ولكن تتبعت فيما وضعته ظاهر الحال ونظرت الى قولهم « موجود كالمعدوم ، وشىء كلاشىء ، ووجود شبيه بالعدم » فان أبيت أن تعمل على هذا الظاهر لم أضايق فيه الا أن من حقك أن تعلم أنه لاغنى بك عن حفظ الترتيب الذى رتبته فى إعطاء المعقول اسم معقول آخر أعنى لابد من أن تعلم أنه يجىء على طريقين (أحدهما) تنزيل الوجود منزلة العدم كما مضى من أن جعل الموت عبارة عن الجهل وإيقاع اسمه عليه يرجع الى تنزيل حياته الموجودة كأنها معدومة (والثانى) أن لايكون هذا المعنى ولكن على أن لأحد المعنيين شبهاً بالآخر نحو ان السؤال يشبه فى كراهته وصعوبته على نفس الحر الموت .

واعلم أنى ذكرت لك فى تمثيل هذه الأصول الواضح الظاهر ؛ القريب المتناول ، الكائن من قبيل المتعارف فى كل لسان ، وما تجد اعترافاً به وموافقة عليه من كل انسان ، أو مايشابه هذا الحد ويشاكله ،

ويداخل هذا الضرب ويشاركه ، ولم أذكر مايدق ويغمض ، ويلطف ويغرب ، وما هو من الأسرار التى أثارتها الصنعة ، وغاصت عليها فكرة الافراد من ذوى البراعة فى الشعر ، لان القصد اذا كان لتمهيد الأساس ، ووضع قواعد للقياس ، كان الأولى أن يعمد الى ماهو أظهر وأجلى من الأمثلة لتكون الحجة بها عامة لايصرف وجهها بحال ، والشهادة تامة لاتجد من السامعين غير قبول وإقبال ، حتى اذا تمهدت القواعد ، وأحكمت العرى والمعاقد ، أخذ حينئذ فى تتبع مااخترعته القرائح ، وعمد الى حل المشكلات عن ثقة بأن هيئت المفاتح .

هذا — وفى الاستعارة بعد من جهة القوانين والأصول شغل الفكر ، ومذهب القول ، وخفايا ولطائف تبرز من حجبها بالرفق ، والتدريج والتلطف والتأنى. ولكنى أظن أن الصواب ان أنقل الكلام الى القول على التشبيه والتمثيل وحقيقتهما ، والمراد منهما ، خصوصا فى كلام من يتكلم على الشعر ، ونتعرف أهما متساويان فى المعنى أو مختلفان ؟ أم جنسهما واحد الا أن أحدهما أخص من الآخر ؟ وأنا أضع لك جملة من القول نبين بها هذه الأمور .

التشبيه والتمثيل

« التشبيه وأقسامه »

اعلم أن الشيئين اذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين (أحدهما) أن يكون من جهة أمر بين لايحتاج فيه الى تأول (والآخر)

أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول . فثال الأول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل ، نحو ان يشبه الشيء اذا استدار بالكرة فى وجه وبالحلقة فى فى وجه آخر . وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار . وتشبيه سقط النار (١) بعين الديك ، وما جرى فى هذا الطريق ، أو جمع الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنثور ، والنرجس بمداهن (٢) در حشوهن عقيق . وكذلك التشبيه من جهة الهيئة نحو انه مستو منتصب مديد ، كتشبيه القامة بالرمح ، والقد اللطيف بالغصن . ويدخل فى الهيئة حال الحركات فى أجسامها كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد ، ومن تاخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح (٣) ونحو ذلك . وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج كما قال :

كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخرِ الميس إنقاض الفراريج (٤)

تقدير البيت : كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا ، ثم فصل بين المضاف والمضاف اليه بقوله « من إيغالهن » وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازى كما قال :

---

(١) السقط مثلثة والكسر أشهر مايسقط بين الزندين عند القدح، وزاد بعضهم قبل استحكام الورى .

(٢) المداهن جمع مدهن بضمتين وهو مايجعل فيه الدهن ووزنه شاذ والقياس الكسر لانه من أسماء الآلة .

(٣) الأريحية بسكون الراء حالة يرتاح معها الى البذل . والبارح الريح الشديدة .

(٤) الميس شجر تتخذ منه الرحال للينه وقوته ويطلق على الرحال نفسها وهو المراد هنا .

كأن على أنيابها كل سحرة ... صياح البوازى من صريف اللوائك (١)

وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له . وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر وتشبيه اللين الناعم بالخز والخشن بالمسح (٢) أو رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور أو رائحة بعضها ببعض كما لايخفى وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد فى الشجاعة والذئب فى النكر . والأخلاق كلها تدخل فى الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم . وكذلك تشبيه الرجل بالرجل فى الشدة والقوة وما يتصل بها .

فالشبه فى هذا كله بين لايجرى فيه التأول ولا يفتقر اليه فى تحصيله وأى تأول يجرى فى مشابهة الخد للورد فى الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؟ وكذلك تعلم الشجاعة فى الأسد كما تعلمها فى الرجل .

(ومثال الثانى) وهو الشبه الذى يحصل بضرب من التأول كقولك هذه حجة كالشمس فى الظهور ، وقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها كما شبهت فيما مضى الشىء بالشىء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما الا انك تعلم أن هذا التشبيه لايتم لك الا بتأول . وذلك أن تقول حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها ولذلك يظهر الشىء لك ولا

(١) السحرة بالضم: السحر الأعلى وهو ماقبل انصداع الفجر ، والسحر الآخر عند انصداعه واللوائك المواضغ جمع لائكة اسم فاعل مؤنث من اللوك وهو المضغ أو أهونه كمضغ البعير .

(٢) المسح بالكسر البلاس وهو ثوب من الشعر غليظ كما فى التهذيب (ش) وجمع المسح مسوح كحمل وحمول ، والبلاس بالفتح فارسى معرب ويتخذ بساطا وكساء .

يظهر لك اذا كنت من وراء حجاب أو لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب

ثم تقول إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ماهى شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين أن ترى ماهو من ورائه . ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذى يروم القلب إدراكه ويصرف فكره للوصول اليه من صحة حكم أو فساده ، فاذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذى هو الحجة على صحة ماأدى من الحكم قيل هذا ظاهر كالشمس ، أى ليس ههنا مانع عن العلم به ولا للتوقف والشك فيه مساغ ، وأن المنكر له اما مدخول فى عقله أو جاحد مباهت ومسرف فى العناد ، كما أن الشمس الطالعة لايشك فيها ذو بصر ولاينكرها الا من لاعذر له فى انكاره . فقد احتجت فى تحصيل الشبه الذى أثبته بين الحجة والشمس الى مثل هذا التأول كما ترى .

ثم ان ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً فنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول اليه ويعطى المقادة طوعا حتى انه يكاد يداخل الضرب الاول الذى ليس من التأول فى شيء وهو ماذكرته لك . ومنه ما يحتاج فيه الى قدر من التأمل ، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه الي فضل روية ولطف فكرة

فما يشبه الذى بدأت به فى قرب المأخذ وسهولة المأتى قولهم فى صفة الكلام : ألفاظه كالماء فى السلاسة وكالنسيم فى الرقة وكالعسل فى الحلاوة . يريدون أن اللفظ لايستغلق ولا يشتبه معناه ولا يصعب الوقوف عليه وليس هو بغريب وحشى يستكره لكونه غير مألوف . أوما

ليس فى حروفه تكرير وتنافر يكد اللسان من أجلهما [١] فصارت لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق والنسيم الذى يسرى فى البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ، ويهدى الى القلب روحا ويوجد فى الصدر انشراحا ، ويفيد النفس نشاطا ، وكالعسل الذى يلذ طعمه ، وتهش النفس له ويميل الطبع اليه ، ويحب وروده عليه . فهذا كله تأول ورد شيء الى شيء بضرب من التلطف ، وهو أدخل قليلا فى حقيقة التأول ، وأقوى حالا فى الحاجة اليه من تشبيه الحجة بالشمس

وأما ما تقوى فيه الحاجة الى التأول حتى لايعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع فنحو قول كعب الأشقرى وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس ، فسأله فى آخر القصة قال فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ [٢] قال كانوا حماة السرح نهاراً فاذا أليلوا ففرسان البيات [٣] قال فأيهم كان أنجد ؟ قال « كانوا كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها ، [٤] فهذا كما ترى ظاهر الأمر فى فقره الى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لايفهمه حق فهمه الا من له ذهن ونظر

---

(١) الكد الاتعاب ويقال كد لسانه تجوزا كما فى الأساس

(٢) أى فى القوم المحاربين

(٣) السرح المال السائم من الانعام . وأليلوا (كاكرموا) دخلوا فى الليل والبيات الهجوم على العدو ليلا . قال شيخنا أى يقظون لايطرقهم طارق إلا كانوا على صهوات خيولهم لملاقاته وانهم يتبعون العدو ليلا فيفجعونه اهـ

(٤) هذا المثل من كلام فاطمة بنت الخرشب (بضم فسكون فضم) الأنمارية احدى المنجبات فى الجاهلية وهى أم الكملة من بنى عبس — الربيع وعمارة وأنس الفوارس واخوتهم . سألها أبو سفيان حين قدمت عليه مكة حاجة فى الجاهلية « أى بنيك أفضل ؟ » فقالت الربيع لا بل عمارة لا بل أنس الفوارس ، ثكلتهم ان كنت أدرى أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة الخ ، فقد أخذه كعب الاشقرى ووصف به بنى المهلب

يرتفع به عن طبقة العامة . وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس فانه كالمشترك البين الاشتراك حتى يستوى فى معرفته اللبيب اليقظ والضعوف المغفل .

وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت قد تجده فى كلام العامى . فأما ما كان مذهبه فى اللطف مذهب قوله « هم كالحلقة » فلا تراه الا فى الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة

الفرق بين التشبيه والتمثيل

واذا قد عرفت الفرق بين الضربين فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا . فأنت تقول فى قول قيس ابن الخطيم :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى ... كعنقود ملاحية حين نوّارا[1]

انه تشبيه حسن ولا تقول هو تمثيل . وكذلك تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها ، لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض وكل مالا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول كقوله :

كأن عيون النرجس الغض حولها ... مداهن در حشوهن عقيق

وقوله :

وأرى الثريا فى السماء كأنها ... قدم تبدت من ثياب حداد

وقوله وتروم الثريا فى الغروب مراما
كانكباب طمر كاديلقى اللجاما[2]

(١) الملاحى بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها عنب أبيض طويل ، ونور الزرع تنويرا : أدرك ، والتمر خلق فيه النوى .

(٢) الطمر بكسرتين وراء مشددة: الفرس الجواد أو المستعد للوثب والعدو

وقوله :

قد انقضت دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لأكل عنقود

وقوله :

لما تعرى أفق الضياء مثل ابتسام الشفة اللمياء
وشمطت ذوائب الظلماء قدنا لعين الوحش والظباء
داهية محذورة اللقاء ويعرف الزجر من الدعاء
باذن ساقطة الأرجاء كوردة السوسنة الشهباء(١)
ذا برثن كمثقب الحذاء ومقلة قليلة الاقذاء
* صافية كقطرة من ماء *(٢)

---

(١) فى رواية الشهلاء بدل الشهباء

(٢) هذا ماوجد فى الكتاب باتفاق النسختين والذى فى ديوان ابن المعتز بعد قوله « داهية محذورة اللقاء » هو :

شائلة كالعقرب السمراء مرهفة مطامة الاحشاء كمدة من قلم سوداء
أو هدبة من طرف الرداء تحملها أجنحة الهواء تستلب الخطو بلاإبطاء
تمشى الانكب فى الرمضاء أسرع من جفن الى إغضاء وخطفا موثق الاعضاء
خالفها بجلدة بيضاء كأثر الشهاب فى السماء

ولاكلام تتمة أيضا بعدما أورده المصنف وهى :

ينساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حية رقطاء آنس بين السفح والفضاء
سرب ظباء رتع الاطلاء فى عازب منور خلاء أحوى كبطن الحية الخضراء
فيه كنقش الحية الرقشاء كأنها ضفائر الشمطاء يصطاد قبل الاين والعناء
خمسين لاتنقص فى الاحصاء

الرجز فى الصيد ووصف كلبة وكلب من جوارحه واللمياء السمراء أو اللعساء أى الموشومة . وقوله « وشمطت » الخ الشمط محركة اختلاط الشعر الاسود والابيض=

وما كان من هذا الجنس ولا تريد نحو قوله : (١)

اصبر على مضض الحسو د فان صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكله

وذلك أن احسانه فى النوع الأول أكثر ، وهو به أشهر . وكل مالا يصح أن يسمى تمثيلا فلفظ المثل لايستعمل فيه أيضاً فلا يقال . ابن المعتز حسن الامثال تريد به نحو الأبيات التى قدمتها وانما يقال صالح بن عبد القدوس كثير الامثال فى شعره يراد نحو قوله :

وان من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضراً بعد الذى أبصرت من يبسه

= يريد أول ظهور نور الفجر فى ظلمة الليل وقدنا بوزن قلنا من القود والقيادة . والعين بكسر العين جمع أعين وهو اسم لثور بقر الوحش غلب عليه لاتساع عينه وسوادها والانثى عيناء . وقوله « داهية » شروع فى وصف الكلبة والشائلة التى تشول بذنبها أى ترفعه والعقرب شائلة دائما والناقة الشائل والشائلة ما أتى على حبلها أو وضعها سبعة اشهر فارتفع ضرعها وخف لبنها . وقوله تمشى الانكب أى تتمشى تمشى الانكب وهو البعير ذو النكب وهو بالتحريك الظلع فى المشية وقيل داء عنه الظلع ، وهكذا تمشى الكلاب السلوقية وهذا الوصف لاينافى السرعة فيه . وقوله « ومخطفا » شروع فى وصف الكلب وهو بضم الميم وفتح الطاء منطوى الاحشاء . وموثق الاعضاء بالتشديد محكمها . وخالفها أى خالف الكلبة . ومثقب الحذاء (الاسكاف) معروف . وآنس أبصر والرتع جمع الراتع أى الراعية . والاطلاء جمع طلا بالفتح وهو ولد الظبى ساعة يولد والعازب الكلأ فى فلاة لازرع فيها ولا تصل اليه الماشية وأراد مكانه ، والمنور اسم فاعل من نور الزرع بمعنى أدرك . والاحوى الضارب الى السواد من شدة خضرته وكذا الأحمر الضارب الى السواد . والاين الاعياء .

(١) « وما كان » الخ عطف على « تشبيه المبصرات ... وكل مالا يوجد الخ » فى ص ٧٥ وقوله « ولا تريد » الخ عطف على « نعنى تشبيهه قبله . أعنى أن هذا المعطوف على الفعل « تعنى » وما قبله معطوف على مفعوله

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجرى فيه التأول، ولكن إن قلت فى قول ابن المعتز :

فالنار تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكله

انه تمثيل ، فمثل الذى قلت ينبغى أن يقال ؛ لأن تشبيه الحسود اذا صبر عليه وسكت عنه وترك غيظه يتردد فيه بالنار التى لاتمد بالحطب حتى يأكل بعضها بعضاً مما حاجته الى التأول ظاهرة بينة

فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين التشبيه والتمثيل . وفى تتبع ما أجملت من أمرهما وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأنس بالحقائق .

فصل

اعلم أن الذى أوجب أن يكون فى التشبيه هذا الانقسام أن الاشتراك فى الصفة يقع مرة فى نفسها وحقيقة جنسها ، ومرة فى حكم لها ومقتضى ، فالخد يشارك الورد فى الحمرة نفسها ، وتجدها فى الموضعين بحقيقتها ، واللفظ يشارك العسل فى الحلاوة لا من حيث جنسه بل من جهة حكم وأمر يقتضيه ، وهو مايجده الذائق فى نفسه من اللذة ، والحالة التى تحصل فى النفس اذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل اليه الطبع ويقع منه بالموافقة ، فلما كان كذلك احتيج لامحالة — اذا شبه اللفظ بالعسل فى الحلاوة — أن يبين أن هذا التشبيه ليس من جهة الحلاوة نفسها وجنسها ، ولكن من مقتضى لها ، وصفة تتجدد فى النفس بسببها ، وأن القصد أن يخبر بأن السامع يجد عند وقوع هذا اللفظ فى سمعه حالة فى نفسه شبيهة بالحالة التى يجدها

الذائق للحلاوة من العسل حتى لو تمثلت الحالتان للعيون لكانتا تريان على صورة واحدة ، ولوجدتا من التناسب على حد الحمرة من الخد والحمرة من الورد ، وليس ههنا عبارة أخص بهذا البيان من التأول ؟ لأن حقيقة قولنا « تأولت الشيء » انك تطلب ما يؤول اليه من الحقيقة أو الوضع الذى يؤول اليه من العقل لأن « أولت وتأولت » — فعلت وتفعّلت من آل الأمر الى كذا يؤول اذا انتهى اليه والمآل المرجع . وليس قول من جعل أوّلت وتأوّلت « من أول » بشيء لأن مافاؤه وعينه من موضع واحد ككوكب ودَدَن لا يصرف منه فعل ، و « أول » أفعل بدلالة قولنا « أول منه » كقولنا « أسبق منه وأقدم » فالواو الأولى فاء والثانية عين [١] وليس هذا موضع الكلام فى ذلك فيستقصى .

وأما الضرب الأول فاذا كان المثبت من الشبه فى الفرع من جنس المثبت فى الأصل كان أصلا بنفسه ، وكان ظاهر أمره وباطنه واحداً ، وكان حاصل جمعك بين الورد والخد أنك وجدت فى هذا وذاك حمرة والجنس لاتتغير حقيقته بأن يوجد فى شيئين ، وإنما يتصور فيه التفاوت بالكثرة والقلة والضعف والقوة ، نحو أن حمرة هذا الشيء أكثر وأشد من حمرة ذاك

واذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيق الأصلى هو الضرب الأول ، وإن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه . ويزيد ذلك بيانا أن مدار التشبيه على أنه يقتضى ضربا من الاشتراك ومعلوم أن الاشتراك فى نفس الصفة أسبق فى التصور من الاشتراك فى مقتضى

(١) أصل أول قيل أوأل على أفعل أو فوعل ـ أو ـ ووأل أى فعأل وعلى هذا يكون ماذكره الشيخ رأيا آخر (ش)

الصفة كما أن الصفة نفسها مقدمة فى الوهم على مقتضاها ، فالحلاوة أولا ثم إنها تقتضى اللذة فى نفس الذائق لها . وإذا تأملنا متصرف [1] تركيبه وجدناه يقتضى أن يكون الشيئان من الاتفاق والاشتراك فى الوصف بحيث يجوز أن يتوهم أن أحدهما الآخر . وهكذا تراه فى العرف والمعقول فان العقلاء يؤكدون أبداً أمر المشابهة بأن يقولوا لا يمكنك أن تفرق بينهما ولو رأيت هذا بعد أن رأيت ذاك لم تعلم أنك رأيت شيئا غير الأول حتى تستدل بأمر خارج عن الصورة ، ومعلوم أن هذه القضية إنما توجد على الاطلاق والوجود الحقيقى فى الضرب الأول . وأما الضرب الثانى فانما يجىء فيه على سبيل التقدير والتنزيل ، فاما ان لا تجد فصلا بين ما يقتضيه العسل فى نفس الذائق ، وما يحصل باللفظ المرضى والكلام المقبول فى نفس السامع ، فما لا يمكن ادعاؤه إلا على نوع من المقاربة أو المجازفة ، فاما على التحقيق والقطع فلا . فالمشابهات المتأولة التى ينتزعها العقل من الشيء للشيء لا تكون فى حد المشابهات الأصلية الظاهرة بل الشبه العقلى كان الشيء [2] به يكون شبيها بالمشبه به

فصل

ثم ان هذا الشبه العقلى ربما انتزع من شيء واحد كما مضى من انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل . وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها الى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما فى حال الافراد لا سبيل

(١) وفى نسخة منصرف بالنون

(٢) وفى نسخة « كاد الشيء » بدل كان الشيء

الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما . ومثال ذلك قوله عز وجل (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو انه يحمل الأسفار التى هى أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول ، ثم لايحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شىء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى انه يثقل عليه ، ويكد جنبيه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها الى بعض .

بيان ذلك أنه احتيج الى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهو الأسفار التى فيها أمارات تدل على العلوم ، وأن يثلث ذلك بجهل الحمار مافيها حتى يحصل الشبه المقصود . ثم انه لايحصل من كل واحد من هذه الأمور على الانفراد ولا يتصور أن يقال انه تشبيه بعد تشبيه من غير أن يقف الأول على الثانى ويدخل الثانى فى الأول ، لان الشبه لايتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار ، ثم لايتعلق أيضاً بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار ؛ ثم لايتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره ، فما لم تجعله كالخيط الممدود ولم يمزج حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ فى مزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منها على الانفراد بل تبطل صورها المفردة التى كانت قبل المزاج وتحدث صورة خاصة غير اللواتى عهدت ويحصل مذاقها[1] حتى لو فرضت حصولها لك فى تلك الأشياء من غير امتزاج فرضت[2] مالا يكون — لم يتم المقصود[3] ولم تحصل النتيجة المطلوبة وهى الذم بالشقاء فى شىء

(١) وفى نسخة : وتحصل بذاتها

(٢) فرضت جواب لو فرضت

(٣) لم يتهم الخ جواب فما لم تجعله كالخيط الخ (ش)

يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول الى تلك الفائدة واستصحاب مايتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سبباً الى نيل شيء من تلك المنافع والنعم .

ومثال مايجيء فيه التشبيه معقوداً على أمرين الا أنهما لايتشابكان هذا التشابك قولهم « هو يصفو ويكدر ويمر (١) ويحلو ويشج ويأسو ويسرج ويلجم » (٢) لانك وان كنت أردت أن تجمع له الصفتين فليست احداهما ممتزجة بالأخرى لانك لو قلت هو « يصفو » ولم تتعرض لذكر الكدر أو قلت « يحلو » ولم يسبق ذكر « يمر » وجدت المعنى فى تشبيهك له بالماء فى الصفاء وبالعسل فى الحلاوة بحاله وعلى حقيقته ، وليس كذلك الأمر فى الآية لانك لو قلت كالحمار يحمل أسفاراً ولم تعتبر أن يكون جهل الحمار مقروناً بحمله وأن يكون متعدياً الى ماتعدى اليه الحمل لم يتحصل لك المغزى منه . وكذلك لو قلت هم كالحمار فى أنه يجهل الأسفار ولم تشترط أن يكون حمله الأسفار مقروناً بجهله لها لكان كذلك . وكذلك لو ذكرت الحمل والجهل مطلقين ولم تجعل لهما المفعول المخصوص الذى هو الأسفار فقلت هو كالحمار فى أنه يحمل ويجهل ، وقعت من التشبيه المقصود فى الآية بأبعد البعد . والنكتة أن التشبيه بالحمل للأسفار انما كان بشرط أن يقترن به الجهل ولم يكن الوصف بالصفاء والتشبيه بالماء فيه بشرط أن يقترن به الكدر

---

(١) كدر مثلث الدال من باب قعد وحسن وتعب . ويمر بفتح الميم وبضمها

(٢) لو قال يشرح أى يقطع ويلحم أى . . . لكانت كما قبلها كتبه شيخنا على نسخة الدرس وذهب منه تفسير يلحم وهو بضم الياء من ألحم . فاما شرح اللحم وهو المراد فمعناه قطعه طولا ويقال ألحم العظم اذا اعترق اللحم الذى عليه كعرقه ولحمت الرجل وألحمته أطعمته اللحم .

والذلك لو قلت يصفو ولا يكدر لم تزدد فى صميم التشبيه وحقيقته شيئاً وانما استدمت الصفة كقولك يصفو أبداً وعلى كل حال .

فصل

اعلم أن الشبه اذا انتزع من الوصف لم يخل من وجهين أحدهما أن يكون لأمر يرجع الى نفسه والآخر أن يكون لأمر لايرجع الي نفسه فالأول مامضى فى نحو تشبيه الكلام بالعسل فى الحلاوة وذلك أن وجه التشبيه هناك أن كل واحد منهما يوجب فى النفس لذة وحالة محمودة ويصادف منها قبولا وهذا حكم واجب للحلاوة من حيث هى حلاوة أو للعسل من حيث هو عسل .

وأما الثانى وهو ماينتزع منه التشبيه لأمر لايرجع الى نفسه فمثاله أن يتعدى الفعل الى شيء مخصوص يكون له من أجله حكم خاص نحو كونه واقعاً فى موقعه وعلى الصواب أو واقعاً غير موقعه كقولهم « هو كالقابض على الماء والراقم فى الماء » فالشبه ههنا منتزع مما بين القبض والماء وليس بمنتزع من القبض نفسه وذلك أن فائدة قبض اليد على الشيء أن يحصل فيها فاذا كان الشيء مما لايتماسك ففعلك القبض فى اليد لغو وكذلك القصد فى الرقم أن يبقى أثر فى الشيء واذا فعلته فيما لايقبله كان فعلك كلا فعل . وكذلك قولهم « يضرب فى حديد بارد وينفخ فى غير فحم » .

واذا ثبت هذا فكل شبه كان هذا سبيله فانك لاتجد بين المعنى المذكور وبين الشبه اذا أفردته ملابسة البتة . ألا تراك تضرب الرقم فى الماء والقبض عليه لأمور لاشبه بينهما وبينها البتة من حيث هما رقم وقبض .

وإذ قد عرفت هذا فالحمل فى الآية من هذا القبيل أيضاً لأنه تضمن

الشبه من اليهود لا لأمر يرجع الى حقيقة الحمل بل لأمرين آخرين أحدهما تعديه الى الأسفار والآخر اقتران الجهل للأسفار به ، واذا كان الأمر كذلك كان قطعك الحمل عن هذين الأمرين فى البعد من الغرض كقطعك القبض والرقم عن الماء فى استحالة أن يعقل منهما مايعقل بعد تعديهما الى الماء بوجه من الوجوه فاعرفه .

فان قلت ففى اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على حال وذلك أن الحافظ للشيء بقلبه يشبه الحامل للشيء على ظهره ، وعلى ذلك يقال حملة الحديث وحملة العلم كما جاء فى الأثر « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله [١] ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه » فالجواب : أن الأمر وان كان كذلك فان هذا الشبه لم يقصد ههنا وانما قصد مايوجبه تعدى الحمل الى الأسفار مع اقتران الجهل بها به وهو العناء بلا منفعة . يبين ذلك أنك قد تقول للرجل يحمل فى كمه أبداً دفاتر علم وهو بليد لايفهم أو كسلان لايتعلم : ان كان يحمل كتب العلم فالحمار أيضاً قد يحمل تريد أن تبطل دعواه أن له فى حمله فائدة وأن تسوى بينه وبين الحمار فى فقد الفائدة مما يحمل ، فالحمل ههنا نفسه موجود فى المشبه بالحمار ، ثم التشبيه لاينصرف

---

(١) هذا حديث وما بعده حديث آخر . أما الأول فقد رواه ابن منده وغيره مرفوعا من حديث ابراهيم بن عبد الرحمن العذرى وهو مختلف فى صحبته ولفظه «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » والبيهقى فى المدخل مرسلا وضعفه الكثيرون ، وروى عن أحمد تصحيحه ، وكتب شيخنا على حاشية نسخته . قال القعنبى . سمعت رجلا يحدث مالكا هذا الحديث فأعجبه . والخلف بالتحريك والسكون : كل من يجىء بعد من سبقه ، الا أنه بالتحريك فى الخير و بالتسكين فى الشر ، وأما الآخر فهو من ضمن حديث رواه الترمذى والضياء عن زيد بن ثابت بسند صحيح .

اليه من حيث هو حمل وانما ينصرف الى ماذكرت لك من عدم الجدوى والفائدة وانما يتصور أن يكون الشبه راجعاً الى الحمل من حيث هو حمل حيث يوصف الرجل مثلا بكثرة الحفظ للوظائف أو جهدالنفس فى الأشغال المتراكمة وذلك خارج عن الغرض مما نحن فيه .

ومن هـذا الباب قولهم « أخـذ القوس باريها » وذلك أن المعنى على وقوع الأخـذ فى موقعه ووجوده من أهله فلست تشبه من حيث الأخذ نفسه وجنسه ولـكن من حيث الحـكم الحاصل له بوقوعه من بارى القوس على القوس . وكذلك قولهم « مازال يفتل منه فى الذروة والغارب « الشبه مأخوذ بين الفتل وما تعدى اليه من الذروة والغارب ولو أفردته لم تجد شبهاً بينهوبين مايضرب هذا الـكلام مثلا له ، لانه يضرب فى الفعل أو القول يصرف به الانسان عن الامتناع الى الاجابة ، وعن الاباء عليـك فى مرادك الى موافقتك والمصير الى ماتريد منـه . وهـذا لايوجد فى الفتل من حيث هو فتل وانمـا يوجد فى الفتل اذا وقع فى الشعر من ذروة البعير وغاربه (١) .

واعـلم أن هـذا الشبه حكمه واحـد سواء أخـذته مابين الفعل والمفعول الصريح أومايجرى مجرى المفعول . فالمفعول كالقوس فى قولك « أخـذ القوس باريهـا » وما يجرى مجرى المفعول الجار مع المجرور كقولك « كالرقم .

(١) فى حديث الزبير « سأل عائشة الخروج الى البصرة فأبت عليه فما زال يفتل فى الذروة والغارب حتىأجابتـه » جعل و بر ذروة البعير وغار به مثـلا لازالتها عن رأيها كما يفعل بالجمل النفور اذا أريد تأنيسه و إزالة نفاره . والذروة أعلى السنام من البعير ، والغارب الـكاهل من (ذى) الخف وهو مابين السنام والعنق اه (ش) .

فى المـاء . وهو كمن يخط فى المـاء » وكذلك الحال (١) كقولهم : « كالحادى وليس له بعير » فقولك : وليس له بعير — جملة من الحال وقد احتاج الشبه اليها لانه مأخوذ مابين المعنى الذى هو الحـدو وبين هذه الحال كما كان مأخوذاً بين الرقم والمـاء وما بين الفتل والذروة والغارب . وقد تجـد بك حاجة الى مفعول والى الجار مع المجرور كقولك : وهـل يجمع السيفان فى الغمد ؟ وأنت كمن يجمع السيفين فى غمـد . ألا ترى أن الجمع فيه لايغنى بتعديه الى السيفين حتى يشترط كونه جمعاً لهما فى الغمد فمجموع ذلك كله يحصـل الغرض وهكذا نحو قول العامـة : هو كثير الجور على إلفـه ، وقولهم : « كمبتغى الصيد فى عِرِّيسة الأسـد » لان الصيد مفعول وفى عريسة جار مع المجرور .

فاذا ثبت هـذا ظهر منه أنه لابد لك فى هـذا الضرب من الشبه من جمـلة صريحة أو حكم الجملة ، فالجملة الصريحة قولك : أخذ القوس باريهـا . وحكم الجمـلة أن تقول : هـذا منك كالرقم فى المـاء والقبض على المـاء ، فتأتى بالمصـدر أو تقول : كالراقم فى المـاء وكالقابض على المـاء فتأتى باسم الفاعل . وذلك أن المصـدر واسم الفاعل ليسا بجملتين صريحاً ولـكن حكم الجمـلة قائم فيهما وهو أنك أعملتهما عمل الفعل ، ألا ترى أنك عديتهما على حسب ماتعدى الفعل . وخصائص هـذا النوع من التمثيل أكثر من أن تضبط وقد وقفتك على الطريقة .

فهذا أحد الوجوه التى يكون الشبه العقلى بها حاصلا لك من جمـلة من الـكلام وأظنه من أقوى الأسباب والعلل فيه .

---

(١) أى والحال النحوية مثل ماتقدم من المفعول والظرف .

وعلى الجملة فينبغى أن تعلم أن المثل الحقيق والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ماتجده لايحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقلياً محضاً كانت الحاجة الى الجملة أكثر . ألا ترى الى نحو قوله عز وجل (انما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازَّيَّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس) كيف كثرت الجمل فيه حتى انك ترى فى هذه الآية عشر جمل اذا فصلت . وهى وان كان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها جملة واحدة فان ذلك لايمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير اليها واحدة واحدة . ثم ان الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وافراد شطر من شطر حتى انك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه .

ولا ينبغى أن تعد الجمل فى هذا النحو بعد التشبيهات التى يضم بعضها الى بعض والأعراض الكثيرة التى كل واحد منها منفرد بنفسه ، بل بعد جمل تنسق ثانية منها على أولة وثالثة على ثانية وهكذا . فان ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما . ألا ترى أنك اذا قلت زيد كالأسد بأساً والبحر جوداً والسيف مضاء والبدر بهاء ، لم يجب عليك أن تحفظ فى هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً بل لو بدأت بالبدر وتشبيهه به فى الحسن وأخرت تشبيهه بالأسد فى الشجاعة كان المعنى بحاله ، وقوله :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم (١)

انما يجب حفظ هذا الترتيب فيها لأجل الشعر فاما أن تكون هذه الجمل متداخلة كتداخل الجمل فى الآية وواجباً فيها أن يكون لها نسق مخصوص كالنسق فى الأشياء اذا رتبت ترتيباً مخصوصاً كان لمجموعها صورة خاصة فلا (٢) .

وقد يجىء الشىء من هذا القبيل يتوهم فيه أن إحدى الجملتين أو الجمل تنفرد وتستعمل بنفسها تشبيهاً وتمثيلاً ثم لايكون كذلك عند حسن التأمل . مثال ذلك قوله :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت (٣)

هذا مثل فى أن يظهر للمضطر الى الشىء الشديد الحاجة اليه أمارة وجوده ثم يفوته ويبقى لذلك بحسرة وزيادة ترح . وقد يمكن أن يقال ان قولك «أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » تشبيه مستقل بنفسه لاحاجة به الى مابعده من تمام البيت فى إفادة المقصود الذى هو ظهور أمر مطمع لمن هو شديد الحاجة ، الا انه وان كان كذلك فان حقنا أن ننظر فى مغزى المتكلم فى تشبيهه . ونحن نعلم أن المغزى أن يصل ابتداءاً مطمعاً بانتهاء مؤيس وذلك يقتضى وقوف الجملة الأولة على مابعدها من تمام البيت . ووزان هذا أن الشرط والجزاء جملتان ولكنا نقول ان حكمهما حكم جملة واحدة

---

(١) النشر: الريح الطيبة أو أعم . والعنم بالتحريك شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب

(٢) وفى نسخة زيادة لفظ (مقررة) بعد خاصة

(٣) وفى رواية النسخة الأخرى (رجوها) بدل رأوها وأقشعت انجلت يقال قشعت الريح السحاب (من باب منع) كشفته كأقشعته فاقشع وانقشع وتقشع ، مطاوع كتجلى وانجلى مطاوع جلاه وجلاه بمعنى أذهبه

من حيث دخل فى الكلام معنى يربط إحداها بالأخرى حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد فى امتناع أن تحصل به الفائدة . فلو قلت « ان تأتنى » وسكت لم يفد كما لا يفيد اذا قلت « زيد » وسكت فلم تذكر اسما آخر ولا فعلا ولا كان منويا فى النفس معلوما من دليل الحال . ثم ان الأمر وإن كان كذلك فقد يجوز أن يخرج الكلام عن الجزاء فتقول « تأتينى » فتعود الجملة على الافادة لاغنائك لها عن أن ترتبط بأخرى وإزالتك المعنى الذى أوجب فقرها الى صاحبة لها ، إلا أن الغرض الأول يبطل ، والمعنى يتبدل فكذلك الاقتصار على الجملة التى هى « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » تخرج عن غرض الشاعر

فان قلت فهذا يلزمك فى قولك « هو يصفو ويكدر » وذلك ان الاقتصار على أحد الأمرين يبطل غرض القائل ـ وقصده أن يصف الرجل بأنه يجمع الصفتين وأن الصفاء لايدوم . فالجواب : أن بين الموضعين فرقا وان كان يغمض قليلا وهو أن الغرض فى البيت أن يثبت ابتداء مطمعاً مؤنساً أدى الى انتهاء مؤيس موحش ، وكون الشىء ابتداء لآخر هو له انتهاء معنى زائد على الجمع بين الأمرين والوصف بأن كل واحد منهما يوجد فى المقصود ، وليس لك فى قولك : يصفو ويكدر ، أكثر من الجمع بين الوصفين . ونظير هذا أن تقول هو كالصفو بعد الكدر فى حصول معنى يجب معه (١) ربط أحد الوصفين بالآخر فى الذكر ويتعين به الغرض حتى لو قلت يكدر ثم يصفو فجئت بثم التى توجب الثانى مرتبا على الاول وأن أحدهما مبتدأ والآخر بعده — صرت بالجملة الى حد مانحن عليه من الارتباط ووجوب

---

(١) وفى نسخة يوجب بدل يجب

أن يتعلق الحكم بمجموعهما ، ويوجد الشبه ان شبهت ما بينهما على التشابك والتداخل، دون التباين والتزايل

ومن الواضح في كون الشبه معلقا بمجموع الجملتين حتى لا يقع في الوهم تميز إحداهما على الأخرى قوله (١) « بلغني أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام » وذلك أن المقصود من هذا الكلام التردد بين الأمرين وترجيح الرأي فيهما ، ولا يتصور التردد والترجيح في الشيء الواحد ، فلو جهدت وهمك أن تتصور لقولك « تقدم رجلا » معنى وفائدة مالم تقل « وتؤخر أخرى » أو تنوه في قلبك كلفت نفسك شططاً

وذكر أبو احمد العسكري أن هذا النحو من الكلام يسمى المماثلة . وهذه التسمية توهم أنه شيء غير المراد بالمثل والتمثيل ، وليس الأمر كذلك ، كيف وأنت تقول « مثلك مثل من يقدم رجلا ويؤخر أخرى » ووزان هذا أنك تقول : زيد الأسد ، فيكون تشبيها على الحقيقة وإن كنت لم تصرح بحرف التشبيه ومثله أنك تقول : أنت ترقم في الماء ، وتضرب في حديد بارد، وتنفخ في غير فحم ، فلا تذكر ما يدل صريحا على أنك تشبه ولكنك تعلم أن المعنى على قولك : أنت كمن يرقم في الماء وكمن يضرب في حديد بارد وكمن ينفخ في غير فحم ، وما أشبه ذلك مما تجيء فيه بمشبه به ظاهر تقع هذه الأفعال في صفة اسمه أو صفته (٢)

---

(١) قائله يزيد بن الوليد وكان كتب الى محمد بن مروان وهو عامله بأرمينية يطالبه بالبيعة فجاءه كتاب غير صريح فيما يريد فكتب اليه : إني أراك الخ (ش)

(٢) بأن يقال كعابث يرقم في الماء ! وصفة اسمه بأن يقال كرجل الخ (ش)

واعلم أن المثل قد يضرب بجمل لابد فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبهابه ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ونقل الكلام اليه حتى كأنه صاحب الجملة إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة

بيان هذا أن قول النبي صلى الله عليه وسلم « الناس كابل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » (١) لابد فيه من المحافظة على ذكر المشبه به الذى هو الابل . فلو قلت الناس لاتجد فيهم راحلة أو لا تجد فى الناس راحلة كان ظاهر التعسف . وههنا ما هو أشد اقتضاء للمحافظة على ذكر ماتعلق الجملة به وتسند اليه وذلك مثل قوله عز وجل : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) الآية . لو أردت أن تحذف الماء الذى هو المشبه به وتنقل الكلام الى المشبه الذى هو الحياة أردت مالا تحصل منه على كلام يعقل لأن الأفعال المذكورة المحدث بها عن الماء لا يصح إجراؤها على الحياة ، فاحفظ هذا الأصل فانك تحتاج اليه وخصوصا فى الاستعارة على ما يجىء القول فيه إن شاء الله تعالى

والجملة اذا جاءت بعد المشبه به لم تخل من ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون المشبه به معبراً عنه بلفظ موصول وتكون الجملة صلة كقولك : أنت الذى من شأنه كيت وكيت ، كقوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله)

---

(١) الحديث رواه مسلم عن ابن عمر بلفظ « تجدون الناس كابل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة » واختلفوا فيه على أقوال قال النووى أجودها أن المرضى الأحوال الكامل من الناس قليل فيهم جدا كقلة الراحلة فى الابل ، قال قالوا والراحلة هى البعير الكامل الأوصاف الحسن المنظر القوى على الاحمال والاسفار ، سميت راحلة لأنها ترحل أى يجعل عليها الرحل ، فهى فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية بمعنى مرضية ونظائره اهـ

(والثانى) أن يكون المشبه به نكرة تقع الجملة صفة له كقولنا : أنت كرجل من أمره كذا وكذا ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم « الناس كابل مائة لاتجد فيها راحلة » وأشباه ذلك

(والثالث) أن تجيء الجملة مبتدأة وذلك اذا كان المشبه به معرفة ولم يكن هناك الذى كقوله تعالى (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا)

فصل

فى مواقع التمثيل وتأثيره

واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل اذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه (١) ، ونقلت عن صورها الأصلية الى

---

(١) يقول ان للتمثيل مظهرين ، ويتجلى للأنظار فى ثوبين (أحدهما) أن يجيء المعنى ابتداء فى صورة التمثيل ، وهو النادر القليل . ولكنه على قلته فى كلام البلغاء كثير فى القرآن العزيز ، فمنه قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) الآية وقوله بعدها (أو كصيب من السماء) الآية .وقوله عز وجل (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء) وقوله تبارك وتعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) الآية وقوله تبارك اسمه (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) الآية، وغير ذلك (وثانيهما) مايتأثر المعانى ويجيء فى أعقابها لايضاحها وتقريرها فى النفوس وإيداعها التأثير المخصوص ، وهو الذى جعله المصنف أولا ، ومثاله من القرآن قوله تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون) فقد أورده بعدما قرر أمر التوحيد من أول السورة وشنع على الذين اتخذوا من دونه أولياء يقربونهم اليه زلفى ، ونصب الدلائل على نفى هذا الشرك وذكر الجزاء . ومثاله من الشعر مايجيء فى ضروب الكلام الآتية

صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبَّ من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب اليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا ،

فان كان مدحا كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للالف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغُرّ المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر (١)

وإن كان ذما كان مَسُّه أوجع ، ومِيسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ، (٢)

---

(١) مثاله من القرآن قوله تعالى فى وصف الصحابة (ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) ومن الشعر قولنا فى المقصورة :

وإن قسا وديده لان وإن ... يكدر عليه راق وردا وصفا
يؤمن منه الطيش فى شرته ... والحلم والاغضاء منه يرتجى
تواضع عن شمم ورفعة ... ورقة من غير عجز ونى
ألم تر الهواء فى رقته ... ولطفه أوتى شدة القوى
يكاد يلمس الثريا رفعة ... من حيث تلقاه يصافح الثرى

والتمثيل فى البيتين الأخيرين وهو من النوع الأول ، ومنها قول بعضهم :

فتى عيش فى معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(٢) مثاله من القرآن قوله تعالى فى الذى أوتى الآيات فانسلخ منها (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى يخرج لسانه من العطش أو التعب وهو من باب منع ، وقوله تعالى (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ومقمحون =

وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر (١)

وان كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد ، (٢)

وان كان اعتذارا كان الى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسلّ ، ولغـرب الغضب أفل ، وفى عُقَد العقود أنفث وعلى حسن الرجوع أبعث (٣)

= من أقمح الغل الأسير . ترك رأسه مرفوعا لضيقه ، ومن الشعر قوله :

رأيتكم تبدون للحرب عدة ولا يمنع الاسلاب منكم مقاتل

فأنتم كمثل النخل يشرع شوكه ولا يمنع الخراف ما هو حامل

الخراف بالتشديد صيغة مبالغة اسم الفاعل من خرف الثمار اذا جناها ومنه المثل:

ولو لبس الحمار ثياب خز لقال الناس ياك من حمار

(١) مثاله من القرآن ماتقدم من الآيات فى بيان طريقى التمثيل ومن الشعر قوله أبى العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لاتجرى على اليبس

وقول غيره :

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ فى رماد

ومن الأمثال «ان العوان لاتعلم الخمرة» وهى بكسر المعجمة الهيئة من الخمار والعوان بالفتح النصف من النساء أى التى بين الشابة والعجوز ، والمثل يضرب فى المجرب العارف المستغنى عن التعليم ، ومنها « كدابغة وقد حلم الأديم » أى أفسده الحلم وهو بالتحريك دود صغير وقيل : الحلمة الصغيرة من القردان والضخمة ضد

(٢) الشأو السبق والغاية والأمد . وقوله أجد أى أعظم . والألد الشديد الخصومة. مايجيء فى القرآن من بيان عظمة الله تعالى وكماله لايسمى افتخاراً ومثال هذا الضرب من الكلام العزيز وإن اختلفت التسميه قوله (وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ومثاله من الشعر قول عبد المطلب :

لاينزل المجد إلا فى منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

(٣) السخائم الضغائن ؟ وسلها : نزعها واستخراجها ، وغرب السيف: حده ، وفل السيف: ثلمه ، والنفث فى العقد هو النفخ فيها مع إلقاء شيء من الريق عليها لأجل =

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى الى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر وأجدر بأن يجلى الغياية ،[1] ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ويشفى

= تسهيل حلها . ومنه نفث الراقى فى العقدة التى يعقدها ثم يحلها يوهم بذلك الناس أنه أبرم بعقدها رابطة المحبة بين فلان وفلانة و بحلها أنه حل ذلك العقد وأبطل ذلك الارتباط بسحره ؟ وإن الكلام البليغ ليفعل بحسن التمثيل فى حل عقد العقود مالا يفعل السحر ، وان من البيان لسحرا . والاعتذار لا يوجد فى القرآن إلا حكاية عن أصحاب المعاذير الكاذبة ليكون الاعتذار حجة عليهم فهو اعتذار فى الظاهر واحتجاج فى المعنى وأثره ماذكر فى الاحتجاج دون ماذكر هنا كقوله تعالى (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا و بينك حجاب) وأما أمثلته فى الشعر فكثيرة منها :

لا تحسبوا أن رقصى بينكم طرب ... فالطير يرقص مذبوحا من الألم

ومنها فى الاعتذار عن صدود الحبيب :

بأبى حبيبا زارنى فى غفلة ... فبدا الوشاة له فولى معرضا
فكأننى وكأنه وكأنهم ... أمل ونيل حال بينهما القضا

ومن الاعتذار بذكر التمثيل ماوقع لأبى تمام فى قصيدة يمدح بها أحمد ابن المعتصم قيل : انه كان ينشده إياها فبلغ قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فلامه بعض الناس قائلا : قد شبهت ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم بأجلاف العرب (أو ماهذا معناه) فأطرق هنيهة وقال ولم يكونا من القصيدة :

لا تنكروا ضربى له من دونه ... مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

وعمرو هذا هو ابن جابر بن هلال الفزارى و يقال العمران له ولبدر بن عمرو بن جؤية الفزارى ـــ ومما يصلح للاعتذار من الامثال قولهم « كل امرئ فى بيته صبى » يعتذر به عن الدعابة والاسترسال فى المباسطة فى الخلوة وقولهم « لو ترك القطا ليلا لنام »

(١) الغياية بياء بين مثناتين كل ماأظلك من فوق رأسك

الغليل ، (١)

وهكذا الحكم اذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه ، (٢) وإن أردت أن تعرف ذلك وإن كان تقل الحاجة فيه الى

(١) مثاله من القرآن الكريم قوله تعالى فى وصف نعيم الدنيا (كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما) الكفار الزراع لأنهم يكفرون الحب أى يسترونه بالتراب ، وقوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه) الآية . وقوله تعالى (إنا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) وقوله عز وجل (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وقوله سبحانه (فمالهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) وقوله (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) وقوله فى الآية الأخرى (كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل) وقوله فى تمثيل من يحبط عمله الصالح بالايذاء أو الرياء (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) وفى معناه قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد)

ومن الأمثال حديث « ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » وحديث « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » ومن الشعر قول ابن النبيه :

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

وقول غيره :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى والطبيب مريض

(٢) يشير المصنف الى سائر مناحى الكلام كالغزل والرثاء والوصف والشكوى وهى مع الذى ذكر وشائج متشابكة ، وأمشاج ممازجة . وأعمها الوصف فهو الطويل الذيل ، المتدفق السيل ، ومن أمثلته فى القرآن قوله تعالى : (ثم استوى =

التعريف ، ويستغنى فى الوقوف عليه عن التوقيف فانظر الى نحو قول البحترى

= الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين) ومثله قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى) الآية ومنها قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها) وقوله بعده (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار) وهكذا الحق يثبت والباطل يزهق . ومن ذلك الرؤى فانها تمثيل للواقع الذى تعبر به كالرؤى المذكورة فى سورة يوسف عليه السلام ومثاله من الشعر قول ابن النبيه :

والليل تجرى الدرارى فى مجرته كالروض تطفو على نهر أزاهره

وقول بعضهم فى وصف الكاس يملوها الحباب والساقى (أوهذا من تعدد التشبيه)

وكأنها وكأن حامل كأسها اذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها بدر الدجى بكواكب الجوزاء

وفى وصف الامير والجيش :

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب

ومنه قولنا فى المقصورة فى وصف الوفاق :

لم نختلف فى مبتدا مسألة إلا وكان للوفاق المنتهى
كمن على المحيط من دائرة أنى تفارقا فبعد ملتقى

وقولنا منها فى وصف روضة :

والشمس تبدو من خلال دوحها آونة تخفى وطورا تجتلى
كغادة وضاحة قد أتاحت من خلل السجوف ترنو والكوى
تلقى على الروض نثير عسجد فتحسب الروض عروسا تجتلى

وقولنا منها .

والباسقات رفعت أكفها تستنزل الغيث وتطلب الندى

ثبت فى العلوم الطبيعية أن الاشجار تكون سببا لنزول المطر فمثلت هنا بحال المستسقين يجاب دعاؤهم . و يليه قولنا

تمتلج الكربون من ضرع الهوا تؤثرنا بالاكسجين المنتقى

دانٍ على أيدى العفاة وشاسع　　عن كل ند فى الندى وضريب(١)
كالبدر أفرط فى العلو وضوءه　　للعصبة السارين جدُّ قريب(٢)

وفكر فى حالك وحال المعنى معك وأنت فى البيت الأول لم تنته الى الثانى ولم تتدبر نصرته إياه ، وتمثيله له فيما يملى على الانسان عيناه ، ويؤدى اليه ناظراه ، ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه ، وتأملت طرفيه ، فانك تعلم بعد ما بين حالتيك ، وشدة تفاوتهما فى تمكن المعنى لديك ، وتحببه اليك ، ونبله فى نفسك ، وتوفيره لانسك ، وتحكم لى بالصدق فيما قلت ؟

ومعناه أن الاشجار الباسقة ترضع غاز الكربون وتمتصه من الهواء تتغذى به وهو سام لنا وتترك لنا أكسجين الهواء المطهر للدم فى أبداننا باستنشاقناله فى الهواء فمثلت بحال حى عاقل ينتزع مايضر الناس ويؤثرهم بما ينفعهم

وقول ابن دريد فى وصف النوق :

يرسبن فى بحر الدجى وفى الضحى　　يطفون فى الآل اذا الآل طفا

ومن أحسن مايدخل من التمثيل فى باب الغراميات قول المجنون

وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل　　بى النقض والابرام حتى علانيا

وقوله :

كأن القلب ليلة قيل يُغدى　　بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت　　تجاذبه وقد علق الجناح

وقول بعضهم :

وبلاه إن نظرت وإن هى أعرضت　　وقع السهام ونزعهن أليم

وقول الآخر :

إنى وإياك كالصادى رأى نهلا　　ودونه هوة يخشى بها التلفا
رأى بعينيه ماء عز مورده　　وليس عنك دون الماء منصرفا

ومن الأمثال التى تدخل من باب الشكوى « ليس لها راع ولكن حلبة » حلبة بالتحريك جمع حالب والمثل يضرب للامة المظلومة . و « لو كويت على داء لم أكره » يضرب لمن يعاقب على غير ذنب . و «سال بهم السيل وجاش بنا البحر »

(١) الضريب: المثل والنظير　　(٢) أى بالغ الغاية فى القرب

والحق فيما ادعيت » (١)

وكذلك فتعهد الفرق بين أن تقول : فلان يكد نفسه فى قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئا ، وتسكت . وبين أن تتلو الآية وتنشد قول الشاعر(٢)

زوامل للأشعار لاعلم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر (٣)
لعمرك ما يدرى البعير اذا غدا بأوساقه أو راح مافى الغرائر

والفصل بين أن تقول « أرى قوما لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر ، بل فى الاخلاق دقة ، وفى الكرم ضعف وقلة ، وتقطع الكلام ، وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم : أما البيت فحسن وأما الساكن فردىء .

وقول ابن لنكك :

فى شجر السرو منهم مثل له رواء وماله ثمر

وقول ابن الرومى :

فغدا كالخلاف يورق للعين ويأبى الاثمار كل الاباء

وقول الآخر :

فان طرة راقتك فانظر فربما أمر (٤) مذاق العود والعود أخضر

وانظر الى المعنى فى الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر ، ويفتر ثغره ويبسم ، وكيف تشتار الارى من مذاقته (٥) ، كما ترى الحسن فى شارته (٦)

وأنشد قول ابن لنكك :

---

(١) مثال المدح ويتلوه مثال الذم

(٢) الآية قوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراه ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » والشاعر مروان بن سليمان بن يحيي بن أبى حفصة يهجو قوما من رواة الشعر ، رواه ابن برى (ش)

(٣) الزوامل جمع زاملة وهى التى يحمل عليها من الابل وغيرها والأباعر جمع بعير

(٤) أمر صار مرا كمر الثلاثى

(٥) الارى : العسل . واشتياره : اجتناؤه (٦) تطلق الشارة على الهيئة واللباس

اذا أخو الحسن أضحى فعله سمجا رأيت صورته من أقبح الصور

وتبين المعنى واعرف مقداره ثم أنشد البيت بعده :

وهبك كالشمس فى حسن ألم ترنا نفر منها اذا مالت الى الضرر

وانظر كيف يزيد شرفه عندك ، وهكذا فتأمل بيت أبى تمام :[١]

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعا عن البيت الذى يليه ؛ والتمثيل الذى يؤديه ، واستقص فى تعرف قيمته ، على وضوح معناه وحسن مزيته[٢] ثم أتبعه إياه :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته ، واظهر المكنون من حسنه وزينته ، وعطرك بعرف عوده ، وأراك النضرة فى عوده ، وطلع عليك من مطلع سعوده ، واستكمل فضله فى النفس ونبله ، واستحق التقديم كله ، إلا بالبيت الأخير ، ومافيه من التمثيل والتصوير ،

وكذلك فرق فى بيت المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك : ان الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ويخيل اليه فى الصواب أنه خطأ . هل كنت تجد هذه الروعة ؟ وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقذه[٣] وقمعه وردعه ، والتهجين له والكشف عن نقصه ، مابلغ التمثيل فى البيت وينتهى الى حيث انتهى

---

(١) شروع فى مثال الحجاج

(٢) وفى نسخة بزته

(٣) وقم الرجل: قهره وأذله ورده عن حاجته أقبح الرد. والوقذ الضرب القاتل بغير محدد يكون أطول ألما وأشد تعذيبا ولأجله حرمت الموقوذة ويسند الى الكلام تجوزا

وان أردت [١] اعتبار ذلك فى الفن الذى هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول : ان الذى يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره ، — وتقتصر عليه — وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء فى الخبر من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضىء للناس ويحرق نفسه » ويروى « مثل الفتيلة تضىء للناس وتحرق نفسها » [٢] وكذا فوازن بين قولك للرجل وأنت تعظه « انك لاتجزى على السيئة حسنة فلا تغر نفسك » وتمسك . وبين أن تقول فى أثره « إنك لا تجنى من الشوك العنب وانما تحصد ما تزرع » وأشباه ذلك . وكذا بين أن تقول: لاتكلم الجاهل بما لا يعرفه ونحوه . وبين أن تقول لاتنثر الدر قدام الخنازير . أو لا تجعل الدر فى أفواه الكلاب » وتنشد نحو قول الشافعى رحمه الله* أأنثر دراً بين سارحة النعم * [٣] وكذا بين أن تقول : الدنيا لاتدوم ولا تبقى . وبين أن تقول « هى ظل زائل ، وعارية تسترد ، ووديعة تسترجع » وتذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم « من فى الدنيا ضيف وما فى يديه عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة » وتنشد قول لبيد :

وما المال والاهلون الا ودائع ولابد يوما أن ترد الودائع

وقول الآخر :

انما نعمة قوم متعة وحياة المرء ثوب مستعار

---

(١) شروع فى أمثلة الوعظ ولم يتمثل للافتخار والاعتذار

(٢) بهذا اللفظ رواه الطبرانى فى معجمه الكبير عن أبى برزة بسند حسن

(٣) المصراع الثانى * وأنثر منظوما لراعية النعم * وهى أبيات قالها بمصر فى أثر محبيئه اليها لما كلمه بعض أصحاب مالك ، وآخرها :

فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فهذه جملة من القول تخبر عن صيغ التمثيل وتخبر عن حال المعنى معه ، فأما القول فى العلة والسبب : لم كان للتمثيل هذا التأثير ؟ وبيان جهته ومأتاه ، وما الذى أوجبه واقتضاه ، فغيرها . واذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا كل منها يقتضى أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل ، ويشرف ويكمل ، فاول ذلك وأظهره ان أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى الى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها اياه الى شىء آخر هى بشأنه أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل الى الاحساس، وعما يعلم بالفكر ، الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا « ليس الخبر كالمعاينة [(١)] ولا الظن كاليقين » فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الانس أعنى الانس من جهة الاستحكام والقوة وضرب آخر من الانس وهو مايوجبه تقدم الألف كما قيل :

* ما الحب الا للحبيب الأول *

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والروية ، فهو اذن أمس بها رحما ، وأقوى لديها ذمما ، وأقدم لها صحبة ، وآكد عندها حرمة ، واذا نقلتها فى الشىء بمثله عن

---

(١) هذه الجملة حديث نبوى رواه الطبرانى فى الأوسط والخطيب عن أبى هريرة . ورويناه مسلسلا بالاشراف عن شيخنا أبى المحاسن القاوقجى ، ولاأذكر له رواية بزيادة ولا الظن كاليقين ورواه احمد والحاكم والطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس بزيادة « ان الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ماصنعوا ألقى الألواح فانكسرت »

المدرك بالعقل المحض ، وبالفكرة فى القلب ، الى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع ، وعلى حد الضرورة ، فأنت كمن يتوسل اليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، فأنت اذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى فى نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف عنه الحجاب ويقول هاهو ذا ، فأبصره تجده على ماوصفت

(فان قلت) ان الانس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنما يكون لزوال الريب والشك فى الأكثر ، أفتقول إن التمثيل إنما أنس به لأنه يصحح المذكور والصفة السابقة ويثبت أن كونها جائز ووجودها صحيح غير مستحيل حتى لا يكون تمثيل إلا كذلك ؟ فالجواب أن المعانى التى يجىء التمثيل فى عقبها على ضربين غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدّعى امتناعه واستحالة وجوده وذلك نحو قوله :

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام وفاتهم الى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كانه أصل بنفسه ، وجنس برأسه ، وهذا أمر غريب وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس فى الفضائل الخاصة به الى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس ، وبالمدعى له حاجة الى أن يصحح دعواه فى جواز وجوده على الجملة ، الى أن يجىء الى وجوده فى الممدوح . فاذا قال « فان المسك بعض دم الغزال» فقد احتج لدعواه وأبان أن لما ادعاه أصلا فى الوجود ، وبرأ نفسه من صفة الكذب وباعدها من سفه المُقدِم على غير بصيرة ، والمتوسع فى الدعوى من غير البينة ، وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى لا يعد فى جنسه اذ لا يوجد

فى الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه لاماقل ولا ماكثر ، ولافى المسك شيء من الأوصاف التى كان لها الدم دما البتة

(والضرب الثانى) أن لا يكون المعنى المثل غريباً نادراً يحتاج فى دعوى كونه على الجملة الى بينة وحجة وإثبات . نظير ذلك أن ينفى عن فعل من الأفعال التى يفعلها الانسان الفائدة ويدعى أنه لايحصل منه على طائل ، ثم يمثله فى ذلك بالقابض على الماء والراقم فيه ، فالذى مثلت ليس بمنكر مستبدع ، اذ لاينكر خطأ الانسان فى فعله أو ظنه وأمله وطلبه . ألا ترى أن المغزى من قوله : (١)

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

أنه قد خاب فى ظنه أنه يتمتع بها ويسعد بوصلها ، وليس بمنكر ولا عجيب ولا ممتنع فى الوجود ، خارج من المعروف المعهود ، أن يخيب ظن الانسان فى أشباه هذا من الأمور ، حتى يستشهد على امكانه ، وتقام البينة على صدق المدعى لوجدانه

واذا ثبت أن المعانى المثلة تكون على هذين الضربين فان فائدة التمثيل وسبب الأنس فى الضرب الأول بين لائح ، لأنه يفيد فيه الصحة وينفى الريب والشك ، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف وتهجم المنكر وتهكم المعترض ، وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى ويبصر ، ويعلم كونه على ماأثبته عليه موازنة ظاهرة صحيحة

وأما الضرب الثانى فان التمثيل وان كان لايفيد فيه هذا الضرب من الفائدة فهو يفيد أمراً آخر يجرى مجراه وذلك أن الوصف كما يحتاج الى

(١) وفى نسخة المغزى فى قوله

إقامة الحجة على صحة وجوده فى نفسه ، وزيادة التثبيت والتقرير فى ذاته واصله ، فقد يحتاج الى بيان المقدار فيه ، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه فى القوة والضعف والزيادة والنقصان . واذا أردت أن تعرف ذلك فانظر أولا الى التشبيه الصريح الذى ليس بتمثيل كقياس الشىء على الشىء فى اللون مثلا « كحنك الغراب »[١] تريد أن تعرف مقدار الشدة لا أن تعرف نفس السواد على الاطلاق .

واذا تقرر هذا الأصل فان الأوصاف التى ترد السامع فيها بالتمثيل من العقل الى العيان والحس وهى فى أنفسها معروفة مشهورة صحيحة لاتحتاج الى الدلالة على أنها هل هى ممكنة موجودة أم لا فانها وان غَنيتْ من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات ، فانها تفتقر اليه من جهة المقدار ، لان مقاديرها فى العقل تختلف وتتفاوت ، فقد يقال فى الفعل انه من حال الفائدة على حدود مختلفة فى المبالغة والتوسط ، فاذا رجعت الى ماتبصر وتحس عرفت ذلك بحقيقته وكما يوزن بالقسطاس ، فالشاعر لما قال : « كقابض على الماء خانته فروج الأصابع » أراك رؤية لاتشك معها ولا ترتاب انه بلغ فى خيبة ظنه وبوار سعيه الى أقصى المبالغ ، وانتهى فيه الى أبعد الغايات ، حتى لم يحظ لابما قل ولا ما كثر .

فهذا هو الجواب ونحن[٢] بنوع من التسهيل والتسامح نقع على أن الأنس الحاصل بانتقالك فى الشىء عن الصفة والخبر الى العيان ورؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب .

فأما اذا رجعنا الى التحقيق فانا نعلم أن المشاهدة تؤثر فى النفوس مع

(١) حنك الغراب بالتحريك: منقاره أو سواده قالهما (ش).

(٢) الجملة حالية .

العلم بصدق الخبر كما أخبر الله تعالى عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى قوله (قال بلى ولـكن ليطمئن قلبى) والشواهد فى ذلك كثيرة والأمر فيـه ظاهر . ولولا أن الأمر كذلك لما كان لنحو قول أبى تمام :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجـدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس أن ليست عليهم بسرمد

معنى . وذلك أن هـذا التجدد لامعنى له ان كانت الرؤية لاتفيد أنساً من حيث هى رؤية وكان الأنس لنفيها الشك والريب ، أو لوقوع العـلم بامر زائد لم يعلم من قبل . واذا كان الأمر كذلك فأنت اذا قلت للرجـل أنت مضيع للحزم فى سعيك ومخطىء وجـه الرشاد وطالب لمـا لاتناله اذا كان الطلب على هذه الصفة ومن هذه الجهة ، ثم عقبته بقولك « وهل يحصل فى كف القابض على الماء شىء ممـا يقبض عليـه » فـلو تركنا حديث تعريف المقدار فى الشدة والمبالغـة ونفى الفائدة من أصلها جانباً بقى لنـا ماتقتضيه الرؤية للموصوف على ماوصف عليـه من الحالة المتجددة مع العـلم بصدق الصفة . يبين ذلك أنه لو كان الرجل مثلا على طرف نهـر فى وقت مخاطبـة صاحبه وإخباره له بأنه لايحصل من سعيه على شىء فأدخـل يده فى المـاء وقال انظر هل حصل فى كفى من المـاء شىء ؟ فـكذلك أنت فى أمرك — كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل (١) ولو ان رجـلاً أراد أن يضرب لك مثلا فى تنافى الشيئين فقال : هذا وذاك هل يجتمعان ؟ وأشار الى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير مالا تجـده اذا أخبرك بالقول فقال : هل يجتمع المـاء والنار ؟ وذلك الذى تفعل

(١) جملة كان لذلك الخ جواب « لو كان الرجل مثلا » الخ

المشاهـدة من التحريك للنفس ، والذى يجب بهـا من تمـكن المعنى فى القلب ، اذا كانت مستفادة من العيان ، ومتصرفة حيث تتصرف العينان ، والا فـلا حاجة بنـا فى أن المـاء والنار لايجتمعان ، الى مايؤكده من رجوع الى مشاهـدة ، واستيثاق بتجربة .

وممـا يدلك على أن التمثيل بالمشاهـدة يزيد أنساً وان لم يكن بك حاجـة الى تصحيح المعنى أو بيان لمقـدار المبالغة فيـه ؛ انك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التى تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لاتدع فى النفوس منزعاً نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالطول : يوم كأطول مايتوهم وكأنه لا آخر له . وما شاكل ذلك من نحو قوله :

فى ليل صول تناهى العرض والطول كأنمـا ليـله بالحشر موصول [1]

فلا تجد له من الأنس ماتجده لقوله :

* ويوم كظل الرمح قصر طوله * [2]

على أن عبارتك الأولى أشـد وأقوى فى المبالغـة من هـذا فظل الرمح على كل حال متناه تدرك العين نهايتـه وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له ، وكذلك تقول : يوم كأقصر مايتصور وكأنه ساعة وكلمح البصر و « كلا ولا » فتجد هـذا مع كونه تمثيلا لايؤنسك إيناس قولهـم أيام كأباهيم القطا [3] . وقول ابن المعتز :

(١) البيت لخندج (كقنفذ) المرى . وصول بالضم بلدة ابراهيم الصولى المشهور ، والرواية الصحيحة فى الشطر الثانى * كأنما ليله بالليـل موصول * أى كأن لانهار بين لياليه

(٢) البيت لشبرمة بن الطفيل وتمامـه * دم الزق عنا واصطفاق المزاهر * ويروى واصطكاك المزاهر . وشبرمة كقنفذة والطفيل بكسر فسكون ففتح

(٣) ويقال أباهم أيضا .

بدّلت من يوم كظل حصاة ليلا كظل الرمح غير موات (١)

وقول آخر :

ظللنا عند باب أبى نعيم بيوم مثل سالفة الذباب (٢)

وكذا تقول فلان اذا هم بالشيء لم يزل ذاك عن ذكره وقلبه ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه ، ولم يشغله شيء عنه ، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن ، ثم لاترى فى نفسك له هزة ، ولا تصادف لما تسمعه أريحية ، وانما تسمع حديثاً ساذجاً وخبراً غفلا (٣) حتى اذا قلت :

اذا هم ألقى بين عينيه عزمه (٤)

امتلأت نفسك سروراً وأدركتك طربة — كما يقول القاضى أبو الحسن — لاتملك دفعها عنك . ولا تقل ان ذلك لمكان الايجاز فانه وان كان يوجب شيئاً منه فليس الأصل له بل لان أراك العزم واقفاً (٥) بين العينين ، وفتح الى مكان المعقول من قلبك باباً من العين .

وههنا ـ اذا تأملنا ـ مذهب آخر فى بيان السبب الموجب لذلك هو ألطف مأخذاً وأمكن فى التحقيق وأولى بأن يحيط بأطراف الباب . وهو أن لتصور الشبه من الشيء فى غير جنسه وشكله ، والتقاط ذلك له من

(١) واتاه يواتيه: طاوعه فهو موات وأصله الهمز .

(٢) السالفة ناصية مقدم العنق من لدن معلق القرط الى قلت الترقوة ومن الفرس هاديه أى ماتقدم من عنقه (ش) وقوله قلت الترقوة القلت بالفتح النقرة فى الجبل والمراد هنا نقرة الترقوة .

(٣) الغفل بالضم يوصف به مايخلو من سمات كماله وحسنه يقال : فلاة غفل أى لاعلم بها ، ورجل غفل لم تسمه التجارب ومصحف غفل اذا جرد عن العواشر ونحوها من المحسنات ، وكتاب غفل لم يسم واضعه . والكلام الغفل هنا ما ليس فيه من الحسن مايؤثر فى النفس ويحرك الوجدان .

(٤) الشطر لسعد بن ناشب وتمامه * ونكب عن ذكر العواقب جانبا *

(٥) وفى نسخة واقعا .

غير محلته ، واجتلابه اليه من النيق البعيد [١] باباً آخر من الظرف واللطف ، ومذهباً من مذاهب الاحسان لايخفى موضعه من العقل . وأحضر شاهداً لك على هذا أن تنظر الى تشبيه الشاهدات بعضها ببعض فان التشبيهات سواء كانت عامية مشتركة ، أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل ، تراها لايقع بها اعتداد ، ولا يكون لها موقع من السامعين ولا تهز ولا تحرك حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين فى الجنس ، فتشبيه العين بالنرجس عامى مشترك معروف فى أجيال الناس جار فى جميع العادات ، وأنت تنظر الى بعد مابين العينين وبينه من حيث الجنس . وتشبيه الثريا بما شبهت به من عنقود الكرم المنور ، واللجام المفضض ، والوشاح [٢] المفصل ، وأشباه ذلك — خاصى ، والتباين بين المشبه والمشبه به فى الجنس على مالا يخفى .

وهكذا اذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد ، كانت الى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ؛ وكان مكانها الى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك ان موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة ، انك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة فى السماء والارض ، وفى خلقة الانسان وخلال الروض ، وهكذا طرائف تنثال عليك اذا فصلت هذه الجملة ،

---

(١) النيق بالكسر أرفع موضع فى الجبل .

(٢) الوشاح بالضم و بالكسر كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما عن الآخر ـ وأديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها والمراد هنا الثانى (ش)

وتبعت هذه اللمحة [١] ولذلك تجد تشبيه البنفسج فى قوله [٢] .

ولازوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع وأجدر ، من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، لانه إذ ذاك مشبه لنبات غض يرف [٣] وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف [٤] بلهب نار مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف [٥] ومبنى الطباع وموضوع الجبلة ، على أن الشيء اذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر ، فسواء فى إثارة التعجب ، وإخراجك الى روعة [٦] المستغرب ، وجودك الشيء فى مكان ليس من أمكنته ، ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله فى ذاته وصفته ، ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شبهاً فى شيء من المتلونات ، لم تجد له هذه الغرابة ، ولم ينل من الحسن هذا الحظ .

---

(١) اللمحة بالفتح إما واحدة اللمح وهو اختلاس النظر ، وإما واحدة اللامح وهى محاسن الوجه (ش)

(٢) أى ابن المعتز ويروى البيتان هكذا .

بنفسج جمعت أوراقه فحكى كحلا تشرب دمعا يوم تشتيت
كأنه وضعاف القضب تحمله أوائل النار فى أطراف كبريت

ويروى الشطر الثالث هكذا مع تأنيث الضميرين كما فى الرواية الأولى .

(٣) رف لونه يرف بضم الراء وكسرها رفا ورفيفا برق وتلألأ .ورف النبات اهتز واضطربت أغصانه .

(٤) اما من شف يشف شفوفا اذا رق فحكى ما تحته أو من شف يشف شفا اذا تحرك (ش) .

(٥) الكلف بالتحريك لون بين السواد والحمرة . وحمرة كدرة تعلو الوجه .

(٦) الروعة بالفتح الفزعة والمسحة من الجمال (ش) .

واذا ثبت هـذا الأصل وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين فى الجنس ممـا يحرك قوى الاستحسان ، ويثير الـكامن من الاستظراف ، فان التمثيل أخص شيء بهـذا الشان ، وأسبق جار فى هـذا الزمان ، وهـذا الصنيع صناعته التى هو الامام فيهـا ، والبادئ لهـا والهادى الى كيفيتها ، وأمره فى ذلك انك اذا قصدت ذكر ظرائفه ، وعـد محاسنه فى هـذا المعنى ، والبـدع التى يخترعها بحـذقه ، والتأليفات التى يصل اليها برفقه ، ازدحمت عليك ، وغمرت جانبيك ، فلم تدر أيها تذكر ؛ ولا عن أيهـا تعبر ، كما قال :

اذا أتاها طالب يستامها ... تـكاثرت فى عينه كرامها

وهل تشك فى أنه يعمل عمـل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر بعد مابين المشرق والمغرب ، ويجمع مابين المشئم والمعرق (١) وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبهاً فى الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة فى الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين ، كما يقال فى الممدوح هو حياة لأوليائه ، موت لأعدائه ، ويجعل الشيء من جهة ماء ومن أخرى ناراً كما قال :

أنا نار فى مرتقى نظر الحا ... سـد ماء جار مع الاخوان

وكما يجعل الشيء حلواً مراً ، وصاباً عسلا ، وقبيحاً حسناً ، كما قال :

حسن فى عيون أعدائه أقـ ... ـبح من ضيفه رأته السوام (٢)

(١) المشئم من أتى الشام ، والمعرق من أتى العراق .

(٢) وفى نسختنا وجوه أعدائه ولـكن قال شيخنا : ان الرواية الصحيحة عيون أعدائه وان قوله حسن خبر لمحذوف هو الممدوح ، وفى عيون صفة لأقبح الذى هو خبر ثان ، والسوام : الماشية .

ويجعل الشيء أسود أبيض فى حال كنحو قوله :

له مَنظرٌ فى العين أبيض ناصع ولكنه فى القلب أسود أسفع (١)

ويجعل الشيء كالمقلوب الى حقيقة ضده كما قال :

غُرَّةٌ بهمة ألا انما كنـ ـت أغرًّا أيام كنت بهيما (٢)

ويجعل الشيء قريباً بعيداً معاً كقوله : * دان على أيدى العفاة وشاسع * وحاضراً وغائباً كما قال .

أيا غائباً حاضراً فى الفؤاد سلام على الحاضر الغائب

ومشرقاً مغرباً كقوله :

له اليكم نفس مشرِّقة ان غاب عنكم مغرِّبا بدنه

وسائرا مقيماً كما يجيء فى وصف الشعر الحسن الذى يتداوله الرواة وتتهاداه الألسن كما قال القاضى أبو الحسن :

وجوَّابة الأفق موقوفة تسير ولم تبرح الحضرة

(١) الأسفع: الأسود المشرب بحمرة والاسم السفعة بالضم.

(٢) يصف الشيب بأنه غرة شديدة ، وانما كان أغر فى الوقت الذى كان فيه بهيما أى أسود الشعر ، وفى رواية أبى هلال مرة بدل بهمة . هذا ما كتبته على البيت فى حاشية الطبعة الأولى وأجازه شيخنا الا أنه علق على نسخة الدرس بازاء قوله غرة بهمة : أراد من الشدة أنها صعبة الاحتمال اه ولم يظهر لى الآن وجه تفسير البهمة بالشديدة . ومن المعلوم أن الغرة فى الأصل البياض فى جبهة الفرس فوق قدر الدرهم ومنه فرس أغر والبهمة كالظلمة وزنا ومعنى . والبهيم الذى لاشية فيه من غير لونه ، ومنه ليل بهيم لاضوء فيه ويطلق الأغر على الحسن والأبيض من كل شيء وعلى السيد الكريم ، فاذا كان يصف شيبه فهو يقول انه أو ان لمته غرة كالظلمة فى قبحها وكراهته هو أو كراهة الحسان لها ، وانه انما كان رجلا أغر فى الوقت الذى كان شعره أسود بهيما .

وهل يخفى تقريبه المتباعدين ، وتوفيقه بين المختلفين ، وأنت تجد إصابة الرجل في الحجة وحسن تخليصه للكلام وقد مثلت تارة بالهناء ومعالجة الابل الجرَبى به[(١)] وأخرى بحز القصاب اللحم وإعماله السكين في تقطيعه وتفريقه في قولهم: «يضع الهناء مواضع النقَب (وهو الجرب) ويطبق المفصل »[(٢)] فانظر هل ترى مزيداً في التناكر والتنافر على ما بين طلا القَطِران ، وجنس القول والبيان ، ثم كرر النظر وتأمل كيف حصل الائتلاف وكيف جاء من جمع أحدهما الى الآخر ما يأنس اليه العقل ويحمده الطبع . حتى انك لربما وجدت لهذا المثل اذا أورد عليك[(٣)] في أثناء الفصول ، وحين تبين الفاضل في البيان من المفضول ، قبولا ولاما تجد عند فوح المسك ونشر الغالية[(٤)] وقد وقع ذكر الحز والتطبيق منك موقع ماينفي الحزازات عن القلب ، ويزيل اطباق الوحشة عن النفس وتكلف القول في أن للتمثيل في هذا المعنى الذي الذى لايجارى اليه . والباع الذى لايطاول فيه ، كالاحتجاج للضروريات . وكفى دليلا على تصرفه فيه باليد الصناع ، وإيفائه على غايات الابتداع ، انه يريك العدم وجوداً والوجود عدماً ، والميت حياً والحى ميتاً ، أعنى جعلهم الرجل اذا بقى له ذكر جميل وثناء حسن بعد موته كأنه لم يمت، وجعل الذكر حياة له

(١) الهناء بالكسر: القطران والنقب كصرد الجرب قال عبد الباقي :
وما الهنا منكم بمشف نقبا وطالما أشفى الهناء النقبا
(٢) يقال طبق السيف اذا أصاب المفصل قال الشاعر في وصف سيف :
* يصمم أحيانا وحينا يطبق * ويقال للبليغ : قد طبق المفصل . ويقال أيضا :
* يضع الهناء مواضع النقب * يعنون أنه ماهر مصيب
(٣) وفى نسخة اذا ورد عليك
(٤) النشر :الرائحة الطيبة والغالية طيب معروف.

كما قال . « ذكرة[1] الفتى عمره الثانى » وحكمهم على الخامل الساقط القدر الجاهل الدنىء بالموت . وتصييرهم إياه حين لم يكن ما يؤثر عنه ويعرف به كأنه خارج عن الوجود الى العدم أو كأنه لم يدخل فى الوجود .

ولطيفة أخرى له فى هذا المعنى هى اذا نظرت أعجب ، والتعجب بها أحق ومنها أوجب ، وذلك جعل الموت نفسه حياة مستأنفة حتى يقال انه بالموت استكمل الحياة فى قولهم . « فلان عاش حين مات » يراد الرجل تحمله النفس الأبية وكرم النفس والأنفة من العار على أن يسخو بنفسه فى الجود والبأس ففعل مافعل كعب بن مامة[2] فى الاتيان على نفسه ، أو مايفعله الشجاع المذكور من القتال دون حريمه والصبر فى مواطن الاباء والتصميم فى قتال الأعداء ، حتى يكون له يوم لايزال يذكر ، وحديث يعاد على مر الدهور ويشهر ، كما قال ابن نباته :

بأبى وأمى كل ذى ... نفس تعاف الضيم مرة
يرضى بأن يرد الردى ... فيميتها ويعيش ذكره

وانه ليأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة ، ويشتق من الأصل

---

(١) الذكرة بالضم الصيت .

(٢) الظاهر أن يقال فيفعل كما فعل كعب بن مامة قال شيخنا هو الايادى المشهور آثر رفيقه السعدى بالماء حتى مات عطشا ونجا السعدى وله يقول حبيب :

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقال له ولحاتم الطائى :

كعب وحاتم اللذان تقسما ... خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذى خلف السحاب ومات ذا ... فى الجهد ميتة خضرم صنديد
إلا يكن فيها الشهيد فقومه ... لايسمحون له بألف شهيد

الواحد أغصاناً فى كل غصن ثمر على حدة ، نحو أن الزند بإيرائه [١] يعطيك شبه الجواد والذكى الفطن وشبه النجح فى الأمور والظفر بالمراد ، وبإصلاده [١] شبه البخيل الذى لايعطيك شيئاً ، والبليد الذى لايكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى ، وشبه من يخيب سعيه ونحو ذلك . ويعطيك [٢] من القمر الشهرة فى الرجل والنباهة والعز والرفعة . ويعطيك الكمال عن النقصان والنقصان بعد الكمال. كقولهم: « هلال نما فعاد بدراً » يراد بلوغ النجل الكريم المبلغ الذى يشبه أصله من الفضل والعقل وسائر معانى الشرف كما قال أبو تمام :

لهفى على تلك الشواهد منهما   لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لغدا سكونهما حجى وصباهما   كرما وتلك الأريحية نائلا [٣]
ان الهلال اذا رأيت نموه   أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

وعلى هذا المثل بعينه يضرب مثلا فى ارتفاع الرجل فى الشرف والعز من طبقة الى أعلى منها كما قال البحترى :

شرف تزيد بالعراق الى الذى   عهدوه بالبيضاء أو ببلنجرا [٤]

---

(١) يقال ورى الزند (كوعد) وأورى اذا أخرج ناره ، ويقال أصلد اذا صوت ولم تخرج منه النار .

(٢) عطف على قوله يأتيك من الشىء الواحد الخ .

(٣) يروى حلما بدل كرما ، وقبل البيت الأخير .

ولأعقب النجم المرذ بديمة   ولعاد ذاك الطل جودا وابلا

والرثاء لولدين لعبد الله بن طاهر ماتا فى يوم أحدهما هوى من سطح ، والآخر تردى فى بئر .

(٤) فى كتاب المسالك * عهدوه فى خمليخ أو ببلنجرا * وخمليخ وبلنجر والبيضاء مدن الخزر اهـ وقوله تزيد بالعراق أى ابتدأت زيادته فيه ثم لازال يمتد الى أن وصل الى الذى عهدوه الخ ، والبيتان من قصيدة قالها فى مدح إسحاق بن كنداج الخزرى القائد الكبير عند ماتوج وقلد السيفين .

مثل الهلال بدا فلم يبرح به   صوغ الليالى فيه حتى أقمرا

ويعطيك شبه الانسان فى نشأته ونمائه الى أن يبلغ حد التمام ، ثم تراجعه اذا انقضت مدة الشباب ، كما قال :

المرء مثل هلال حين تبصره   يبدو ضئيلا ضعيفاً ثم يتسق [(١)]

يزداد حتى اذا ماتم أعقبه   كر الجديدين نقصاً ثم ينمحق

وكذلك يتفرع من حالتى تمامه ونقصانه فروع لطيفة فمن ذلك قول ابن بابك .

وأعرت شطر الملك شطر كماله   والبدر فى شطر المسافة يكمل [(٢)]

قاله فى الأستاذ أبى على وقد استوزره فخر الدولة بعد وفاة الصاحب وأبا العباس الضبى وخلع عليهما [(٣)] . وقول أبى بكر الخوارزمى.

أراك اذا أيسرت خيمت عندنا   مقيماً وان أعسرت زرت لماما [(٤)]

فما أنت الا البدر إن قل ضوءه   أغب وان زاد الضياء أقاما

المعنى لطيف وان كانت العبارة لم تساعده على الوجه الذى يجب فان الاغباب أن يتخلل وقتى الحضور وقت يخلو منه . وانما يصلح لأن يراد أن القمر اذا نقص نوره لم يوال الطلوع كل ليلة بل يظهر فى بعض الليالى

---

(١) اتسق الأمر انتظم ، والقمر كمل وتم نوره .

(٢) يروى ثوب كماله .

(٣) وأبا العباس الضبى عطف على ضمير استوزره وهو أحمد بن ابراهيم الضبى ولاه الوزارة فخر الدولة أولا ولقب بالرئيس ، ثم ولى بعده الأستاذ أبا على الجليل وهجاهما أحد الشعراء من بيت المنجم فقال :

والله والله لا أفلحتم أبدا   بعد الوزير ابن عباد ابن عباس

ان جاء منكم جليل فاجلبوا أجلى   أو جاء منكم رئيس فاقطعوا رأسى

(٤) لماما بالكسر أى غبا

ويمتنع من الظهور فى بعض وليس الأمر كذلك لأنه على نقصانه يظهر كل ليلة حتى يكون السرار ، وقال ابن بابك فى نحوه :

كذا البدر يسفر فى تمه　　فان خاف نقص المحاق انتقب

وهكذا ينظر الى مقابلته الشمس واستمداده من نورها والى كون ذلك سبب زيادته ونقصه وامتلائه من النور والائتلاق ، وحصوله فى المحاق ، وتفاوت حاله فى ذلك ، فيصاغ منه أمثال ويبين أشباه ومقايس ؛ فمن لطيف ذلك قول ابن نباتة :

قد سمعنا بالغر من آل ساسا　　ن ويونان فى العصور الخوالى

والملوك الأولى اذا ضاع ذكر　　وُجدوا فى سوائر الأمثال

مكرمات اذا البليغ تعاطى　　وصفها لم يجده فى الأقوال

واذا نحن لم نضفها الى مد　　حك كانت نهاية فى الكمال

إن جمعناهما أضر بها الجمـ　　ـع وضاعت فيه ضياع المحال

فهو(١) كالشمس بُعدها يملأ البد　　ر وفى قربها محاق الهلال

وغير ذلك من أحواله كنحو ماخرج من الشبه من بعده وارتفاعه (٢) وقرب ضوئه وشعاعه ، فى نحو مامضى من قول البحترى : دان على أيدى العفاة » البيتين . ومن ظهوره بكل مكان ، ورؤيته فى كل موضع كقوله :

كالبدر من حيث التفت رأيته　　يهدى الى عينيك نوراً ساطعاً

فى أمثال كذلك تكثر . ولم أعرض لما يشبه به من حيث النظر وما تدركه العين نحو تشبيه الشىء بتقويس الهلال ودقته ، والوجه بنوره وبهجته ، فانا فى ذكر ما كان تمثيلاً وكان الشبه فيه معنوياً .

---

(١) قوله فهو أى « مدحك » والخطاب للممدوح .

(٢) أى القمر

﴿ فصل آخر ﴾

وان كان مما مضى الا أن الأسلوب غيره وهو أن المعنى اذا أتاك ممثلا فهو فى الأكثر ينجلى لك بعد أن يحوجك الى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له والهمة فى طلبه . وما كان منه ألطف ، كان امتناعه عليك أكثر ، وإباؤه أظهر ، واحتجابه أشد .

ومن المركوز فى الطبع أن الشىء اذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق اليه . ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف ، وكذلك ضرب المثل لكل مالطف موقعه يبرد الماء على الظمأ كما قال .

وهنّ ينبذن [١] من قول يصبن به   مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة اليه ، وتقدم المطالبة من النفس به ، فان قلت فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً فى فضله ، وهذا خلاف ماعليه الناس ألا تراهم قالوا : ان خير الكلام ماكان معناه الى قلبك أسبق من لفظه الى سمعك ، فالجواب انى لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب وانما أردت القدر الذى يحتاج اليه فى نحو قوله :

* فان المسك بعض دم الغزال * وقوله :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب   وما التذكير فخر للهلال

وقوله .

رأيتك فى الذين أرى ملوكاً   كأنك مستقيم فى محال

---

(١) النبذ : الطرح وإلقاء الشىء. وفعله من باب ضرب .

وقول النابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى   وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله : (١)

فانك شمس والملوك كواكب   اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول البحترى :

ضحوك الى الأبطال وهو يروعهم   وللسيف حد حين يسطو ورونق

وقول امرىء القيس * بمنجرد قيد الأوابد هيكل * (٢) .

وقوله :

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب   جذع البصيرة قارح الاقدام (٣)

فانك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعانى كالجوهر فى الصدف لايبرز لك الا أن تشقه عنه ، وكالعزيز المحتجب لايريك وجهه حتى تستأذن عليه ؛ ثم ما كل فكر يهتدى الى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له فى الوصول اليه ، فما كل أحد يفلح فى شق الصدفة ،

---

(١) أى الشاعر المجهول لاالنابغة .

(٢) المنجرد من الخيل : الأجرد وهوقصير شعر الجلد، وذلك ممدوح فيها، والأوابد جمع آبدة للوحوش والطيور التى تقيم فى مكان واحد لاتظعن صيفا ولا شتاء ، ويستعار لفظ « قيد الأوابد » للفرس الجواد كأنه لسرعة عدوه وإدراكه لها قيد يمنعها الفرار حتى كأنها مقيدة به .

(٣) الجذع بالتحريك الحدث والشاب الذى استكمل قوته ، وأصله فى الأنعام والدواب وتختلف السن فيها ، وجمعه جذاع وجذعان بضم الجيم وكسرها ، والقارح من ذى الحافر كالبازل من الابل ماقرح نابه أى طلع ، وهو الذى بلغ نهاية السن التى ليس بعدها سن تسمى، ويكون فى التاسعة ومابعدها . واذا استعمل اللفظان فى الناس يراد بالجذع الحدث النشيط و بالقارح العاقل المجرب ، قال الحريرى : و برز فيها الجذع على القارح .

ويكون فى ذلك من أهـل المعرفة ، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له وكان :

من النفر البيض الذين اذا اعتزوا وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا (١)

أو كما قال :

تفتح أبواب الملوك لوجهه بغير حجاب دونه أو تملق

وأما التعقيد فانما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى اليـه من غير الطريق كقوله :

وكذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وانما ذم هـذا الجنس لانه أحوجك الى فكر زائد على المقـدار الذى يجب فى مثله (٢) وكدك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مملس ، بل خشن مضرس ، حتى اذا رمت إخراجه منك عسر عليك ، واذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن .

هـذا — وانما يزيد الطلب فرحاً بالمعنى وأنساً به وسروراً بالوقوف عليه اذا كان لذلك أهلا . وأما اذا كنت معه كالغائص فى البحر يحتمل المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج الخرز فالأمر بالضد مما بدأت به . ولذلك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدى عليك ، ويؤرقك ثم لا يروق لك ، وما سبيله الا سبيل البخيل الذى يدعوه لؤم

(١) قعقعوا أى حركوا الحلقة التى هابها غيرهم ليسمع صوت قعقعتها فيفتح لهم كدأبهم وعادتهم .

(٢) مثله بغير تعقيد قول عبد الحميد بك الرافعى الطرابلسى العاصر :

بين السيوف وعينها مناسبة * من أجلها قيل للاغماد أجفان

فى نفسه ، وفساد فى حسه ، الى أن لا يرضى بضمته فى بخله ، وحرمان فضله ، حتى يأبى التواضع ولين القول فيتيه ، ويشمخ بأنفه ، ويسوم المتعرض له بابا ثانيا من الاحتمال تناهياً فى سخفه ، أو كالذى لا يؤيسك من خيره فى أول الأمر فتستريح الى اليأس ، ولكنه يطمعك ويسحب على المواعيد الكاذبة ، حتى اذا طال العناء وكثر الجهد تكشف عن غير طائل ، وحصلت منه على ندم لتعبك فى غير حاصل ، وذلك مثل ما تجده لأبى تمام من تعسفه فى اللفظ وذهابه به فى نحو من التركيب لا يهتدى النحو الى اصلاحه ، واغراب فى الترتيب يعمى الاعراب فى طريقه ويضل فى تعريفه ، كقوله :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان اذ هما فى الغار (١)

وقوله :

يدى لمن شاء رهن من يذق جرعا من راحتيك درى ما الصاب والعسل (٢)

---

(١) البيت من قصيدة فى مدح المعتصم ، وقيل : المأمون ، وفى رواية « لاثنين ثانى » ورواية أخرى «ثانيا» بالنصب مع تسهيل همزة (اذ) والرواية الرابعة «لاثنين ثالثا » وقبل البيت قوله :

واعلم بأنك إنما تلقيهم فى بعض ما حفروا من الآبار
لو لم يكد للسامرى قبيله ماخار عجلهم بغير خوار
وثمود لو لم يدهنوا فى ربهم لم ترم ناقته بسهم قدار
ولقد شفا الاحشاء من برحائها أن صار بابك جار مازيار

وبعده البيت ، والبرحاء شدة الاذى وبابك ومازيار علمان لرجلين

(٢) البيت من قصيدة يمدح بها المعتصم أيضا وقبل البيت:

كأن أمواله والبذل يمحقها نهب تعسفه التبذير والنفل
شرست بل لنت بل قانيت ذاك بذا فأنت لاشك فيه السهل والجبل

ولو كان الجنس الذى يوصف من المعانى باللطافة ويعد فى وسائط العقود[١] لا يحوجك الى الفكر ولا يحرك من حرصك على طلبه بمنع جانبه ، وببعض الادلال عليك ، واعطائك الوصل بعد الصد ، والقرب بعد البعد ، لكان « باقلّى حارّ[٢] » وبيت معنى هو عين القلادة وواسطة العقد واحداً ولسقط تفاضل السامعين فى الفهم والتصور والتبيين . وكان كل من روى الشعر عالما به وكل من حفظه — اذا كان يعرف اللغة على الجملة — ناقداً فى تمييز جيده من رديئه . وكان قول من قال :

زوامل للأشعار لاعلم عندهم بجيدها الا كعلم الأباعر

وكقول ابن الرومى :

قلت لمن قال لى عرضت على الأخفش ما قلته فما حمده[٣]

قصرت بالشعر حين تعرضه على مبين العمى اذا انتقده

ماقال شعراً ولارواه فلا تعلبه كان لا ولا أسده

فان يقل اننى رويت فكالدفتر جهلا بكل ما اعتقده

وما أشبه ذلك دعوى[٤] غير مسموعة ولا مؤهلة للقبول فانما أرادوا بقولهم: « ما كان معناه الى قلبك ، أسبق من لفظه الى سمعك » ان يجتهد المتكلم

وفى الديوان المطبوع « تقسمه التبذير أو نفل » والنفل بالتحريك الغنيمة والهبة والزيادة وفيه أيضا «فيك السهل والجبل» بكاف الخطاب

(١) الوسائط جمع واسطة ما كان من الجوهر فى وسط العقد وهو أجوده

(٢) الباقلى بتشديد اللام والقصر ويمد: الفول أى لكان نداء بائع الفول السخن بهذه الكلمة «باقلى حار» وبيت شعر هو بحيث وصفه من الحسن متساويين لاتفاضل بينهما

(٣) يريد على بن سليم الاخفش. والابيات من قصيدة طويلة مطلعها :

رقاب أهل الحلوم معتمده مقصودة بالهوان معتمده

(٤) كلمة دعوى خبر قوله : وكان قول من قال الخ

فى ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ماأخل بالدلالة ، وعاق دون الابانة ، ولم يريدوا ان خير الكلام ما كان غفلا مثل مايتراجعه الصبيان ويتكلم به العامة فى السوق

هذا — وليس اذا كان الكلام فى غاية البيان وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذلك عن الفكرة اذا كان المعنى لطيفا ، فان المعانى الشريفة اللطيفة لابد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال الى سابق . أفلست تحتاج فى الوقوف على الغرض من قوله : « كالبدر أفرط فى العلو » الى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه ووجه المجاز فى كونه دانياً شاسعاً وترقم ذلك فى قلبك ثم تعود الى مايعرض البيت الثانى عليك من حال البدر ثم تقابل احدى الصورتين بالأخرى وترد البصر من هذه الى تلك وتنظر اليه كيف شرط فى العلو الإفراط ليشاكل قوله « شاسع » لأن الشسوع هو الشديد من البعد ثم قابله بما لا يشاكله من مراعاة التناهى فى القرب فقال « جد قريب » . فهذا هو الذى أردت بالحاجة الى الفكر . وبأن المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك فى طلبه واجتهاد فى نيله

هذا — وان توقفت فى حاجتك أيها السامع للمعنى الى الفكر فى تحصيله فهل تشك فى أن الشاعر الذى أداه اليك ، ونشر بزه لديك ، قد تحمل فيه المشقة الشديدة ، وقطع اليه الشقة البعيدة ، وانه لم يصل الى دره حتى غاص ، وانه لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص ؟؟ ، ومعلوم أن الشىء اذا علم أنه لم ينل فى أصله الا بعد التعب ، ولم يدرك الا باحتمال النصب . كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء الى تعظيمه ، وأخذ الناس بتفخيمه ، ما يكون لمباشرة الجهد فيه ، وملاقاة الكرب دونه ،

واذا عثرت بالهوينا على كنز من الذهب لم تخرجك سهولة وجوده الى أن تنسى جملة أنه الذى كد الطالب ، وحمّل المتاعب ، حتى ان لم تكن فيك طبيعة من الجود تتحكم عليك ، ومحبة للثناء تستخرج النفيس من يديك كان من أقوى حجج الضن الذى يخامر الانسان أن تقول: « ان لم يكدنى فقد كد غيرى » كما يقول الوارث للمال المجموع عفواً اذا ليم على بخله به ، وفرط شحه عليه ، : ان لم يكن كسبى وكدى ، فهو كسب والدى وجدى ، ولئن لم ألق فيه عناء لقد عانى سلفى فيه الشدائد ، ولقوا فى جمعه الأمرين (١) أفأضيع ماثمروه ، وأفرق ما جمعوه ، وأكون كالهادم لما أنفقت الأعمار فى بنائه ، والمبيد لما قصرت الهمم على انمائه ،

وانك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب الى المألوف القريب ، مايعطى البحترى ويبلغ فى هذا مبلغه . فانه ليروض لك المهر الارن رياضة الماهر (٢) حتى يعنق من تحتك اعناق القارح المذلل (٣) وينزع من شماس الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد المطيع ، ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره فى قلة الحاجة الى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله:

فؤادى منك ملآن وسرى فيك اعلان

وقوله: *عن أى ثغر تبتسم *

---

(١) لقى منه الامرين . ونزل به الأمران. مثل يضرب فى لقاء الشر وعظائم الأمور. والامران الهرم والمرض أو الفقر والهرم

(٢) الارن : البطر المرح معنى ووزنا وفعلا

(٣) أعنق الفرس : أسرع وسار العنق وهو بالتحريك : سير فسيح واسع للابل والدواب . والقارح ما قرح نابه أى طلع

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد حتى قل نشاطه لها واعتناؤه بها الالانه لم يفهم معانيها كما فهم معانى النوع النازل الذى انحط له اليه ؟ أتراك تستجيز أن تقول ان قوله * متى النفس فى أسماء لو تستطيعها *[1] من جنس المعقد الذى لا يحمد ، وان هذه الضعيفة الاسر[2] الواصلة الى القلوب من غير فكر ، أولى بالحمد وأحق بالفضل ،

هذا — والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لانه مما تقع حاجة فيه الى الفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر فكرك فى متصرّفه[3] ويشيك طريقك الى المعنى[4] ويوعر مذهبك نحوه . بل ربما قسم فكرك ،

(١) مطلع قصيدة من غرر قصائده فى مدح المتوكل قال :

متى النفس فى أسماء لو تستطيعها ... بها وجدها من غادة وولوعها
وقد راعنى منها الصدود وإنما ... تصد لشيب فى عذارى يروعها

ومنها فى المدح:

ولما رعى سرب الرعية ذادها ... عن الجدب مخضر التلاع مريعها
علمت يقينا مذ توكل جعفر ... على الله فيها أنه لايضيعها

التلاع بالكسر جمع تلعة بالفتح وهى مسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادى والقطعة المرتفعة من الصحراء ، والمريع كالخصيب وزنا ومعنى . ومنها فيه :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها ... بأحقادها حتى تضيق دروعها
تقتل من وتر أعز نفوسها ... عليها بايد ماتكاد تطيعها
اذا احتربت يومافقاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرماح تقطع بينهم ... شواجر أرحام ملوم قطوعها
فلولا أمير المؤمنين وطوله ... لعادت جيوب والدماء دروعها

والقصيدة كلها محاسن ولكن ينقل عن المتوكل أنه قال مازال يقول «عهاعها» حتى كدنا نقيء . وهذا هو مراد المصنف بقوله لأنه لم يفهم معانيها الخ

(٢) الاسر: إحكام الخلقة ومنه . (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم)

(٣) عثره واعثره جعله يعثر (٤) أشاك الطريق أدخل الشوك فيه

وشعب ظنك [١] حتى لاتدرى من أين تتوصل وكيف تطلب

وأما الملخص فيفتح لفكرتك الطريق المستوى ويمهده ، وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار ، وأوقد فيه الأنوار ، حتى تسلكه سلوك المتبين لوجهته ، وتقطعه قطع الواثق بالنجح فى طيته [٢] فترد الشريعة [٣] زرقاء ، والروضة غناء [٤] فتنال الرى ، وتقطف الزهر الجنى ، [٥] وهل شىء أحلى من الفكرة اذا استمرت وصادفت نهجا مستقيما ، ومذهباً قويماً ، وطريقة تنقاد ، وتبينت لها الغاية [٦] فيما ترتاد، فقد قيل : قرة العين ، وسعة الصدر، وروح القلب، وطيب النفس ، من أربعة أمور : الاستبانة للحجة ، والأنس بالأحبة ، والثقة بالعدة ، والمعاينة للغاية . وقال الجاحظ فى أثناء فصل يذكر فيه ما فى الفكر والنظر من الفضيلة : « وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة [٧] ، ولذة السبع بلطع الدم [٨] وأكل اللحم ؛ من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد ادمان قرعه ، وبعد فاذا أعدت

(١) من شعب الشىء اذا فرقه

(٢) الطية بالكسر اسم هيئة من طوى الارض فى سفره .قال شيخنا فى طيته . فيما طوى قصده عليه ، أقول وفى الاساس : مضى لطيته وأين طيتك وأمتك « بالفتح أى ماتؤمه وتقصده » و بعدت عنا طيته وهى الجهة التى اليها يطوى البلاد

(٣) الشريعة : مورد الشاربة من النهر

(٤) الغناء بالتشديد : كثيرة الشجر، يقال غن الوادى يغن بفتح الغين اذا كثر شجره

(٥) هوماجنى من ساعته فهو غض ليس بذابل

(٦) الغاية فاعل تبينت

(٧) العلوفة بالفتح: ما تأكله الدابة وجمعه علف بضمتين والعليفة والعلوفة : الناقة تعلفها ولا ترسلها الى المرعى «ش» وفى المصباح : العلوفة وزان حلوبة وركوبة: مايعلف من الغنم وغيرها يطلق بلفظ واحد على الواحدة والجمع وهو من علف الدابة علفا من باب ضرب واسم المعلوف علف بفتحتين وجمعه علاف كجبل وجبال

(٨) لطع الدم — من باب فتح — شربه أو لحسه

الحلبات [١] لجرى الجياد ، ونصبت الأهداف ليعرف فضل الرماة فى الإبعاد والسَّداد فرهان العقول التى تستبق ، ونضالها الذى تمتحن قواها فى تعاطيه هو الفكر والروية والقياس والاستنباط »

ولن يبعد المدى فى ذلك ولا يدق المرمى إلا بما تقدم من تقرير الشبه بين الأشياء المختلفة . فان الأشياء المشتركة فى الجنس ، المتفقة فى النوع ، تستغنى بثبوت الشبه بينها ، وقيام الاتفاق فيها ، عن تعمُّل وتأمل فى إيجاب ذلك لها ، وتثبيته فيها ، وانما لصنعة تستدعى جودة القريحة والحذق ، الذى يلطف ويدق ، فى أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات فى ربقة [٢] ويعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة [٣] وماشرفت صنعة ولاذكر بالفضيلة عمل الا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر الى مالا يحتاج اليه غيرهما ويحتكمان على من زاولهما والطالب لهما فى هذا المعنى [٤] مالا يحتكم ماعداهما . ولا يقتضيان ذلك الا من جهة ايجاد الائتلاف فى المختلفات ، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التى تنسب الي الدقة . فانك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافا فى الشكل والهيئة ، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتم ، والائتلاف أبين ، كان شأنها أعجب ، والحذق لصورها أوجب ،

---

(١) الحلبات جمع حلبة بالفتح وهى مجال الخيل للسباق ، ويقال للخيل التى تأتى من كل اوب حلبة (أساس)

(٢) الربق بالكسر (وزان حمل) حبل فيه عدة عرى تشد به البهم وكل عروة من العرى التى فيه تسمى ربقة ويجمع أيضا على رباق وربقت الشاة (من باب قتل) أدخلت عنقها فى الربقة فهى ربيقة ومربوقة . ومن المجاز ربقته فى الأمر . وفى الحديث « خلع ربقة الاسلام من عنقه »

(٣) الشبكة بالضم : نسب القرابة ولحمتها «ش»

(٤) أى دقة الفكر ولطف النظر

واذا كان هذا ثابتاً موجوداً ، ومعلوماً معهوداً ، من حال الصور المصنوعة ، والأشكال المؤلفة ، فاعلم أنها القضية فى التمثيل واعمل عليها واعتقد صحة ماذكرت لك من أخذ الشبه للشيء مما يخالفه فى الجنس ، وينفصل عنه من حيث ظاهر الحال حتى يكون (١) هذا شخصا يملأ المكان وذاك معنى لايتعدى الافهام والأذهان ، وحتى ان هذا انسان يعقل ، وذاك جماد أو موات لايتصف بأنه يعلم أو يجهل ، وهذا نور شمس يبدو فى السماء ويطلع . وذاك معنى كلام يوعى ويسمع ، وهذا روح يحيا به الجسد ، وذاك فضل ومكرمة تؤثر وتحمد ، كما قال :

ان المكارم أرواح يكون لها   آل المهلب دون الناس أجساداً

وهذا مقال متعصب منكر للفضل حسود ، وذاك نار تلتهب فى عود . وهذا الخلاف وذاك ورق خلاف (٢) كما قال ابن الرومى :

بذل الوعد للاخلاء سمحاً   وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف يورق للعيـ   ـن ويأبى الاثمار كل الاباء

وهذا رجل يروم العدو تصغيره والازدراء به فيأبى فضله الا ظهوراً . وقدره الا سمواً . وذاك شهاب من نار تصوب وهى تعلو - وتخفض وهى ترتفع . كما قال أيضاً :

ثم حاولت بالثقيل تصغيـ   ـرى فما زدتنى سوى التعظيم
كالذى طأطأ الشهاب ليخفى   وهو أدنى له الى التضريم

وأخذ هذا المعنى من كلام فى حكم الهند وهو أن الرجل ذا المروءة والفضل

(١) قوله حتى يكون : غاية فى الانفصال «ش»
(٢) الخلاف بالكسر : شجر الصفصاف

ليكون خامل المنزلة غامض الأمر فما تبرح به مروءته وعقله حتى يستبين ويعرف كالشعلة من النار التى يصوبها صاحبها وتأبى الا ارتفاعاً .

هذا هو الموجب للفضيلة والداعى الى الاستحسان . والشفيع الذى أحظى التمثيل عند السامعين ، واستدعى له الشغف والولوع من قلوب العقلاء الراجحين ، ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للمتمثل، ولم تتصادف [١] هذه الأشياء المتعادية على حكم الشبه، الا لأنه لم يراع مايحضر العين ، ولكن مايستحضر العقل ، ولم يعن بما تنال الرؤية ، بل بما تعلق الروية [٢] ولم ينظر الى الأشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة ، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة ، ثم على حسب دقة المسلك ، الى مااستخرج من الشبه ولطف المذهب ، وبعد التصعد الى ما حصل من الوفاق استحق مدرك [٣] ذلك المدح ، واستوجب التقديم ، واقتضاك العقل أن تنوه بذكره ، وتقضى بالجنى فى نتائج فكره [٤] نعم وعلى حسب المراتب فى ذلك وأعطيته فى بعض منزلة الحاذق الصنع [٥] والملهم المؤيد . والألمعى المحدث [٦] الذى سبق الى اختراع نوع من الصنعة حتى يصير إماماً ويكون من بعده

---

(١) تتلاقى .

(٢) الروية النظر والتفكر وتعلق بفتح التاء والعين وتشديد اللام أصله تتعلق أى تهوى ويقال علق بالمرأة « كتعب » وتعلقها اذا هويها .

(٣) ضبطه شيخنا بصيغة اسم المفعول من أدرك .

(٤) الجنى بالفتح: مصدر جنى الثمرة والثمرة نفسها وكل مايجنى مادام غضا .

(٥) يقال صنع اليدين وصنعهما بكسر النون وبالتحريك أى حاذق ماهر .

(٦) الألمعى الذكى المتوقد . والمحدث بالفتح والتثقيل الصادق الحدث كأنما حدث بما ظن ، والمحدثون بالفتح الملهمون وكان عمر بن الخطاب منهم كما صح فى الحديث .

تبعاً له وعيالا عليه ، وحتى تعرف تلك الصنعة بالنسبة اليه ، فيقال صنعة فلان وعمل فلان . ووضعته فى بعض موضع المتعلم الذكى والمقتدى المصيب فى اقتدائه الذى يحسنُ التشبه بمن أخذ عنه ، ويجيد حكاية العمل الذى استفاد ، ويجتهد أن يزداد .

واعلم أنى لست أقول لك انك متى ألفت الشىء ببعيد عنه فى الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنت ، ولكن أقوله بعد تقييد وبعد شرط وهو أن تصيب بين المختلفين فى الجنس وفى ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولا ، وتجد للملاءمة والتأليف السوى بينهما مذهباً واليهما سبيلا ، وحتى يكون ائتلافهما الذى يوجب تشبيهك (١) من حيث العقل والحدس ، فى وضوح اختلافهما من حيث العين والحس ، فاما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا . لأنك تكون فى ذلك بمنزلة الصانع الأخرق يضع فى تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لايلائمانه ولا يقبلانه ، حتى تخرج الصورة مضطربة وتجىء فيها نتوّ (٢) ويكون للعين عنها من تفاوتها نُبو ، وانما قيل شبهت ولا تعنى فى كونك مشبهاً أن تذكر حرف التشبيه أو تستعير ، انما تكون مشبهاً بالحقيقة بأن ترى الشبه وتبينه ، ولا يمكنك بيان مالا يكون ، وتمثيل مالا تتمثله الأوهام والظنون .

ولم أرد بقولى إن الحذق فى إيجاد الائتلاف بين المختلفات فى الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل فى العقل ، وانما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك اليها فاذا تغلغل فكرك فأدركها فقد

(١) يوجب التشبيه : يكون منشأ له والاعتبار الذى سوغه (ش) .
(٢) قوله « فيها نتو » حال من ضمير تجىء وهو بتشديد الواو وأصله بالهمز نتوء .

استحققت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق فى المعانى كالغائص [1] على الدر . ووزان ذلك أن القطع التى يجىء من مجموعها صورة الشنف [2] والخاتم أوغيرهما من الصور المركبة من أجزاء مختلفة الشكل لو لم يكن بينها تناسب أمكن ذلك التناسب أن يلائم بينها الملاءمة المخصوصة ويوصل الوصل الخاص لم يكن ليحصل لك من تأليفها الصورة المقصودة.

ألا ترى أنك لو جئت بأجزاء مخالفة لها فى الشكل ثم أردتها على أن تصير الى الصورة التى كانت من تلك الأول طلبت مايستحيل ، فانما استحققت الأجرة على الغوص وإخراج الدر ، لا ان الدر كان بك ، واكتسى شرفه من جهتك ، ولكن لما كان الوصول اليه صعباً وطلبه عسيراً ثم رزقت ذلك وجب أن يجزل لك ويكبر صنيعك .

ألا ترى أن التشبيه الصريح اذا وقع بين شيئين متباعدين فى الجنس ثم لطف وحسن لم يكن ذلك اللطف وذلك الحسن الا لاتفاق كان ثابتاً بين المشبه والمشبه به من الجهة التى بها شبهت ، الا أنه كان خفياً لاينجلى الا بعد التأنق فى استحضار الصور وتذكرها وعرض بعضها على بعض ، والتقاط النكتة المقصودة منها ، وتجريدها من سائر مايتصل بها ، نحو أن يشبه الشىء بالشىء فى هيئة الحركة فتطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة ، والهيئةُ مجردة من الجسم وسائر مافيه من اللون وغيره من الأوصاف كما فعل ابن المعتز فى تشبيه البرق حيث قال :

وكأنّ البرق مصحف قار فانطباقاً مرّةً وانفتاحا

---

(١) كالغائص حكاية للتشبيه، ولعل أصله بالغائص لانه لايحتاج الى التقدير .

(٢) الشنف بالفتح : القرط الأعلى ج شنوف.

لم ينظر من جميع أوصاف البرق ومعانيه الا الى الهيئة التى تجدها العين له عن انبساط يعقبه انقباض ، وانتشار يتلوه انضمام ، ثم فكر فى نفسه عن هيآت الحركات لينظر أيها أشبه بها فأصاب ذلك فيما يفعله القارئ من الحركة الخاصة فى المصحف اذا جعل يفتحه مرة ويطبقه أخرى ولم يكن إعجاب هذا التشبيه لك وإيناسه إياك لان الشيئين مختلفان فى الجنس أشد الاختلاف فقط ، بل لان حصل بازاء الاختلاف اتفاق كأحسن مايكون وأتمه ، فبمجموع الأمرين — شدة ائتلاف فى شدة اختلاف — حلا وحسن ، وراق وفتن .

ويدخل فى هذا الموضوع الحكاية المعروفة فى حديث عدى بن الرقاع قال جرير أنشدنى عدى : * عرف الديار توهماً فاعتادها *[1] فلما بلغ الى قوله : * تزجى أغن كأنّ ابرة روقه *[2] رحمته وقلت قد وقع ، ماعساه يقولى وهو أعرابى جاف جاف ؟ فلما قال : * قلم أصاب من الدواة مدادها * استحالت الرحمة حسداً[3] فهل كانت الرحمة فى الأولى والحسد فى الثانية

(١) تمام البيت : * من بعد ماشمل البلى ابلادها * والابلاد قطع الارض عامرة أو غامرة أو الآثار فى قول بعضهم. والقصيدة فى مدح الوليد بن عبد الملك ، ومنها :

ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها

ومنها تأتيه أسلاب الأعزة عنوة قسراً ويجمع للحروب عتادها

وعلمت حتى ما أسائل عالما عن علم واحدة لكى أزدادها

(٢) الازجاء السوق والأغن ذو الغنة وهى صوت يتردد بين اللهاة والأنف كنون « منك » وكذلك صوت الظبي ولذلك غلب عليه لقب الأغن . والروق القرن وابرته رأسه وتكون سوداء .

(٣) يقال ان الفرزدق كان حاضرا إنشاد القصيدة وانه عند مابلغ عدى قوله : تزجى أغن الخ قال أى الفرزدق لجرير ماتراه يستلب بهذا تشبيها ؟ فقال جرير : =

الا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالا يحضر له فى أول الفكر وبديهة الخاطر وفى القريب من محل الظن شبه (١) وحين أتم التشبيه وأداه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وعثر على خبيء مكانه غير معروف؟ وعلى ذلك استحسنوا قول الخليل ، فى انقباض كف البخيل .

كفاك لم تخلقا للندى ولم يك بخلهما بدعه
فكف عن الخير مقبوضة كما نقصت مائة سبعه
وكف ثلاثة آلافها وتسع مئيها لها منعه (٢)

وذلك انه أراك شكلا واحداً فى اليدين ؛ مع اختلاف العددين ومع اختلاف المرتبتين فى العدد أيضا لان أحدهما من مرتبة العشرات والآحاد والآخر من مرتبة المئين والألوف . فلما حصل الاتفاق كأشد مايكون فى شكل اليد مع الاختلاف كأبلغ مايوجد فى المقدار والمرتبة

= * قلم أصاب من الدواة مدادها * قال فما رجع الجواب حتى قال عدى ذلك ، فقال ويحك لكأن سمعك فى فؤاده مخبوء ! فقال جرير : اسكت فقد شغلنى سبك عن جيد الكلام (ش) .

(١) شبه فاعل يحضر .

(٢) الأبيات من المتقارب وفى الأول الخرم، ومعناها انه قابض كلتا يديه وبيانه فى حل مسئلة العقد وهى ان اليمنى التى يعقدون بها للآحاد والعشرات اذا أردت أن تعقد بها ٩٣ وهى المائة تنقصها سبعة تقبض الخنصر والبنصر والوسطى بحيث تكون الأظافر فى باطن الكف وهى عقدة الثلاثة وتقبض السبابة وتجعل ظفرها ظاهرا (لان ظهور الأظافر للعشرات وإخفاءها للآحاد) وتضع الابهام على ظهرها وهى عقدة التسعين فتلك ٩٣ ماحصلت الا من قبض الكف . وأما اليسرى التى يعقد بها للمئين والألوف فتكون مقبوضة بعقد ٣٩٠٠ وذلك أن تقبض الخنصر والبنصر والوسطى وهى عقدة ٣٠٠٠ وتقبض السبابة وتحلق عليها بالابهام (كعقدة ٩٠ فى اليمنى) وهى عقدة ٩٠٠ فتلك ٣٩٠٠ حصلت بقبض اليد اليسرى أيضا .

من العـدد كان التشبيه بديعاً . قال المرزبانى : وهـذا مما أبدع فيه الخليل لأنه وصف انقباض اليدين بحالين من الحساب مختلفين فى العـدد متشاكلين فى الصورة . وقوله هذا إجمال مافصلته .

ومما ينظر الى هـذا الفصل ويداخله ويرجع اليـه حين تحصيله الجنس (١) الذى يراد فيه كون الشيء من الأفعال سبباً لضده كقولنا : أحسن من حيث قصد الاساءة ، ونفع من حيث أراد الضر . اذا لم يقنع التشاغل بالعبارة الظاهرة ، والطريقة المعروفة ، وصور فى نفس الاساءة الاحسان ، وفى البخل الجود ، وفى المنع العطاء ، وفى موجب الذم موجب الحمد ، وفى الحالة التى حقها أن تعد على الرجل حكم مايعتد له ، والفعل الذى هو بصفة مايعاب وينكر ، صفة مايقبل المنة ويشكر ، فيدل ذلك بما يكون فيه من الوفاق الحسن مع الخلاف البين على حذق شاعره ، وعلى جودة طبعه وحدة خاطره ، وعلو مصعده وبعد غوصه ، اذا لم يفسده بسوء العبارة ، ولم يخطئه التوفيق فى تلخيص الدلالة ، وكشف تمام الكشف عن سَرِو المعنى وسره (٢) بحسن البيان وسحره . مثال ماكان من الشعر بهـذه الصفة قول أبى العتاهية :

جُزِىَ البخيل علىَّ صالحة ... عنى لخفته على ظهرى
أعلى وأكرمَ عن يديه يدى ... فعلت ونزه قدره قدرى
ورُزقتُ من جدواه عافيـة ... أن لا يضيق لشكره صدرى
وغَنيتُ خِـلواً من تفضله ... أحنو عليه بأحسن العذر
مافاتنى خير امرئٍ وضعت ... عنى يداه مؤنة الشكر

(١) الجنس مبتدأ وقوله قبله : ومما ينظر الى هذا الفصل خبره .
(٢) السرو الفضل .

ومن اللطيف مما يشبه هذا قول الآخر :

أعتقني سوء ماصنعت من الر م ق فيابردها على كبدى

فصرت عبداً للسوء فيك وما أحسن سوء قبلى الى أحد

فصل

« هـذا فن آخر من القول يجمع التشبيه والتمثيل جميعاً »

اعلم أن معرفة الشيء من طريق الجملة غير معرفته من طريق التفصيل فنحن وان كنا لا يشكل علينا الفرق بين التشبيه الغريب وغير الغريب اذا سمعنا بهما فان لوضع القوانين وبيان التقسيم فى كل شيء وتهيئة العبارة فى الفروق فائدة لا ينكرها المميز . ولا يخفى أن ذلك أتم للغرض وأشفى للنفس . والمعنى الجامع فى سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا ينتزع اليه الخاطر ، ولا يقع فى الوهم عند بديهة النظر الى نظيره الذى يشبه به بل بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس فى الصور التى تعرفها وتحريك الوهم فى استعراض ذلك واستحضار ماغاب منه .

بيان ذلك انك كما ترى الشمس ويجرى فى خاطرك استدارتها ونورها تقع فى قلبك المرآة المجلوة ويتراءى لك الشبه منها فيها . وكذلك اذا نظرت الى الوشيء منشوراً وتطلبت لحسنه ونقشه واختلاف الاصباغ فيه شبهاً حضرك ذكر الروض ممطوراً مفتراً عن أزهاره ، متبسما عن أنواره ، وكذلك اذا نظرت الى السيف الصقيل عند سله وبريق متنه لم يتباعد عنك أن تذكر انعقاق البرق (١) وان كان هذا أقل ظهوراً من الأول

(١) انعق البرق: تسرب فى السحاب . ومن معانى العقيقة مايبقى فى السحاب من شعاعه و به تشبه السيوف فتسمى عقائق .

وعلى هذا القياس . ولكنك تعلم أن خاطرك لايسرع الى تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل كقوله * والشمس كالمرآة فى كف الأشل * هـذا الاسراع ولا قريباً منه ولا الى تشبيه البرق بأصبع السارق كقول كشاجم .

أرقتَ أم نمت لضوء بارق مؤتلق مثل فؤاد العاشق
كأنه اصبع كف السارق

وكقول ابن بابك (١) :

ونضنض فى حصنى سحائل بارق له جذوة من زبرج اللاذ لامعه
تموّج فى أعلى السحاب كأنها بنان يد من كلة اللاذ ضارعه

ولا الى تشبيه البرق فى انبساطه وانقباضه ، والتماعه وائتلافه ، بانفتاح المصحف وانطباقه ، فيما مضى من قول ابن المعتز :

وكان البرق مصحف قار فانطباقاً مرة وانفتاحا

ولا الى تشبيه سطور الكتاب بأغصان الشوك فى قوله :

بلفظ يأخـذ الحرف المحلى كأن سطوره أغصان شوك (٢)

ولا الى تشبيه الشقيق بأعلام ياقوت على رماح زبرجد كقول الصنوبرى :

وكان محمر الشقيـ ـق اذا تصوب أو تصعد

---

(١) نضنض: تحرك ويستعمل متعديا. والسحائل جمع سحيل وهو الحبل على قوة واحدة (أى طاق واحد) شبه به خيوط ضوء البرق الرقيقة . والزبرج السحاب الرقيق فيه حمرة واللاذ جمع لاذة وهى ثوب من حرير أحمر . والكلة بالكسر الحجلة التى تسمى الآن فى بلادنا (الناموسية) والستر الرقيق .

(٢) كأنه يريد أن اللفظ يأخذ أشكال الحروف المحلاة بحركاتها أى يتشكل فيها (ش) وينبغى أن تتذكر أن الشوك الذى شبه به شكل الحركات على السطور هو ما كان دقيقا وكثيرا كشوك الثمر الذى يسمى فى مصر بالتين الشوكى وفى الشام بالصبير بوزن جميز .

أعلام ياقوت نُشر ن على رماح من زبرجد

ولا الى تشبيه النجوم طالعات فى السماء مفترقات مؤتلفات فى أديمها وقد مازجت زرقة لونها بياض نورها بدر منثور على بساط أزرق كقول أبى طالب الرقى :

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق (١)

ولا ما جرى فى هذا السبيل ، وكان من هذا القبيل ، بل تعلم أن الذى سبقك الى أشباه هذه التشبيهات لم يسبق الى مدى قريب بل أحرز غاية لا ينالها غير الجواد ، وقرطس فى هدف لا يصاب إلا بعد الاحتفال والاجتهاد (٢)

واعلم أنك ان أردت أن تبحث بحثاً ثانياً حتى تعلم لم وجب أن يكون بعض الشبه على الذكر أبداً وبعضه كالغائب عنه وبعضه كالبعيد عن الحضرة لا ينال إلا بعد قطع مسافة اليه ، وفضل تعطف (٣) بالفكر عليه ، فان ههنا ضربين من العبرة يجب أن تضبطهما أولا ثم ترجع فى أمر التشبيه فانك حينئذ تعلم السبب فى سرعة بعضه الى الفكر وإباء بعض أن يكون له ذلك الاسراع . فاحدى العبرتين أنا نعلم أن الجملة أبداً أسبق الى النفوس من التفصيل . وانك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة الى

(١) خرجت فى صبيحة يوم من أيام الربيع الى المزارع وجلست على رابية فرأيت القمح يعلو أوراقه الندى على كل ورقة منه نقطة كاللؤلؤة ففكرت فيما يشبه ذلك فخطر لى معانى جعلتها مطلع موشح فقلت وهو من أول نظمى :

أسقيط الطل فى نبت الحمى أم لآل فوق بسط السندس
أم نجوم تتراءى فى السما أم ثغور زينت باللعس

(٢) قرطس: أصاب القرطاس أى الغرض والاحتفال المبالغة وحسن القيام بالأمور

(٣) التعطف صيغة كثرة من العطف وهو الشفقة والحنو

التفصيل ولكنك ترى بالنظر الأول الوصف على الجملة ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ولذلك قالوا : النظرة الأولى حمقاء . وقالوا . لم ينعم النظر ولم يستقص التأمل . وهكذا الحكم فى السمع وغيره من الحواس ؛ فانك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية مالم تتبينه بالسماع الأول . وتدرك من تفصيل طعم الذوق بأن تعيده الى اللسان مالم تعرفه فى الذوقة الأولى . وبادراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء وسامع وسامع ، وهكذا . فأما الجمل فتستوى فيهاالاقدام ، ثم تعلم انك فى ادراك تفصيل ماتراه وتسمعه أو تذوقه كمن ينتقى الشىء من بين جملة ، وكمن يميز الشىء مما قد اختلط به ، فانك حين لايهمك التفصيل كمن يأخذ الشىء جزافا وجرفا .(١)

واذا كانت هذه العبرة ثابتة فى المشاهدة ، وما يجرى مجراها مما تناله الحاسة ، فالأمر فى القلب كذلك : تجد الجمل أبداً هى التى تسبق الى الأوهام وتقع فى الخاطر أولا ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لا تحضر الا بعد اعمال الروية واستعانة بالتذكر . ويتفاوت الحال فى الحاجة الى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل ، وكلما كان أوغل فى التفصيل كانت الحاجة الى التوقف والتذكر أكثر ، والفقر الى التأمل والتمهل أشد

---

(١) الجزاف بيع الشىء لايعلم كيله ولاوزنه وهو اسم من جازف مجازفة والجزاف بالضم خارج عن القياس وهو فارسى تعريب كزاف (مصباح) واشتقوا منه جزف وجازف واجتزف واستعملوه فى الحقيقة والمجاز ، وثلثوا جيم جزاف.والجرف بالفتح: بالكسح أو الذهاب بالشىء كله

وإذ قد عرفت هذه العبرة فالاشتراك فى الصفة اذا كان من جهة الجملة على الاطلاق بحيث لايشوبه شيء من التفصيل نحو ان كلا الشيئين أسود أو أحمر فهو يقل عن أن يحتاج فيه الى قياس وتشبيه ، فان دخل فى التفصيل شيء نحو ان هذا السواد صاف براق والحمرة رقيقة ناصعة احتجت بقدر ذلك الى ادارة الفكر ، وذلك مثل تشبيه حمرة الخد ، بحمرة التفاح والورد ، فان زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ويتعرّف بفضل تأمل ازداد الأمر قوة فى اقتضاء الفكر ، وذلك نحو تشبيه سقط النار بعين الديك فى قوله :

* وسقط كعين الديك عاورت صحبتى * (١)

---

(١) الشطر من قصيدة لغيلان وتمام البيت * أباها وهيأنا لموضعها وكرا * والصحبة اسم جمع صاحب وعاورتهم تناوبت معهم وفى رواية « نازعت » والبيت فى وصف السقط الذى يكون من الزند . وهى مثلث السين والاشهر منها الكسر ومن عادتهم عندما يريدون استخراج النار أنهم كانوا يأتون بالعودين فيضعون أحدهما أسفل ويسمونه الانثى ويفرضون فيه فرضا ويجرون فيه عودا آخر يسمونه الاب وأحيانا ينقرون نقرا فى العود الاول ويبرمون ـ أى يديرون ـ فيه الثانى وهو قائم فاذا طال زمن العمل ولم تخرج النار تناوب العود الذكر وهو الاب جماعة الواحد بعد الآخر يحركه حتى تخرج . والمراد من الوكر ماتودع فيه النار بعد خروجها كالخشب والفحم ونحوهما . ومطلع القصيدة

لقد جشأت نفسى عشية مشرف ويوم لوا حزوى فقلت لها صبراً

وبعد البيت المستشهد به :

مشهورة لم تمكن الفحل أمها اذا هى لم يمسك بأطرافها قسرا
قد انتتجت من جانب من جنوبها عوانا ومن جنب الى جنبه بكرا
أبوها أخوها والضوى لايضيره وساق أبيها أمها عقرت عقراً

والكلام فى وصف السقط يحاجى بذكرها والام هى العود . الاسفل والفحل هو العود المسمى بالاب ولابد من إمساك طرف العود الاسفل حتى يمكن تحريك=

وذلك أن ما في عينه من تفصيل وخصوص يزيد على كون الحمرة رقيقة ناصعة والسواد صافيا براقا ، وعلى هذا تجد هذا الحد من المرتبة التي لا يستوى فيها البليد والذكي والمهمل نفسه والمتيقظ المستعد للفكر والتصور ، فقوله :

كأن على أنيابها كل سُحرة صياح البوازي من صريف اللوائك (١)

أرفع طبقة من قوله :

كأن صليل المرو حين تشذه صليل زيوف يُنتقدن بعبقرا (٢)

لأن التفصيل والخصوص في صوت البازي أبين وأظهر منه في صليل الزيوف ، وكما أن قوله يصف الفرس :

وللفؤاد وَجيب تحت أبهره لدْمَ الغلام وراء الغيب بالحجر (٣)

= الاعلى فيه . ثم يقول انها «انتتجت» أي اكتسبت من بعض الجوانب «عوانا» أي بعد أن عمل فيه قوم سابقون وذلك أن القوم كانوا يستخرجون النار من أسفل شجرة فيأتي غيرهم ويستخرجها من حيث استخرج الاولون فشبه هذا بالمرأة العوان أي في منتصف سنها. ومن بعض الجوانب اقتدحت «بكرا» أي من حيث لم يسبق لاحد اقتداح فهي كالبكر و (أبوها) وهو العود الاعلى (أخوها) لانهما من شجرة واحدة (والضوى لا يضيره) لانه كلما رق كان أفضل والضوى بفتح الضاد والواو الدقة والهزال وفعله ضوى كرضي (وساق أبيها امها) يشير بذلك الى ما يحصل من الاقتداح في ساق الشجرة. ومن هنا يفهم إلغاز ابن دريد في المقصورة وهو :

ومنتج أم أبيه أمه لم يتخون جسمه مس الضوى
أفرشته بنت اخيه فانثنى عن ولد يورى به ويشتوى

(١) تقدم مع تفسيره (ص ٧٢)

(٢) البيت لامرىء القيس والمرو الحجارة البيض الرقاق وتشذه إشذاذا : تنحيه. وعبقر قيل بلدة في اليمن مشهورة بتزييف النقود وقيل هي قرية للجن ينسبون اليها كل عجيب في الحسن أو القبح

(٣) البيت أنشده الاصمعي لابن مقبل والابهر عرق مستبطن في الصلب والقلب متصل به فاذا انقطع لم =

لايستوى بتشبيه وقع الحوافر بهزمة الرعد وتشبيه الصوت الذى يكون لغليان القدر بنحو ذلك كقوله

لها لغط جنح الظلام كأنه عجارف غيث رائح متهزم (١)

لان هناك من التفصيل الحسن ماتراه . وليس فى كون الصوت من جنس اللغط تفصيل يعتد به وانما هو كالزيادة والشدة فى الوصف ، ومثال ذلك مثال أن يكون جسم أعظم من جسم فى أنه لايتجاوز مرتبة الجمل كبير تجاوز . فاذا رأى الرجل شخصاً قد زاد على المعتاد فى العظم والضخامة لم يحتج فى تشبيهه بالفيل أو الجبل أو نحو ذلك الى شيء من الفكر بل يحضره ذلك حضور مايعرف بالبديهة .

والمقابلات التى تريك الفرق بين الجملة والتفصيل كثيرة . ومن اللطيف فى ذلك أن تنظر الى قوله :

يتابع لا يبتغى غيره بأبيض كالقبس الملتهب (٢)

= تكن معه حياة . وذكر الزمخشرى الصلب ولم يذكر القلب وعن ابن الأثير هما عرقان فى الظهر يقال لهما الأبهران كما يقال فى عرق الذراع الاكحلان قال شيخنا وقيل هو عرق منشؤه من الرأس ويمتد الى القدم وله شرايين تتصل بأكثر الاطراف والبدن فالذى فى الرأس يسمى النأمة ومنه قولهم : أسكت الله نأمته : أى أماته ، ويمتد الى الحلق فيسمى الوريد والى الصدر فيسمى الابهر والى الظهر فيسمى الوتين والفؤاد معلق به والى الفخذ فيسمى النسا (بالفتح) والى الساق فيسمى الصافن اهـ والوجيب تحرك القلب تحت أبهره واللدم الضرب والغيب ما كان بينك و بينه حجاب يريد أن للفؤاد صوتا يسمعه ولا يجيب يراه كما يسمع صوت الحجر الذى يرمى به الصبى ولا يراه . وخص الغلام لأن الصبيان كثيرا مايلعبون برمى الحجارة اهـ لسان العرب

(١) عجارف المطر والغيث شدته والمتهزم المصوت يقال : تهزمت القوس وتهزم الرعد أى صوتا

(٢) البيت لعنترة العبسى وهو حماسى والضمير فى يتابع لوردن حابس =

ثم تقابل به قوله :

جمعت ردينيا كأن سنانه سنالهب لم يتصل بدخان[١]

فانك ترى بينهما من التفاوت فى الفضل ماتراه مع أن المشبه به فى الموضعين شىء واحد وهو شعلة النار وماذاك إلا من جهة أن الثانى قصد الى تفصيل لطيف ومن الأول على حكم الجمل . ومعلوم أن هذا التفصيل لايقع فى الوهم فى أول وهلة بل لابد فيه من أن تتثبت وتتوقف وتروى وتنظر فى حال كل واحد من الفرع والأصل حتى يقوم حينئذ فى نفسك أن فى الأصل شيئا يقدح فى حقيقة الشبه وهو الدخان الذى يعلو رأس الشعلة وأنه ليس فى رأس السنان ما يشبه ذلك وانه اذا كان كذلك كان التحقيق وما يؤدى الشىء كما هو أن تستثنى الدخان وتنفى اتصاله باللهب وتقصر التشبيه على مجرد السنا وتصور السنان فيه مقطوعا عن الدخان

= ومفعول يتابع محذوف والضمير فى « غيره » لنضلة الاسدى وكان ورد بن حابس طلب نضلة الاسدى بوتر له . وموضع «لايبتغى» نصب على الحال والباء فى قوله بأبيض يجوز أن تتعلق بيتابع وأن تتعلق بلا يبتغى والمعنى يتابع ورد ابن حابس نضلة الاسدى غير مبتغ غيره بسيف أبيض كالنار الملتهبة ، ومعنى لايبتغى غيره أن همته كانت منصرفة اليه دون سواه من الناس أو دون الغنائم والاموال

(١) يروى حملت مكان جمعت وهو أظهر . قال الجوهرى : القناة الردينية والرمح الردينى زعموا أنه منسوب الى امرأة السمهرى وتسمى ردينة وكانا يقومان القنا بخط هجر اه وفى كلامهم خطية ردن ، ورماح لدن (لسان) وأقول سمهر كجعفر وردينة كجهينة والخط بالفتح قال فى المصباح سمى به موضع باليمامة وينسب اليه على لفظه فيقال رماح خطية والرماح لاتنبت بالخط ولكنه ساحل السفن التى تحمل القنا اليه وتعمل به وقال الخليل اذا جعلت النسبة اسما لازما قلت خطية بكسر الخاء ولم تذكر الرماح ، وهذا كما قالوا ثياب قبطية بالكسر فاذا جعلوه اسما حذفوا الثياب وقالوا قبطية بالضم فرقا بين الاسم والنسبة اه

ولو فرضت أن يقع هذا كله على حد البديهة من غير أن يخطر ببالك ماذكرت لك قدرت محالا لا يتصور ، كما أنك لو قدرت أن يكون تشبيه الثريا بعنقود ملاحية حين نور بمنزلة تشبيهها بالنور على الاطلاق أو تفتح نور فقط كما قال :

كأن الثريا فى أواخر ليلها تفتح نور (١)

حتى ترى حاجتهما الى التأمل على مقدار واحد وحتى لايحوج أحدهما من الرجوع الى النفس وبحثها عن الصور التى تعرفها إلا الى مثل مايحوج اليه الآخر أسرفت فى المجازفة ونقصت يداً بالصواب والتحقيق (٢)

والعبرة الثانية أن مما يقتضى كون الشيء على الذكر وثبوت صورته فى النفس أن يكثر دورانه على العيون ويدوم تردده فى مواقع الابصار ، وأن تدركه الحواس فى كل وقت أو فى أغلب الأوقات ، وبالعكس وهو أن من سبب بعد ذلك الشيء عن أن يقع ذكره بالخاطر وتعرض صورته فى النفس قلة رؤيته ، وانه مما يحس بالفيئة بعد الفيئة وفى الفرط بعد الفرط (٣) وعلى طريق الندرة . وذلك أن العيون هى التى تحفظ صورة الأشياء على النفوس وتجدد عهدها بها وتحرسها من أن تدثر وتمنعها أن تزول ، ولذلك قالوا من غاب عن العين فقد غاب عن القلب . وعلى هذا المعنى كانت المدارسة والمناظرة فى العلوم وكرورها على الاسماع سبب سلامتها من النسيان ، والمانع لها من التفلت والذهاب

---

(١) البيت غير تام فى الاصل

(٢) قوله ونقصت يداً أى قدرة عليه

(٣) الفيئة : الحين والفرط الحين وأن تأتيه فى بعض الايام ولا يكون أكثر من ١٥ ولا أقل من ٣ «ش»

واذا كان هذا لايشك فيه بان منه أن كل شبه رجع الى وصف أو صورة أوهيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفى الغاية القصوى من مخالفته فالتشبيه المردود اليه غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات التى تجىء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما ، فما كان منها الى الطرف الأول أقرب ، فهو أدنى وأنزل ، وما كان الى الطرف الثانى أذهب ، فهو أعلى وأفضل ، وبوصف الغريب أجدر

واعلم أن قولنا « التفصيل » عبارة جامعة ومحصولها على الجملة أن معك وصفين أو أوصافا فأنت تنظر فيها واحداً واحداً وتفصل بالتأمل بعضها من بعض ، وقد أرتك فى الجملة حاجة الى أن تنظر فى أكثر من شىء واحد ، وأن تنظر فى الشىء الواحد الى أكثر من جهة واحدة . ثم انه يقع على أوجه (أحدها) وهو الأول والأحق بهذه العبارة أن تفصل بأن تأخذ بعضاً وتدع بعضاً ، كما فعل فى اللهب حين عزل الدخان عن السنا وجرده ، وكما فعل الآخر حين فصل الحدق عن الجفون وأثبتها مفردة فيما شبه وذلك قوله :

* لها حدق لم تتصل بجفون * ويقع فى هذا الوجه من التفصيل لطائف فمنها قول ابن المعتز :

بطارح النظرة فى كل أفق ذى منسر أقنى اذا شك خرق
ومقلة تصدقه اذا رمق كأنها نرجسة بلا ورق[1]

---

(١) ماأورده مختزل غير مرتب والاصل فى الخروج بالبازى سحرا الى الصيدوهو:

غدوت فى ثوب من الليل خلق بطارح النظرة فى كل أفق
ذى منسر أقنى اذاشك خرق مختضب فى كل يوم بعلق
وكل عظم مفصل إذا علق ومقلة تصدقه إذا رمق
كأنها نرجسة بلا ورق تنشب فى الديباج حتى ينفتق

وقوله :

تكتب فيه أيدى المزاج لنا ميمات سطر بغير تعريق [١]

﴿ والثانى ﴾ أن تفصل بأن تنظر من المشبه فى أموره لتعتبرها كلها وتطلبها فيما يشبه به وذلك كاعتبارك فى تشبيه الثريا بالعنقود الأنجم نفسها والشكل منها واللون وكونها مجتمعة على مقدار فى القرب والبعد فقد نظرت فى الأمر واحداً واحداً وجعلتها بتأملك فصلا فصلا ثم جمعتها فى تشبيهك وطلبت للهيئة الحاصلة من عدة أشخاص الأنجم والأصناف التى ذكرت لك من الشكل واللون والتقارب على وجه مخصوص هيئة أخرى شبيهة بها فأصبتها فى العنقود المنور من الملاحية ولم يقع لك التشبيه بينهما الا بأن فصلت أيضا أجزاء العنقود بالنظر وعلمت أنها خصل بيض [٢] وان فيها شكل استدارة النجم ، ثم الشكل الى الصغر ماهو ، كما أن شكل أنجم الثريا كذلك ، وان هذه الخصل لامجتمعة اجتماع النظام والتلاصق ولا هى شديدة الافتراق ، بل لها مقادير فى التقارب والتباعد على نسبة قريبة مما تجده فى رأى العين بين تلك الأنجم بذلك ، على أن

(١) الكلام فى القدح وفى رواية « يكتب فيه كف المزاج » والتعريق من عرق الشراب كأعرقه اذا جعل فيه عرقا من الماء بمعنى انه مزجه ولم يبالغ فيه وعرق فى الاناء جعله دون الملء وفى الدلو استقى فيها دون الملء . وقبل البيت .

لاشىء يسلى همى سوى قدح تدمى عليه أوداج إبريق

(٢) الخصل جمع خصلة وهى بالفتح والضم العنقود والعامة تطلقها على الجزء يقتطع من العنقود وعلى العنقود الصغير كالجزء .

التشبيه موضوع على مجموع هذه الأوصاف حتى انا لو فرضنا فى تلك الكواكب أن تفترق وتتباعد تباعداً أكثر مما هى عليه الآن أو قدّر فى العنقود أن ينثر لم يكن التشبيه بحاله.

وكذلك الحكم فى تشبيه الثريا باللجام المفضض لأنك راعيت الهيئة الخاصة من وقوع تلك القطع والأطراف بين اتصال وانفصال وعلى الشكل الذى يوجبه موضوع اللجام ولو فرضت أن تركب مثلا على سنن واحد طولا فى سير واحد مثلا ويلصق بعضها ببعض بطل التشبيه وكذا قوله :

* تعرّض أثناء الوشاح المفصل * (١)

وقد اعتبر فيه هيئه التفصيل فى الوشاح والشكل الذى يكون عليه الخرز المنظوم فى الوشاح فصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل فى التشبيه .

﴿ والوجه الثالث ﴾ أن تفصل بأن تنظر الى خاصة فى بعض الجنس كالتى تجدها فى صوت البازى وعين الديك فأنت تأبى أن تمر على جملة أن هذا صوت وذاك حمرة ولكن تفصل فتقول فيهما ماليس فى كل صوت وكل حمرة .

واعلم أن هذه القسمة فى التفصيل موضوعة على الأغلب الأعرف ، والا فدقائقه لاتكاد تضبط . فما يكثر فيه التفصيل ويقوى معناه فيه ما كان

---

(١) عجز بيت لامرىء القيس وصدره * اذا ماالثريا فى السماء تعرضت * وقبله :

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر علىّ حراصا لو يسرون مقتلى

قال أبو عمرو الثريا لاتتعرض وانما عنى الجوزاء . وقال ابن سلام الثريا تتعرض عند السقوط كما أن الوشاح اذا طرح تلقاك بناحية . وأثناء الوشاح جوانبه والمفصل الذى فصل مابين كل خرزتين منه بلؤلؤة .

من التشبيه مركباً بين شيئين أو أكثر وهو ينقسم قسمين :

(أحدهما) أن يكون شيئاً بقدر المشبه وبصفته أولا يكون ، ومثال ذلك تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، وتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد . لأنك فى هذا النحو تحصل الشبه بين شيئين يقدّر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم فقد حصله فى النرجس من شكل المداهن والعقيق بشرط أن تكون المداهن من الدر وأن يكون العقيق فى الحشو منها وكذلك اشترط هيئة الأعلام وأن تكون من الياقوت وأن تكون منشورة على رماح من زبرجد . فبك حاجة فى ذلك الى مجموع أمور لو أخللت بواحد منها لم يحصل الشبه وكذلك لو خالفت الوجه المخصوص فى الاجتماع والاتصال بطل الغرض فكما بك حاجة الى أن يكون الشكل شكل المُدهُن وأن يكون من الدر وأن يكون معه العقيق فبك أيضاً فقر الى أن يكون العقيق فى حشو المداهن — وعلى هذا القياس .

و (القسم الثانى) أن تعتبر فى التشبيه هيئة تحصل من اقتران شيئين وذلك الاقتران مما يوجد ويكون . ومثاله قوله :

غدا والصبح تحت الليل باد كطِرْفٍ أشهب مُلقى الجلال

قصدَ الشبه الحاصل لك اذا نظرت الى الصبح والليل جميعاً وتأملتَ حالها معاً ، وأراد أن يأتى بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخر ؛ ولم يرد أن يشبه الصبح على الانفراد والليل على الانفراد ، كما لم يقصد الأول أن يشبه الدائرة البيضاء من النرجس بمدهن الدر ثم يستأنف تشبيهاً للثانية بالعقيق ، بل أراد أن يشبه الهيئة الحاصلة من مجموع الشكلين ، من غير أن يكون بَيْنٌ فى البين ، ثم ان هذا الاقتران الذى وضع عليه التشبيه مما يوجد

ويعهد إذ ليس وجود الفرس الأشهب قد ألقى الجل من المعوز [1] فيقال انه مقصور على التقدير والوهم .

فاما الأول فلا يتعدى التوهم وتقدير أن يصنع ويعمل فليس فى العادة أن تتخذ صورة أعلاها ياقوت على مقدار العلم وتحت ذلك الياقوت قطع مطاولة من الزبرجد كهيئة الأرماح والقامات ، وكذلك لايكون ههنا مداهن تصنع من الدر ثم يوضع فى أجوافها عقيق . وفى تشبيه الشقيق زيادة معنى تباعد [2] الصورة من الوجود وهو شرطه أن تكون أعلاماً منشورة والنشر فى الياقوت وهو حجر لايتصور موجوداً .

وبقى أن تعلم أن الوجه فى القاء الجل أن تريد انه أداره عن ظهره وأزاله عن مكانه حتى تكشف أكثر جسده لا انه رمى به جملة حتى انفصل منه لأنه اذا أراد ذلك كان قد قصد الى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر فى الليل ، ولم يشاكل قوله فى أول البيت « والصبح تحت الليل باد » .

وأما قوله :

اذا تبدى البرق منها خلته بطن شجاع فى كثيب يضطرب

وتارة تبصره كأنه أبلق مال جله حين وثب

فلا شبهة فيه أن يكون القصد الى تشبيه البرق وحده بياض البلق دون أن يدخل لون الجل فى التشبيه حتى كأنه يريد أن يريك بياض البرق فى سواد الغمام بل ينبغى أن يكون الغرض بذكر الجل أن البرق

---

(١) الجل للفرس والحمار بالضم وبالفتح مايوضع على الظهر ليركب عليه، جمعه جلال بالكسر وإجلال. والمعوز اسم فاعل من أعوزه الشىء اذا احتاج اليه فلم يجده أو لم يقدر عليه .

(٢) فعل مضارع فاعله ضمير يعود الى الزيادة .

يلمع بغتة ويلوح للعين فجأة فصار لذلك كبياض الابلق اذا ظهر عند وثوبه وميل جله عنه . وقد قال ابن بابك فى هذا المعنى :

للبرق فيها (١) لهبٌ طائش كما يعرى الفرس الأبلق

الا أن لقول ابن المعتز «حين وثب» من الفائدة مالا يخفى . وقد عُنِىَ المتقدمون أيضاً بمثل هذا الاحتياط ألا تراه قال :

وترى البرق عارضاً (٢) مستطيلا مَرَحَ البُلْق جلن فى الاجلال

فجعلها تمرح وتجول ليكون قد راعى مابه يتم الشبه وهو معظم الغرض من تشبيهه وهو هيئة حركته وكيفية لمعه .

ثم اعلم أن هذا القسم الثانى الذى يدخل فى الوجود يتفاوت حاله فمنه مايتسع وجوده ومنه مايوجد فى النادر ويبين ذلك بالمقابلة فأنت اذا قابلت قوله :

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

بقول ذى الرمة : « كأنها فضة قد مسها ذهب » (٣) علمت فضل الثانى على الأول فى سعة الوجود وتقدم الأول على الثانى فى غربته وقلته وكونه نادر الوجود فان الناس يرون أبداً فى الصياغات فضة قد أجرى فيها ذهب وطليت به ولا يكاد يتفق أن يوجد در قد نثر على بساط أزرق .

فاذا عرفت انقسام المركب من التشبيه الى هذين القسمين فاعتبر

---

(١) الضمير فى فيها للسحابة .

(٢) من عرض اذا ظهر و بدا ولم يدم . كتب الثلاثة شيخنا فى نسخة الدرس .

(٣) أول البيت * كحلاء فى برج صفراء فى نعج * والبرج بالتحريك أن يكون بياض العين محدقا بالسواد كله لايغيب عن سوادها شىء والنعج البياض الخالص يريد أنه يشوب صفرتها بياض خالص وهو محمود عندهم .

موضعهما من العبرتين[١] المذكورتين فانك تراهما بحسب نسبتهما منهما وتحققهما بهما قد أعطتاهما لطف الغرابة ، ونفضتا عليهما صِبْغَ الحسن ، وكستاهما روع الاعجاب ، فتجد المقدر الذى لايباشر الوجود نحو قوله :

أعلامُ ياقوت نشرْ نَ على رماح من زبرجد

وكقوله فى النيلوفر :

كلنا باسط اليد نحو نيلوفر ندِى
كدبابيس عسجد قضْبها من زبرجد

قد اجتمع فيه العبرتان جميعاً . وتجد العبرة الثانية[٢] قد أتت فيه على غاية القوة لأنه لامزيد فى بعد الشىء عن العيون على أن يكون وجوده ممتنعاً أصلا حتى لايتصور الا فى الوهم . واذا تركت هذا القسم ونظرت الى القسم الثانى الذى يدخل فى الوجود نحو قوله :

* درر نثرن على بساط أزرق *

وجدت العبرة الثانية لاتقوى فيه تلك القوة لأنه اذا كان مما يعلم أنه يوجد ويعهد بحال وان كان لايتسع بل يندر ويقل ، فقد دنا من الوقوع فى الفكر ، والتعرض للذكر ، دنواً لايدنوه الأول الذى لايطمع أن يدخل تحت الرؤية للزومه العدم ، وامتناعه أن يجوز عليه الا التوهم ، ولا جرم لما كان الأمر كذلك كان للضرب الأول من الروعة والحسن ، ولصاحبه من الفضل فى قوة الذهن ، مالم يكن ذلك فى الثانى . وقوى الحكم[٣] بحسب قوة العلة ، وكثر الوصف الذى هو الغرابة بحسب الجالب له .

(١) هما العبرتان فى سبب الغرابة وهما التفصيل و بعد الشىء عن العيون وغيبته عن الحس (ش) .
(٢) هى عبرة البعد عن النظر وقلة التردد عليه .
(٣) هو الحكم بالغرابة (ش) .

وفى هـذا التقرير ماتعلم به الطريق الى التشبيه من أين تفاوت فى كونه غريباً ، ولم تفاضل فى مجيئه عجيباً ، وبأى سبب وجدت عند شىء منـه من الهزة مالم تجـده عند غيره ، علماً يخرجك عن نقيصة التقليد ، ويرفعك عن طبقة المقتصرعلى‌الاشارة ، دون البيان والافصاح بالعبارة .

واعـلم أن العبرة الثانية التى هى مرور الشىء على العيون هو [١] معنى واحد لايتـكثر ولـكنه يقوى ويضعف كما مضى . وأما العبرة الأولى وهى التفصيل فانهـا فى حـكم الشىء يتـكثر وينضم فيـه الشىء الى الشىء . ألا ترى أن أحد التفصيلين يفضل الآخر بأن تـكون قد نظرت فى أحدهما الى ثلاثة أشياء أو ثلاث جهات وفى الآ خـر الى شيئين أو جهتين والمثـال فى ذلك قـول الشاعر :

كأن مُثار النقع فوق رؤسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كواكبه

مع قول المتنبى :

يزور الأعادى فى سماء عجاجه أسنّتُه فى جانبيها الـكواكب

أو قول عمرو بن كلثوم :

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم سقفاً كواكبه البيض المباتير

التفصيل فى الأبيات الثلاثة كأنه شىء واحـد لأن كل واحـد منهم يشبّه لمعان السيوف فى الغبار بالـكواكب فى الليـل ، الا أنك تجد لبيت بشار من الفضـل ومن كرم الموقع ولطف التأثير فى النفس مالا يقل مقـداره ،

---

(١) ذكر الضمير مع أنه عائد الى العبرة مراعاة للخبر وهو مذكر مع الفاصل بينه وبين مرجعه .

ولا يمكن إنكاره ، وذلك لأنه راعى مالم يراعه غيره وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهى تعلو وترسب ، وتجىء وتذهب ، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها فى أثناء العجاجة كما فعل الآخران . وكان لهذه الزيادة التى زادها حظ من الدقة تجعلها فى حكم تفصيل بعد تفصيل . وذلك انا وان قلنا إن هذه الزيادة — وهى إفادة هيئة السيوف فى حركاتها — إنما أتت فى جملة لاتفصيل فيها فان حقيقة تلك الهيئة لاتقوم فى النفس الا بالنظر الى أكثر من جهة واحدة ، وذلك أن تعلم أن لها فى حال احتدام الحرب ، واختلاف الأيدى بها فى الضرب ، اضطراباً شديداً وحركات بسرعة ، ثم ان لتلك الحركات جهات مختلفة ، وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة ، والارتفاع والانخفاض ، وان السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها فى بعض ، ويصدم بعضها بعضاً . ثم ان اشكال السيوف مستطيلة فقد نظم هذه الدقائق كلها فى نفسه ثم احضرك صورها بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة وهى قوله (تهاوى) لأن الكواكب اذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها فى تهاويها تواقع وتداخل ، ثم انها بالتهاوى تستطيل أشكالها ، فأما اذا لم تزل عن أماكنها فهى على صورة الاستدارة .

ويشبه هذا الموضع فى زيادة أحد التشبيهين مع أن جنسهما جنس واحد وتركيبهما على حقيقة واحدة بأن فى أحدهما فضل استقصاء ليس فى الآخر قول ابن المعتز :

وطاف بها ساق أديب بمبزل كخنجر عيار صناعته الفتك

وحمل آذريونة فوق أذنه ... كـكأس عقيق فى قرارتها مسك[١]

مع قوله : ... مداهن من ذهب ... فيها بقايا غالية[٢]

الأول ينقص عن الثانى شيئا ، وذلك أن السواد الذى فى باطن الآذريونة الموضوع بازاء الغالية والمسك[٣] فيه أمران أحدهما أنه ليس بشامل لها والثانى أن هذا السواد ليس صورته صورة الدرهم فى قعرها أعنى أنه لم يستدر هناك بل ارتفع من قعر الدائرة حتى أخذ شيئا من سمكها[٤] من كل الجهات وله فى منقطعه هيئة تشبه آثار الغالية فى جوانب الدهن اذا كانت

---

(١) قبل البيتين :

وقد خفيت من صفوها فكأنها ... بقايا يقين كاد يدركه الشك

والكلام فى الخمر والبزل كمنبر مايصفى به الشراب وهو شبه طى (الطى حلمة الضرع وهو بكسر الطاء وبضمها) فى الدن ونحوه يتبزل منه الشراب أى يسيل. والعيار بتشديد الياء فى أصل اللغة الذى يكثر الذهاب والمجىء والتطواف بغير عمل ، وغلب على المتعرض للناس للسلب والفتك ، والآذريونة يأتى تفسيرها بعد

(٢) قبل البيت

سقيا لروضات لنا ... من كل نور حاليه

عيون آذريونها ... للشمس فيها كاليه

وأصل كالية الهمز من كلاه أى حفظه ومعنى كلاءة عيون الآذريون للشمس انها تستقبلها وتدور معها حيث دارت . والآذريون جمع آذريونة كتمر وتمرة وهى ورد له أوراق حمر فى وسطه سواد له نبو وارتفاع وقد يكون أصفر واقتصر عليه صاحب القاموس . ولاختلاف لونيه يشبه بكاس من عقيق فيها مسك كما قال « كـكأس عقيق » البيت . وبمدهن من ذهب فيه شىء من الغالية وهى أخلاط من الطيب

(٣) أى المقصود بكل منهما

(٤) السمك بالفتح القامة من كل شىء طويل ثخين، وهو من أعلى البيت الى أسفله ويطلق على السقف وحده ولايصح هنا كما قاله شيخنا

بقية بقيت عن الأصابع . وقوله « فى قرارتها مسك » يبين الأمر الأول [١] ويؤمن من دخول النقص عليه كما كان يدخل لو قال « كـكأس عقيق فيها مسك » ولم يشترط أن يكون فى القرارة .

وأما الثانى من الأمرين فلا يدل عليه كما يدل قوله « بقايا غالية » وذلك من شأن المسك والشيء اليابس اذا حصل فى شيء مستدير فى القعر لا يرتفع فى الجوانب الارتفاع الذى تراه فى سواد الآذريونة . وأما الغالية فهى رطبة ثم هى تؤخذ بالأصابع واذ كان كذلك فلا بد فى البقية منها من أن تكون قد ارتفعت عن القرارة وحصلت بقية شبيهة بذلك السواد ثم هى لنعومتها ترق فتكون كالصبغ الذى لاجرم له يملك المكان وذلك أصدق للتشبيه. ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبه قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى   نطير غرابا ذا قوادم جون

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضاً لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها من حيث يلى معظم الصبح وعموده لمع [٢] نور يتخيل منها فى العين كشكل قوادم [٣] اذا كانت بيضاء . وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه فى شيء آخر وهو أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل كأنه يحفز الدجى

---

(١) هو كونه ليس شاملا

(٢) لمع جمع لمعة بالضم بمعنى البريق - وهى فاعل تلى معظم الصبح. وقوله يتخيل منها الخ معناه يتشبه ويتراءى منها فى العين مثل شكل القوادم

(٣) قوادم الطير: مقاديم ريشه وهى عشرة فى كل جناح الواحدة قادمة والجون بالضم جمع جون بالفتح وهو الأبيض والأسود (ضد) والمراد هنا البيض . شبه الليل الذى فيه تباشير الصبح بغراب له قوادم بيض

ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها . ثم لما بدأ بذلك أولا اعتبره فى التشبيه آخراً فقال : « نطير غرابا » ولم يقل غراب يطير مثلا وذلك أن الغراب وكل طائر اذا كان واقعاً هادئاً فى مكان فأزعج وأخيف واطير منه أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل كان ذلك لامحالة أسرع لطيرانه وأعجل وأمدّ له وأبعد لأمده فان تلك الفزعة التى تعرض له من تنفيره أو الفرحة التى تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته مما دعته الى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ويصير الى حيث لاتراه العيون وليس كذلك اذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير الى مكان قريب من مكانه الأول وأن لايسرع فى طيرانه بل يمشى على هينة ويتحرك حركة غير المستعجل فاعرفه .

ومما حقه أن يكون على فرط الاستقصاء فى التشبيه وفضل العناية بتأكيد مابدا به قول ابن فارس فى صفة البازى (١)

كأن عينيه اذا ما أثأرا ... فصان قيضا من عقيق أحمرا
فى هامة غلباء تهدى منسراً ... كعطفة الجيم بكف أعسرا (٢)

أراد أن يشبه المنقار بالجيم ، والجيم خطان الأول الذى مبدأه وهو الاعلى والثانى وهو الذى يذهب الى اليسار وإذا لم توصل فلها تعريق (٣) كما لا يخفى والمنقار إنما يشبه الخط الأعلى فقط فلما كان كذلك قال « كعطفة

---

(١) الابيات لأبى نواس كما ذكره أبو هلال العسكرى وغيره

(٢) أثأر أدرك ثأره . وقيضا شقا . وغلباء : قوية . والمنسر كمجلس ومنبر منقار الطير الجارح

(٣) تعريق الجيم أن يعطف بالخط الاسفل الى اليمين على هيئة قوس هكذا) كما هو الشأن دائما فى الجيم المفردة ، وعطفته وهى الخط الاعلى التى تشبه المنسر هكذا ج

الجيم » ولم يقل كالجيم ثم دقق بأن جعلها بكف أعسر لأن جيم الأعسر قالوا أشبه بالمنقار من جيم الأيمن . ثم انه أراد أن يؤكد أن الشبه مقصور على الخط الأعلى من شكل الجيم فقال :

يقول من فيها بعقل فكرًا لوزادها عينا الى فاء ورا
فاتصلت بالجيم صارت جعفرا

فأراك عيانا أنه عمد فى التشبيه الى الخط الأول من الجيم دون تعريقها ودون الخط الأسفل . أما أمر التعريق وإخراجه من التشبيه فواضح لأن الوصل يسقط التعريق أصلا . وأما الخط الثانى فهو وإن كان لابد منه مع الوصل فانه اذا قال «لو زادها عينا الى فاء وراء » ثم قال « فاتصلت بالجيم » فقد بين أن هذا الخط الثانى خارج أيضاً من قصده فى التشبيه من حيث كانت زيادة هذه الحروف ووصلها هى السبب فى حدوثه . وينبغى أن يكون قوله « بالجيم » يعنى بالعطفة المذكورة من الجيم ولأجل هذه الدقة قال : « يقول من فيها بعقل فكرا » فهد لما أراد أن يقول ونبه على أن بالمشبه حاجة الى فضل فكر وأن يكون فكره فكرة من يراجع عقله ويستعينه على تمام البيان

وجملة القول أنك متى زدت فى التشبيه على مراعاة وصف واحد أو جهة واحدة فقد دخلت فى التفصيل والتركيب وفتحت باب التفاصيل ثم تختلف المنازل فى الفضل بحسب الصورة فى استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد

فصل

اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحراً أن يجيء فى الهيآت التى تقع عليها الحركات . والهيئة المقصودة فى التشبيه على وجهين أحدهما أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما . والثانى أن تجرد هيئة الحركة حتى لا يراد غيرها فمن الأول قوله * والشمس كالمرآة فى كف الأشل *

أراد أن يريك مع الشكل الذى هو الاستدارة ومع الاشراق والتلألؤ على الجملة الحركة التى تراها للشمس اذا أنعمت التأمل ثم مايحصل فى نورها من أجل تلك الحركة وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة فى غاية السرعة ولنورها بسبب تلك الحركة تموج واضطراب عجب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة فى يد الأشل لأن حركته تدور وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد حتى ترى المرآة لاتقر فى العين وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب الذى كأنه يسحر الطرف ، وتلك حال الشمس بعينها حين تحد النظر وتُنفذ البصر حتى تتبين الحركة العجيبة فى جرمها وضوئها فانك ترى شعاعها كأنه يهمّ بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذى بدأه الى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة الى الوسط . وحقيقة حالها فى ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره فى النفس فضلا عن أن تكمل العبارة لتأديته ، ويبلغ البيان كنه صورته .

ومثل هذا التشبيه وان صور فى غير المرآة قول المهلبى الوزير :

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقة ليس لها حاجب

كأنها بوتقة احميت يجول فيها ذهب ذائب (١)

وذلك أن الذهب الذائب يتشكل بأشكال البوتقة على النار فانه يتحرك فيها حركة على الحد الذى وصفت لك . وما فى طبع الذهب من النعومة وفى أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم يمنعه أن يقع فيه غليان على الصفة التى تكون فى الماء ونحوه مما يتخلله الهواء فيرتفع وسطه ارتفاعا شديدا ولكن جملته كأنها تتحرك بحركة واحدة ويكون فيها ماذكرت من انبساط الى الجوانب ثم انقباض الى الوسط فاعرفه

ومن عجيب ماجمع فيه بين الشكل وهيئة الحركة قول الصنوبرى :

كأن فى غدرانها حواجبا ظلت تمط (٢)

أراد مايبدو فى صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ثم انك تراها تمتد امتداداً ينقص من انحنائها وتحدث بها كما تباعد بين طرفى القوس وتثنيهما الى ناحية الظهر كأنك تقربها من الاستواء وتسلبها بعض شكل التقوس الذى هو إقبال أحد طرفيها على الآخر ومتى حدثت هذه الصفة فى تلك الأشكال الظاهرة على متون الغدران كانت أشبه شىء بالحواجب اذا مدت لأن الحاجب لايخفى تقويسه ومده ينقص من تقويسه

ومن لطيف ذلك أيضاً أعنى الجمع بين الشكل وهيئة الحركة قول ابن المعتز يصف وقوع القطر على الأرض :

---

(١) الحاجب: اللامع من الاشراق. والبوتقة: مايذيب الصائغ فيه الذهب والفضة

(٢) تمط على البناء للمفعول ومعناه تمد — يصف أرضا بالطيب فيقول فيها غدران يهب عليها الريح فيبدو على صفحات غدرانها أشكال كأنها حواجب لها تقوس وامتداد

بكرت تعير الأرض ثوب شباب رحبية [١] محمودة الاسكاب
نثرت أوائلها حياً فكأنه نقط على عجل بيطن كتاب

وأما هيئة الحركة مجردة من كل وصف يكون فى الجسم فيقع فيها نوع من التركيب بأن يكون للجسم حركات فى جهات مختلفة نحو أن بعضها يتحرك الى يمين والبعض إلى شمال وبعض الى فوق وبعض الى قدام ونحو ذلك وكلما كان التفاوت فى الجهات التى تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد كان التركيب فى هيئة المتحرك أكثر فحركة الرحا والدولاب وحركة السهم لا تركيب فيها لأن الجهة واحدة ولكن فى حركة المصحف فى قوله « فانطباقا مرة وانفتاحاً » تركيب لأنه فى إحدى الحالتين يتحرك الي جهة غير جهته فى الحالة الأخرى . فما جاء فى التشبيه معقوداً على تجريد هيئة الحركة ثم لطف وعرف لما فيه من التفصيل والتركيب قول الأعشى يصف السفينة فى البحر وتقاذف الأمواج بها :

تقِص السفين بجانبيه كما ينزو الرباح خلاله كرع [٢]

الرباح الفصيل وقيل القرد . والكرع ماء السماء شبه السفينة فى انحدارها

---

(١) قال شيخنا قد تكون نسبة إلى الرحبة محركة ومسكنة الوسط بمعنى مسيل ماء الوادى

(٢) تقص السفين أى تثب . والنزو الوثوب وتوقصت الركاب نزت ووثبت والرباح كرمان ويخفف القرد أو الفصيل . والكرع بالتحريك الماء الذى يكرع فيه وكان التعبير « خلال الكرع » ولكنه اعتمد على فهم السامع فجعل الكرع خلال القرد أو الفصيل وهذا على رواية بعض من ضبطه فى الشواهد بكسر الخاء على أنه « خلال » مضاف أما المصنف فقد رواه بفتح الخاء على أن خلا فعل ماض وله جار ومجرور متعلق به

وارتفاعها بحركات الفصيل فى نزوه وذلك أن الفصيل اذا نزا ـ ولاسيا فى الماء وحين يعتريه مايعترى المهر ونحوه من الحيوانات التى هى فى أول النشء ـ كانت له حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه فى جهات مختلفة ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل احدى الحركتين فى الأخرى فلا يثبته [١] الطرف مرتفعا حتى يراه منحطا متسفلا ويهوى مرة نحو الرأس ومرة نحو الذنب وذلك أشبه شىء بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج

ونظيره قول الآخر يصف الفصيل وهو يثب على الناقة ويعلوها ويلقى نفسه عليها لأنها قد بركت فلايتمكن من أن يرتضع فهو يفعل ذلك لتثور الناقة :

يقتاعها كل فصيل مكرم كالحبشى يرتقى فى السلم

« يقتاعها » يفتعل من قولهم قاع البعير الناقة اذا ضربها يقوعها قوعا أراد يعلوها ويثب عليها ، وشبه بالحبشى فى هذه الحالة المخصوصة لما يكون له عند ارتفاعه فى السلم من تصعد بعض أعضائه وتسفل بعض على اضطراب مفرط وغثارة شديدة [٢] . وذلك كما ترى فى أنه اختلاف فى جهات أبعاض الجسم على غير نظام مضبوط كحركات الفصيل فى الماء وقد خلاله . وقد عرفتك أن الاختلاف فى جهات الحركات الواقعة فى ابعاض الجسم كالتركيب بين أوصاف مختلفة ليحصل من مجموعها شبه خاص

(١) أثبته عرفه حق المعرفة

(٢) كأنه أراد الجهل والحق لاباعتبارهما أنفسهما بل باعتبار مايصدر عنهما وهو شدة الاضطراب فى هجنة . والأغثر الجاهل والأحمق والغثرة بالتحريك والغثراء الجماعة المختلطة (ش)

واعلم أن هذه الجهات يغلب عليها الحكم المستفاد من العبرة الثانية. وذلك أن كل هيئة من هيئات الجسم فى حركاته اذا لم يتحرك فى جهة واحدة فمن شأنها أن تقل وتعز فى الوجود فيباعدها ذلك أيضا من أن تقع فى الفكر بسرعة زيادةَ مباعدة مضمومة الى مايوجب حديث التركيب والتفصيل فيها. ألا ترى أن الهيئة التى اعتمدها فى تشبيه البرق بالصحف ليست تكون الا فى النادر من الأحوال وبعد عمد من الانسان وخروج عن العادة ومقصد خاص أو عيب غالب على النفس غير معتاد وهكذا حال الفصيل فى وثوبه على أمه ليثيرها وانسيابه فى الماء ونزوه كما توجبه رؤيته الماء خالياً وطباع الصغير والفصيلة[1] مما لا ترى الا نادراً. وليس الأمر فى هذا النحو كالأمر فى حركة الدولاب والرحا والسهم ونحو ذلك من الحركات المعتادة التى تقع فى مصارف العيون كثيراً.

ومما يقوى فيه أن يكون سبب غرابته قلة رؤية العيون له مامضى من تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل وذلك أن الهيئة التى تراها فى حركة المرآة اذا كانت فى كف الأشل مما ترى نادراً فى الأقل فربما قضى الرجل دهره ولا يتفق له أن يرى مرآة فى يد مرتعش. هذا — وليس موضع الغرابة من التشبيه دوام حركة المرآة فى يد الأشل فقط بل النكتة المقصودة فيما يتولد من دوام تلك الحركة من الالتماع وتموج الشعاع وكونه فى صورة حركات من جوانب الدائرة الى وسطها وهذه صفة لاتقوم فى نفس الرائى المرآةَ الدائمة الاضطراب الا أن يستأنف تأملا، وينظر متثبتاً فى نظره متمهلا، فكأن ههنا هيئتين كلتاهما من هيآت

(١) الفصيلة: أنثى الفصيل.

الحركة . إحداها حركة المرآة على الخصوص الذى يوجبه ارتعاش اليد . والثانية حركة الشعاع واضطرابه الحادث من تلك الحركة . واذا كان كون المرآة فى يد الأشل مما ترى نادراً ثم كانت هذه الصفة التى هى كائنة فى الشعاع انما ترى وتدرك فى حال رؤية حركة المرآة بجهد وبعد استئناف إعمال للبصر فقد بعدت عن حد مايعتاد رؤيته مرتين ، ودخلت فى النادر الذى لاتألفه العيون من جهتين ، فاعرفه .

واعلم أنه كما تعتبر هيئة الحركة فى التشبيه فكذلك تعتبر هيئة السكون على الجملة وبحسب اختلافه نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك . فاذا وقع فى شىء من هيئات الجسم فى سكونه تركيب وتفصيل لطف التشبيه وحسن . فمن ذلك قول ابن المعتز يصف سيلا :

فلما طغا ماؤه فى البلاد وغصّ به كل واد صد [1]
ترى الثور فى متنه طافيا كضجعة ذى التاج فى المرقد

وكقول المتنبى فى صفة الكلب : * يُقعى جلوسَ البدوىّ المصطلى [2] فقد اختص هيئة البدوى المصطلى فى تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ومواقعها فيها [3] ولم ينل التشبيه حظاً من الحسن الا بأن فيه تفصيلا من حيث كان لكل عضو من الكلب فى إقعائه موقع خاص وكان مجموع تلك الجهات فى حكم أشكال مختلفة تؤلف فتجىء منها صورة خاصة .

---

(١) فى نسختنا * وغص به فأرصد * وفى نسخة الاستانة « كل قاد قصد » وفى نسخة الديوان التى فى مصر « كل راء صد » والصواب انها « وغص به كل واد صد » والصدى الظمآن .

(٢) تمامه : « بأربع مجدولة لم تجدل » .

(٣) أى مواقع الأعضاء فى تلك الهيئة « ش » .

ومن لطيف هذا الجنس قوله فى صفة المصلوب (١) :

كأنه عاشق قد مد صفحته يوم الوداع الى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكسل

ولم يلطف إلا لكثرة ماقيه من التفصيل . ولو قال كأنه متمط من نعاس واقتصر عليه كان قريباً من المتناول لان الشبه الى هذا القدر يقع فى نفس الرائى المصلوب لكونه من حد الجلة . فأما بهذا القيد وعلى هذا التقييد الذى يفيد به استدامة تلك الهيئة فلا يحضر الا مع سفر من الخاطر وقوة من التأمل وذلك لحاجته أن ينظر الى غير جهة فيقول هو كالتمطى ثم يقول التمطى يمد ظهره ويده مدة ثم يعود الى حالته فيزيد فيه انه مواصل لذلك ، ثم اذا أراد ذلك طلب علته وهى قيام اللوثة والكسل فى القائم من النعاس . وهذا أصل فيما يزيد به التفصيل وهو أن يثبت فى الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له علة وسبب :

ويشبه التشبيه فى البيت قول الآخر وهو مذكور معه فى الكتب :

لم أر صفاً مثل صف الزط تسمين منهم صلبوا فى خط (٢)

(١) يقول بعض شراح الشواهد : إن البيتين للأخطل فى صفة مصلوب .

(٢) الزط طائفة من أهل الهند معرب (بت) تنسب اليهم الثياب الزطية . وقوله من كل عال أى ان ذلك الخط مؤلف من أشجار عالية الجذوع كل واحد على جذع شجرة و بالشط صفة لعال جذعه . والضمير فى « كأنه » للواحد من المصلوبين فى جذعه أى الجذع الذى صلب عليه . والشط — الخارج عن الحد فى طوله . والمخامرة المخالطة والنوم فاعل خامر والمفعول ضمير محذوف يرجع على المصلوب فان نصب النوم فالفاعل ضمير يعود اليه . وغط النائم : نخر وتردد نفسه صاعدا الى حلقه حتى يسمعه من حوله . ولبعض شراح الشواهد تعسف فى معنى الأبيات لاحاجة الى ذكره .

من كل عال جِذْعُه بالشط كأنه فى جِذعِه المشتط
أخو نعاس جد فى التمطى قد خامر النوم ولم يغط

فقوله « جدّ فى التمطى » شرط يتم التشبيه كما أن قوله « مواصل » كذلك الا أن فى اشتراط المواصلة من الفائدة ماليس فى هذا . وذاك أنه يجوز أن يبالغ ويجتهد ويجد فى تمطيه ثم يدع ذلك فى الوقت ويعود الى الحالة التى يكون عليها فى السلامة مما يدعو [1] الى التمدد . واذا كان كذلك كان المستفاد من هذه العبارة [2] صورة التمطى وهيئته الخاصة وزيادة معنى وهو بلوغ الصفة غاية مايمكن أن يكون عليها. وهذا كله مستفاد من الأول ثم فيه [3] زيادة أخرى وهو أخص مايقصد من صفة المصلوب وهى الاستمرار على الهيئة والاستدامة لها فأما قوله بعد : « قد خامر النوم ولم يغط » فهو ان كان كأنه يحاول أن يرينا هذه الزيادة من حيث يقال انه اذا أخذه النعاس فتمطى ثم خامر النوم فان الهيئة الحاصلة له من جده فى التمطى تبقى له فليس يبالغ مبلغ قوله « مواصل لتمطيه » وتقييده من بعد بأنه « من الكسل » واحتياطه قبل بقوله « فيه لوثته » .

وشبيه بالأول فى الاستقصاء قول ابن الرومى :

كأن له فى الجو حبلاً يبوعه اذا ماانقضى حبل أتيح له حبل [4]
يعانق أنفاس الرياح مودعاً وداع رحيل لايحط له رحل

فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذى ينتهى ذرعه حبل آخر يخرج من بوع الأول اليه كقوله « مواصل لتمطيه من الكسل » فى استيفاء

(١) مما يدعو متعلق بالسلامة .
(٢) أى عبارة الأبيات .
(٣) أى فى الأول ـ الثلاثة عن شيخنا
(٤) يبوعه : يقيسه بالباع كما أن يذرعه يقيسه بالذراع .

الشبه والتنبيه على استدامته لأنه اذا كان لايزال يبوع حبلا لم يقبض باعه ولم يرسل يده . وفى ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتصال فاعرفه .

واعلم أن من حقك أن لاتضع الموازنة بين الشبهين فى حاجة أحدهما الى زيادة من التأمل على وقتنا هذا ، ولكن تنظر الى حالها فى قوى العقل ولم تسمع بواحد منهما ، فتعلم أن لو أرادهما مريد واتفقا له جميعاً ولم يكن قد سمع بواحد منهما أيهما كان يكون أسهل عليه ، وأسرع اليه ، وأعطى بيديه وأيهما تجده أدل على ذكاء من يسمعه منه ، وأرجى ليخرج من تقوّله (١) وذلك أن تقابل بين تشبيه النجوم بالمصابيح والمصابيح بها وبين تشبيه سل السيوف بعقائق البرق وتشبيهها بسل السيوف ، فانك تعلم أن الأول يقع فى نفس الصبي أول مايحس بنفسه وأن الثانى لايجيب لاجابته ، ولا يبذل طاعته ، وكذلك تعلم أن تشبيه الثريا بنور العنقود لايكون فى قرب تشبيهها بتفتح النور ، وأن تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة كما مضى يقع فى نفس الغر (٢) العامى والصبي ، ولا يقع تشبيهها بالمرآة فى كف الأشل الا فى قلب الحصيف (٣) وتشبيهها فى حركتها تلك بمرآة تضطرب على الجملة من غير أن تجعل فى كف الأشل قد يقع لمن لايقع له بهذا التقييد ، وذلك لما مضى من حاجته الى الفكرة فى حال الشمس وان حركتها دائمة متصلة ، ثم طلب متحرك حركة غير اختيارية ، وجعل المرآة صادرة عن تلك الحركة ومأسورة فى حكمها دائماً . وانما اشترط عليك هذا الشرط لانه لا يمتنع أن يسبق الأول الى تشبيه لطيف يحسن تأمله ويدل على ذكائه وحدة خاطره ثم يشيع ويتسع

(١) التقول : الابتداع واصله فى الكذب ولكنه يراد منه هنا الاختراع الحسن .

(٢) الغر بالكسر: من لاتجربة له من شاب وشابة .

(٣) الحصيف هو القوى العقل الجيد الرأى .

ويذكر ويشهر حتى يخرج الى حد المبتذل والى المشترك فى أصله ، وحتى يجرى مع دقه تفصيل فيه مجرى الجمل الذى تقوله الوليدة الصغيرة والعجوز الورهاء [١] فانك تعلم أن قولنا « لايُشَقُّ غباره » الآن فى الابتذال كقولنا لايلحق ولا يدرك وهو كالبرق ونحو ذلك . إلا أنا اذا رجعنا الى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله ، وان هذا الابتذال أتاه بعد أن قضى زماناً بطراءة الشباب وجِدَّة الفَتاء وبعزة المنيع ، ولو قد منعك جانبه وطوى عنك نفسه ، لعرفت كيف يَشُقُّ مطلَبه ، ويصعب تناوله . ومثل هذا وأظهر منه أمراً أن قولنا « أما بعد » منسوب فى الأصل الى واحد بعينه وان كان الآن فى البِذلة [٢] كقولنا : هذا بعد ذاك — مثلا .

وهكذا الحكم فى الطرق التى ابتدأ بها الأولون ، والعبارات التى لخصها المتقدمون ، والقوانين التى وضعوها حتى صارت فى الاشتراك كالشىء المشترك من أوله ، والمبتذل الذى لم يكن الصون من شأنه ، والمبذول الذى لم يعترض دونه المنع فى شىء من زمانه ، ورب نفيس جُلب اليك من الأمكنة الشاسعة ، ورُكب فيه النوى الشطون [٣] وقُطع به عرض الفيافى [٤] ثم أُخفى عنك فضله ، حتى جهلت قدره أن سهل مرامه ، واتسع وجوده ، ولو انقطع مدده عنك حتى تحتاج الى طلبه من مَظِنته لعلمت إحسان الجالب به اليك ، والجالب القرب نيله عليك ، ولأكثرت من شكره بعد أن أقللت ، وأخذت نفسك بتلافى ماأهملت . وكذلك

(١) الورهاء : الحمقاء.

(٢) البذلة بالكسر مايستعمل من الثياب فى عامة الأوقات ، وينزع عند ارادة الزينة .

(٣) الشطون بالفتح: البئر البعيدة القعر وهو بالضم مصدر شطنت الدار اذا بعدت .

(٤) الفيافى جمع فيفاء وتقصر :وهى المكان المستوى .

رُبَّ شيء نال فوق مايستحقه من شغف النفوس به ؛ وأكثر مما توجبه المنافع الراجعة اليه ، لأنه (١) لايتسع اتساع الأول الذى فوائده أعم وأكثر ، ووجود العوض عنه عند الفقد أعسر ، فكسبت عزةُ الوجود هذا عزاً لم يستحقه بفضله ، كما منعت سعة الآخر فضلا هو ثابت له فى أصله .

ويتصل بهذا الموضع حديث عبد الرحمن بن حسان ، وذلك أنه رجع الى أبيه حسان وهو صبي يبكى ويقول « لسعنى طائر » فقال حسان صفه يابنى فقال كأنه مُلتفٌ فى بُرْدَىْ حِبرَة (٢) وكان لسعه زنبور فقال حسان : قال ابنى الشعر ورب الكعبة (٣) أفلا تراه جعل هذا التشبيه مما يستدل به على مقدار قوة الطبع ، ويجعل عياراً فى الفرق بين الذهن المستعد للشعر وغير المستعد له ، وسره ذلك من ابنه كما سره نفس الشعر حين قال فى وقت آخر .

الله يعلم أنى كنت منتبذاً فى دار حسان أصطاد اليعاسيبا (٤)

(فان قلت) ان التشبيه يتصور فى مكان الصبغ والنقش العجيب ولم يعجب حسانَ هذا وانما أعجبه قوله « ملتف » وحسنُ هذه العبارة إذ لو قال : طائر فيه كوشى الحبرة ، لم يكن له هذا الموقع فهو إن يكن مشبهاً ماأنت فيه فمن حيث دلالته على الفطنة فى الجملة (قيل) مسلم لك أن نكتة الحسن فى

---

(١) هذا تعليل لنيله فوق مايستحقه وهو عدم اتساعه وانتشاره كماانتشر الأول .

(٢) البرد ــ وزان قفل ــ ثوب مخطط . والحبرة وزان عنبة: ضرب من برود اليمن.

(٣) هذه الكلمة حجة على الذين يعرفون الشعر بأنه كلام مقفى موزون ولم يدخلوا فى مفهومه التخييل وقصد التأثير الذى هو روح الشعر ومثل هذا تعريفهم الصلاة بأنها أقوال وأفعال ولم يذكروا خشوع القلب الذى هو روحها وهكذا اكتفوا بالصور الظاهرة دون المعانى المقصودة حتى أضعنا الدين واللغة .

(٤) الانتباذ هنا : التنحى. واليعاسيب جمع يعسوب ضرب من الحجلان (جمع حجل) وطائر أصغر من الجرادة أو أعظم لايضم جناحه اذا وقع تشبه به الخيل الضمر .

قوله ملتف ولكن لايسلم أنه خارج من الغرض بل هو عين المراد من التشبيه وتمامه فيه . وذلك أنه يفيد الهيئة الخاصة فى ذلك الوشى والصبغ وصورة الزنبور فى اكتسائه بهما ويؤدى الشبه كما مضى من طريق التفصيل دون الجملة ، فما ظننت أنه يبعده عما نحن بصدده هو الذى يدنيه منه ، ولقد نفيت العيب من حيث أردت إثباته .

فصل

« فى التشبيه المتعدد والفرق بينه وبين المركب »

اعلم أنى قد قدمت بيان المركب من التشبيه وههنا مايذكر مع الذى عرفتك أنه مركب ويقرن اليه فى الكتب وهو على الحقيقة لايستحق صفة التركيب ولا يشارك الذى مضى ذكره فى الوصف الذى كان له تشبيهاً مركباً وذلك أن يكون الكلام معقوداً على تشبيه شيئين بشيئين ضربةواحدة الا أن أحدهما لايداخل الآخر فى الشبه ومثاله قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

وذلك أنه لم يقصد الى أن يجعل بين الشيئين اتصالا وانما أراد اجتماعاً فى مكان فقط . كيف ولا يكون لمضامة الرطب من القلوب الى اليابس هيئة يقصد ذكرها ، أو يُعنى بأمرها ، كما يكون ذلك لتباشير الصبح فى أثناء الظلماء ، وكون الشقيقة على قامتها الخضراء ، فيؤدى ذلك الشبه الحاصل من مداخلة أحد المذكورين الآخرَ واتصاله به اجتماع الحشف البالى والعناب ، كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما فى مكان

واحد . ولو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة ناحية والرطبة كذلك فى ناحية أخرى لكان التشبيه بحاله . ولذلك لو فرقت التشبيه ههنا فقلت كأن الرطب من القلوب عناب وكأن اليابس حشف بال لم تر أحد التشبيهين موقوفا فى الفائدة على الآخر وليس كذلك الحكم فى المركبات التى تقدمت .

وقد يكون فى التشبيه المركب ما اذا فضضت تركيبه وجدت أحد طرفيه يخرج عن أن يصلح تشبيها لما كان جاء فى مقابلته مع التركيب . بيان ذلك أن الجلال فى قوله « كطرف أشهب ملقى الجلال » فى مقابلة الليل وأنت لو قلت : كأن الليل جلال وسكتَّ لم يكن شيئاً .

وقد يكون الشيء منه اذا فض تركيبه استوى التشبيه فى طرفيه الا أن الحال تتغير ومثال ذلك قوله :

وكأن اجرام النجوم لوامعا   درر نثرن على بساط أزرق

فأنت وان كنت اذا قلت كأن النجوم درر وكأن السماء بساط أزرق وجدت التشبيه مقبولا معتاداً مع التفريق فانك تعلم بعد مابين الحالتين ، ومقدار الاحسان الذى يذهب من البين ، وذلك أن المقصود من التشبيه أن يريك الهيئة التى تملأ النواظر عجبا ، وتستوقف العيون وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى : من طلوع النجوم مؤتلقة مفترقة فى أديم السماء وهى زرقاء وزرقتها الصافية التى تخدع العين والنجوم تلألأ وتبرق فى أثناء تلك الزرقة . ومن لك بهذه الصورة اذا فرقت التشبيه وأزلت عنه الجمع والتركيب ؟ وهذا أظهر من أن يخفى .

واذ قد عرفت هذه التفاصيل فاعلم أن ما كان من التركيب فى صورة بيت امرىء القيس فانما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ وحسن الترتيب

فيه لا لأن للجمع فائدة فى عين التشبيه . ونظيره أن للجمع بين عدة تشبيهات فى بيت كقوله :

بدت قمراً وماست خوط بان وفاحت عنبراً ورنت غزالا

مكانا من الفضيلة مرموقا ، وشأواً ترى فيه سابقاً ومسبوقا ، لا أن حقائق التشبيهات تتغير بهذا الجمع ، أو أن الصور تتداخل وتتركب وتأتلف ائتلاف الشكلين يصيران الى شكل ثالث ، فكونُ قدها كخوط البان ، لا يزيد ولا ينقص فى شبه الغزال حين ترنو منه العينان . وهكذا الحكم فى أنها تفوح فوح العنبر ، ويلوح وجهها كالقمر . وليس كذلك بيت بشار « كأن مثار النقع » لأن التشبيه هناك كما مضى مركب وموضوع على أن يريك الهيئة التى ترى عليها النقع المظلم والسيوف فى أثنائه تبرق وتومض ، وتعلو وتنخفض ، وترى لها حركات من جهات مختلفة كما يوجبه الحال حين يحمى الجلاد . وتركض بفرسانها الجياد ، كما أن قول رؤبة مثلا :

فيها خطوط من سواد وبَلَق كأنها فى الجلد توليع البهق(١)

ليس القصد فيه أن يريك كل لون على الانفراد وإنما القصد أن يرى الشبه من اجتماع اللونين . وقول البحترى :

ترى أحجاله يصعدن فيه صعود البرق فى الغيم الجهام(٢)

لا يريد به تشبيه بياض الحجول على الانفراد بالبرق بل المقصود الهيئة

---

(١) أذكر أن الزمخشرى أورده فى تفسير سورة يس شاهدا على رجوع ضمير المذكر الى المؤنث بتأويل ماذكر حيث رواه كأنه فى الجلد الخ وهما روايتان . والتوليع استطالة البلق . والبهق محركة بياض رقيق فى البشرة

(٢) الجهام السحاب لاماء فيه ويصعدن فيه أى فى الفرس المحجل .

الخاصة الحاصلة من مخالطة أحد اللونين الآخر ، كذلك اللون المقصود فى بيت بشار بتشبيه النقع بالليل من جانب ، والسيوف بالكواكب من جانب ، ولذلك وجب الحكم كما كنت ذكرت فى موضع بأن الكلام الى قوله « وأسيافنا » فى حكم الصلة للمصدر وجار مجرى الاسم الواحد لئلا يقع فى التشبيه تفريق ويتوهم أنه كقولنا : كأن مثار النقع ليل وكأن السيوف كواكب . ونصب الاسياف لا يمنع من تقدير الاتصال ولا يوجب أن يكون فى تقدير الاستئناف ، لأن الواو فيها بمعنى « مع » كقوله : « فانى وقيّار بها لغريب » وقوله « كل رجل وضيعته» وهى اذا كانت بمعنى مع لم يكن فى معطوفها الانقطاع وأن يكون الكلام فى حكم جملتين . ألا ترى أن قولهم « لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها » لا يكون بمنزلة أن تقول لو تركت الناقة ولو ترك فصيلها فتجعل الكلام جملتين . وكذا لا يمكنك أن تقول كل رجل كذا وضيعته كذا ، فتفرق الخبر عنهما ، كما يجوز فى قولك زيد وعمرو كريمان ، أن تقول : زيد كريم وعمرو كريم . وهذا موضع غامض وللكلام فيه موضع آخر :

وإن أردت أن تزداد تبييناً لأن التشبيه اذا كان معقوداً على الجمع دون التفريق كان حال أحد الشيئين مع الآخر حال الشيء فى صلة الشيء وتابعاً له ومبنياً عليه حتى لا يتصور إفراده بالذكر فالذى يفضى بك الى معرفة ذلك [1] انك تجد فى هذا الباب اذا فرق لم يصلح للتشبيه بوجه كقوله :

كأنما المريخ والمشترى   قدامه فى شامخ الرفعه
منصرف بالليل عن دعوة   قد أسرجتْ قدامه شمعه

---

(١) جملة فالذى جواب أن

لو قلت كأن المريخ منصرف بالليل عن دعوة وتركت حديث المشترى والشمعة كان خلفا من القول . وذاك أن التشبيه لم يكن للمريخ من حيث هو نفسه ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشترى أمامه . وأنت وان كنت تقول المشترى شمعة على التشبيه العامى الساذج فى قولهم كأن النجوم مصابيح وشموع فانه لم يضع التشبيه على هذا وانما قصد الهيئة التى يكتسبها المريخ من كون المشترى أمامه . وهكذا قول ابن المعتز :

كأنه وكأن الكأس فى فمه هلال أول شهر غاب فى شفق

لم يقصد أن يشبه الكأس على الانفراد بالهلال والشفة بالشفق بل أراد أن يشبه مجموع الصورتين ، ألا ترى أنك لو فرقت لم تحل من التشبيه بطائل ؟ (١) اذ لا معنى لأن تقول : كأن الشفة شفق ، وتسكت ألا ترى أن قوله :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

لم يستوجب الفضل والخروج من التشبيه العامى وأن يقال قد زاد زيادة لم يسبق اليها الا بالتركيب والجمع ، وبأن ترك أن يراعى الحمرة وحدها ؟

وقال القاضى أبو الحسن رحمه الله لو اتفق له أن يقول : احمرار فى جوانبه بياض ، لكان قد استوفى الحسن وذلك لأن خد الخجل هكذا يحدق البياض فيه بالحمرة لا الحمرة بالبياض ، الا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الوردة فشبه على طريق العكس فقال هذا البياض حوله الحمرة كالحمرة حولها البياض هناك . فانظر الآن ان فرقت كيف يتفرق عنك الحسن والاحسان ، ويحضر العى ويذهب البيان ، لأن تشبيه البياض على الانفراد لا معنى له ،

---

(١) فى الأساس : ماحليت بطائل منه : بفائدة اه وهو من حليت المرأة (كرضيت) استفادت حليا أو لبسته فهى حال وحالية

وأما تشبيه الحمرة وإن كانت تصح على الطريقة الساذجة أعنى تشبيه الورد الأحمر بالخد فانه يفسد من حيث إن القصد الى جنس من الورد مخصوص وهو ما فيه بياض يحدق به حمرة. فيجب أن يكون وصف المشبه على هذا الشرط أيضاً

وبهذا الاختصاص وكما ذكرت لك تجد أحد الشبهين فى الأمر الأعم الأكثر وقد ذكر فى صلة الآخر ولم يعطف عليه كقوله :

« والشيب ينهض فى الشباب » و « بياض فى جوانبه احمرار » وأشباه ذلك . فان جاءت الواو كانت واو حال كقوله :

كأنما المريخ والمشترى قدامه فى شامخ الرفعه

وهى اذا كانت حالية فهى كالصفة فى كونها تابعة وبحيث لا ينفرد بالذكر بل يذكر فى ضمن الأول وعلى أنه من تبعه وحاشيته.

وهكذا الحكم فى الطرف الآخر ألا ترى قوله : ليل تهاوى كواكبه » فتهاوى كواكبه جملة من الصفة لليل . واذا كان كذلك فالكواكب مذكورة على سبيل التبع لليل ، ولو كانت مستبدة بشأنها لقلت : ليل وكواكب . وكذلك قوله : * ليل يصيح بجانبيه نهار * (١)

وأشد من ذلك أن يجىء كما (٢) فى الطرف الثانى كقوله « كما احمرت من الخجل الخدود » وبيت امرىء القيس على خلاف هذه الطريقة لأن أحد الشيئين فيه فى الطرفين معطوف على الآخر ، أما فى طرف الخبر وهو

---

(٢) هو من صاح العنقود يصيح اذا استتم خروجه من أكمته وطال وهو فى ذلك غض (ش)

(٢) أى لفظ « كما » الخ فان ما فيه تسبك مع ما بعدها بمصدر مضاف ، فهو كلمة واحدة لا يتأتى فيها التفريق (ش)

طرف المشبه به فبين وهو قوله « العناب والحشف البالى » وأما فى طرف المخبر عنه وهو المشبه فانك وان كنت ترى اسما واحداً وهو القلوب فان الجمع الذى تفيده الصيغة فى المتفق ، يجرى مجرى العطف فى المختلف ، فاجتماع شيئين أو أشياء فى لفظ تثنية أو جمع لا يوجب أن أحدهما فى حكم التابع للآخر كما يكون ذلك اذا جرى الثانى فى صفة الأول أو حاله أوماأشبه ذلك . هذا وقد صرح بالعطف فى البدل وهو المقصود فقال رطبا ويابسا

واعلم أنه قد يجىء فى هذا الباب شىء له حد آخر وهو نحو قوله :

انى وتزيينى بمدحى معشراً كمعلّق دراً على خنزير

هو على الجملة جمع بين شيئين فى عقد تشبيه الا أن التشبيه فى الحقيقة لأحدهما ألا ترى أن المعنى على أن فعله فى التزيين بالمدح كفعل الآخر فى محاولته تزيين الخنزير بتعليق الدر عليه . ووجهُ الجمع أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر لأن الشىء غير قابل للتحسين ، ومتى كان المشبه به كمعلق فى البيت فلا شك أن التشبيه لا يرجع الى ذات الشىء بل الى المعنى المشتق منه الصفة . واذا رجع اليه رجع اليه مقرونا بصفته على نحو ما مضى فى نحو « مازال يفتل فى الذروة والغارب » فقد شبه تزيينه بالمدح من ليس من أهله بتعليق الدر على الخنزير هكذا بجملته لا بالتعليق غير معدى الي الدر والخنزير ، فالشبه مأخوذ من مجموع المصدر وما فى صلته ، ولابد للواو فى هذا النحو أن تكون بمعنى مع ، وأمرها فيه أبين ، اذلا يمكن أن يقال انى كذا وأن تزيينى كذا لانه ليس معنا شيئان يكون أحدهما خبراً عن ضمير التكلم فى « انى » الذى هو المعطوف عليه والآخر عن « تزيينى » المعطوف كما يكون فى نحو بيت بشار شيئان يمكن فى ظاهر اللفظ أن يجعل أحدهما خبراً عن النقع والآخر عن الأسياف الى أن تجىء الى فساده

من جهة المعنى . فأنت فى نحو « انى وتزيينى » مُلجأ الى جعل الواو بمعنى مع من كل وجه حتى لا تقدر على اخراج الكلام الى صورة تكون فيها الواو عارية من معنى مع ويكون تشبيها بعد تشبيه

فان قلت ان فى « مُعلق » معنى الذات والصفة معاً فيمكن أن يكون أراد أن يشبه نفسه بذات الفاعل وتزيينه بالفعل نفسه . أقول لو أريد : انى كمعلق دراً على خنزير ، وان تزيينى بمدحى معشراً كتعليق درة على خنزير — كان قولا ظاهر السقوط لما ذكرت من أنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه من حيث هو زيد مثلا بمعلق الدر على الخنزير من حيث هو عمرو ، وانما يشبه الفعل بالفعل فاعرفه

فان قلت فما تقول فى قوله :

وحتى حسبت الليل والصبح اذ بدا ... حصانين مختالين جونا وأشقرا

فان ظاهره انه من جنس المفرق ؟ أقول نعم الا أن ثمة شيئا من الحسن وهو أن لاقتران الحصانين الجون والاشقر فى الاختيال ضرباً من الخصوصية فى الهيئة لكنه لايبلغ مبلغ « ليل تهاوى كواكبه » ولا يبلغ قوله : « والصبح مثل غرة فى أدهم » كما أن قوله :

دون التعانق ناحلين كشكلتى ... نصب أدقهما وضمّ الشاكل[1]

لا يكون كقوله :

---

(١) قبل البيت وهو من قصيدة للمتنبي قوله

كم وقفة سجرتك شوقا بعدما ... غرى الرقيب بنا ولج العاذل

فدون متعلق بوقفة وسجرتك ملأتك أو ألهبتك وغرى به أولع

انى رأيتك فى نوى تعانقنى كما تعانق لام الكاتب الالفا

فان هذا قد أدى اليك شكلا مخصوصاً لا يتصور فى كل واحد من المذكورين على الانفراد بوجه ، وصورة لا تكون مع التفريق (١) وأما المتنبي فأراك الشيئين فى مكان واحد وشدد فى الفرق بينهما . وذاك أنه لم يعرض لهيئة العناق ، ومخالفتها صورة الافتراق ، وانما عمد الى المبالغة فى فرط التحول واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقا . والأول(٢) لم يُعن بحديث الدقة والنحول وانما عنى بأمر الهيئة التى تحصل فى العناق خاصة من انعطاف أحد الشكلين على صاحبه والتفاف الحبيب بمحبه كما قال :

* لف الصبا بقضيب قضيبا *

وأجاد وأصاب الشبه أحسن اصابة لأن خطى اللام والألف فى « لا » ترى رأسيهما فى جهتين وتراهما قد تماسا من الوسط وهذه هيئة المعتنقين على الامر المعروف . فأما قصد المتنبي فليس بصفة عناق على الحقيقة وانما هو تضام وتلاصق وهو بنحو قوله :

ضممته ضمة عدنا بها واحداً فلو رأتنا عيون ماخشيناها

أشبه ، لأن القصد فى مثله شدة الالتصاق ، من غير تعريج على هيئة الاعتناق ، وذهب القاضي فى بيت المتنبي الى أنه كأنه معنى مفرد غير مأخوذ من قوله « كما تعانق لام الكاتب الألفا » وقال ولئن كان أخذه كما يقولون فليس عليه بعتب لأن التعب فى نقله ليس بأقل من التعب فى ابتدائه (٣)

(١) بوجه متعلق بقوله لايتصور — وصورة عطف على قوله شكلا

(٢) يريد بالأول المتقدم على المتنبي فى الزمن

(٣) قد أكثر الشعراء من نظم هذا المعنى ولكنهم غادروا للشاعر العاصر المصرى اسماعيل باشا صبرى ، مابذهم جميعا حيث قال :

ولما التقينا قرب الشوق جهده خليلين ذابا لوعة وعتابا
كأن صديقا فى خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا

وهـذا التفضيل والتفصيل من قول القاضى ليس قادحاً فى غرضى لأنى أردت أن أريك مثالا فى وضع التشبيه على الجمع والتفريق واجعل البيتين معياراً فيما أردت . ولئن كان المتنبى قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ولكن من جهة أخرى وهى الاغراق فى الوصف بالنحول وجمع ذلك للخلين معاً ثم إصابة مثال له ونظير من الخط فاعرف ذلك ، ولا تظن أن قصدى المفاضلة بين البيتين من حيث القول بين السابق والمسبوق والأخذ والسرقة فتحسب أنى خالفت القاضى فيما حكم به .

فصل

« هذا فن غير ماتقدم فى الموازنة بين التشبيه والتمثيل »

اعلم أنى قد عرفتك أن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا وثبت وجه الفرق بينهما . وهـذا أصل اذا اعتبرته وعرضت كل واحد منهما عليه فوجدته يجىء فى التشبيه مجيئاً حسناً وينقاد القياس فيه انقياداً لاتعسف فيه ثم صادفته لايطاوعك فى التمثيل تلك المطاوعة ولا يجرى فى عنان مرادك ذلك الجرى ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ماعرفت ، وانفتح منه باب الى دقائق وحقائق وذلك جعل الفرع أصلا والأصل فرعاً وهو اذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها . وذلك نحو أنهم يشبهون الشىء فيها بالشىء فى حال ثم يعطفون على الثانى فيشبهونه بالأول فترى الشىء مشبهاً مرة ومشبهاً به أخرى .

فمن أظهر ذلك أنك تقول فى النجوم كأنها مصابيح ثم تقول فى حالة أخرى فى المصابيح كأنها نجوم ، ومثله فى الظهور والكثرة تشبيه الخد

بالورد والورد بالخد وتشبيه الروض المنور بالوشى المنمنم ونحو ذلك . ثم تشبه النقش والوشى فى الحلل بأنوار الرياض وتشبه العيون بالنرجس ثم تشبه النرجس بالعيون كقول أبى نواس :

لدى نرجس غضّ القطاف كأنه　　اذا مامنحناه العيون عيون

وكذلك تشبيه الثغر بالأقاحى (١) ثم تشبيهها بالثغر كقول ابن المعتز :

والأقحوان كالثنايا الغرّ　　قد صقلت أنواره بالقطر

وقول التنوخى :

أقحوان معانق لشقيق　　كثغور تعضّ ورد الخدود

وبعده وهو تشبيه النرجس بالعيون :

وعيون من نرجس تتراءى　　كعيون موصولة التسهيد

وكما يشبهون السيوف عند الانتضاء بعقائق البروق كما قال ثم يعودون فيشبهون البرق بالسيوف المنتضاة كما قال ابن المعتز يصف سحابة :

وسارية لاتمــــلُّ البـكا　　جرى دمعها فى خدود الثرى
سرت تقدح الصبح فى ليلها　　ببرق كهندية تُنتضى

وكقول الآخر يصف نار السذق (٢) .

وما زال يعلو عجاج الدخان　　الى أن تكوّن منه زُحَل
وكنا نرى الموج من فضة　　مُذَهَّبة النور حين اشتعل
شراراً يحاكى انقضاض النجوم　　وبرقا كايماض بيض تسل

---

(١) الأقاحىّ بالتشديد والأقاح جمع أقحوان بالضم ويقال بغير همز وهو زهر له أوراق بيض مستطيلة قليلا ووسطه أصفر : ومنه نوع صغير ليس له ورق ورائحته قوية يسمى البابونج .

(٢) السذق ليلة الوقود عند الفرس وهى مشهورة عندهم معرب شذه .

ومن لطيفه قول على بن محمد بن جعفر :

دِمَنٌ كأن رياضها تسكين أعلام المطارف (١)
وكأنما غدرانها فيها عشور من مصاحف
وكأنما أنوارها تهتز فى نكباء عاصف (٢)
طرر الوصائف يلتقيـ ن بها الى طرر الوصائف (٣)
وكأن لمع بروقها فى الجو أسياف المثاقف (٤)

المقصود البيت الأخير ولكن البيت اذا قطع عن القطعة كان كالكعاب تفرد عن الاتراب ، فيظهر فيها ذل الاغتراب ، والجوهرة الثمينة مع أخواتها فى العقد أبهى فى العين ، وأملأ بالزين ، منها اذا أفردت عن النظائر ، وبدت فذة للناظر .

ويشبهون الجواشن (٥) والدروع بالغدير يضرب الريح متنه فيتكسر ويقع فيه ذلك الشنج المعلوم كقوله (٦) :

(١) الدمن جمع دمنة كسدر جمع سدرة وهي هنا الموضع القريب من الدار . والتسكين هنا غير ظاهر ولعله محرف عن « بسكين » وهو بالتصغير اسم موضع أو عن (تشكيل) أى تصوير والمطارف جمع مطرف كمنبر و بضم الميم وفتح الراء قيل وهو الأصل لأنه من أطرفه أى جعل فى طرفيه العلمين ولكنهم استثقلوا الضمة فكسروه ومعناه رداء مربع من الخز فيه أعلام .

(٢) النكباء ريح انحرفت عن مهاب الرياح القوّم ووقعت بين ريحين أو بين الصبا والشمال .

(٣) الوصائف جمع وصيفة وهى الجارية اذا تم قدها وأراد بها هنا الأغصان وعواليها (ش) .

(٤) المثاقف اللاعب بالسلاح اسم فاعل .

(٥) الجواشن جمع جوشن كجعفر وهو الدرع ومن معانيه الصدر قال شيخنا : ولعل الدرع أخذ منه وانما يسمى جوشنا من الدرع ماأحاط بالصدر ، هذا مايظهرلى اهـ

(٦) الشنج بالتحريك التقبض وأصله فى الجلد من مس نار أو شدة برد .

وبيضاءَ زَغْف نَثلة سُلميَّة لها رفرف فوق الأنامل من علُ
وأشبرنيها الهالكي كأنها غدير جرت في متنه الريح سلسل (١)

وقال :

وسابغة من جياد الدرو ع تسمع للسيف فيها صليلا
كمتن الغدير زهته الدبور يجر المدجج منها فضولا (٢)

وقال البحترى :

يمشون فى زغف كأن متونها فى كل معركة متون نهاء (٣)

وهو من الشهرة بحيث لا يخفى . ثم انهم يعكسون هذا التشبيه فيشبهون الغدران والبرك بالدروع والجواشن كقول البحترى يصف البركة :

اذا زهتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها (٤)

ومن فاتن ذلك وفاخره ، لاستواء أوله فى الحسن وآخره ، قول أبى فراس الحمدانى :

انظر الى زهر الربيـع والماء فى البرك البديع (٥)

---

(١) الزغف بالفتح والزغفة بالفتح والتحريك الدرع الواسعة الطويلة اللينة أو المحكمة . والنثلة الدرع الواسعة الطويلة والسلمية بالضم نسبة سماعية الى سليمان بن داود « عليهما السلام » والرفرف جوانب الدرع وما تدلى منها : واشبرنيها أعطانيها والهالكى الحداد قيل أول من صنع الحديد فى العرب الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة

(٢) الدبور الريح الغربية والمدجج بكسر الجيم المشددة وفتحها اللابس السلاح لأنه يتغطى به من دججت السماء اذا تغيمت .

(٣) النهاء بالكسر أصغر محابس المطر الواحدة نهاءة و بالضم أيضا ارتفاع الماء .

(٤) زهتها علتها « ومضارع الفعل بهذا المعنى بالألف » والصبا الريح الشرقية والحبك بضمتين جمع حبيكة وهى الطريقة فى الرمل ودرع الحديد والجواشن الدروع

(٥) البرك جمع بركة (بالكسر فيهما) وهى الحوض ومستنقع الماء .

واذا الرياح جرت عليـ ـه فى الذهاب وفى الرجوع
نثرت على بيض الصفا ئح بيننا حلق الدروع

وتشبه أنوار الرياض بالنجوم كقوله :

بكت السماء بهـا رَذاذ دموعها فغـدت تبسم عن نجوم سماء [1]

ثم تشبه النجوم بالنور كقوله :

قد أقذف العيس فى ليـل كأن به وشياً من النور أو روضاً من العشب

وكقول ابن المعتز :

كأن الثريا فى أواخر ليلها تفتُّح نور أو لجام مفضض [2]

وقال :

وتوقـد المريخ بين نجومها كبهارة [3] فى روضة من نرجس

وكذلك تشبه غرة الفرس الأدهم بالنجم أو الصبح ويجعل جسمه كالليل كما قال ابن المعتز :

جاء سليلا من أب وأم أدهم مصقول ظلام الجسم
قد سمرت جبهته بنجم [4]

وكما قال كاتب المأمون يصف فرسا :

---

(١) الرذاذ المطر الضعيف .

(٢) تقدم البيت ناقصا فى صفحة ١٤٣ فليكمل .

(٣) البهارة واحدة البهار بالفتح وهو نبت طيب الرائحة قال الجوهرى وغيره هو العرار (بالفتح أيضا) الذى ينبت فى أيام الربيع قال ابن برى وهو النرجس البرى وقال شيخنا هنا : نبت طيب الرائحة قد يكون له زهر أصفر وهنا يظهر أنه نوع منه له زهر أحمر اهـ أى يظهر من البيت .

(٤) الذى فى الديوان بعـد الشطر الأول : « لا أقفلت من ولد بعقم » وقبل الأخير : « منتعل بجندلات صم » وسمرت شدت ووثقت بالمسمار وفى نسخة «شمرت» بالمعجمة .

قد بعثنا بجواد مثله ليس يرام
فرس يزهى به لل حسن سرج ولجام(١)
وجهه صبح ولكن سائر الجسم ظلام
والذى يصلح للمو لى على العبد حرام

وقال ابن نباتة

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا

ثم يعكس فيشبه النجم أو الصبح بالغرة فى الفرس كقول ابن المعتز :

والصبح فى طرة ليل مسفر كأنه غرة مهر أشقر

وتشبه الجوارى فى قدودهن بالسرو تشبيهاً عاميا مبتذلا . ثم انهم قد جعلوا فيه الفرع أصلا فشبهوا السرو بهن كقوله :

حفت بسرو كالقيان ولحفت خضر الحرير على قوام معتدل(٢)
فكأنها والريح حين تميلها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

المقصود من البيت الأول ظاهر وفى البيت الثانى تشبيه من جنس الهيئة المجردة من هيآت الحركة وفيه تفصيل ظريف فاتن فقد راعى الحركتين حركة التهيؤ للدنو والعناق، وحركة الرجوع الى أصل الافتراق ، وأدى ما يكون فى الحركة الثانية من سرعة زائدة تأدية تحسب معها السمع بصراً تبيناً للتشبيه كما هو وتصويراً لأن حركة الشجرة المعتدلة فى حال رجوعها الى اعتدالها أسرع لامحالة من حركتها فى خروجها من مكانها من الاعتدال،

---

(١) يزهى أى يتيه ويتكبر السرج واللجام عليه لكونها عليه لحسنه (ش)
(٢) لحف الرجل إزاره بالتثقيل جره خيلاء وليس بظاهر هنا ولعل الأصل الحفت (مجهول) أى اتخذته لحافا .

وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبداً من حركته اذا هم بالدنو. فازعاج الخوف والوجل، أبداً أقوى من إزعاج الرجاء والأمل، فمع الأول تمهل الاختيار، وسعة الحوار (١) ومع الثاني حفز الاضطرار، وسلطان الوجوب. وأعود الى الغرض ..

ومن تشبيه السرو بالنساء قول ابن المعتز :

ظللت بملهى خيرَ يوم وليلة   تدور علينا الكأس فى فتية زُهر
بكف غزال ذى عذار وطرة   وصدغين كالقافين فى طرفى سطر
لدى نرجس غض وسرو كأنه   قدود جوار مِلن فى أزر خضر

وتشبيه ثدى الكواعب بالرمان كقوله .

ربما تبيت أناملى   يجنين رمان النحور

وقال المتنبى :

وقابلنى رمانتا غصن بانة   يميل به بدر ويمسكه حِقْف

وقوله :

يخططن بالعيدان فى كل منزل   ويجنين رمان الثدى النواهد

ثم يقلب فيشبه الرمان بالثدى كقول القائل :

ورمانة شبهتها إذ رأيتها   بثدى كعاب أو بحقة مرمر (٢)

---

(١) الحوار بالفتح ويكسر مراجعة الكلام .

(٢) الكعاب كسحاب . الفتاة الناهد . والحقة بالضم كالحق وعاء للطيب وغيره مستدير فى الغالب وكثيرا ما يكون من العاج كما جاء فى معلقة ابن أم كلثوم :

وثديا مثل حُق العاج رخصا   حصانا من أكف اللامسينا

وتخيلوه من الدر أو وجد عند الأمراء والملوك كما قال ابن المعتز — وعند مثله يوجد — :

منمنمة صفراء نضد حولها يواقيت حمر فى ملاء معصفر

كأن الثدىّ على صدرها حقاق من الدر فى مرمر
خشين السقوط فأثبتنها بشبه المسامير من عنبر

وقد جمعت هذه المعانى وغيرها مما قيل فى تشبيه الثديين بالحسيات والمعنويات وزدت عليه بما لم أسبق اليه أسلوبا ومعنى فقلت فى المقصورة الرشيدية بعد أبيات فى الصدر :

ما كان ذان الناهدان فوقه الجاذبان طرف كل من رأى
الخافقان كالقلوب كلما اهـ تز قضيبٌ قدّها أو انثنى
الناهضان ثَمَّ برهانى هوى لروعة الحسن وريعان الصبا
ما كان ذان الناهدان الناهضا ن الخافقان الحالبان للنهى
حقين من دُرٍّ عليه أُثبتا بشبه مِسمارين من مسك ذكا
أو كرتى عاج على مرمره حيث الصوالج العقاص لا العصا
إذاً لهانا مطلبا وبذلا لكل من باع الحقاق واشترى
ولا هما رمانتا غصن وشى أعلاه ماثمٌ عليه ووشى
كيف وقد عزّ جناهما على حين نرى الرمان دانى الجنى
ولا مليكان عليه ألبسا تاجا من الياقوت عز وغلا
فثمة الملوك عبدان عنا لذلك السلطان أيهم عنا
ولا قران كوكبين اتلقا بفلك فى أفق شعر كالدجى
كعاشقين فى الخماء اعتنقا رمزاً الى سر القران فى الخبا
فأين للدّرىّ ما زانهما من لوعة تشب فى كل حشا
ولم يكونا ركنى الطاف من كعبة هذا الحسن قبلة الهوى
أنى وقد صينا بها وامتنعا من لمس من حج اليها وسعى
أو علمين حيث ذاك الحرم الآ من والحل كمرعى وحمى
كلا فلا أمن لمن منه دنا وانما الآمن من عنه نأى
فكم قتيل ثَمَّ للعيون ما أقيد من قاتله ولا ودى
كما أبيح فيه صيد الانس من دون طيور الجو أو وحش الفلا
تلك رجوم يقذف الغيب بها من هام فى وادى الخيال وغوى
بل ذاك هيكل الجمال صدره عرش الكمال فوقه قد استوى

وتشبه الجداول والأنهار بالسيوف يراد بياض الماء الصافى وبصيصه مع شكل الاستطالة الذى هوشكل السيف كقول ابن المعتز :

أعددت للجار وللعفاة   كوم الأعالى متساميات

روازقا فى المحل مطعمات (١)

يعنى نخلا، ثم قال بعد أبيات :

تسـقَى بأنهـار مفجَّرات   على حصى الكافور فائضات

مثل السيوف المتفريات (٢)

وقول ابن بابك :

فـما سيل تخلصه المحـانى   كما سلت من الخلل المناصل (٣)

أبو فراس :

والمـاء يفصل بين زهـ   ـر الروض فى الشطين فصلا

كبساط وشى جرَّدت   أيدى العيون عليه نصـلا

كشاجم : وترى الجداول كالسيو   ف لهـا سواق كالمبـارد

ربان من تلك الغرانيق العلى   فى حلل الزينة صينا والحلى

لولا ضـياهما معا لجعـلا   للثانوى حجة يظهرا بما ادعى

تعبداً من ملـل التوحيد والتث   ليث والشرك جبلا كالحصى

من بلغ الهيـكل مغرما هدا   ه ذينك النجدين منه فغوى

(١) الـكوم بالضم جمع كوماء وهى الناقة الضخمة السنام وأكوم وهو البعير كذلك والكلام على التشبيه . والشاهد فيما بعده

(٢) من تفرى الشىء بالتشديد انشق. يقال : تفرى الليل عن صبحه

(٣) المحانى: معاطف الأدوية ومحابس الماء : والخلل جمع خلة بالكسر وهى جفن السيف المغشى بالادم أو بطانة جفن السيف مطلقا .والمناصل: السيوف واحدها كمنخل

آخر :

وفى الجداول أسياف محادثة　　والطير تسجع إهزاجا وإرمالا (١)

وقال ذو الرمة :

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت　　جداول أمثال السيوف القواطع

ابن الرومى :

على حفافى جدول مسجور　　أبيض مثل المهرق المنشور (٢)

أو مثل متن الصارم المشهور

ثم يقلبون أحد طرفى التشبيه على الآخر فيشبهون السيوف بالجداول كقوله :

وتخال ماضربوا بهن جداولا　　وتخال ماطعنوا به أشطانا (٣)

ابن بابك :

وأهدى الى الغارات عزما مشيعا　　وبأسا وباعاً فى اللقاء ومقصلا (٤)

سفيه مقط الطرتين أشيمه　　فيوحى الى الأعضاء أن تترتلا (٥)

(١) المحادثة المجلوة المصقولة . قال الشاعر : « كنصل السيف حودث بالصقال » . والهزج والرمل بالتحريك ضربان من ضروب التلحين ويطلق الهزج على الصوت فيه بحح وهو محبوب وعلى مطلق الصوت المطرب وأصله صوت الذبان . واهزج الشاعر وأرمل جاء بالهزج والرمل وهما بحران من بحور الشعر

(٢) الحفاف ككتاب الجانب والجدول النهر الصغير والمسجور المملوء والمهرق بضم الميم وفتح الراء الصحيفة أو ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه

(٣) الاشطان : الحبال أو الحبال التى يستقى بها خاصة

(٤) المشيع : العجول والشجاع كأنه شيع قلبه بما يركب كل هول . المقصل كمنبر القطاع يوصف به السيف والجمل يحطم كل شىء بأنيابه

(٥) السفيه المضطرب والمسرف فى عمله والمقط من القط وهو القطع والطرة طرف الشىء وجانبه ، والمعنى أنه مسرف فى القط والقطع بجانبيه اذ هو محدد الطرفين أو فى جانبى الخصم يضرب به ذات اليمين وذات الشمال . وشامه سله وأغمده ضد

أغرّ كأنى حين أخضب خده   خرقت به فى ملتقى الروض جدولا

السرى :

وكم خرق الحجاب الى مقام   توارَى الشمس فيه بالحجاب
كأن سيوفه بين العوالى   جداول يطردن خلال غاب

وله أيضا :

كأن سيوف الهند بين رماحه   جداول فى غاب سما وتأشبا (١)

وتشبه الأسنة كما لايخفى بالنجوم كما قال :

وأسنة زرقا تخال نجوما

وقال البحترى :

وتراه فى ظلم الوغى فتخاله   قمراً يكر على الرجال بكوكب

يعنى السنان . وقال ابن المعتز :

وتراه يصغى فى القناة بكفه   نجما ونجما فى القناة يجره (٢)

ومثله سواء قوله :

كأنما الحربة فى كفه   نجم دجى شيعه البدر

ثم قد شبهوا الكواكب بالسنان كقول الصنوبرى :

بشر بالصبح كوكب الصبح   فاض وجنح الدجى كلا جنح (٣)
فهو على الفجر كالسنان هوى   للعين كما هوى على رمح

---

(١) البيت من قصيدة فى مدح الوزير المهلبى وفى رواية الديوان (علا وتأشبا) ومعنى تأشب الشجر: التف.

(٢) يصغى الشيء إصغاء يميله ونجما مفعوله والمراد به كفه ، و « نجما » الثانى هو السنان والضمير فى يجره يعود اليه (ش)

(٣) قوله فاض يعنى الكوكب والمراد فيضان نوره . والجنح بالكسر ويضم الطائفة من الليل

ابن المعتز :

شربتها والديك لم ينتبه سكران من نومته طافح
ولاحت الشعرى وجوزاؤها كمثل زج جره رامح

وهذه إن أردت الحق قضية قد سبقت وقدمت فقد قالوا السماك الرامح على معنى أن كوكبا يتقدمه وهو رمحه ! ولاشك أن جل الغرض فى جعل ذلك الكوكب رمحا أن يقدروه سنانا ، فالرمح رمح بالسنان ، واذا لم يكن السنان فهو قناة ، ولذلك قال : * ورمحاً طويل القناة عسولا * (١)

ومن ذلك أن الدموع تشبه اذا قطرت على خدود النساء بالطل والقطر على مايشبه الخدود من الرياحين كقول الناشى :

بكت للحبيب وقد راعها بكاء الحبيب لبعد الديار
كأن الدموع على خدها بقية طل على جلنار (٢)

وشبيه به قول ابن الرومى :

لو كنت يوم الوداع حاضرنا وهن يطفين غلة الوجد
لم تر إلا الدموع ساكبة تقطر من مقلة على خد
كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد

ثم يعكس كقول البحترى :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابى فى خدود الخرائد

ومثله قول ابن المعتز بعد قوله فى النرجس :

كأن عيون النرجس الغض حولها مداهن دُر حشوهن عقيق
اذا بلهن القطر خلت دموعها بكاء عيون كحلهن خلوق (٣)

(١) العسول : الشديد الاهتزاز

(٢) الجلنار زهر الرمان فارسى معرب أصله كل بالكاف المفخمة وهو الورد ونار وهو الرمان

(٣) الخلوق بوزن رسول طيب مائع أصفر وقال شيخنا يضرب الى الصفرة لأن أغلب أجزائه الزعفران . قال وكأنه أراد مايبدو من لون الحمرة فى قطرات الماء ولا يكون =

وفى فن آخر منه خارج عن جنس ما مضى يشبه الشيخ اذا افناه الهرم وحناه القدم حتى يدخل رأسه فى منكبيه بالفرخ كما قال :

ثلاث مئين قد مضين كواملا   وها أنا هذا أرتجى مرّ أربع
فاصبحت مثل الفرخ فى العين ثاويا   اذا رام تطيارا يقال له قَع

وهو كثير ثم يعكس فيشبه الفرخ بالشيخ كما قال أبو نواس يرثى خلف الأحمر :

لو كان حى وائلا من التلف   لوئلت شغواء فى أعلى شعف
أمُّ فريخ أحرزته فى لحف   مزغب الألغاد لم يأكل بكف
كأنه مستقعد من الخرف (١)

وأعاده فى قصيدة أخرى فى مرثيته (٢)

لاتئل العصم فى الهضاب ولا   شغواء تغذو فرخين فى لحف
تحنو بجؤشوشها على ضَرِم   كقِعدة المنحنى من الخرف (٣)

= حمرة زاهية بل يميل الى الصفرة اهـ

(١) وأل « كضرب » نجا أو طلب النجاة . والشغواء بالغين المعجمة العقاب لزيادة منقارها الأعلى على الاسفل كالسن الشغواء والشاغية أى الزائدة على الاسنان والشعف جمع شعفة بالتحريك فيهما وهى رأس الجبل وأعلى كل شئ . واللحف بالكسر أصل الجبل وحرك الحاء للضرورة الا أن تكون لغة . والمزغب الذى نبت زغبه وهو بالتحريك الشعر والريش أول مايبدو فى الصبى أو الفرخ وكذا الصغير منهما . والالغاد جمع لغد بالضم وهو لحمة فى الحلق وقيل التى بين الحنك وصفحة العنق أومنتهى شحمة الاذن من أسفلها وقيل غير ذلك

(٢) قوله أعاده أى المعنى والسبب فى ذلك ان خلفا أحب أن يرثى فى حياته فرثاه تلميذه أبو نواس بالرجز الذى ذكر هنا بعضه أولا فأعجبه وقال كنت أحب أن يكون قصيداً فقال أبو نواس أنا أحوله الى القصيد وفعل .

(٣) العصم جمع أعصم وهو ما كان من الوعول والظباء فى ذراعيه أوأحدهما بياض =

ويشبه الظليم فى حركة جناحيه مع إرسال لهما بالخباء المقوض أنشد أبو العباس لعلقمة :

صعل كأن جناحيه وجؤجؤه   بيت أطافت به خرقاء مهجوم (١)

اشترط أن يتعاطى تقويضه خرقاء ليكون أشد لتفاوت حركاته وخروج اضطرابه عن الوزن . وقال ذو الرمة :

وبيض رفعنا بالضحى عن متونها   سماوة جون كالخباء المقوض
هجوم عليها نفسه غير انه   متى يرم فى عينيه بالشبح ينهض

قالوا فى تفسيره يعنى بالبيض بيض النعام « ورفعنا » أى أثرنا عن ظهورها و « سماوة جون » أى شخص نعام جون وسماوة الشيء شخصه والجون الأسود ههنا لأنه قابل بين البياض والسواد . ثم شبه النعام فى حال إثارته عن البيض بالخباء المقوض وهو الذى نزعت أطنابه للتحويل والبيت الثانى من أبيات الكتاب (٢) أنشده شاهداً على إعمال فعول عمل الفعل وذلك قوله « هجوم عليها نفسه » فنفسه منصوب بهجوم على أنه من هجم متعديا نحو هجم عليها نفسه أى طرحها عليها كأنه أراد أن يصف الظليم فى خوفه بأمرين متضادين بأن يبالغ فى الانكباب على البيض فعل من شأنه اللزوم والثبات وأن يثيره عنها الشيء اليسير

= وسائره أسود أو أحمر . والغراب الاعصم هو الاحمر الرجلين والمنقار . والجؤشوش « كعصفور » والجأش الصدر . والضرم « ككتف » فرخ العقاب ومن معانيه الجائع والفرس العداء

(١) الظليم ذكر النعام والصعل ــ دقيق الرأس طويله والجؤجؤ الصدر . وأطافت به ألمت والخرقاء : الحمقاء والريح المختلفة الهبوب لا تدوم على جهة واحدة ويؤخذ من الاساس أن الوصف للريح مجاز وللمرأة الحمقاء حقيقة . والبيت المهجوم هو الذى حلت أطنابه

(٢) أى كتاب سيبويه

نحو أن يقع بصره على الشخص من بعد فعل من كان مستوفزاً فى مكانه غير مطمئن ولا موطن نفسه على السكون . وقوله : « يرم فى عينيه بالشبح » كلام ليس لحسنه نهاية

وقد قال ابن المعتز فعكس هذا التشبيه فشبه حركة الخباء بالطائر إلا أنه راعى أن يكون هناك صفة مخصوصة فشرط فى الطائر أن يكون مقصوصا وذلك قوله :

ورفعنا خباءنا تضرب الريـ ح حشاه كالجاذف المقصوص[1]

وأخرجه الى هذا الشرط أنه أراد حركة خباء ثابت غير مقوض الا أن الريح تقع فى جوفه فتحرك فى جانبيه على توال كما يفعل المقصوص اذا جذف وذلك أن يرد جناحيه الى خلفه فيتحرك جانباه ، فحصل له أمران أحدهما أن الموفور الجناح يبسط جناحيه فى الأكثر وذلك اذا صف فى طيرانه فلا يدوم ضربه بجناحيه والمقصوص لقصوره عن البسط يديم ضربهما . والثانى تحريك الجناحين الى خلف . وهذا كثير جداً وتتبعه فى كل باب ونوع من التشبيه يشغل عن الغرض من هذه الموازنة . وانما يمتنع هذا القلب فى طرفى التشبيه لسبب يعرض فى البين فيمنع منه ولا يكون من صميم الوصف المشترك بين الشيئين المشبه أحدهما بالآخر[2]

فمن ذلك وهو أقواه فيما أظن أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد في الوصف الذى لأجله يشبه ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه .

بيان هذا أن ههنا أشياء هى أصول فى شدة السواد كخافية الغراب والقار ونحو ذلك فاذا شبهت شيئا بها كان طلب العكس فى ذاك عكسا

(١) جذف الطائر « كضرب » أسرع
(٢) الصميم بالمهملة المحض الخالص بدون عارض

لما يوجبه العقل ونقضا للعادة لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف لا أن يتكلف فى المعروف تعريف بقياسه على المجهول وما ليس بموجود على الحقيقة فأنت اذا قلت فى شىء هو كخافيــة الغراب فقــد أردت أن تثبت له سواداً زائداً على مايعهد فى جنسه وأن تصحح زيادة مجهولة له . واذا لم يكن ههنا مايزيد على خافية الغراب فى السواد فليت شعرى ماالذى تريد من قياسه على غيره فيه ولهذا المعنى ضعف بيت البحترى :

على باب قنسرين والليل لاطخ جوانبــه من ظلمة بمداد (١)

وذاك أن المداد ليس من الأشـياء التى لا مزيد عليها فى السواد . كيف ورب مداد فاقد اللون ، والليل بالسواد وشدته أحق وأحرى أن يكون مثلا ، ألا ترى الى ابن الرومى حيث قال :

حبر أبى حفص لعاب الليل يسيل للاخوان أى سيل (٢)

فبالغ فى وصف الحـبر بالسواد حين شبهه بالليل وكأن البحترى نظر الى قول العامة فى الشىء الأسود هو كالنقس ثم تركه للقافية (٣)

---

(١) على باب متعلق بما فى البيت قبله وهو :

وليلتنا والراح عجلى تحثها فنون غناء للزجاجة حاد

أى كان مع حبيبته فى ادارة الكؤوس واستماع الغناء طول الليل على باب قنسرين

«٢» نقل شارح شواهد الايضاح عن ديوان ابن الرومى فى مدح جرد بن حفص الوراق

حـبر أبى حفص لعاب الليل كأنه ألوان دهم الخيل
يجرى الى الاخوان جرى السيل بغـير وزن وبغـير كيل

«٣» النقس بالكسر : هو المداد الذى يكتب به

فان قلت : فينبغى على هـذا أن لايجوز تشبيه الصبح بغرة الفرس لأجـل أن الصبح بالوصف الذى لأجله شبه الغرة به أخص ، وهو فيه أظهر وأبلغ ، والتفاوت بينهما كالتفاوت بين خافيـة الغراب والقار وبين مايشبه بهما ، فالجواب أن الأمـر وان كان كذلك فان تشبيه غـرة الفرس بالصبح حيث ذكرت لم يقع من جهة المبالغـة فى وصفها بالضياء والانبساط وفرط التلألؤ ، وانمـا قصد أمر آخر وهو وقوع منير فى مظلم ، وحصول بياض فى سواد ؛ ثم البياض صغير قليـل بالاضافة الى السواد ، وأنت تجد هـذا التشبيه على هـذا الحد فى الأصـل ، فاذا عكست فقلت كأن الصبح عند ظهور أوله فى الليـل غرة فى فرس أدهم لم تقع فى مناقضة ، كما أنك لو شبهت الصبح فى الظلام بعـلم بياض على ديباج أسود لم تخرج عن الصواب ، وعلى نحو من ذلك قول ابن المعتز :

فخلت الدجى والفجر قد مد خيطه رداء موشّى بالكواكب مُعلما

فالعلم فى هذا الرداء هو الفجر بلا شبهة . وله وهو صريح ماأردت :

والليـل كالحلة السوداء لاح به من الصباح طراز غير مرقوم (١)

وان كان التفاوت فى المقـدار بين الصبح والطراز فى الامتداد والانبساط شـديداً . وكذلك تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة وبالدينار الخارج من السكة كما قال ابن المعتز :

وكأن الشمس المنيرة دينا رٌ جلتـه حدائق الضرّاب

حسن مقبول وان عظم التفاوت بين نور الشمس ونور المرآة والدينار أو الجرم لأنك لم تضع التشبيه على مجرد النور والائتـلاق وانمـا قصـدت الى

(١) به أى فيه والضمير لليل .

مستدير يتلألأ ويلمع ثم خصوص فى جنس اللون يوجد فى المرآة المجلوة والدينار المتخلص من حمى السكة كما يوجد فى الشمس . فأما مقدار النور وانه زائد أو ناقص ، ومتناه أو متقاصر ، وللجرم أعظيم هو أم صغير ؟ فلم تتعرض له ، ويستقيم لك العكس فى هذا كله نحو ان تشبه المرآة بالشمس . وكذلك لو قلت فى الدينار كأنه شمس أو قلت كأن الدنانير المنثورة شموس صغار ، لم تتعد .

وجملة القول انه متى لم يقصد ضرب من المبالغة فى إثبات الصفة للشيء والقصد الى إيهام فى الناقص انه كالزائد واقتصر على الجمع بين الشيئين فى مطلق الصورة والشكل واللون أو جمع وصفين على وجه يوجد فى الفرع على حد ، ويوجد هو أو قريب منه فى الأصل ، فان العكس يستقيم فى التشبيه ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقم .

وقد يقصد الشاعر على عادة التخييل أن يوهم فى الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة انه زائد عليه فى استحقاقها واستيجاب أن يُجعل أصلا فيها ، فيصح على موجب دعواه وشوقه الى أن يجعل الفرع أصلا ، وان كنا اذا رجعنا الى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر مايضع اللفظ عليه ، ومثاله قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح (١)

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل فى النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح

(١) قبل البيت :

حتى استرد الليل خلعته وبدا خلال سواده وضح

فرعاً ووجه الخليفة أصلا .

واعلم أن هذه الدعوى وان كنت تراها تشبه قولهم : لايدرى أوجهه أنور أم الصبح ؟ وغرته أضوأ أم البدر ؟ وقولهم اذا أفرطوا : نور الصباح يخفى فى ضوء وجهه ، أو نور الشمس مسروق من جبينه ، وما جرى فى هذا الأسلوب من وجوه الاغراق والمبالغة ، فان فى الطريقة الأولى خلابة وشيئاً من السحر . وهو أنه كان يستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد فى طلب تشبيه يفهم به أمره . وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة فى نفسك من حيث لاتشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ويزجى الخبر عن أمر مسلم لاحاجة فيه الى دعوى ، ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر وتجهم معترض وتهكم قائل « لم » و « من أين لك ذلك » ؟ والمعانى اذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها نوع من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة ، والصنيعة لم ينغصها اعتداد المصطنع لها .

وفى هذا الموضع تشبيه بالنكتة التى ذكرتها فى التجنيس لأنك فى الموضعين تنال الربح فى صورة رأس المال ، وترى الفائدة قد ملأت يدك ، من حيث حسبتها قد جازتك وأضلتك وتجد على الجملة الوجود من حيث توهمت العدم .

ولطيفة أخرى وهى أن من شأن المدح اذا ورد على العاقل أن يقفه بين أمرين يصعب الجمع بينهما وتوفية حقهما . معرفة حق المادح على ما احتشد له من تزيينه وقصده من تضخيم شأنه فى عيون الناس بالاصغاء

اليــه والارتياح له ، والدلالة بالبشر والطلاقة على حسن موقعــه عنده ؛ وملك النفس حتى لايقلبها السرور عليــه (١) ويخرج بهــا الى العجب المذموم والى أن يقول «أنا» فيقع فى ضعة الـكبر من حيث لايشعر ، ويظهر عليــه من أمارته مايذم لأجله ويحقر ، فمــا كبر أحد فى نفسه الا أغان الـكبر عقله ، وفسخ عقده من أجله . وهذا موقف تزل فيــه الاقدام بل تخف عنده الحــلوم ، حتى لايسلم من جزع النفس هناك الا أفراد الرجال ، والا من أدام التوفيق صحبته ، ومن أين ذلك وأنى ؟ . فاذا كان المـدح على صورة قوله « وجه الخليفة حين يمتدح » خف عنـه الشطر من تـكاليف هذه الخصلة .

واذ قد تبين كيف يكون جعل الفرع أصلا والأصل فرعاً فى التشبيه الصريح فارجع الى التمثيل وانظر هل تجىء فيه هذه الطريقة على هذه السعة والقوة ثم تأمل ماحمل من التمثيل عليها كيف حكمه وهل هو مساو لما رأيت فى التشبيه الصريح ، وحاذ حذوه على التحقيق ؟ أم الحال على خلاف ذلك ؟ . والمثال فيما جاء من التمثيل مردوداً فيه الفرع الى موضع الأصل والأصل الى محل الفرع قوله :

وكأن النجوم بين دجاه سنن لاح بينهن ابتداع

وذلك أن تشبيه السنن بالنجوم تمثيل والشبه عقلى وكذلك تشبيه خلافها من البدعة والضــلالة بالظلمة ، ثم انه عكس فشبه النجوم بالسنن كما يفعل فيما مضى من المشاهـدات ، الا انا نعـلم انه لايجرى مجرى قولنا كأن النجوم مصابيح تارة ، وكأن المصابيح نجوم أخرى . ولا يجرى مجرى قولك ، كأن السيوف برق تنعق ، وكأن البروق سيوف تُسَلّ من أغمادها فتبرق ، ونظائر ذلك

(٢) قوله وملك عطف على معرفة وهو ثانى الأمرين وقلبها حوّلها .

فيما مضى ، وذلك أن الوصف هناك لايختلف من حيث الجنس والحقيقة وتجـــده العين فى الموضعين وليس هو فى هـذا مشاهـداً محسوساً وفى الآخر معقولا متصوراً بالقلب ممتنعاً فيـه الاحساس . فأنت تجـد فى السيوف لماناً على هيئة مخصوصة من الاستطالة وسرعة الحركة تجده بعينه أو قريباً منه فى البروق . وكذلك تجـد فى المداهن من الدر حشوهن عقيق من الشكل واللون والصورة ماتجده فى النرجس حتى يتطرق أن يشتبه الحال فى الشيء من خلل فيظن أن أحـدهما الآخر [1] فـلو أن رجـلا رأى من بعيـد بريق سيوف تنتضى من الغمود لم يبعـد أن يغلط فيحسب أن بروقاً أنعقت وما لم يقع فيـه الغلط كان حاله قريباً ممـا يجوز وقوع الغلط فيـه . ومحال أن يكون الأمر كذلك فى التمثيل لأن السنن ليست بشيء يتراءى فى العين فيشتبه بالنجوم ، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهـدة يجمع السنن والنجوم ، وانمـا يقصـد بالتشبيه فى هـذا الضرب ماتقـدم من الأحـكام المتأولة من طريق المقتضى فلما كانت الضـلالة والبدعة وكل ماهو جهل تجعل صاحبها فى حكم من يمشى فى الظلمة فلا يهتدى الى الطريق ولا يفصل الشيء من غيره حتى يتردى فى مهواة ويعثر على عدو قاتل وآفة مهلكة لزم من ذلك أن تشبه بالظلمة . ولزم على عكس ذلك أن تشبه السنة والهـدى والشريعة وكل ماهو علم بالنور.

واذا كان الأمر كذلك علمت أن طريقـة العـكس لاتجيء فى التمثيل على حـدها فى التشبيه الصريح وانهـا اذا سلكت فيـه كان مبنياً على ضرب من التأول والتخيـل يخرج عن الظاهر خروجاً ويبعد عنـه بعـداً شديداً . فالتأويل فى البيت انه لمـا شاع وتعورف وشـهر وصف السُّنة ونحـوها

(١) الخلل الخطأ :

بالبياض والاشراق والبدعة بخلاف ذلك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها» وقيل هذه حجة بيضاء ، وقيل للشبهة وكل ماليس بحق انه مظلم ، وقيل سواد الكفر وظلمة الجهل ، يخيل أن السنن كلها جنس من الأجناس التى لها إشراق ونور وابيضاض فى العين ، وان البدعة نوع من الأنواع وان لها [١] فضل اختصاص بسواد اللون فصار تشبيه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع على قياس تشبيههم النجوم فى الظلام ببياض الشيب فى سواد الشباب أو بالأنوار وائتلاقها بين النبات الشديد الخضرة . فهذا ههنا كأنه ينظر الى طريقة قوله : « وبدا الصباح كأن غرته » فى بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر الا أن التأويل هناك أنه جعل فى وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد . والتأويل ههنا انه خيّل ماليس بحق كأنه متلون.ثم بنى على ذلك

ومن هذا الباب قول الآخر :

ولقد ذكرتك والزمان كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

لما كانت الأوقات التى تحدث فيها المكاره توصف بالسواد فيقال : اسودّ النهار فى عينى وأظلمت الدنيا علىّ ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام فشبه به ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشق تظرّفاً وإتماماً للصفة وذلك أن الغزِل يدعى القسوة على من لم يعرف العشق والقلب القاسى يوصف بشدة السواد فصار هذا القلب عنده أصلا فى الكدرة

---

(١) الظاهر أن يقال : التى لها الخ كالذى قبله ولم يلاحظ ذلك شيخنا فى الدرس لصحة المعنى .

والسواد فقاس عليه . وعلى ذلك قول العامة : ليل كقلب المنافق أو الكافر . الا ان فى هذا شوباً من الحقيقة من حيث يتصور فى القلب أصل السواد ثم يدعى الافراط ، ولا يدعى فى البدعة نفس السواد لانها ليس مما يتلون ، لان اللون من صفات الجسم ، فالذى يساويه فى الشبه المساواة الثابتة قولهم : أظلم من الكفر — كما قال ابن العميد فى كتاب يداعب فيه ويظهر التظلم من هلال الصوم ويدعو على القمر فقال « وأرغب الى الله تعالى فى أن يقرب على القمر دوره ، وينقص مسافة فلكه » ثم قال بعد فصل « ويسمعنى النَّعرة فى قفا شهر رمضان [1] ويعرض علىّ هلاله أخفى من السحر ، وأظلم من الكفر » .

وان تأولت فى قوله . « سنن لاح بينهن ابتداع » أنه أراد معنى قولهم ان سواد الظلام يزيد النجوم حسنا وبهاء كان له مذهب . وذلك أنه لما كان وقوف العاقل ، على بطلان الباطل ، واطلاعه على عوار البدعة ، وخَرْقُه الستر عن فضيحة الشبهة ، يزيد الحق نبلاً فى نفسه ، وحسناً فى مرآة عقله ، جعل هذا الأصل من المعقول مثالا للمشاهد المبصر هناك ، الا انه على ذلك لايخرج من من أن يكون خارجا عن الظاهر أن يمثل [2] المعقول فى ذلك بالمحسوس كما فعل البحترى فى قوله :

---

(١) النعرة الصوت ويريد بها الصيحة والعويل عليه (ش) لعله يشير الى ماهو معروف منذ قرون بتوديع المؤذنين لشهر رمضان عند قرب انتهائه .

(٢) « أن يمثل » بدل من الظاهر أو أن « من » الجارة المحذوفة من الكلام بيان للظاهر (ش) والمعنى أنه مع ذلك خروج عن الظاهر الذى هو تمثيل المعقول بالمحسوس وقلما تجد لعبد القاهر ركاكة كقوله هنا : لايخرج من أن يكون خارجا الخ .

وقد زادها إفراط حسن جوارُها خلائق أصفار من المجد خُيَّبِ [(١)]

وحسن دراریّ النجوم بأن تُرى طوالع فى داج من الليـل غيهب

فيك مع هذا الوجه حاجة الى مثل مامضى من تنزيل السنة والبدعة منزلة مايقبل اللون ويكون له فى رأى العين منظر المشرق المتبسم ، والأسود الأقتم ، [(٢)] حتى يراد ان لون هذا يزيد فى بريق ذاك وبهائه ، وحسنه وجماله ، وفى القطعة التى هـذا البيت منها غيرها مما مذهبه المذهب الأول وهو :

رُبَّ ليـل قطعته كالصدود وفراق ما كان فيه وداع

موحش كالثقيل تقذى به العيـ ن وتأبى حديثـه الأسماع

وكأن النجوم . . . البيت وبعده :

مشرقات كأنهن حجاج يقطع الخصم والظلام انقطاع

ومما حقه أن يعد فى هذا الباب قول القائل :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه نجاء من البأساء بعـد وقوع [(٣)]

وذلك ان العادة أن يشبه المتخلص من البأساء بالبـدر الذى ينحسر عنـه الغمام والشبه بين البأساء والغمام والظلماء من طريق العقل لامن طريق الحس وأوضح منـه فى هذا قول ابن طباطبا :

صحوٌ وغيم وضياء وظُلَم مثل سرور شابهُ عارضُ غم

ومن حد مايقع فى هذا الباب قول التنوخى فى قطعة وهى قوله :

أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا

---

(١) الأصفار جمع صفر بمعنى الخالى و « من المجد » متعلق به باعتبار المعنى .

(٢) الأقتم الذى تعلوه القتمة وهى بالتحريك السواد .

(٣) النجاء كالنجاة .

فالأرض تحت ضريب الثلج تحسبها قد ألبست حبكا أو غُشِّيَت ورِقا[١]
فانهض بنار الى فحم كأنهما في العين ظلم وانصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا

المقصود فانهض بنار الى فحم فانه لما كان يقال فى الحق إنه منير واضح لائح فتستعار له أوصاف الأجسام المنيرة وفى الظلم خلاف ذلك تخيلهما شيئين لهما ابيضاض واسوداد وانارة وإظلام فشبه النار والفحم بهما

ومن هذا الباب قول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها وقد كحل الليل السماك فأبصرا

لما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق وكثر ذلك واستمر توهمه حقيقة فقابل بين سعة الأرض التى هى سعة حقيقة وأخلاق الكريم . ومثله قول أبي طالب المأمونى :

وفلا كآمال يضيق بها الفتى لا تصدق الأوهام فيها قيلا
اقريتها بشِملة تقرى الفلا عنقا وتقريها الفلاة نحولا[٢]

قاس الفلا فى السعة وهى حقيقة فيها على الآمال وهى اذا وصفت بالسعة

---

(١) الضريب الثلج والجليد وتقدم تفسير الحبك وان من معانيه الدروع وهى المراد هنا كما قال شيخنا . وغشيت بالتشديد من غشاه اذا غطاه وستره وهو كأغشاه يتعدى الى مفعولين كقوله تعالى (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) ، والورق الفضة ووزنه كالكتف

(٢) الشملة بكسر الشين والميم وتشديد اللام الناقة السريعة. والاقراء طلب القرى وهو بالكسر الضيافة كالاقتراء والاستقراء . وقرى الضيف قرى وقراه تقرية ضيفه تضييفا وقرى البلاد. تتبعها وطافها يخرج من أرض و يدخل فى أخرى فى قوله تقرى الفلا عنقا تورية. والعنق بالتحريك سير مسبطر فسيح واسع للابل والدواب وهو اسم من أعنق

كان مجازا بلا شبهة ولكن لما كان يقال : آمال طوال وآمال لا نهاية لها واتسعت آماله وأشباه ذلك صارت هذه الأوصاف كأنها موجودة فيها من طريق الحس والعيان . وعلى ذكر الأمل فمن لطيف ما جاء فى التشبيه به على هذا الحد وإن لم يكن فى معنى السعة والامتداد ، ولكن فى الظلمة والاسوداد ، قول ابن طباطبا :

رب ليل كأنه أملى فيـ ـك وقد رحت عنك بالحرمان
جبته والنجوم تنعش فى الأفـ ـق وتطرفن كالعيون الزوانى(١)
هاربا من ظلام فعلك فى نحـ ـو ضياء الفتى الأغر الهجان(٢)

لما كان يقال فى الامر لا يرجى له نجاح : قد أظلم علينا هذا الأمر وهذا أمر فيه ظلمة ، ثم أراد أن يبالغ فى التباس وجه النجح عليه فى أمله تخيل كأن أمله شخص شديد السواد فقاس ليله به كأنه يقول : تفكرت فيما أعلمه من الاشياء السود فرأيت صورة أملى فيك زائدة على جميعها فى شدة السواد فجعلته قياساً فى ظلمة ليلى الذى جبته

ومن الباب وهو حسن قول ابن المعتز :

لا تخلطوا الدوشاب فى قدح بصفاء ماء طيب البرد (٣)
لا تجمعوا بالله ويحكم غلظ الوعيد ورقة الوعد

لما كان يقال : أغلظ له القول ، ويوصف الجافى وكل من أساء وقال ما يكره بالغلظ ، ويوصف كلام المحسن ومن يعمد الى الجميل باللطافة — جعل الوعد

(١) جبته :قطعته.ونعش طرفه بالمثلثة (من باب فتح)رفعه لينظر.وطرفت العين طرفا من باب ضرب تحركت

(٢) الهجان ككتاب الخيار من كل شيء ،ورجل هجان كريم الحسب

(٣) الدوشاب : نبيذ التمر معرب . أو الاسود كما فى شرح ديوان ابن الرومى . وقال السمعانى انه الدبس بالعربية

والوعد أصلا فى الصفتين وقاس عليهما ، فأما قول الآخر :

شربت على سلامة فتـكين شرابا صفوه صفو اليقين

فهو على الحقيقة لايدخل فى تشبيه الحقيقية بالمجاز لأن الصفاء خلوص الشيء وخلوه من شيء يغيره عن صفته الا أنه من حيث يقع فى الأكثر لما له بريق وبصيص كان كأنه حقيقة فى المحسوسات ومجاز فى المعقولات . وأما قولهم : هواء أرق من تشاكى الأحباب ، فمن الباب لأن الرقة فى الهواء حقيقة ، وفى التشاكى مجاز . وهكذا قول أبى نواس فى خلاعته « حتى هى فى رقة دينى » لأن الرقة من صفات الأجسام فهى فى الدين مجاز

ومما كأنه يدخل في هذا الجنس قول المتنبي :

يترشفن من فمي رشـفات هن فيه أحلى من التوحيد

وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق اذا دعته شهوة الاغراب الى أن يستعير للهزل والعبث من الجد ويتغزل بهذا الجنس

ومما هو حسن جميل من هذا الباب قول الصاحب كتب به الى القاضى أبى الحسن روى عن القاضى أنه قال انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد فجاءنى رسوله بعطر الفطر ومعه رقعة فيها هذان البيتان :

يا أيها القاضى الذى نفسى له مع قرب عهد لقائه مشتاقه

أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه

وكون هذا التشـبيه مما نحن فيـه من الترجيح (١) أوضح ما يكون فليس يخاف أن العـادة أن يشـبه الثناء بالعطر ونحوه ويشـتق منه وقد عكس كما ترى وذلك على ما ادعاه أن ثناءه أحق بصـفة العطر وطيبه من العطر وأخص

(١) أى ترجيح جانب المجاز وجعله أصلا يشبه به وفى نسخة التوضيح

به وأنه قدصار أصلا حتى اذا قيس نوع العطر عليه فقد بولغ فى صفته بالطيب، وجعل له في الشرف والفضل على جنسه أوفر نصيب ،

واذ قد عرفت الطريقة فى جعل الفرع أصلا فى التّمثيل فارجع وقابل بينه وبين التشبيه الظاهر تعلم أن حاله فى الحقيقة مخالفة للحال ثم . وذلك انك لا تحتاج فى تشبيه البرق بالسيوف والسيوف بالبرق الى تأويل أكثر من أن العين تؤدى اليك من حيث الشكل واللون وكيفية اللمعان صورة خاصة تجدها فى كل واحد من الشيئين على الحقيقة ولا يمكننا أن نقول إن الثريا شبهت باللجام المفضض وبعنقود الكرم المنور وبالوشاح المفصل لتأويل كذا ، بل ليس بأكثر من أن أنجم الثريا لونها لون الفضة ثم إن أجرامها فى الصغر قريبة من تلك الأطراف المركبة على سيور اللجام ، ثم إنها فى الاجتماع والافتراق على مقدار قريب من مواقع تلك الأطراف ، وكذا القول فى العنقود فان تلك الانوار مشاكلة فى البياض وفى أنها ليست متضامة تضام التلاصق ولا هى شديدة التباين حتى يبعد الفصل بين بعضها وبعض ، بل مقاديرها فى القرب والبعد على صفة قريبة مما يتراءى فى العين من مواقع تلك الأنجم . واذا كان مدار الأمر على أن العين تصف من هذا ماتصف من ذاك لم يكن تشبيه اللجام المفضض بالثريا إلا كتشبيه الثريا به . والحكم على أحدها بأنه فرع أو أصل يتعلق بقصد المتكلم فما بدأ به فى الذكر فقد جعله فرعا وجعل الآخر أصلا ، وليس كذلك قولنا : له خلق كالمسك ، وهو فى دنوه بعطائه ، وبعده بعزه وعلائه ، كالبدر فى ارتفاعه ، مع نزول شعاعه . لأن كون الخلق فرعا والمسك أصلا أمر واجب من حيث كان المعلوم من طريق الاحساس والعيان متقدما على المعلوم من طريق الروية وهاجس الفكر

وحكم هـذا فى أن الفـرع لايخرج عن كونه فرعا على الحقيقة حكم ما طريق التشـبيه فيه المبالغـة من المشاهدات والمحسوسات كقولك : هو كحلك الغـراب فى السواد لمـا هو دونه فيه (١) وقولك فى الشيء من الفواكه مثلا : هو كالعسل ، فكما لا يصح أن يعكس فيشـبه حلك الغـراب بمـا هو دونه فى السواد والعسل بما لايساويه فى صدق الحلاوة كذلك لايصح أن تقول : هذا مسك كخلق فلان ، إلا على ماقدمت من التخييل : ألا ترى أنه كلام لايقوله إلا من يريد مدح المـذكور . فاما أن يكون القصـد بيـان حال المسـك على حد قصـدك أن تبين حال الشيء المشـبه بحلك الغـراب فى السواد والمشبه بالعسل فى الحلاوة فما لا يكون ، كيف ولولا سـبق المعـرفة من طريق الحس بحـال المسك ثم جريان العـرف بما جرى من تشـبيه الأخلاق به واسـتعارة الطيب لهـا منه لم يتصور هذا الذى تريد تخييـله من أنا نبالغ فى وصف المسك بالطيب تشـبيها بخلق الممدوح وعلى ذلك قولهم : «كأنمـا سرق المسك عرفه من خلقك ، والعسل حلاوته من لفظك» هو مبنى على العـرف السابق من تشبيه الخلق بالمسك واللفظ بالعسل . ولو لم يتقـدم ذلك ولم يتعارف ولم يسـتقر فى العادات لم يعقل لهذا النحو من الـكلام معنى ، لأن كل مبالغة ومجاز فلا بد من أن يكون له استناد الى حقيقة

واذا ثبتت هذه الفروق والمقابلات بين التشبيه الصريح الواقع فى العيان ومايدركه الحس وبين التمثيل الذى هو تشـبيه من طريق العقل والمقاييس التى تجمع بين الشيئين فى حكم تقتضيه الصـفة المحسوسة لا فى نفس الصفة كما بينت لك فى أول قول ابتدأته فى الفـرق بين التشبيه الصريح وبين التمثيل من أنك تشبه اللفظ بالعسل على أنك

---

(١) حلك الغراب بالتحريك : حنكه ، وقيل سواده

تجمع بينهما فى حكم توجبه الحلاوة دون الحلاوة نفسها — فههنا لطيفة أخرى. تعطيك للتمثيل مثالا من طريق المشاهدة وذاك أنك بالتمثيل فى حكم من يرى صورة واحدة إلا أنه يراها تارة فى المرآة وتارة على ظاهر الأمر. وأما فى التشبيه الصريح فانك ترى صورتين على الحقيقة. يبين ذلك انا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا ونفوسنا صور الأجسام فى القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة لم يمكنا تخيل شيء من تلك الأوصاف فى الأشياء المعقولة، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيداً من حيث العزة والسلطان : قريباً من حيث الجود والاحسان، حتى يخطر ببالك، وتطمح بفكرك، الى صورة البدر وبعد جرمه عنك، وقرب نوره منك، وليس كذلك الحال فى الشيئين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدر؛ فانك لاتفتقر فى معرفة كون النرجس وخرطه واستدارته وتوسط أحمره لأبيضه الي تشبيهه بمداهن در حشوهن عقيق، كيف وهو شيء تعرضه عليك العين وتضعه فى قليل المشاهدة، وإنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التى معك ويجتليها لكن من مكان بعيد حتى تراهما معا وتجدهما جميعا. وأما فى الأولى فانك لاتجد فى الفرع نفس ما فى الأصل من الصفة وجنسه وحقيقته، ولايحضرك تمثيل أوصاف الأصل على التعيين والتحقيق وإنما يخيل اليك أنه يحضرك ذلك، فانه يعطيك من الممدوح بدراً ثانيا فصار وزان أن المرآة تخيل اليك أن فيها شخصاً ثانيا على صورة ما هى مقابلة له، ومتى ارتفعت المقابلة ذهب عنك ما كنت تتخيله فلا تجد الى وجوده سبيلا، ولا تستطيع له تحصيلا، لاجملة ولا تفصيلا

فصل

« الفرق بين الاستعارة والتمثيل »

اعلم أن من المقاصد التى تقع العناية بها أن تبين حال الاستعارة مع التمثيل أهى هو على الاطلاق حتى لافرق بين العبارتين أم حدها غير حده ، إلا أنها تتضمنه وتتصل به ، فيجب أن نفرد جملة من القول فى حالها مع التمثيل

قد مضى فى الاستعارة أن حدها أن يكون للفظ اللغوى أصل ثم ينقل عن ذلك الأصل على الشرط المتقدم . وهذا الحد لا يجىء فى معنى التمثيل الذى تقدم من أن الأصل فى كونه مثلا وتمثيلا هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور، والذى لا يحصله لك إلا جملة من الكلام أو أكثر ، لأنك قد تجد الالفاظ فى الجمل التى يعقد منها جارية على أصولها وحقائقها فى اللغه

وإذا كان الأمر كذلك بان أن الاستعارة يجب أن تفيد حكماً زائداً على المراد بالتمثيل اذ لو كان مرادنا بالاستعارة هو المراد بالتمثيل لوجب أن يصح اطلاقها فى كل شىء يقال فيه انه تمثيل ومثل . والقول فيها انها دلالة على حكم ثبت للفظ وهو نقله عن الأصل اللغوى واجراؤه على مالم يوضع له . ثم ان هذا النقل يكون فى الغالب من أجل شبه بين مانقل اليه ومانقل عنه

وبيان ذلك مامضى من أنك تقول رأيت أسداً — تريد رجلا شبيها به فى الشجاعة ، وظبية — تريد امرأة شبيهة بالظبية . فالتشبيه ليس هو الاستعارة ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه وهو كالغرض فيها ، أو كالعلة والسبب فى فعلها . فان قلت كيف تكون الاستعارة من أجل التشبيه

والتشبيه يكون ولا استعارة ؟ وذلك اذا جئت بحرفه الظاهر فقلت : زيد كالأسد . فالجواب أن الأمر كما قلت ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة . فقولي « من أجل التشبيه » أردت من أجل التشبيه على هذا الشرط . وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة ، كذلك الاختصار والايجاز غرض من أغراضها . ألا ترى أنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة لأنك تفيد بقولك « رأيت أسداً » انك رأيت شجاعا شبيها بالأسد وان شبهه به فى الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه حتى انه لا ينقص عن الأسد فيها . واذا ثبت ذلك فكما لا يصح أن يقال ان الاستعارة هى الاختصار والايجاز على الحقيقة وأن حقيقتها وحقيقتهما واحدة ، ولكن يقال ان الاختصار والايجاز يحصلان بها ، أو هما غرضان فيها ، ومن جملة مادعا الى فعلها ، كذلك حكم التشبيه معها . فاذا ثبت أنها ليست التشبيه على الحقيقة كذلك لا تكون التمثيل على الحقيقة ، لأن التمثيل تشبيه الا أنه تشبيه خاص ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا

واذ قد تقرر هذه الجملة فاذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع وما يجرى مجراها من الأوصاف المعروفة كان حقها أن يقال انها تتضمن التشبيه ولا يقال ان فيها تمثيلا وضرب مثل واذا كان الشبه عقلياً جاز اطلاق التمثيل فيها وأن يقال ضرب الاسم مثلا لكذا كقولنا ضرب النور مثلا للقرآن ، والحياة مثلا للعلم . فقد حصلنا من هذه الجملة على أن المستعير يعمد الى نقل اللفظ عن أصله فى اللغة الى غيره ويجوز به مكانه الأصلى الى مكان آخر لأجل الأغراض التى ذكرنا من

التشبيه والمبالغة والاختصار . والضارب للمثل لايفعل ذلك ولا يقصده ولكنه يقصد الى تقرير الشبه بين الشيئين من الوجه الذى مضى . ثم إن وقع فى أثناء مايعقد به المثل من الجملة والجملتين والثلاث لفظة منقولة عن أصلها فذاك شىء لم يعتمده من جهة المثل الذى هو ضاربه . وهكذا كل متعاط لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه ، فاذا قلت : زيد كالأسد ، وهذا الخبر كالشمس فى الشهرة : وله رأى كالسيف فى المضاء ، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه . ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب أن لايكون فى الدنيا تشبيه الا وهو مجاز ، وهذا محال لان التشبيه معنى من المعانى وله حروف وأسماء تدل عليه فاذا صرح بذكر ماهو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم فى سائر المعانى فاعرفه .

واعلم أن اللفظة المستعارة لاتخلو من أن تكون اسماً أو فعلا ، فاذا كانت اسماً كان اسم جنس أو صفة ، فاذا كان اسم جنس فانك تراه فى أكثر الأحوال التى تنقل فيها محتملا متكفئاً بين أن يكون للأصل وبين أن يكون للفرع الذى من شأنه أن ينقل اليه . فاذا قلت رأيت أسداً ، صلح هذا الكلام لأن تريد به انك رأيت واحداً من جنس السبع المعلوم وجاز أن تريد انك رأيت شجاعاً باسلا شديد الجرأة وانما يفصل لك أحد الغرضين من الآخر شاهد الحال وما يتصل به من الكلام من قبل وبعد . وان كان فعلا أو صفة كان فيهما هذا الاحتمال فى بعض الأحوال ، وذلك اذا أسندت الفعل وأجريت الصفة على اسم مبهم يقع على مايكون أصلا فى تلك الصفة وذاك الفعل وما يكون فرعاً فيهما نحو أن تقول : أنار لى منير ،

فهذا الكلام يحتمل أن يكون « أنار » و « منير » فيه واقعين على الحقيقة بأن يُعنى بالشيء بعض الأجسام ذوات النور . وأن يكونا واقعين على المجاز بأن تريد بالشيء نوعاً من العلم والرأى وما أشبه ذلك من المعانى التى لايصح وجود النور فيها حقيقة وانما توصف به على سبيل التشبيه . وفى الفعل والصفة شيء آخر وهو انك كأنك تدعى معنى اللفظ المستعار له . فاذا قلت : قد أنارت حجته ، وهذه حجة منيرة ، فقد ادعيت للحجة النور ولذلك تجىء فتضيفه اليه كما تضاف المعانى التى يشتق منها الفعل والصفة الى الفاعل والموصوف فتقول : نور هذه الحجة جلا بصرى وشرح صدرى، كما تقول : نور الشمس . والمثل لايوجب شيئاً من هذه الأحكام ، فلا هو يقتضى تردد اللفظ بين احتمال شيئين ولا أن يدعى معناه للشيء ولكنه يدع اللفظ مستقراً على أصله .

واذ قد ثبت هذا الأصل فاعلم أن ههنا أصلا آخر يبنى عليه وهو أن الاستعارة وان كانت تعتمد التشبيه والتمثيل وكان التشبيه يقتضى شيئين مشبهاً ومشبهاً به وكذلك التمثيل لأنه كما عرفت تشبيه الا أنه عقلى — فان الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرحه وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضى من قولك : رأيت أسداً تريد رجلا شجاعاً ، ووردت بحراً زاخراً تريد رجلا كثير الجود فائض الكف ، وأبديت نوراً تريد علما ، وما شاكل ذلك . فالاسم الذى هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى . وقد نقلت الحديث الى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه فتضع اللفظ بحيث تخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور كى تقوى أمر المشابهة وتشدده ويكون لها هذا الصنيع

حيث يقع الاسم المستعار فاعلا أو مفعولا أو مجروراً بحرف الجر أو مضافاً اليه ، فالفاعل كقولك : بدا لى أسد، وانبرى لى ليث ، وبدا نور ، وظهرت شمس ساطعة ، وفاض لى بالمواهب بحر ، وكقوله :

وفى الجيرة الغادين من بطن وَجْرَة[1] غزال كحيل المقلتين ربيب

والمفعول كما ذكرت من قولك رأيت أسداً . والمجرور نحو قولك لاعار ان فر من أسد يزأر ، والمضاف اليه كقوله :

يا ابن الكواكب من أئمة هاشم والرُّجَّح الأحساب والأحلام

واذا جاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكوراً وكان مبتدأ واسم المشبه به واقعاً فى موضع الخبر ، كقولك زيد أسد ، أو على هذا الحد . وهل يستحق الاسم فى هذه الحالة أن يوصف بالاستعارة أم لا ؟ فيه شبهة وكلام سيأتيك ان شاء الله تعالى .

وإذ قد عرفت هذه الجملة فينبغى أن تعلم أنه ليس كل شىء يجىء مشبهاً به بكاف أو باضافة « مثل » اليه يجوز أن تسلط عليه الاستعارة وينفذ حكمها فيه حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حد قولك . أبديت نوراً ، تريد علماً ، وسللت سيفاً صارماً ، تريد رأياً نافذاً. وانما يجوز ذلك اذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ، ويكون فى الحال دليل عليه وفى العرف شاهد له حتى يمكن المخاطب اذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ماأردت فكل شىء كان من الضرب الأول الذى ذكرت انك تكتفى فيه باطلاق الاسم داخلا عليه حرف التشبيه نحو قولهم . هو كالأسد ، فانك اذا أدخلت عليه حكم الاستعارة

---

(١) وجرة موضع بين مكة والبصرة .

وجدت فى دليل الحال وفى العرف مابين غرضك ، إذ يعلم اذا قلت رأيت أسداً — وأنت تريد الممدوح — أنك قصدت وصفه بالشجاعة واذا قلت طلعت شمس — وأنت تريد امرأة — عُلم بأنك تريد وصفها بالحسن وان أردت الممدوح علم أنك تقصد وصفه بالنباهة والشرف .

فأما اذا كان من الضرب الثانى لاسبيل الى معرفة المقصود من الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التى يعقد بها التمثيل فان الاستعارة لاتدخله لان وجه الشبه اذا كان غامضاً لم يجز أن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه وتنقله الى غير ماهو أهله من غير أن يكون معك شاهد ينبىء عن الشبه فلو حاولت فى قوله . « فانك كالليل الذى هو مدركى » أن تعامل الليل معاملة الأسد فى قولك . رأيت أسداً — أعنى أن تسقط ذكر الممدوح من البين — لم تجد له مذهباً فى الكلام ولا صادفت طريقة توصلك اليه ، لأنك لاتخلو من أحد أمرين إما أن تحذف الصفة وتقتصر على ذكر الليل مجرداً فتقول . إن فررت أظلنى الليل . وهذا محال لانه ليس فى الليل دليل على النكتة التى قصدها من أنه لايفوته وان أبعد فى الهرب ، وصار الى أقصى الارض ، لسعة ملكه وطول يده ، وأن له فى جميع الآفاق عاملا وصاحب حبس ومطيعاً لأوامره ، يرد الهارب عليه ، ويسوقه اليه ، وغاية مايتأتى فى ذلك انه يريد ان هرب عنه أظلمت عليه الدنيا وتحير ولم يهتد فصار كمن يحصل فى ظلمة الليل ، وهذا شىء خارج عن الغرض ، وكلامنا على أن تستعير الاسم لتؤدى به التشبيه الذى قصد فى البيت ولم أرد أنه لاتمكن استعارته على معنى مّا ولا يصلح فى غرض من الأغراض ، وان لم تحذف الصفة وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدى الى تعسف إذ لو قلت . ان

فررت منك وجدت ليلا يدركني وان ظننت أن المتنأى واسع والمهرب بعيد — قلت مالا تقبله الطباع ، وسلكت طريقة مجهولة لأن العرف لم يجر بأن تجعل الممدوح ليلا هكذا .

فأما قولهم ان التشبيه بالليل يتضمن الدلالة على سخطه فانه لايفسح فى أن يجرى اسم الليل على الممدوح جرى الأسد والشمس ونحوها ، وانما تصلح استعارة الليل لمن يقصد وصفه بالسواد والظلمة ؛ كما قال ابن طباطبا * بعثت معى قطعا من الليل مظلماً * يعنى زنجياً قد أنفذه المخاطب معه حين انصرف عنه الى منزله ، هذا — وعاتله كلما وجدت ما ان رمت فيه طريقة الاستعارة لم تجد فيه هذا القدر من التمحل والتكلف أيضا ، وهو كقول النبى صلى الله عليه وسلم « الناس كابل مائة لاتجد فيها راحلة » قل الآن من أى جهة تصل الى الاستعارة ههنا ، وبأى ذريعة تتذرع اليها ؟ هل تقدر أن تقول رأيت إبلا مائة لاتجد فيها راحلة ، فى معنى رأيت ناساً والابل المائة التى لاتجد فيها راحلة تريد الناس ، كما قلت رأيت أسداً ، على معنى رجلا كالأسد وأطلقت عليه الأسد على معنى الذى هو الأسد ؟ . وكذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة »(١) لاتستطيع أن تتعاطى الاستعارة فى شيء منه فتقول رأيت نخلة أو خامة على معنى رأيت مؤمناً . إن من رام مثل هذا كان كما قال صاحب الكتاب ملغزاً تاركا لكلام الناس الذى يسبق الى أفئدتهم . وقد قدمت طرفاً من هذا الفصل فيما مضى ولكننى أعدته ههنا لاتصاله بما نريد ذكره

(١) الخامة الغضة الرطبة من النبات والحديث « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة هكذا ومرة هكذا » قال الطرماح :

انما نحن مثل خامة زرع فمتى يأن يأت محتصده

فقد ظهر أنه ليس كل شيء يجيء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ونحوها يستقيم نقل الكلام فيه الى طريقة الاستعارة وإسقاط ذكر المشبه جملة والاقتصار على المشبه به . وبقى أن يتعرف الحكم فى الحالة الأخرى وهى التى يكون كل واحد من المشبه والمشبه به مذكوراً فيها نحو : زيد أسد ووجدته أسداً ، هل تساوق صريح التشبيه حتى يجوز فى كل شيئين قصد تشبيه أحدهما بالآخر أن تحذف الكاف من الثانى وتجعله خبراً عن الأول أو بمنزلة الخبر ؟ والقول فى ذلك أن التشبيه اذا كان صريحاً بالكاف و « مثل » كان الأعرف الأشهر فى المشبه به أن يكون معرفة كقولك : هو كالأسد وهو كالشمس وهو كالبحر وكليث العرين وكالصبح وكالنجم وما شاكل ذلك ، ولا يكاد يجيء نكرة مجيئاً يرتضى ، نحو هو كأسد وكبحر وكغيث ، الا أن يخصص بصفة نحو كبحر زاخر ، فاذا جعلت الاسم المجرور بالكاف معرباً بالاعراب الذى يستحقه الخبر من الرفع والنصب كان كلا الأمرين — التعريف والتنكير — فيه حسناً جميلا . تقول زيد الأسد والشمس والبحر ، وزيد أسد وشمس وبدر وبحر .

واذ قد عرفت هذا فارجع الى نحو * فانك كالليل الذى هو مدركى * واعلم أنه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف وتجعل المجرور (الليل) خبراً فتقول : فانك الليل الذى هو مدركى . أو أنت الليل الذى هو مدركى . وتقول فى قول النبى صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع» المؤمن الخامة من الزرع . وفى قوله عليه الصلاة والسلام « الناس كإبل مائة » : الناس إبل مائة . ويكون تقديره على أنك قدرت مضافاً محذوفاً على حد (واسئل القرية) تجعل الأصل فانك مثل الليل ثم تحذف مثلا .

والنكتة فى الفرق بين هذا الضرب الذى لابد للمجرور بالكاف ونحوها من وصفه بجملة من الكلام أو نحوها وبين الضرب الأول الذى هو نحو زيد كالأسد ، أنك اذا حذفت الكاف هناك فقلت : زيد الأسد فالقصد أن تبالغ فى التشبيه فتجعل المذكور كأنه الأسد وتشير الى مثل مايحصل لك من المعنى اذا حذفت ذكر المشبه أصلا فقلت : رأيت أسداً أو الأسد فأما فى نحو « فانك كالليل الذى هو مدركى » فلا يجوز أن تقصد جعل الممدوح الليل ولكنك تنوى أنك أردت أن تقول : فانك مثل الليل ثم حذفت المضاف من اللفظ وأبقيت المعنى على حاله اذا لم تحذف . وأما هناك فانه وان كان يقال أيضا إن الأصل زيد مثل الأسد ثم تحذف ، فليس الحذف فيه على هذا الحد بل على أنه جعل كأن لم يكن لقصد المبالغة . ألا تراهم يقولون جعله الأسد وبعيد أن تقول جعله الليل لأن القصد لم يقع الى وصف فى الليل كالظلمة ونحوها وانما قصد الحكم الذى له من تعميمه الآفاق وامتناع أن يصير الانسان الى مكان لايدركه الليل فيه .

وان أردت أن تزداد علما بأن الأمر كذلك أعنى أن ههنا مايصلح فيه التشبيه الظاهر ولا تصلح فيه المبالغة وجعل الأول الثانى فاعمد الى ماتجد الاسم الذى افتتح به المثل فيه غير محتمل لضرب من التشبيه اذا أفرد وقطع عن الكلام بعده كقوله تعالى ﴿ انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ﴾ الآية لو قلت : انما الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء أو الماء ينزل من السماء فتخضر منه الارض ، لم يكن للكلام وجه ، غير أن تقدر حذف « مثل » نحو انما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كيت

وكيت ، إذ لايتصور بين الحياة الدنيا والماء شبه يصح قصده ، وقد أفرد كما قد يتخيل فى البيت أنه قصد تشبيه الممدوح بالليل فى السخط . وهذا موضع فى الجملة مشكل ولا يمكن القطع فيه بحكم على التفصيل ، ولكن لاسبيل الى جحد انك تجد الاسم فى الكثير وقد وضع موضعاً فى التشبيه بالكاف لو حاولت أن تخرجه فى ذلك الموضع بعينه الى حد الاستعارة والمبالغة ، وجعل هذا ذاك ، لم ينقد لك كالنكرة التى هى « ماء » فى الآية وفى الآى الآخر نحو قوله تعالى (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) ولو قلت . هم صيب ولا تضمر مثلا ألبتة على حد « هو أسد » لم يجز لأنه لامعنى لجعلهم صيباً فى هذا الموضع ، وان كان لا يمتنع أن يقع صيب فى موضع آخر ليس من هذا الغرض فى شيء استعارة ومبالغة كقولك ؛ فاض صيب منه تريد جوده ، وهو صيب يفيض ، تريد يتدفق فى الجود — فلسنا نقول ان ههنا اسم جنس واسماً صفة لايصلح للاستعارة فى حال من الأحوال .

وهذا شعب من القول (١) يحتاج الى كلام أكثر من هذا ويدخل فيه مسائل ولكن استقصاءه يقطع عن الغرض . فان قلت فلابد من أصل يرجع اليه فى الفرق بين مايحسن أن يصرف وجهه الى الاستعارة والمبالغة وما لايحسن ذلك فيه ، ولا يجيبك المعنى اليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه . فالجواب أنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع . ولكن ههنا

(١) أى جانب وناحية منه فهو بالكسر وقال شيخنا فى الدرس لو جعل الشعب بمعنى القبيلة والطائفة ــ فيكون بالفتح ــ لم يكن بعيدا عن المراد اهـ وكلا الاستعارتين للقول من المحاسن التى لم نعرفها لغير المصنف .

نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر اليها ، وهى أن الشبه اذا كان وصفا معروفا فى الشىء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به ، وتعورف كونه أصلا فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن فى الشمس أو الاشتهار والظهور وانها لا تخفى فيها (١) أيضا وكالطيب فى المسك والحلاوة فى العسل والمرارة فى الصاب والشجاعة فى الأسد والفيض فى البحر والغيث والمضاء والقطع والحدة فى السيف والنفاذ فى السنان وسرعة المرور فى السهم وسرعة الحركة فى شعلة النار وما شاكل ذلك من الأوصاف التى لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومقدم فى معانيه — فاستعارة الاسم للشىء على معنى ذلك الشبه تجىء سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة ، وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف كونها أصولا فيها (٢) وأنها أخص ماتوجد فيه بها ، فكل أحد يعلم أن أخص المنيرات (٣) بالنور الشمس ، فاذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد . ولو أنك أردت من الشمس الاستدارة ، لم يجز أن تدل عليه بالاستعارة ، ولكن إن أردتها من الفلك جاز ، فان قصدتها من الكرة كان أبين لأن الاستدارة من الكرة أشهر وصف فيها . ومتى صلحت الاستعارة فى شىء فالمبالغة فيه أصلح ، وطريقها أوضح ، ولسان الحال بها أفصح ، أعنى أنك اذا قلت : « ياابن الكواكب من أئمة هاشم » : و « ياابن الليوث الغر » فأجريت الاسم على الشبه إجراءه على أصله الذى وضع له . وادّعيته له كان قولك : هم الكواكب

(١) فيها مرتبط بالاشتهار والظهور وانها لاتخفى

(٢) أى تعورف كون الأسماء أصولا فى الاوصاف وأن الاسماء أخص ماتوجد فيه تلك الأوصاف بالأوصاف

(٤) لعل أصلها النيرات اذ اعتيد إطلاقها على الكواكب

وهم الليوث ، أو هم كواكب وليوث ، أحرى أن تقوله ، وأخف مؤنة على السامع فى وقوع العلم له به

واعلم أن المعنى فى المبالغة — وتفسيرنا لها بقولنا جعل هذا ذاك وجعله الأسد وادعى أنه الأسد حقيقة — أن المشبه الشئ بالشئ من شأنه أن ينظر الى الوصف الذى يجمع بين الشيئين وينفى عن نفسه الفكر فيما سواه جملة ، فاذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى ماعداها فلم ينظر اليه ، فان هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له حظا ظاهراً فى الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، واذا قال هو الأسد ، تناهى فى الدعوى اما قريبا من الحق لفرط بسالة الرجل ، واما متجوزا فى القول فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئا . واذا كان بحكم التشبيه وبأنه مقصوده من ذكر الأسد فى حكم من يعتقد أن الاسم لم يوضع على ذلك السبع إلا للشجاعة التى فيه ، وأن ماعداها من صورته وسائر صفاته عيال عليها وتبع لها فى استحقاقه هذا الاسم ، ثم أثبت لهذا الذى يشبهه به تلك الشجاعة بعينها حتى لا اختلاف ولا تفاوت [1] فقد جعل الأسد له لامحالة لان قولنا « هو هو » على معنيين (احدهما) أن يكون للشيء اسمان يعرفه المخاطب بأحدهما دون الآخر فاذا ذكر باسمه الآخر توهم أن معك شيئين ، فاذا قلت : زيد هو أبو عبد الله ، عرفت أن هذا الذى تذكر الآن هو الذى عرفه بأبى عبد الله . و (الثانى) أن يراد تحقيق التشابه بين الشيئين وتكميله لهما ، ونفى الاختلاف والتفاوت عنهما ، فيقال « هو هو » أى لا يمكن الفرق بينهما لأن الفرق يقع اذا اختص أحدهما بصفة

(١) قوله : فقد جعل الخ جواب قوله : واذا كان بحكم التشبيه الخ

لا تكون فى الآخر . وهذا المعنى الثانى فرع على الأول وذلك أن المتشابهين التشابه التام لما كان يحسب أحدهما الآخر ويتوهم الرائى لهما فى حالين أنه رأى شيئا واحداً صاروا اذا حققوا التشبيه بين الشيئين يقولون « هو هو » والمشبهُ اذا وقف وهمه كما عرفتك على الشجاعة دون سائر الأمور ثم لم يثبت بين شجاعة صاحبه وشجاعة الأسد فرقا فقد صار الى معنى قولنا «هو هو» بلا شبهة

واذا تقررت هذه الجملة فقولنا * فانك كالليل الذى هو مدركى * ان حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت : فانك الليل الذى هو مدركى — لزمك لا محالة أن تعمد الى صفة من أجلها تجعله الليل كالشجاعة التى من أجلها جعلت الرجل الأسد . فان قلت تلك الصفة الظلمة وأنه قصد شدة سخطه وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم فى عينيه ، حسب الحال فى المستوحش الشديد الوحشة كما قال : *أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب * قيل لك هذا التقدير ان استجزناه وعملنا عليه فانا نحتمله والكلام على ظاهره وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه فى البيت ، فأما وأنت تريد المبالغة فلا يجىء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لايواجه بها الممدوحون ولا تستعار الأسماء الدالة عليها لهم إلا بعد أن تتدارك وتقرن اليها أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله : « أنت الصاب والعسل » ولا تقول وأنت مادح : أنت الصابُ ، وتسكت ، وحتى ان الحاذق لايرضى بهذا الاحتراز وحده حتى يزيد ويحتال فى دفع مايغشى النفس من الكراهة باطلاق الصفة التى ليست من الصفات المحبوبة فيصل بالكلام مايخرج به الى نوع من المدح كقول المتنبى :

حسن في وجوه أعدائه أقبح من ضيفه رأته السوام (١)

بدأ فجعله حسنا على الاطلاق ثم أراد أن يجعله قبيحا في عيون أعدائه على العادة في مدح الرجل بأن عدوه يكرهه فلم يقنعه ماسبق من تمهيده وتقدم من احترازه في تلافي ما يجنيه إطلاق صفة القبح حتى وصل به هذه الزيادة من المدح وهي كراهة سوامه لرؤية أضيافه وحتى حصل ذكر القبح مغموراً بين حسنين ، فصار كما يقول المنجمون : يقع النحس مضغوطا بين سعدين فيبطل فعله وينمحق أثره . وقد عرفت ما جناه التهاون بهذا النحو من الاحتراز على أبي تمام حتى صار ماينعى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه والمنكر لفضله ، وأخصر حجة للمتعصب عليه ، وذلك أنه لم يبال في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ واقتصر على صميم التشبيه وأطلق اسم الجنس الخسيس كاطلاق الشريف النبيه كقوله :

واذا ما أردت كنت رشاء واذا ماأردت كنت قليبا (٢)

فصك وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاء وقليب ولم يحتشم أن قال :

مازال يهذي بالمكارم والعلى حتى ظننا أنه محموم

فجعله يهذي وجعل عليه الحمى ، وظن أنه اذا حصل له المبالغة في إثبات المكارم له وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره حتى لا يصدر عنه غيرها ، فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافي ، والمدح المتنافي ، فكذلك

---

(١) قوله (في وجوه أعدائه) هكذا ورد في نسختي الكتاب هنا وفيما سبق والرواية الصحيحة «في عيون أعدائه» و يدل على الرواية الصحيحة قول المصنف «ثم أراد أن يجعله قبيحا في عيون أعدائه ، ولعل الخطأ من تحريف النساخ

(٢) يروى أول البيت : فاذا : والرشاء حبل الدلو والقليب : البئر وقبل البيت :

ممطر لي بالجاه والمال ماألـ ـقاك إلا مستوهبا أو وهوبا

أنت هذه قصتك ، وهذه قضيتك ، فى اقتراحك علينا أن نسلك بالليل فى البيت طريق المبالغة على تأويل السخط .

(فان قلت) أفترى أن تأبى هـذا التقدير فى البيت أيضا حتى يقصر التشبيه على ما تفيـده الجـلة الجارية فى صلة الذى ؟ (قلت) فان ذلك الوجهُ فيما أظنـه فقـد جاء فى الخـبر عن النبى صلى الله عليه وسلم « ليدخلنّ هذا الدين مادخل عليه الليل » فـكما تجرد المعنى للحكم الذى هو الليل من الوصول الى كل مكان ، ولم يكن لاعتبار مااعتبروه من شـبه ظلمته وجه كذلك يجوز أن يتجرد فى البيت له ويكون ما ادعوه من الاشارة بظلمة الليل الى ادراكه له ساخطاً ضرباً من التعمق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده . وأحسن ما يمكن أن ينتصر به لهـذا التقدير أن يقال : ان النهار بمنزلة الليل فى وصوله الى كل مكان فما من موضع من الأرض الا ويدركه كل واحد منهما فـكما أن الـكائن فى النهار لايمكنه أن يصير الى مكان لا يكون به ليل كذلك الـكائن فى الليل لايجد موضـعا لايلحقه فيه نهار ، فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روّى فى نفسـه فلمـا علم أن حالة ادراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى ، ويمكن أن يزاد فى نصرته بقوله :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الاشراق فى كل بلد

وذاك أنه قصد ههنا نفس ما قصده النابغـة فى تعمـيم الأقطار والوصول الى كل مكان ، الا أن النعمة لمـا كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لهـا من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة الى أقاصى البلاد ، وانتشارها فى العباد ؛ بالليل ووصوله الى كل بلد ، وبلوغه كل أحد ، لـكان قد أخطأ خطأ فاحشاً

الا أن هذا وان كان يجيء مستويا فى الموازنة ففرق بين ماتكره من الشبه وماتحب، لأن الصفة المحبوبة اذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريباً مما يناله الغرض نفسه . وأما ماليس بمحبوب فيحسن أن تعرض عنها صفحاً وتدع الفكر فيها .

وأما تركه أن يمثل بالنهار وان كان بمنزلة الليل فيما أراده فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا محالة ، واذا كان يكلمه وهو فى النهار بعُدَ أن يضرب المثل بادراك النهار له ، وكان الظاهر أن يمثل بادراك الليل الذى اقباله منتظر ، وطريانه على النهار متوقع ، فكأنه قال وهو فى صدر النهار أو آخره : لو سرت عنك ، لم أجد مكانا يقيني الطلب منك ، ولكان ادراكك لى وان بعدت واجبا كادراك هذا الليل المقبل فى عقب نهارى هذا اياى ، ووصوله الى أى موضع بلغت من الأرض .

وههنا شيء آخر وهو أن تشبيه النعمة فى البيت بالشمس وان كان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب وملبسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصلا على سبيل العرض وبضرب من التطفل ، فان تجريد التشبيه لهذا الوجه الذى هو الآن تابع ، وجعله أصلا ومقصوداً على الانفراد مألوف معروف كقولنا : نعمتك شمس طالعة . وليس كذلك الحكم فى الليل ، لأن تجريده لوصف الممدوح بالسخط مستكره حتى لو قلت : أنت فى حال السخط ليل وفى الرضى نهار ، فطفقت هكذا تجعله بسخطه ، لم يحسن ، وانما الواجب أن يقول : النهار ليل على من يغضب عليه ، والليل نهار لمن يرضى عنه ، وزمان عدوك ليل كله ، وأوقات وليك نهار كلها ، كما قال :

أيامنا مصقولة أطرافها بك والليالى كلها أسحار

وقد يقول الرجل لمحبوبه : أنت ليلى ونهارى . أى بك تضىء الدنيا وتظلم ، فاذا رضيت فدهرى نهار ، واذا غضبت فليل ، كما تقول : أنت دائى ودوائى ، وبرئى وسقامى ولا تكاد تجد أحدا يقول « أنت ليل » على معنى أن سخطك تظلم به الدنيا ، لأن هذه العبارة بالذم وبالوصف بالظلمة وسواد الجلد وتجهم الوجه أخص ، وبأن يراد بها أخلق ، وهذا المعنى منها الى القلب أسبق ، فاعرفه

فصل

اعلم أنك تجد الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذى يقتضى كونه مستعارا ثم لا يكون مستعاراً ، وذاك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره ، وليس له شبه ينفرد به ، على ما قدمت لك من أن الشبه يجىء منتزعا من مجموع جملة من الكلام فمن ذلك قول داود بن على حين خطب فقال :

شكراً شكراً انا والله ماخرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً ؛ أظن عدو الله أن لن نظفر به ، أرخى له فى زمامه ، حتى عثر فى فضل خطامه ، فالآن عاد الأمر فى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن قد أخذ القوس باريها ، وعاد النبل الى النزعة ، ورجع الأمر الى مستقره فى أهل بيت الرأفة والرحمة ، (١)

(١) الخطام ككتاب حبل يجعل فى عنق البعير و يثنى فى خطمه ، وكل ماوضع فى خطم البعير (أنفه) ليقتاد به . والنزعة بالتحريك الرماة بالنبل جمع نازع وفى الأمثال « صار الامر الى النزعة » أى قام باصلاحه أهل الأناة والسياسة . ومنها «عاد السهم الى النزعة» أى رجع الحق الى أهله فالجملة فى كلام الخطيب بمعنى ما قبلها وما بعدها مراداً لامفهوما

فقوله : الآن أخذ القوس باريها — وان كان القوس يقع كناية عن الخلافة والبارى عن المستحق لها — فانه لايجوز أن يقال ان القوس مستعار للخلافة على حد استعارة النور والشمس لأجل أنه لا يتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد وأن يقال « هى قوس » كما يقال « هى نور وشمس » وانما الشبه مؤلف بحال الخلافة [١] مع القائم بها ومن حال القوس مع الذى يراها ، وهو أن البارى للقوس أعرف بخيرها وشرها ، وأهدى الي توتيرها وتصريفها اذ كان العامل لها فكذلك الكائن على الأوصاف المعتبرة فى الامامة والجامع لها يكون أهدى الى توفية الخلافة وأعرف بما يحفظ مصارفها عن الخلل ، وأن يراعى فى سياسة الخلق بالأمر والنهى التى هى المقصود منها ترتيباً ووزنا تقع به الأفعال مواقعها من الصواب ، كما أن العارف بالقوس يراعى فى تسوية جوانبها ، واقامة وترها ، وكيفية نزعتها ، ووضع السهم الموضع الخاص منها ما يوجب فى سهامه أن تصيب الأغراض ، وتُقرطسَ فى الأهداف ، وتقع فى المقاتل ، وتصيب شاكلة الرَّمىّ [٢]

وهكذا قول القائل وقد سمع كلاما حسنا من رجل دميم : « عسل طيب فى ظرف سوء » ليس (عسل) ههنا على حده فى قولك : ألفاظه عسل ، لأجل أنه لم يقصد الى بيان حال اللفظ الحسن وتشبيهه بالعسل فى

«١» كأنه جعل «مؤلفا» فى معنى مصور ومحصل فعداه بالباء «ش» يعني على سبيل التضمين وهو سماعى عند الجمهور فهل يعده عبد القاهر وهو من أئمة النحاة قياسيا أم هذا خطأ من الناسخ كما يدل عليه قوله : ومن حال القوس الخ

«٢» تقرطس تصيب القرطاس وهو الهدف وتقدم . والشاكلة : الخاصرة . والرمى: الصيد المرمى . ولم أرهم يقولونه إلا بالتاء «الرمية»

هذا الكلام الحسن من المتكلم الشنوء فى منظره ، وانما قصد الى قياس اجتماع فضل الخبر ، مع نقص المنظر ، بالشبه المؤلف من العسل والظرف ، ألا ترى أن الذى يقابل الرجل هو « ظرف سوء » وظرف سوء لا يصلح تشبيه الرجل به على الانفراد ؛ لان الدمامة لا تعطيه صفة الظرف من حيث هى دمامة مالم يتقدم شىء يشبه مافى الظرف من الكلام الحسن أو الخلق الجميل ، أو سائر المعانى التى تجعل الأشخاص أوعية لها .

فمن حقك أن تحافظ على هذا الأصل وهو أن الشبه اذا كان موجوداً فى الشىء على الانفراد من غير أن تكون نتيجة بينه وبين شىء آخر — فالاسم مستعار لما أخذ الشبه منه كالنور للعلم ، والظلمة للجهل ؛ والشمس للوجه الجميل أو الرجل النبيه الجليل . واذا لم تكن نسبة الشبه الى الشىء على الانفراد وكان مركباً من حاله مع غيره فليس الاسم بمستعار ولكن مجموع الكلام مثل .

واعلم أن هذه الأمور التى قصدت البحث عنها أمور كأنها معروفة مجهولة . وذلك أنها معروفة على الجملة لا ينكر بيانها فى نفوس العارفين ذوق الكلام والمتمهرين فى فصل جيده من رديئه (١) ، ومجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجرى مجرى القوانين التى يرجع اليها فتستخرج منها العلل فى حسن ما استحسن ، وقبح ما استهجن ، حتى تُعلم علم اليقين غير الموهوم ، ويضبط ضبط المزموم المخطوم (٢) ، ولعل اللال إن عرض

---

(١) تمهر الرجل: حذق كمهر .

(٢) المزموم والمخطوم واحد فى المعنى فالأول ماشد بالزمام أى المقود . والثانى البعير وضع على خطمه (كأنفه وزنا ومعنى) الخطام (وتقدم تفسيره) ليقتاد وكذا الممنوع من الكلام . وكلام المصنف هنا صريح فى أن البيان كان قبل تصنيفه هو =

لك ، أو النشاط ان فتر عنك ، قلت ماالحاجة الى كل هـذه الاطالة وانما يكفى أن يقال : الاستعارة مثل كذا ثم تعقد كلمات ، وتنشد أبيات ، وهكذا يكفينا المؤنة فى التشبيه والتمثيل يسير من القول . فانك تعلم أن قائلا لو قال ، الخبر مثل قولنا : زيد منطلق . ورضى به وقنع ولم تطالبه نفسه بأن يعرف حداً للخبر اذا عرفه تميز فى نفسه من سائر الكلام حتى يمكنه أن يعلم أن ههنا كلاما لفظه لفظ الخبر وليس هو بخبر ولكنه دعاء كقولنا : رحمة الله عليه ، وغفر الله له . ولم يجد فى نفسه طلباً لأن يعرف أن الخبر هل ينقسم أو لاينقسم ، وأن أول أمره فى القسمة انه ينقسم الى جملة من الفعل والفاعل ، وجملة من مبتدأ وخبر ، وأن ماعدا هذا من الكلام لايأتلف بفهم ، ولم يحب أن يعلم أن هذه الجملة يدخل عليها حروف بعضها يؤكد كونها خبراً وبعضها يحدث فيها معانى تخرج بها عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب . وهكذا يقول اذا قيل له « الاسم مثل زيد وعمرو » : اكتفيتُ ولا أحتاج الى وصف أو حد يميزه من الفعل والحرف أو حد لهما اذا عرفتهما عرفت أن ماخالفهما هو الاسم على طريقة الكتاب ويقول : لاأحتاج الى أن أعرف أن الاسم ينقسم فيكون متمكناً أو غير متمكن ، والتمكن يكون منصرفا وغير منصرف ، ولا الى أن أعلم شرح غير المنصرف والأسباب التسعة التى يقف هذا الحكم على اجتماع سببين منها أو تكرر سبب فى الاسم (١) ولا أنه ينقسم الى المعرفة والنكرة ، وان النكرة ماعم شيئين فأكثر ، وما أريد به واحد من الجنس لا بعينه ، والمعرفة ماأريد

= لهذا الكتاب أمرا ذوقيا لافناً ذا قواعد وحدود ورسوم ، وانه هو الذى جعله فنا أو علما مدونا .

(١) يريد بتكرر السبب قيامه مقام السببين .

به واحد بعينه أو جنس بعينه على الاطلاق ، ولا الى أن أعلم شيئاً من الانقسامات التى تجىء فى الامم — كان قد أساء الاختيار وأسرف فى دعوى الاستغناء عما هو محتاج اليه ان أراد هذا النوع من العلم (١) .

ولئن كان الذى يتكلف شرحه لايزيد على مؤدى ثلاثة أسماء وهى التمثيل والتشبيه والاستعارة فان ذلك يستدعى جملا من القول يصعب استقصاؤها ، وشعباً من الكلام لاتستبين لأول النظر أنحاؤها ، إذ قولنا « شىء » يحتوى على ثلاثة أحرف ولكنك اذا مددت يداً الى القسمة ، وأخذت فى بيان ماتحويه هذه اللفظة ، احتجت الى أن تقرأ أوراقا لاتحصى ، وتتجشم من المشقة والنظر والتفكير ماليس بالقليل النزر . والجزءُ الذى لايتجزأ يفوت العينَ ويدق عن البصر ، والكلام عليه يملأ أجلاداً عظيمة الحجم . فهذا مثلك ان أنكرت ماعنيتُ به من هذا التتبع ، ورأيتَه من البحث ، وآثرتَه من تجشم الفكرة ، وسومها أن تدخل فى جوانب هذه المسائل وزواياها ، وتستثير كوامنها وخفاياها ، فان كنتَ ممن رضى لنفسه أن يكون هذا مثله ، وههنا محله ، فعب كيف شئت ، وقل ماهَويت ، وثق بأن الزمان عونك على ما ابتغيت ، وشاهدك فيما ادعيت ، وأنك واجد من يصوب رأيك ويحسن مذهبك ، ويخاصم عنك ، ويعادى المخالف لك (٢) ،

---

(١) يعنى علم اليقين (ش) والمتبادر أن المصنف أراد علم النحو .

(٢) قد وقع ماتوقعه المصنف من اكتفاء الجمهور بعده بالاجمال من معنى التشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها من قواعد البيان والمعانى وتركوا هذا التفصيل الفلسفى الذى هو روح العلم ولبابه حتى صار أوسع الناس علما بتلك المصطلحات والتعريفات والتقسيمات الجافة أجهلهم بالبلاغة والفصاحة ، وأعرقهم فى العى والفهاهة، وأعجزهم =

فصل

« فى الأخذ والسرقة وما فى ذلك من التعليل ، وضروب الحقيقة والتخييل »

﴿ القسم العقلى ﴾

اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق ، واقتدى بمن تقدم وسبق ، لايخلو من أن يكون فى المعنى صريحاً أو فى صيغة تتعلق بالعبارة . ويجب أن نتكلم أولا على المعانى ، وهى تنقسم أولا قسمين عقلى وتخييلى ، وكل واحد منهما يتنوع . فالذى هو العقلى على أنواع . أولها عقلى صحيح ، مجراه فى الشعر والكتابة ، والبيان والخطابة ، مجرى الأدلة التى تستنبطها العقلاء ، والفوائد التى تثيرها الحكماء ، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعا من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضى الله عنهم ومنقولا من آثار السلف الذين شأنهم الصدق ، وقصدهم الحق ، أو ترى له أصلا فى الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء . فقوله :

وما الحسب الموروث لادرّدره ... بمحتسب الا بآخر مكتسب

ونظائره كقوله :

انى وان كنت ابن سيد عامر ... وفى السر منها والصريح المهذب
فما سودتنى عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

معنى (١) صريح محض يشهد له العقل بالصحة ، ويعطيه من نفسه

= عن فهم الكلام البليغ ، دع إنشاءه مرسلا أو منثورا أو منظوما .

(١) قوله معنى صريح الخ خبر مبتدأ هو قوله : فقوله * وما الحسب الموروث الخ وما عطف عليه يعنى ان قول الشاعر صاحب البيت الأول فى الحسب ونظائره كقول الشاعر صاحب البيتين الآخرين فيه معنى صريح معقول.

أكرم النسبة ، [١] وتتفق العقلاء على الأخذ به ، والحكم بموجبه ، فى كل جيل وأمة ، ويوجد له أصل فى كل لسان ولغة ، وأعلى مناسبة وأنورها ، وأجلها وأفخرها ، قول الله تعالى : (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » [٢] وقوله عليه السلام « يابنى هاشم لاتجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالانساب ، [٣] » وذلك أنه لو كانت القضية على ظاهر يغتر به الجاهل ويعتمده المنقوص لأدى ذلك الى إبطال النسب أيضا وإحالة التكثر به ، والرجوع الى شرفه ، فان الأول لو عدم الفضائل المكتسبة ، والمساعى الشريفة [٤] ولم يبن من أهل زمانه بأفعال تؤثر ، ومناقب تدون وتسطر ، لما كان أولا ، ولكان العلم من أمره مجهلا ولما تصور افتخار الثانى بالانتماء اليه ، وتعويله فى المفاضلة عليه ، ولكان لايتصور فرق بين أن يقول هذا أبي ، ومنه نسبي ، وبين أن ينسب الى الطين ، الذى هو أصل الخلق أجمعين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كلكم لآدم وآدم من التراب » [٥] وقال محمد بن الربيع الموصلى :

الناس فى صورة التشبيه أكفاء … أبوهم آدم والأم حواء
فان يكن لهم فى أصلهم شرف … يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل الا لأهل العلم انهم … على الهدى لمن استهدى ادلاء
ووزن كل امرئ ماكان يحسنه … والجاهلون لأهل العلم أعداء

فهذا كما ترى باب من المعانى التى تجمع فيها النظائر وتذكر الأبيات

(١) فيقال «قلى» (ش) .
(٢) رواه مسلم من حديث طويل .
(٣) مروى بالمعنى .
(٤) يريد بقوله (الأول) الأب أو الجد مثلا ممن يفتخر بالانتساب اليه .
(٥) من خطبة حجة الوداع .

الدالة عليها فانهـا تتلاقى وتتناظر ، وتتشابه وتتشاكل ، ومكانه من العقل ماظهر لك واستبان ، ووضح واستنار ، وكذلك قوله : * وكل امرئ يولى الجميل محبب * صريح معنى ليس للشعر فى جوهره وذاته نصيب ، وانما له مايلبسه من اللفظ ، ويكسوه من العبارة وكيفية التأدية ، من الاختصار وخلافه ، والكشف أو ضده . وأصله قول النبى صلى الله عليه وسلم : « جبلت القلوب على حب من أحسن اليها » [1] بل قول الله عز وجل (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

وكذا قوله :

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبـه الدم

معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته ، وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت الأحكام الشرعية ، والسنن النبوية ، وبه استقام لأهل الدين دينهم ، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم ، إذ كان موضوع الجبلة على أن لاتخلو الدنيا من الطغاة الماردين ، والغواة المعاندين ، الذين لايعون الحكمة فتردعهم ، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصح ويمنعهم ، ولا يحسون بنقائص الغى والضلال ، وما فى الجور والظلم من الضعة والخبال ، فيجدوا لذلك مس ألم يحبسهم على الأمر ، ويقف بهم عند الزجر ، بل كانوا كالبهائم والسباع لايوجعهم الا مايخرق الأبشار من حد الحديد ، وسطو البأس الشديد ، فلو لم تطبع

(١) من الأحاديث المشتهرة على الألسنة بزيادة : « وبغض من أساء اليها » وروى مرفوعا وموقوفا عن ابن مسعود وكلاهما باطل. وقيل أو الموقوف معروف عن الأعمش .

لامثالهم السيوف ، ولم تطلق فيهم الحتوف ، لما استقام دين ولا دنيا ، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا ، فلا يطيب الشرب من منهل لم تُنفَ عنه الأقذاء ، ولا تقر الروح فى بدن لم تدفع عنه الأدواء ، وكذلك قوله :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف فى موضع الندى

﴿ القسم التخييلى ﴾

وأما القسم التخييلى فهو الذى لايمكن أن يقال انه صدق وان ماأثبته ثابت ، وما نفاه منفى ، وهو مفتنّ المذاهب ، كثير المسالك ، لايكاد يحصر الا تقريباً ، ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً ، ثم انه يجىء طبقات ، ويأتى على درجات ، فمنه مايجىء مصنوعاً قد تُلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق ، حتى أعطى شبهاً من الحق ، وغشى رونقا من الصدق ، باحتجاج يخيَّل ، وقياس يُصنع فيه ويُعمل ، ومثاله قول أبى تمام :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

فهذا قد خيل الى السامع أن الكريم اذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة فى قدره ؛ وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق اليه وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم ، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام ، لاتحصيل وإحكام ، فالعلة فى أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لايثبت الا اذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب ، وليس فى الكريم والمال ، شىء من هذه الخلال .

وأقوى من هذا فى أن يظن حقاً وصدقاً وهو على التخييل قوله :

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البغضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة لأن الانسان لايعجبه أن يدركه الشيب فاذا هو أدركه كره أن يفارقه فتراه لذلك ينكره ويكرهه ، على أن ارادته أن يدوم له ، الا أنك اذا رجعت الى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة ، فأما كونه مراداً ومودوداً فمتخيل فيه وليس بالحق والصدق ، بل المودود الحياة والبقاء ، الا انه لما كانت العادة جارية بأن فى زوال رؤية الانسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها وكان العيش فيها محبباً الى النفوس صارت محبته لما لايبقى له (١) حتى يبقى الشيب كأنها محبة للشيب .

ومن ذلك صنيعهم اذا أرادوا تفضيل شيء أو نقصه ، أو مدحه أو ذمه ، فتعلقوا ببعض مايشاركه فى أوصاف ليست هى سبب الفضيلة والنقيصة ، وظواهر أمور لاتصحح ماقصدوه من التهجين والتزيين على الحقيقة ، كما تراه فى باب الشيب والشباب كقول البحترى :

وبياض البازى أصدق حسناً ان تأملت من سواد الغراب

وليس اذا كان البياض فى البازى آنق فى العين وأخلق بالحسن من السواد فى الغراب ، وجب لذلك أن لايذم الشيب ولا تنفر منه طباع ذوى الألباب ، لأنه ليس الذنب كله لتحول الصبغ وتبدل اللون ، ولا أتت الغوانى ما أتت من الصد والاعراض لمجرد البياض ، فانهن يرينه فى قباطى

(١) أى للحياة التى لاتبقى له الا اذا بقى الشيب (ش) .

مصر[١] فيأنسن ، وفى أنوار الروض وأوراق النرجس الغضّ فلا يعبسن ، فما أنكرن ابيضاض شعر الفتى لنفس اللون وذاته ، بل لذهاب بهجاته ، وادباره فى حياته ، وإنك لترى الصفرة الخالصة فى أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف وإقبال الشتاء وهبوب الشمال فتكرهها [٢] وتنفر منها ، وتراها بعينها فى إقبال الربيع فى الزهر المتفتق ، وفيما ينشئه ويَشيه [٣] من الديباج المونق ، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية ، وتمتلىء من الأريحية ، ذاك لأنك رأيت اللون حيث النماء والزيادة ، والحياة المستفادة ، وحيث أبشرتْ أرواح الرياحين وبَشرت أنواع التحاسين ، [٤] ورأيته فى الوقت الآخر حين ولّت السعود ، واقشر العود ، [٥] وذهبت البشاشة والبِشر ، وجاء العبوس والعسر ، — هذا ولو عدم البازى فضيلة أنه جارح وانه من عتيق الطير [٦] لم تجد لبياضه الحسن الذى تراه ، ولم يكن للمحتج به على من ينكر الشيب ويذمه ماتراه من الاستظهار ، كما أنه لو لا

(١) القباطى بالضم جمع قبطيه وهى ثياب من كتان تنسج بمصر نسبة الى القبط بالكسر على غير قياس كالدهرى والسهلى . وقد تكسر القاف على القياس ويخفف الجمع

(٢) فى نسخة الاستانة فتنكرها بدل فتكرهها

(٣) أى وفيما ينشئه الربيع أى يحدثه من الانشاء وهو إيجاد مافيه نمو وتجدد حقيقة أو صورة ، ولك أن تقول ينشيه بالياء لمناسبة يشيه وهو من الوشى أى مايزينه الربيع من الأزهار والنوار الذى يشبه الديباج

(٤) يقال أبشرت الارض اذا أخرجت بشرتها أى ماظهر من نباتها . وأما بشر الثلاثى فهو من بشرنى فلان أى لقينى وهو حسن البشر طلق الوجه. والتحاسين الاشياء الحسنة جمع تحسين اسم بنى على تفعيل يقال ماأبدع تحاسين الطاووس وتزايينه (ش)

(٥) اقشر العود أى تخشن وتغير لونه لعدم الرى

(٦) العتيق : القديم والكريم والخيار من كل شىء ولقب البازى

مايهدى اليك المسك من رياه التى تتطلع اليها الأرواح ، وتهش لها النفوس وترتاح ، لضعفت حجة المتعلق به فى تفضيل الشباب . وكما لم تكن العلة فى كراهة الشيب بياضه ولم يكن هو الذى غض عنه الابصار ، ومنحه العيب والانكار ، كذلك لم يحسن سواد الشعر فى العيون لكونه سواداً فقط ، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته ، وبهجته وطلاوته ، ورأيت بريقه وبصيصه يعدانك الاقبال ، ويريانك الاقتبال (١) ؛ ويحضرانك الثقة بالبقاء ، ويبعدان عنك الخوف من الفناء ، وإنك لترى الرجل وقد طعن فى السن وشعره لم يبيض ولكنه على ذاك قد عدم إبهاجه (٢) الذى كان ، وعاد لايزّين كما زان ، (٣) وظهر فيه من الكمود والجمود ما يريكه غير محمود .

وهكذا قوله :

والصارم المصقول أحسنُ حالة يوم الوغى من صارم لم يصقل

احتجاج على فضيلة الشيب وانه أحسن منظراً من جهة التعلق باللون وإشارة الى أن السواد كالصدإ على صفحة السيف . فكما أن السيف اذا صقل وجلى وأزيل عنه الصدأ ونقى كان أبهى وأحسن وأعجب الى الرائى وفى عينه أزين ، كذلك يجب أن يكون حكم الشعر فى انجلاء صدأ السواد عنه ، وظهور بياض الصقال فيه ، وقد ترك أن يفكر فيما عدا ذلك من المعانى التى يكره لها الشيب ، ويناط بها العيب ،

---

(١) الاقتبال استئناف الامر وتجدده . واقتبل الرجل : كاس بعد حماقة ، أى صار كيسا بعد أن كان أحمق . وأما الاقبال الذى ذكر قبله فالمراد به اقبال الارض ومجيئها بالنبات

(٢) أبهجت الارض : بهج نباتها أى حسن وراق منظره

(٣) أى لاتظهر فيه زينة كما زان نفسه ، أو زان أقرانه أوحبيباته بصحبتهم أوانتسابهن اليه « ش »

وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشيئين فى وصف علة الحكم يريدونه وان لم يكن فى المعقول ، ومقتضيات العقول . ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح كون ماجعله أصلا وعلة كما ادعاه فيما يبرم أو ينقض من قضية ، وأن يأتى على ما صيره قاعدة وأساسا ببينة عقلية ، بل تسلم مقدمته التى اعتمدها بينة ، كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه الا لونه ، وتناسينا سائر المعانى التى لها كره ومن أجلها عيب . وكذلك قول البحترى :

كلفتمونا حدود منطقكم   فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه[1]

أراد كلفتمونا أن تجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لا ندعى الا مايقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ويلجيء الى موجبه ﴿ مع أن الشعر يكفى فيه التخييل ، والذهاب بالنفس الى ماترتاح اليه من التعليل ﴾[2] ولا شك أنه الى هذا النحو قصد ، واياه عمد اذ يبعد أن يريد بالكذب اعطاء الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظا من التعظيم يجاوز به من الاكثار محله ، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية ، والقوانين العقلية ، وانما يكذب فيه القائل بالرجوع الى حال المذكور واختباره فيما وصف

(١) قال شيخنا فى الدرس ان فى البيت رواية أخرى * والشعر يكفى عن صدقه كذبه * والمصراع عليها جملة حالية والشعر مبتدأ خبره يكفى الخ وعلى الرواية الاولى « يكفى » جملة حالية و بعد البيت :

والشعر لمح تكفى اشارته   وليس بالهذر طولت خطبه

(٢) وجدت هاتين السجعتين بخط شيخنا فى حاشية نسخة الدرس وهما مما يحتاج اليه المقام ومن أسلوب المؤلف ، وليستا تفسيرا لشىء كسائر تعليقات « ش » فوضعتهما فى الاصل وإن لم يصرح شيخنا بأنهما منه وميزتهما بالوضع بين هلالين وعلقت عليهما هذا التنبيه

به ، والكشف عن قدره وخسته ، ورفعته أوضعته ، ومعرفة محله ومرتبته ،

وكذلك قول من قال : « خير الشعر أكذبه » فهذا مراده لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلا ونقصاً وانحطاطا وارتفاعاً بأن ينحل الوضيع من الرفعة ما هو منه عار ، أو يصف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخّله الشعر وبخيل سخاه ؛ وشجاع وسمه بالجبن وجبان ساوى به الليث ، وذى ضعة أوطأه قمة العيوق [1] وغبي قضى له بالفهم . وطائش ادعى له طبيعة الحكم ، ثم لم يعتبر ذلك فى الشعر نفسه حيث تنتقد دنانيره ، وتنشر ديابيجه ، ويفتق [2] مسكه فيضوع أريجه .

وأما من قال فى معارضة هذا القول «خير الشعر أصدقه» كما قال :

وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبح والحسن فى الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد ينحى بها نحو الصدق فى مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل الا بما فيه .

والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان فى اختيار نوعى الشعر . فمن قال «خيره أصدقه» كان ترك الاغراق والمبالغة والتجوز الى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجرى من العقل على أصل صحيح ، أحب اليه وآثر عنده ، اذ كان ثمره أحلى ، واثره أبقى ، وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر ، ومن قال « أكذبه » ذهب الى أن الصنعة انما يمد باعها

(١) العيوق : نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الايمن يتلو الثريا لا يتقدمها وقمة الشيء بالكسر أعلاه

(٢) فتق المسك : أدخل عليه شيئا يستخرج به رائحته

وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والاغراق فى المدح والذم والوصف والبث والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلا الى أن يبدع ويزيد ، ويبدىء فى اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مضطربا كيف شاء واسعاً ، ومدداً من المعانى متتابعاً ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهى :

وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصور المدانى قيدُه (١) ، والذى لا تتسع كيف شاء يده وأيده (٢) ثم هو فى الأكثر يورد على السامعين معانى معروفة ، وصوراً مشهورة ، ويتصرف فى أصول هى وان كانت شريفة فانها كالجواهر تحفظ أعدادها ، ولا يرجى ازديادها ، وكالأعيان الجامدة التى لا تنمى (٣) ولا تزيد ، ولا تربح ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم ، والشجرة الرائعة لا تمتع بجنى كريم .

هذا ونحوه يمكن أن يتعلق به فى نصرة التخييل وتفضيله ، والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره ، والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم وإن قضىَ له ، والحق مفلج وإن قضى عليه (٣) هذا ومن سلم أن المعانى المعرقة فى الصدق ، المستخرجة من معدن الحق ، فى حكم الجامد الذى

---

(١) دانى القيد مداناة : ضيقه

(٢) الايد : القوة

(١) نمى ينمى – كرمى يرمى أفصح من نما ينمو الواوى ومعناهما واحد . المفلج : «اسم فاعل» الفائز الظافر ، يقال فلج «كنصر وضرب» وأفلج لازم ويتعدى بعلى فيقال فلج وأفلج على خصمه : أى استظهر وانتصر

لاينمى ، والمحصور الذى لايزيد ؟ وان أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر الى قول أبى فراس :

وكنا كالسهام اذاأصابت مراميها فراميها أصابا

ألست تراه عقلياً عريقاً فى نسبه ، معترفاً بقوةسببه ، وهو على ذلكمن فوائدأبىفراس التى هو أبو عذرها ، والسابق الى اثارة سرها (١) .

واعلم أن الاستعارة لا تدخل فى قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد الى اثبات معنى اللفظة المستعارة وانما يعمد الى اثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره . وكيف يعرض الشك فى أن لا مدخل للاستعارة فى هذا الفن وهى كثيرة فى التنزيل على مالا يخفى كقوله عز وجل : « واشتعل الرأس شيبا » ثم لاشبهة فى أن ليس المعنى على اثبات الاشتعال ظاهراً وانما المراد اثبات شبهه . وكذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مرآة المؤمن » ليس على اثبات المرآة من حيث الجسم الصقيل ، : لكن من حيث الشبه المعقول ، وهو كونها سببا للعلم بما لولاها لم يعلم ، لان ذلك العلم طريقة الرؤية ، ولا سبيل الى أن يرى الانسان وجهه الا بالمرآة وما جرى مجراها من الاجسام الصقيلة فقد جمع بين المؤمن والمرآة فى صفة معقولة ، وهى أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه . وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : « اياكم وخضراء الدمن » معلوم ان ليس القصد

«١» يقال «هو أبوعذرهذا الكلام» أى هو أول من اقتضبه واخترعه و يقال «ما أنت بذى عذر هذا الكلام » أى لست بأول من اقتضبه . والعذر هنا بالضم مخفف من العذرة وهى البكارة بحذف التاء لجريه مثلا

إثبات معنى ظاهر اللفظين ، ولكن الشبه الحاصل من مجموعهما وذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل

واذا كان هذا كذلك بان منه أيضاً أن لك مع لزوم الصدق والثبوت على محض الحق الميدان الفسيح ، والمجال الواسع ، وأن ليس الأمر على ماظنه ناصر الاغراق والتخييل الخارج على أن يكون الخبر على خلاف المخبر من انه إنما يتسع المقال ويفتن ، وتكثر موارد الصنعة ويغزر ينبوعها ، وتكثر أغصانها وتتشعب فروعها ، اذا بسط من عنان الدعوى فادعى مالا يصح دعواه ، وأثبت ماينفيه العقل ويأباه :

وجملة الحديث الذى أريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلا ، ويدعي دعوى لا طريق الى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى . أما الاستعارة فان سبيلها سبيل الكلام المحذوف فى أنك اذا رجعت الى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً ويدعي دعوى لها شبح فى العقل . وستمر بك ضروب من التخييل هى أظهر أمراً فى البعد عن الحقيقة تكشف وجهه فى أنه خداع للعقل وضرب من التزويق ، فتزداد استبانة الغرض بهذا الفصل ، وأزيدك حينئذ ان شاء الله كلاما فى الفرق بين مايدخل فى خيز قولهم : خير الشعر أكذبه . وبين مالا يدخل فيه مما يشاركه فى أنه اتساع وتجوز فاعرفه (١)

وكيف دار الأمر فانهم لم يقولوا : خير الشعر أكذبه وهم يريدون كلاما غفلا ساذجا يكذب فيه صاحبه ويفرط نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ، ويقول للبائس المسكين ، : انك أمير العراقين ، ولكن ما فيه

(١) ان المصنف قد بسط هذه المسئله فى كتاب دلائل الاعجاز

صنعة يتعمل لها ، وتدقيق فى المعانى يحتاج معه الى فطنة لطيفة ، وفهم ثاقب ، وغوص شديد ، والله الموفق للصواب

وأعود الى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيق وغير الحقيق .

واعلم أن ما شأنه التخييل أمره فى عظم شجرته اذ تؤمل نسبه ، وعرفت شعوبه وشعبه ، — على ما أشرت اليه قبيل — لا يكاد تجىء فيه قسمة تستوعبه ، وتفصيل يستغرقه ، وإنما الطريق فيه أن يتتبع الشىء بعد الشىء ويجمع مايحصره الاستقراء . فالذى بدأت به من دعوى أصل وعلة فى حكم من الأحكام هما كذلك ماتركت المضايقة ؛ وأخذ بالمسامحة ، ونظر الى الظاهر ، ولم ينقر عن السرائر ، وهو النمط العدل والنمرقة الوسطى ، وهو شىء تراه كثيراً بالآداب والحكم البريئة من الكذب . ومن الأمثلة فيه قول أبى تمام :

ان ريب الزمان يحسن أن يهـ ـدى الرزايا الى ذوى الأحساب

فلهـذا يجف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابى

وكذا قوله يذكر الممدوح قد زاده مع بعده عنه وغيبته فى العطايا على الحاضرين عنده اللازمين خدمته :

لزموا مركز النـدى وذراه وعدتنا عن مثل ذاك العوادى

غير أن الربى الى سبل الانو اء أدنى والحظ حظ الوهاد

لم يقصد من الربى الى العلو ولكن الى الدنو فقط ، وكذلك لم يرد بذكر الوهاد الضعة والتسفل والهبوط كما أشار اليه فى قوله * والسيل حرب للمكان العالى * وإنما أراد أن الوهاد ليس لها قرب الربى من فيض الأنواء

ثم انها تتجاوز الربى التى هى دانية قريبة اليها الى الوهاد التى ليس لها ذلك القرب .

ومن هذا النمط فى أنه تخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره وان ماتعلق به من العلة موجود على ظاهر ماادعى قوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ان السماء تُرَجَّى حين تحتجب

فاستتار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذى يعد فى مجرى العادة جوداً منها ، ونعمة صادرة عنها ، كما قال ابن المعتز :

ماترى نعمة السماء على الار ض وشكر الرياض للأمطار

وهـذا نوع آخر وهو دعواهم فى الوصف هو خلقة فى الشىء وطبيعة أو واجب على الجملة من حيث هو أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه استفاده . وأصل هـذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هـذا الحد ولهم فيه عبارات منها قولهم : ان الشمس تستعير منه النور وتستفيده ، أو تتعلم منه الاشراق وتكتسب منه الاضاءة . وألطف ذلك أن يقال : تسرق وان نورها مسروق من الممدوح . وكذلك يقال المسك يسرق من عرفه ، وان طيبه مسترق منه ومن أخلاقه . قال ابن بابك :

ألا يارياض الحزن من أبرق الحمى نسيمك مسروق ووصفك منتحل

حكيت أبا سعد فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الملل

(ونوع آخر) وهو أن يدعى فى الصفة الثابتة للشىء انه انما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع الى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور فمن الغريب في ذلك معنى بيت فارسى ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس مامضى أعنى ماأصله التشبيه ثم أريد التناهى فى المبالغة

والاغراق والاغراب . ويدخل فى هذا الفن قول المتنبي :

لم يحك نائلك السحاب وانما　　حُمَّت به فصبيبها الرحضاء

لأنه وان كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فانه وضع المعنى وضعاً وصوره فى صورة خرج معها الى مالا أصل له فى التشبيه فهو كالواقع بين الضربين . وقريب منه فى أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعة فى تشبيهه وخلع عنه صورته خلعا قوله :

وما ريح الرياض لها ولكن　　كساها دفنهم فى الترب طيبا

ومن لطيف هذا النوع قول أبى العباس الضبي :

لاتركنن الى الفرا　　ق وان سكنت الى العناق[١]

فالشمس عند غروبها　　تصفر من فرق الفراق

ادعى لتعظيم الفراق أن مايرى من الصفرة فى الشمس حين يرق نورها بدنوها من الارض [٢] انما هو لأنها تفارق الأفق الذى كانت فيه أو الناس الذين طلعت عليهم ، وأنست بهم وأنسوا بها وسرتهم رؤيتها .

(ونوع آخر) منه قول الآخر :

قضيب الكرم تقطعه فتبكى　　ولا تبكى وقد قطع الحبيب [٣]

وهو منسوب الى إنشاد الشبلى [٤] ويقال أيضا ان أبا العباس أخذ معناه فى بيته من قول بعض الصوفية ، وقيل له لم تصفر الشمس عند الغروب

---

(١) أحفظ الشطر الثانى هكذا : « فانه مر المذاق » .

(٢) أى بحسب النظر والكلام كله تخييل لاحقيقة .

(٣) اذا قطع القضيب من الكرم يظل الماء ينقط من حيث قطع وهو ماعبر عنه ببكاء شجرة الكرم ولعله فيبكى أى القضيب .

(٤) الشبلى هو أبو بكر دلف ابن جحدر من أئمة الصوفية وتلميذ الجنيد مات سنة ٣٣٤ .

فقال من حذر الفراق .

ومن لطيف هذا الجنس قول الصولى :

الريح تحسدنى عليـ ـك ولم أخلها فى العدا
لما هممت بقبلة ردت على الوجه الردا

وذلك أن الريح اذا كان وجهها نحو الوجه فواجب فى طباعها أن ترد الرداء عليه ، وأن تلفّ من طرفيه ، وقد ادعى أن ذلك منها لحسدها وغَيرة لمحبوبه . وهى من أجل مافى نفسها ، تحول بينه وبين أن ينال من وجهها ، وفى هذه الطريقة قوله :

وحاربنى فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق

الا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص على شىء بل أثبت محاربة من الزمان فى معنى الحبيب ثم جعل دليلا عليها جواز أن يكون شريكاً فى عشقه . واذا حققنا لم يجب لأجل أن جعل العشق علة للمحاربة وجمع بين الزمان والريح فى ادعاء العداوة لهما أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص والتفصيل وذاك أن الكلام فى وضع الشاعر للأمر الواجب علة غير معقول كونها علةً لذلك الأمر . وكون العشق علة للمعاداة فى المحبوب معقول معروف غير بدع ولا منكر . فاذا بدأ فادعى أن الزمان يعاديه ويحاربه فيه فقد أعطاك أن ذلك لمثل هذه العلة . وليس اذا ردت الريح الرداء فقد وجب أن يكون ذلك لعلة الحسد أو لغيرها لأن رد الرداء شأنها فاعرفه ، فان من حكم المحصل أن لاينظر فى تلاقى المعانى وتناظرها الى جمل الأمور ، والى الاطلاق والعموم ، بل ينبغى أن يدقق النظر فى ذلك ويراعى التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل . فأنت فى نحو بيت ابن وهيب

— وحاربنى الخ — تدعى صفة غير ثابتة اذا هى ثبتت اقتضت مثل العلة التى ذكرها. وفى نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدعى لها علة من عند نفسك وضعاً واختراعا . وهكذا قول المتنبى :

ملامى النوى فى ظلمها غاية الظلم   لعل بها مثل الذى بى من السقم
فلو لم تغر لم تزو عنى لقاكم   ولولم تردكم لم تكن فيكم خصمى

الدعوى فى اثبات الخصومة وجعل النوى كالشىء الذى يعقل ويميز ويريد ويختار، وحديث الغيرة والمشاركة فى هوى الحبيب يثبت بثبوت ذلك من غير أن يفتقر منك الى وضع واختراع .

ومما يلحق بالفن الذى بدأت به قوله :

بنفسى مايشكوه من راح طرفه   ونرجسه مما دها حسنه ورد(١)
أراقت دمى عمداً محاسن وجهه   فأضحى وفى عينيه آثاره تبدو

لأنه قد أتى بحمرة العين وهى تعرض لها من حيث هى عين معلة ، وأتى باراقة الدم فى صورة العلة ، وهو يعلم أنها مخترعة موضوعة فليس ثم إراقة دم . وأصل هذا قول ابن المعتز :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم   من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت   والدم فى النصل شاهد عجب(٢)

---

(١) الواو فى (ونرجسه) للحال يريد الذى صار نرجس طرفه كالورد من الرمد
(٢) أحفظ للصراع الثانى من البيت الأول * من كثرة الفتك نالها وصب * وكلمة (الفتك) أطرف وأبلغ من كلمة القتل ـ ومن البيت الثانى بابدال كلمة السيف بكلمة النصل . وفى معناها :

قالوا الحبيب شكا جعلت فداءه   رمدا أضر بعينه كالعندم
فأجبتهم مازال يفتك لحظه   فى مهجتى حتى تلطخ بالدم

وبين هـذا الجنس وبين نحو « الريح تحسدنى » فرق وذلك أن لك هناك فعـلا هو ثابت واجب فى الريح وهو رد الرداء على الوجـه ثم أحببت أن تتطرف فادعيت لذلك الفعل عـلة من عند نفسك . وأما ههنا فنظرت الى صفة موجودة فتأولت فيها انهـا صارت الى العين من غيرها وليست هى من شأنها أن تـكون فى العين ، فليس معك هنا الا معنى واحد . وأما هناك فعندك معنيان أحدهما موجود معلوم ، والآخر مدعى موهوم ، فاعرفه .

ومما يشبه هذا الفن الذى هو تأول فى الصفة فقط من غير أن يكون معلول وعلة ماتراه من تأولهم فى الأمراض والحميات انها ليست بأمراض ولـكنها فطن ثاقبة وأذهان متوقدة وعزمات كقوله :

وحوشيت أن تضرَى بجسمك علة ألا انهـا تلك العزوم الثواقب

وقال ابن بابك :

فترت وما وجدت أبا العلاء سوى فرط التوقد والذكاء

ولـكشاجم بقوله فى على بن سليمان الأخفش :

ولقـد أخطأ قوم زعمـوا انها من فضل برد فى العصب
هو ذاك الذهن أذكى ناره والمـزاجُ المفرط الحر التهب

ولا يكون قول المتنبى :

ومنازل الحمى الجسوم فقل لنـا ماعذرها فى تركها خيراتهـا
أعجبتها شرفاً فطال وقوفها لتأمل الأعضاء لا لأذاتهـا

قال صاحب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار : وقد قلت أحسن من هذا وهو :
لاتنـكروا الحمرة فى طرف من يسفك بالطرف دماء البشر
وانما الانـكار من أنفس أرضية سالت بعين القمر

من هـذا فى شىء بأكثر من أن كلا القولين فى ذكر الحمى وفى تطييب النفس عنها . فهو اشتراك فى العرض والجنس فأما فى عمود المعنى وصورته الخاصـة فـلا ، لان المتنبى لم ينـكر أن مايجـده الممدوح حمى كما أنـكره الآخر ولـكنه كأنه سأل نفسه كيف اجترأت الحمى على الممدوح مع جلالتـه وهيبته ؟ أم كيف جاز أن يقصد شىء الى أذاه مع كرمه ونبـله ؟ وأن المحبة من النفوس مقصورة عليـه ؟ فتمحل لذلك جواباً ، ووضع للحمى فيما فعلته من الأذى عذراً ، وهو تصريح مااقتصر فيـه على التعجب فى قوله :

أيدرى ماأرابك من يريب وهل ترقى الى الفلك الخطوب (١)

وجسمك فوق همـة كل داء فقرب أقلها منـــه عجيب

الا أن ذلك الايهام ، أحسن من هذا البيان ، وذلك التعجب موقوفا غير مجاب، أولى بالاعجاب ، وليس كل زيادة تفلح ، وكل استقصاء يملح .

ومن واضح هذا النوع وجيده قول ابن المعتز :

صـدتْ سرير وأزمعت هجرى وصغت ضمائرها الى الغدر (٢)

قالت كبرت وشبت قلت لهـا هـــذا غبار وقائع الدهر

ألا تراه أنـكر أن يكون الذى بدأ به شيباً ، ورأى الاعتصام بالجحد أخصر طريقاً الى نفى العيب وقطع الخصومة ، ولم يسلك الطريقـة العاميـة فيثبت المشيب ، ثم يمنع العائب أن يعيب ، ويريه الخطأ فى عيبه به ، ويلزمه المناقضة فى مذهبه ، كنحو مامضى أعنى كقول البحترى : « وبياض البازى » وهكذا

---

(١) قاله المتنبى فى دمل أصيب به سيف الدولة . وأرابه الشىء أحدث به مايوجب القلق والريبة فى العاقبـة والذى ارابه الدمل . « ومن يريب » استفهام وضمير يريب يعود الى ماأرابك .

(٢) فى نسخ الديوان التى بأيدينا « شرير » بالمعجمة .

اذا تأولوا فى الشيب انه ليس بابيضاض الشعر الكائن فى مجرى العادة وموضوع الخلقة ، ولكنه نور العقل والأدب قد انتشر ، وبان من وجهه وظهر ، كقول الطائى الكبير :

ولا يروعك إيماض القتير به   فان ذاك ابتسام الرأى والأدب (١)

وينبغى أن باب التشبيهات قد حظىَ من هذه الطريقة بضرب من السحر لاتأتى الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنه مانااله من اللطف والظرف ، فانه قد بلغ حداً يرُدّ المعروف فى طباع الغزل ، ويلهى الثكلان ، وينفث فى عُقَد الوحشة ، وينشد ماضل عنك من المسرة ويشهد للشعر بما يطيل لسانه فى الفخر ، ويبين جملة ماللبيان من القدرة والقدر ، فن ذلك قول ابن الرومى :

خجلت خدود الورد من تفضيله   خجلا توردها عليه شاهد
لم يُخجل الورد المورد لونه   الا وناحله الفضيلة عاند (٢)
للنرجس الفضل المبين وان أبى   آب وحاد عن الطريقة حائد
فصل القضية ان هذا قائد   زهر الرياض وان هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعِد   بِتسلُّب الدنيا وهذا واعد (٣)
ينهى النديم عن القبيح بلحظه   وعلى المدامة والسماع مساعد

(١) القتير: الشيب وقيل أول مايظهر منه.

(٢) عاند من عند (كنصر وضرب) اذا مال عن الطريق أوخالف الحق وأنكره .

(٣) يقال تسلبت المرأة اذا لبست السلاب وهى بالكسر ثياب الحداد السود والبيت بمعنى ماقبله والمراد أن النرجس المفضل عنده يظهر فى أول الربيع فتتلوه الأزهار والرياحين والورد المفضول يظهر فى آخر الربيع فيتوعد الرياحين بسلب بهجتها حيث يذهب فى أثره زهر الرياض فالنرجس كالقائد والورد كالطارد . وابن الرومى مشهور بذم الورد وتفضيل النرجس .

اطلب بعقلك فى الملاح سميه أبداً فانك لامحالة واجد
والورد ان فكرت فرد فى اسمه مافى الملاح له سمىٌّ واحد
هذى النجوم هى التى ربتهما بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر الى الأخوين من أدناهما شبهاً بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسة ورياسة لولا القياس الفاسد

وترتيب الصنعة فى القطعة انه عمل أولا على قلب طرفى التشبيه كما مضى فى فصل التشبيهات ، فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد انه خجل على الحقيقة ، ثم لما اطمأن ذلك فى قلبه واستحكمت صورته ، طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فضل على النرجس ووضع فى منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها ، فصار يشوب (١) من ذلك ويتخوف عيب العائب وغميزة المستهزىء ، ويجد مايجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ، ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قصد بها . ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المثمر فى سحر البيان ، ما رأيت من وضع حجاج فى شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لاتكاد تجد مثله الا له .

ومما هو خليق أن يوضع فى منزلة هذه القطعة ، ويلحق بها فى لطف الصنعة ، قول أبى هلال العسكرى .

زعم البنفسج أنه كعذاره حسناً فَسَلُّوا من قفاه لسانه
لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به فلشد مارفع البنفسج شانه (٢)

وقد اتفق للمتأخرين من المحدثين فى هذا الفن نكت ولطف وبدع وظرائف لا يستكثر لها الكثير من الثناء ، ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة

(١) يشوب : يرجع الى نفسه .
(٢) مثل به من باب نصر : أى نكل به.

الاطراء ، فمن ذلك قول ابن نباتة في صفة الفرس :

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشيا ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا

وأحسن من هذا وأحكم صنعة قوله في قطعة أخرى:

فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه وخاض في أحشائه

وأول القطعة (١)

قد جاءنا الطرف الذي أهديته هاديه يعقد أرضه بسمائه(٢)
أولاية وليتنا فبعثته رمحا بسيب العرف عقد لوائه(٣)
نختال منه على أغر محجل ماء الدياجي قطرة من مائه(٤)
فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه وخاض في أحشائه
متمهلا والبرق من أسمائه متبرقعا والحسن من أكفائه
ما كانت النيران تكمن حرها لو كان للنيران بعض ذكائه

---

(١) القطعتان في فرس أدهم أغر محجل حمله عليه سيف الدولة جعل غرته أثر لطمة من الصباح على جبينه وتحجيله من خوض قوائمه الاربع في أحشاء الصباح . وقد ترك المصنف البيت الاول وهو :

يا أيها الملك الذي أخلاقه من خلقه ورواؤه من رائه

أي أخلاقه مخلوقة له ورواؤه ومنظره من رأيه . و بعبارة اخرى هو في خلقه وخلقه كأنه كون نفسه وخلقها كما يرى و يحب من الكمال

(٢) الطرف بالكسر الكريم من الخيل والكريم الاطراف من الآباء والامهات . والهادي العنق يغلو في وصفه بالطول

(٤) العرف بالضم: شعر رقبة الفرس الذي ينبت في محدبها والسبيب الخصلة من الشعر شبهه على عنقه الطويل بالراية على الرمح

(٤) في نسختي الكتاب (نختل) وفي نسخة من الديوان (نختال) وهي اظهر .

لا تعلق الألحاظ في أعطافه إلا اذا كفكفت من غُلوائه
لايكمل الطرف المحاسن كلها حتى يكون الطرف من أسرائه(١)

ومما له في هذا التفضيل الفضل الظاهر لحسن الايداع مع السلامة من التكلف قوله :

وماذا على الرضراض يجرى (٢)
كأن بها من شده الجرى جنة وقد ألبستهن الرياح سلاسلا

وانما ساعده التوفيق ، من حيث وُطىء له من قبل الطريق ، فسبق العرف بتشبيه الحبك على صفحات الغدران بحلق الدروع فتدرج من ذلك الى أن جعلها سلاسل كما فعل ابن المعتز في قوله :

وانهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر

ثم أتم الحذق بأن جعل للماء صفة تقتضي أن يسلسل وقرّب مأخذ ماحاول عليه فان شدة الحركة وفرط سرعتها من صفات الجنون كما أن التمهل فيها والتأني من أوصاف العقل

---

(١) كنت في الطبعة الاولى ضبطت «الطرف» الاول من البيت بالكسر والثاني بالفتح بمعنى أن الجواد الكريم لاتكمل محاسنه حتى يأسر طرف الناظر اليه . فلايستطيع أن يتحول عنه ، وقد عكس شيخنا الضبط في نسخة الدرس فضبط الاول بالفتح والثاني بالكسر ولم يظهر لي جعل الجواد : أسيراً للطرف كعكسه فتأمله

(٢) هكذا وجدنا البيت في النسختين محرفا ناقصا وقد أتمه شيخنا في الدرس بقوله :

وماء على الرضراض يجرى كأنه أفاع عراها الذعر تطلب موئلا

وكتب بازائه في حاشية نسخته : أتممت البيت على هذا الوجه ويغلب على ظني أن التتمة في معنى مايريد الشاعر وعلى من وقف على البيت كاملا أن يفيدنا بما وجد . والرضراض مادق من الحصى قال :

يبدو له الداء الخفي كما بدا للعين رضراض الغدير الصافي

ومن هذا الجنس قول ابن المعتز فى السيف فى أبيات قالها فى الموفق وهى:

وفارس أغمد فى جُنة يقطع السيف اذا ماورد(١)
كأنه ماء عليه جرى حتى اذا ماغاب فيه جمد
فى كفه عضب اذا هزه حسبته من خوفه يرتعد

فقد أراد أن يخترع لهزة السيف علة فجعلها رعدة تناله من خوف الممدوح وهيبته ويشبه أن يكون ابن بابك نظر الى هذا البيت وعلق منه الرعدة فى قوله :

فان عجمتنى نيوب الخطوب وأوهى الزمان قوى مُنتى(٢)
فما اضطرب السيف من خيفة ولا أُرعِد الرمح من قِرة(٣)

الا أنه ذهب بها فى أسلوب آخر وقصد الى أن يقول : ان كون حركات الرمح فى ظاهر حركة المرتعد لا يوجب أن يكون ذلك من ألم عارض وكأنه عكس القضية فأبى أن تكون صفة المرتعد فى الرمح للعلل التى لمثلها تكون فى الحيوان وأما ابن المعتز فحقق كونها فى السيف على حقيقة العلة التى لها تكون فى الحيوان فاعرفه وقد أعاد هذا لارتعاد على الجملة التى وصفت لك فقال :

---

(١) الجنة بالضم: كل ماوقى من سلاح . يصف فارسا اشتمل عليه الحديد وعمته الدروع فاذا ورد عليه السيف قطعه فلا ينفذ فيه «ش» وجعله لفظ الجنة خاصا بالسلاح يريد به الحقيقة وقد استعمل فى غيرها مجازا

(٢) عجمه (كنصر) عضه ليختبر صلابته والنيوب جمع ناب والمنة كالقوة وزنا ومعنى وكذا الضعف فهى من الأضداد وكأنه أراد ضروب القوة وأنواعها وأصل القوة الطاقة الواحدة من الحبل وجمعها قوى على القياس قال شيخنا هنا كأن القوة حبل ذو طاقات وقوى . وكان المناسب لفظا أن يقول كأن المنة الخ .

(٣) القرة بالكسر مايأخذ المرء من البرد وأرعد بضم الهمزة وارتعد أصابته الرعدة وهى بالفتح والكسر للهيئة الرجفة والاضطراب

قالوا طواه حزنه فانحنى فقلت والشك عدو اليقين
ماهيف النرجس من صبوة[١] ولا الضنى فى صفرة الياسمين
ولا ارتعاد السيف من قرة ولا انعطاف الرمح من فرطلين

ومما حقه أن يكون طرازاً فى هذا النوع قول البحترى :

يتعثرن فى النحور وفى الأو جه سكراً لما شربن الدماء[٢]

جعل فعل الطاعن بالرماح تعثراً منها كما جعل ابن المعتز تحريكه للسيف وهزه له ارتعاداً ثم طلب للتعثر علة كما طلب هو للارتعاد فاعرفه

ومن هذا الباب قول علية :

وكأن السماء صاهرت الأر ض فصار النثار[٣] من كافور

وقول أبى تمام :

كأن السحاب الغر غيبن تحتها حبيبا فما ترقى لهن مدامع

وقال السرى يصف الهلال :

جاءك شهر السرور شوال وغال شهر الصيام مغتال

ثم قال :

كأنه قيد فضة حرج فض عن الصائمين فاختالوا

كل واحد من هؤلاء خدع نفسه عن التشبيه وغالطها وأوهم أن الذى جرى العرف بأن يؤخذ منه الشبه قد حضر وحصل بحضرتهم على الحقيقة

---

(١) هيف : كيبس . وهاف كخاف هيفا بالفتح و بالتحريك : ضمر بطنه ورقت خاصرته فهو أهيف وهى هيفاء

(٢) قوله لما شربن الخ فيه وجهان كسر اللام وتخفيف الميم على ان ما مصدرية والمعنى لشربهن الدماء ـ وفتح اللام وتشديد الميم على أن لما حينية . قاله «ش»

(٣) المراد بالنثار هنا الثلج كما قال «ش»

ولم يقتصر على دعوى حصوله حتى يصيب له علة وأقام عليه شاهداً . فأثبت علبة زفافا بين السماء والأرض ، وجعل أبو تمام للسحاب حبيبا قد غيب فى التراب . وادعى السرى أن الصائمين كانوا فى قيدوانه كان حرجاً فلما فض عنهم انكسر بنصفين أو اتسع فصار على شكل الهلال . والفرق بين بيت السرى وبيتى الطائيين أن تشبيه الثلج بالكافور معتاد عامى جار على الألسن وجعل القطر الذى ينزل من السحاب دموعا ووصف السحاب والسماء بأنها تبكي كذلك ، فأما تشبيه الهلال بالقيد فغير معتاد نفسه الا أن نظيره معتاد ومعناه من حيث الصورة موجود . وأعنى بالنظير ما مضى من تشبيه الهلال بالسوار المنفصم كما قال :

حا كيا نصف سوار من نضار يتوقد

وكما قال السرى نفسه :

ولاح لنا الهلال كشطر طوق على لبات زرقاء اللباس

الا أنه ساذج لا تعليل فيه يجب من أجله أن يكون سواراً أوطوقا فاعرفه

ورأيت بعضهم ذكر بيت السرى الذى هو: « كأنه قيد فضة حرج » مع أبيات شعر جمعه اليها وأنشد قطعة ابن الحجاج :

يا صاحب البيت الذى قد مات فيه الضيف جوعا
مالى أرى فلك الرغيف لديك مشترفا رفيعا[1]
كالبدر لا نرجو الى وقت المساء له طلوعا

---

(١) الفلك من كل شىء مستداره ومعظمه فقد يطلق بجانب الرغيف بلا تشبيه والمشترف فاعل من اشترف اذا انتصب ، والفرس كان مشرف الخلق «ش» ولكن الشاعر قصد التشبيه وهو محل الشاهد

قال إنه شبه الرغيف بالبدر لعلتين احداها الاستدارة والثانى طلوعه مساء قال : وخير التشبيه ماجمع معنيين كقول ابن الرومى :

باشبيه البدر فى الحسـ ن وفى بعـد المنال
جُد فقد تنفجر الصـ خرة بالمـاء الزلال

وأنشد أيضاً لابراهيم بن المهدى :

ورحمت أفراخا كافراخ القطا وحنين والهة كقوس النازع

ثم قال : ومثله قول السرى *كأنه قيـد فضة حرج* وهو لايشـبه ما ذكره إلا أن يذهب الى حديث أنه أفاد شكل الهلال بالقيـد المفضوض ولونه بالفضـة، فأما ان قصـد النـكتة التى هى موضع الاغراب فلا يستقيم الجمع بينه وبين ماأنشد لأن شـيئا من تلك الأبيات لا يتضمن تعليلا ، وليس فيها أكثر من ضم شبه الي شـبه كالحنين والانحناء من القوس ، والاسـتدارة والطلوع مساء من البدر ، وليس أحد المعنيين بعلة للآخر ، كيف ولاحاجة بواحد من الشبهين المذكورين الى تصحيح غيره له

ومما هو نظير لبيت السرى وعلى طريقه قول ابن المعتز :

سقانى وقد سُلّ سيف الصبا ح والليل من خوفه قـد هرب

لم يقنع ههنا بالتشبيه الظاهر والقول المرسل كما اقتصر فى قوله :

حتى بدا الصباح من نقاب كما بدا المنصل من قراب

وقوله :

أما الظلام فحين رق قميصـه وأتى بياض الصبح كالسيف الصدى

ولـكنه أحب أن يحقق دعواه أن هناك سـيفا مسلولا ، ويجعل نفسه كأنها لاتعـلم أن ههنا تشبيها ، وأن القصـد الى لون البياض فى الشـكل المستطيل

فتوصل الى ذلك بأن جعل الظلام كالعدو المنهزم الذى سل السيف فى قفاه فهو يهرب مخافة أن يضرب به

ومثل هذا فى أن جعل الليل يخاف الصبح لا فى الصنعة التى أنا فى سياقها قوله:

سبقنا اليها الصبح وهو مقنع كمين وقلب الليل منه على حذر

وقد أخذ الخالدى بيته الأول أخذا فقال :

والصبح قد جردت صوارمه والليل قد هم منه بالهرب

وهذه قطعة لابن المعتز بيت منها هو المقصود :

وانظر الى دنيا ربيع أقبلت مثل البغى تتوجت لزناة
جاءتك زائرة كعام أول وتلبست وتعطرت بنبات
واذا تعرّى الصبح من كافوره نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس قذيت وآذن حيها بمات [1]

هذا البيت الأخير هو المراد ، وذلك أن الضحك فى الورد وكل ريحان ونور يتفتح مشهور معروف ، وقد قاله فى هذا البيت وجعل الورد كأنه يعقل ويميز فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدته ، وإدبار دولته ، وبدو أمارات الفناء فيه ، وأعاد هذا الضحك من الورد فقال :

ضحك الورد فى قفا المنثور واسترحنا من رِعدة المقرور [2]

أراد إقبال الصيف وحر الهواء ألا تراه قال بعده :

---

(١) قذيت: دخل فيها القذى شبه النرجس أدركه الجفاف والتصوح بالعيون يصيبها القذى

(٢) الرعدة بالكسر : النافض أى الاضطراب من نحو برد وخوف والمقرور من أصابه القر «البرد» على غير قياس

واستطبنا المقيل فى برد ظل وشممنا الريحان بالكافور (١)

فالرحيل الرحيل ياعسكر اللذات عن كل روضة وغدير

فهذا من شأن الورد الذى عابه به ابن الرومى فى قوله :

فصل القضية ان هذا قائد زهر الرياض وان هذا طارد

وقد جعله ابن المعتز لهذا الطرد ضاحكا ضحك من استولى وظفر ، وابتز غيره ولاية الزمان واستبد بها

ومما يشوب الضحك فيه شيء من التعليل قوله أيضاً :

مات الهوى منى وضاع شبابى وقضيت من لذاته آرابى

واذا أردت تصابيا فى مجلس فالشيب يضحك بى مع الأحباب

لاشك أن لهذا الضحك زيادة معنى على الضحك فى نحو قول دعبل :

* ضحك المشيب برأسه فبكى * وما تلك الزيادة إلا أنه جعل المشيب يضحك ضحك المتعجب من تعاطى الرجل مالا يليق به ، وتكلفه الشيء ليس هو من أهله ، وفى ذلك ما ذكرت من إخفاء صورة التشبيه ، وأخذ النفس بتناسيه ، وهكذا قوله :

لما رأونا فى خميس يلتهب فى شارق يضحك من غير عجب (٢)

كأنه صب على الأرض ذهب وقد بدت أسيافنا فى القرب

حتى تكون لنايام سبب ترفل فى الحديد والأرض تجب (٣)

«١» أراد أنه استبدل الورق الاخضر بالزهر الابيض لان وقت الزهر قد انقضى، فالباء فى الكافور للبدل «ش»

«٢» الشارق: الشمس والجانب الشرقى من الجبل وغيره وهو خلاف الغارب

«٣» تجب وجبا تخفق

وحن شريان ونبع فاصطخب   ترسوا من القتال بالهرب (١)

المقصودقوله « يضحك من غير عجب »وذاك أن نفيه العلة إشارةالى أنه من جنس مايملل ، وانه ضحك قطعاً وحقيقة . ألا ترى أنك لو رجعت الى صريح التشبيه فقلت : هيئته فى تلألؤه كهيئة الضاحك ثم قلت : من غير عجب — قلت قولا غير مقبول . واعلم أنك ان عددت قول بعض العرب :

ونثرة تهزأ بالنصال   كأن فيها حدق الهلال

الهلال الحية ههنا واللام للجنس فى هذا القبيل — لم يكن لك ذلك .

فصل

﴿ وهذا نوع آخر فى التعليل ﴾

وهو أن يكون للمعنى من المعانى والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ثم يجىء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك المعروفةويضع له علةأخرى . مثاله قول المتنبى :

مابه قتل أعاديه ولكن   يتقى إخلاف ماترجوالذئاب

الذى يتعارفه الناس أنالرجل اذا قتل أعاديه فلارادتههلا كهم وان يدفعمضارهم عن نفسه ، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم ، وقد ادعى المتنبى كما ترى أن العلة فى قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذاك .

واعلم أن هذا لايكون حتى يكون فى استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير فى الذم كقصد المتنبى

(١) الشريان والنبع نوعانمن الشجر تصنع منهما القسىّ . وحنّ القضيب صوّت عند ليه . ويقال قوس حنانة .

ههنا فى أن يبالغ فى وصفه بالسخاء والجود وان طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة فى آمالهم قد بلغت به هذا الحد فلما علم أنه اذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يُخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها ، وفيه نوع آخر من المدح وهوأنه يهزم العدا ويكسرهم كسراً لايطمعون بعده فى المعاودة فيستغنى بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم ، وانه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق ، ولا يعفو اذا قدر ، وما يشبه هذه الأوصاف الحميدة فاعرفه .

ومن الغريب فى هذا الجنس على تعمق فيه قول أبى طالب المأمونى فى قصيدة يمدح بها بعض الوزراء ببخارى :

مغرم بالثناء صبٌّ بكسب الـ ... ـمجد يهتز للسماح ارتياحا
لايذوق الاغفاء الا رجاء ... أن يرى طيف مستميح رواحا

وكأنه شرط الرواح على معنى أن العفاة والراجين انما يحضرونه فى صدر النهار على عادة السلاطين فاذا كان الرواح ونحوه من الأوقات التى ليست من أوقات الاذن قلّوا (١) فهو يشتاق اليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم . والافراط فى التعمق ربما أخل بالمعنى من حيث يراد تأكيده به ألا ترى أن هذا الكلام قد يوهم (٢) أنه يحتج له انه ممن لايرغب كل واحد فى أخذ عطائه وانه ليس فى طبقة من قيل فيه :

عطاؤك زينٌ لامرئٍ ان أصبته ... بخير وما كل العطاء يزين

(١) قلوا ــ وفى نسخة قلوا أى صاروا قليلا . وفل عنه عقله ذهب ثم عاد اليه (ش)
(٢) هذا يندفع بقوله رواحا أى بعد أن غدا عليه وأخذ من عطائه أول النهار (ش)

ومما يدفع عنه الاعتراض ويوجب قلة الاحتفال به (أى بالاعتراض) أن الشاعر يهمه [١] أبداً اثبات ممدوحه جواداً أو تواقاً الى السؤال فرحا بهم ، وأن يبرئه من عبوس البخل ، وقطوب التكلف فى البذل ، الذى يقاتل نفسه عن ماله حتى يقال جواد ومن يهوى الثناء والثراء معاً ولا يتمكن فى نفسه معنى قول أبى تمام :

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولاالمجد فى كف امرئ والدراهم

فهو [٢] يسرع الى استماع المدائح ، ولا يبطىء عن صلة المادح ، نعم فاذا سلم للشاعر هذا الغرض لم يفكر فى خطرات الظنون . وقد يجوز بشيء من الوهم الذى ذكرته على قول المتنبي :

يعطى المبشر بالقصاد قبلهم كمن يبشره بالماء عطشانا

وهذا شيء عرض ولاستقصائه موضع آخر ان وفق الله .

وأصل بيت الطيف المستميح من نحو قوله :

وانى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا [٣]

وهذا الأصل غير بعيد أن يكون أيضا من باب ماستؤنف له علة غير معروفة الا أنه لايبلغ فى القوة ذلك المبلغ فى الغرابة والبعد من العادة ، وذلك أنه قد يتصور أن يريد المغرم المتيم اذا بعد عهده بحبيبه أن يراه فى المنام واذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصة فاعرفه .

ومما يلحق بهذا الفصل قوله :

---

(١) قوله يهمه الخ أى فلا يتوهم أنه قصد ماذكره من الوهم (ش) .

(٢) أى الممدوح .

(٣) الشعر للمجنون يقال استغشى ثوبه وبثوبه اذا تغطى به ، ويكنى بذلك عن طلب النوم .

رحل العزاء برحلتي فكأنني أتبعته الأنفاس للتشييع

وذلك انه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة وترك ماهو المعلوم المشهور من السبب والعلة فيه وهو التحسر والتأسف والمعنى رحل عنى العزاء بارتحالى عنكم أى عنده ومعه أو به أو بسببه ، فكأنه لما كان محل الصبر الصدر [1] وكانت الأنفاس تصعد منه أيضا صار العزاء وتنفس الصُّعَداء كأنهما نزيلان ورفيقان ، فلما رحل ذاك كان حق هذا أن يشيعه قضاء لحق الصحبة .

ومما يلاحظ هذا النوع ويجرى فى مسلكه وينتظم فى سلكه قول ابن المعتز :

عاقبت عينى بالدمع والسهر إذ غار قلبى عليك من بصرى
واحتملت ذاك وهى رابحة فيك وفازت بلذة النظر

وذاك أن العادة فى دمع العين وسهرها أن يكون السبب فيه اعراض الحبيب. أو اعتراض الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب ، الموجبة للاكتئاب ، وقد ترك ذلك كله كما ترى ، وادعى أن العلة ماذكره من غيرة القلب منها على الحبيب وإيثاره أن يتفرد برؤيته ، وانه بطاعة القلب وامتثال رسمه رام للعين عقوبة فجعل ذاك أن أبكاها ، ومنعها النوم وحماها ، وله أيضا فى عقوبة العين بالدمع والسهر من قصيدة أولها :

(١) ان الحزن والخوف انما تشعر النفس بهما بانقباض فى الصدر وكذا سائر الانفعالات النفسية وأما الصبر فهو مقاومة الانفعال بقوة الارادة حتى لايترتب عليه من العمل ماهو ضار فهو ليس انفعالا بل معنى يشبه السلب لانه حبس النفس ومنعها من الاسترسال فى الجزع وانما يقال ان موضعه الصدر لانه معالجة نفسية لما يشعر به فى الصدر الذى هو مكان القلب الذى هو ينبوع الدم . على أن الشعور لعصب القلب لا لدمه المتأثر به .

قل لاحلى العباد شكلا وقدًّا أبجد ذا الهجرُ أم ليس جِدًّا
مابذا كانت المنى حدثتني لهف نفسي أراك قد خنت وُدا
ماترى في متيم بك صب خاضع لايرى من الذل بدا
ان زنَتْ عينه بغيرك فاضرب ها بطول السهاد والدمع حدا

قد جعل البكاء والسهاد عقوبة على ذنب أثبته للعين كما فعل في البيت الأول الا أن صورة الذنب ههنا غير صورته هناك فالذنب ههنا نظرها الى غير الحبيب واستجازتها من ذلك ماهو محرم محظور ، والذنب هناك نظرها الى الحبيب نفسه ، ومزاحمتها القلب في رؤيته . وغيرة القلب من العين سبب العقوبة هناك ، فأما ههنا فالغيرة كائنة بين الحبيب وبين شخص آخر فاعرفه .

ولا شبهة في قصور البيت الثاني عن الأول وأن للأول عليه فضلا كبيرا ، وذلك بأن جعل بعضه يغار من بعض ، وجعل الخصومة في الحبيب بين عينيه وقلبه ، وهو تمام الظرف واللطف . فأما الغيرة في البيت الآخر فعلى ما يكون أبداً — هذا ولفظ « زنت » وان كان مايتلوها من احكام الصنعة يحسنها ، وورودها في الخبر « العين تزنى » يؤنس بها ، فليست تدع ماهو حكمها من ادخال نفرة على النفس (١)

وان أردت أن ترى هذا المعنى بهذه الصنعة في أعجب صورة

---

(١) لله در المصنف فانه لا يفوته شيء من بيان تأثير الكلام في النفس الذي هو روح البلاغة وسرها ، ولعمرى ان كلمة الزنا الخبيثة لتؤثر في النفس الطيبة تأثيرا يجعل الصنعة في البيت صنعة خسيسة تشمئز منها أهل الحشمة والحياء ، ولا سيما العذارى وفضليات النساء . وأما حديث « العين تزنى » فهو للتنفير والزجر عن نظر الشهوة ولا أبلغ في ذلك من التعبير عنه بالزنا ، وما أبعد الفرق بين خطاب الوعظ والتشريع . و بين مغازلة المحب للحبيب !

وأظرفها فانظر الى قول القائل :

أتتنى تؤنبنى بالبـــكا   فأهـلا بهـا وبتأنيبها
تقول وفى قولهـا حشمة   أتبكى بعين ترانى بهـا (١)
فقلت اذا استحسنت غيركم   أمرت الدموع بتأديبها (٢)

أعطاك بلفظة التأديب ، حسن أدب اللبيب ، فى صيانة اللفظ عمـا يحوج الى الاعتذار ، ويؤدى الى النفار ، الا أن الأستاذية تعد ظاهرة فى بيت ابن المعتز . وليس كل فضيلة تبـدو مع البديهة ، بل تعقب النظر والروية ، وبأن يفـكر فى أول الحديث وآخره . وأنت تعلم أنه لايـكون أبلغ فى الذى أراد من تعظيم شأن الذنب من ذكر الحد وان ذلك لايتم الا بلفظة « زنت » .

ومن هـذه الجهة يلحق الضيم كثيراً من شأنه وطريقـه طريق أبى تمام ولم يـكن من المطبوعين . وموضع البسط فى ذلك غير هـــذا فغرضى الآن أن أريك أنواعاً من التخييل ، وأضع شبه القوانين ليستعان بهـا على مايراد من التفصيل والتبيين .

فصل

﴿ فى تخييل . بغير تعليل ﴾

وهـذا نوع آخر من التخييل وهو يرجع الى مامضى من تناسى التشبيه وصرف النفس عن توهمـه ، الا أن مامضى معلل . بيان ذلك أنهم يستعيرون الصفة المحسوسـة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة ، ثم تراهم كأنهم

(١) فى رواية « وقالت » بدل تقول . ويروى الشطر « أما تستحى ياقليل الوفاء » أتبكى الخ .

(٢) هذا أشرف من قول الآخر :

اذا زنت عينى بها   فبالدموع تغتسل

قد وجدوا تلك الصفة بعينها ، وأدركوها بأعينهم على حقيقتها ، وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجر منهم على بال ، ولم يروه ولا طيف خيال ، ومثاله استعارتهم العلو لزيادة الرجل على غيره فى الفضل والقدر والسلطان ، ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علواً من طريق المكان ، ألا ترى الى قول أبي تمام .

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السما

فلولا قصده أن ينسى التشبيه ويرفعه بجهده ، ويصمم على إنكاره وجحده ، بجعله صاعداً فى السماء من حيث المسافة الكائنة ، لما كان لهذا الكلام وجه . ومن أبلغ ما يكون فى هذا المعنى قول ابن الرومى :

أعلم الناس بالنجوم بنو نو بخت علماً لم يأتهم بالحساب
بل بأن شاهدوا السماء سمواً بترق فى المكرمات الصعاب
مبلغاً لم يكن ليبلغه الطا لب الا بتلكم الأسباب

وأعاده فى موضع آخر فزاد الدعوى قوة ومر فيها مرور من يقول صدقاً ، ويذكر حقاً .

يا آل نوبخت لاعدمتكم ولا تبدلت بعدكم بدلا
ان صح علم النجوم كان لكم حقاً اذا ماسنوا كم انتحلا
كم عالم فيكم وليس بأن قاس ولكن بأن رقى فعلا
أعلاكم فى السماء مجدكم فلستم تجهلون ماجهلا
شافهتم البدر بالسؤال عن الا أمر الى أن بلغتم زحلا

وهذا الحكم اذا استعاروا اسم الشيء بعينه من نحو شمس أو بدر أو بحر أو أسد فانهم يبلغون به هذا الحد ويصوغون الكلام صياغات تقضى

بأن لاتشبيه هناك ولا استعارة . ومثاله قوله :

قامت تظللنى من الشمس نفس أعز علىّ من نفسى
قامت تظللنى ومن عجب شمس تظللنى من الشمس

فلولا أنه أنسى نفسه أن ههنا استعارة ومجازاً من القول وعمل على دعوى شمس على الحقيقة لما كان لهذا التعجب معنى ، فليس ببدع ولا منكر أن يظل انسان حسن الوجه انساناً ويقيه وهجاً بشخصه . وهكذا قول البحترى :

طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
وما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وفقاً من الغرب والشرق [(١)]

معلوم أن القصد أن يخرج السامعين الى التعجب لرؤية مالم يروه قط ولم تجر العادة به ولن يتم للتعجب معناه الذى عناه ولا تظهر صورته على وضعها الخاص حتى يجترئ على الدعوى جراءة من لايتوقف ولا يخشى إنكار منكر ولا يحفل بتكذيب الظاهر له ويسوم النفس — شاءت أم أبت — تصور شمس ثابتة طلعت من حيث تغرب الشمس فالتقتا وفقاً ، وصار غرب تلك القديمة لهذه المتجددة شرقاً ، ومدار هذا النوع الغالب على التعجب وهو والى أمره ، وصانع سحره وصاحب سره ، وتراه أبداً وقد أفضى بك الى خلابة لم تكن عندك ، وبرز لك فى صورة ماحسبتها تظهر لك ، ألا ترى أن صورة قوله « شمس تظللنى من الشمس » غير صورة قوله « وما عاينوا شمسين » وان اتفق الشعران فى أنهما يتعجبان من وجود الشىء على خلاف ما يعقل ويعرف .

وهكذا قول المتنبى :

---

(١) قوله وفقا أى متوافقين متطابقين ويقال أتيته وفق طلعت الشمس أى حين طلعت .

كَبَّرت حول ديارهم لما بدت   منها الشموس وليس فيها المشرق

لصورة غير صورة الأولين . وكذا قوله :

ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه   ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

تعرض تلك الصور كلها (١) والاشتراك بينها على لايدخل فى السرقة ، اذ لااتفاق بأكثر من أن أثبت الشيء فى جميع ذلك على خلاف ما يعرفه الناس . فأما اذا جئت الى خصوص مايخرج به عن المتعارف فلا اتفاق ولا تناسب ، لأن مكان الأعجوبة مرة أن تظلل الشمس من الشمس وأخرى أن ترى الشمس مثلا لها تطلع من الغرب عند طلوعها من الشرق ، وثالثة أن ترى الشموس طالعة من ديارهم . وعلى هذا الحد قوله : * ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه * العجب من أن يمشى البدر الى آدمى وتعانق الأسد رجلا .

واعلم أن فى هذا النوع مذهبا هو كأنه عكس مذهب التعجب ونقيضه وهو لطيف جداً . وذلك أن تنظر الى خاصية ومعنى دقيق يكون فى المشبه به ثم تثبت تلك الخاصية وذلك المعنى للمشبه وتتوصل بذلك الى ايهام أن التشبيه قد خرج من البين ، وزال عن الوهم والعين ، أحسنَ توصل وألطفه ، ويقام منه شبه الحجة على أن لاتشبيه ولامجاز ، ومثاله قوله :

لا تعجبوا من بلى غلالته   قد زر أزراره على القمر

قد عمد كما ترى الى شيء هو خاصية فى طبيعة القمر وأمر غريب من تأثيره ثم جعل يرى أن قوما أنكروا بلى الكتان بسرعة ، وأنه قد أخذ ينهاهم عن التعجب من ذلك ويقول : أما ترونه قد زر أزراره على القمر ، والقمر من

---

(١) تعرض « بوزن تضرب » أى تبدو وتظهر ــ وتلك الصور فاعلة ، ويجوز أن يكون تعرض خطابا للقارىء وتلك الصور مفعولة «ش»

شأنه أن يسرع بلى الكتان . وغرضه بهذا كله أن يعلم أن لا شك ولا مرية فى أن المعاملة مع القمر نفسه ، وأن الحديث عنه بعينه ، وليس فى البين شيء من غيره ، وأن التشبيه قد نسى وأنسى ، وصار كما يقول الشيخ أبو على فيما يتعلق به الطرف : انه شريعة منسوخة . وهذا موضع فى غاية اللطف لايبين إلا اذا كان المتصفح للكلام حساسا يعرف وحى طبع الشعر ، وخفى حركته التى هى كالهمس ، وكمسرى النفس فى النفْس ، وإن أردت أن تظهر لك صحة عزيمتهم فى هذا النحو على إخفاء التشبيه ومحو صورته من الوهم ، فابرز صفحة التشبيه واكشف عن وجهه وقل : « لا تعجبوا من بلى غلالته فقد زَرَّ أزراره على من حسنهُ حسنُ القمر » ثم انظر هل ترى الا كلاما فاتراً ، ومعنى نازلا ؟ واخبُرْ نفسك هل تجد ما كنت تجده من الارْيحية ! وانظر فى أعين السامعين هل ترى ما كنت تراه من ترجمة عن المسرة ودلالة على الاعجاب ؟ ومن أين ذلك وأنى ؟ — وأنت باظهار التشبيه تبطل على نفسك ماله وُضع البيت من الاحتجاج على وجوب البلى فى الغلالة ، والمنع من العجب فيه بتقرير الدلالة ؟

وقد قال آخر فى هذا المعنى بعينه الا أن لفظه لا ينبئ عن القوة التى لهذا البيت فى دعوى القمر وهو قوله :

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحياناً فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر فى كل وقت طالع فيها (١)

ومما ينظر الى قوله * قد زَرّ أزراره على القمر * فى أنه بلغ فى دعواه فى المجاز حقيقة مبلغ الاحتجاج به كما يحتج بالحقيقة قول العباس بن الأحنف (٢)

---

(١) المعاجر جمع معجر (كمنبر) ثوب تعتجر به المرأة أى تشده على رأسها .

(٢) قوله . حقيقة مفعول دعواه . وقول العباس مبتدأ مؤخر خبره ومما ينظر

هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود ولن تستطيع اليك النزولا

صورة هذا الكلام ونُصبته [١] والقالب الذى فيه أفرغ يقتضى أن التشبيه لم يجر فى خلده وأنه معه كما يقال « لست منه وليس منى » وأن الأمر فى ذلك قد بلغ مبلغاً لاحاجة معه الى اقامة دليل وتصحيح دعوى بل هو فى الصحة والصدق بحيث تصحح به دعوى ثابتة . ألا تراه كأنه يقول للنفس ماوجه الطمع فى الوصول وقد علمتِ أن حديثك مع الشمس ومسكن الشمس السماء ؟ أفلا تراه قد جعل كونها الشمس حجة على نفسه يصدفها بها عن أن ترجو الوصول اليها ويلجئها الى العزاء وردَّها فى ذلك الى مالا تشك فيه وهو مستقر ثابت كما تقول « أوماعلمت ذلك » و « أليس قد علمت » ؟ ويبين لك هذا التفسير والتقرير فضلَ بيان بأن تقابل هذا البيت بقول الآخر :

فقلت لاصحابى هى الشمس ضوءها قريب ولكن فى تناولها بعد

وتأمل أمر التشبيه فيه فانك تجده على خلاف ما وصفت لك وذلك أنه لم يجعل كونها الشمس حجة على ماذكر بعدُ من قرب شخصها ومثالها فى العين مع بعد منالها ، بل قال « هى الشمس » كذا قولا مرسلا يومىء فيه بل يفصح بالتشبيه ولم يرد أن يقول : لا تعجبوا أن تقرب وتبعد بعد أن علمتم أنها الشمس . حتى كأنه يقول . ماوجه شككم فى ذلك ، ولم يشك عاقل فى أن الشمس كذلك ؟ كما أراد العباس أن يقول : كيف الطمع فى

(١) النصبة بالضم واحدة النصب وهى أعلام وسوارى تنصب لمعرفة الطريق والمراد هنا كماقال شيخنا سارينه وعموده الذى عليه يقوم

الوصول اليها مع علمك بأنها الشمس وأن الشمس مسكنها السماء ؟ فبيت ابن أبي عيينة فى أن لم ينصرف عن التشبيه جملة ولم يبرز فى صورة الجاحد له والمتبرئ منه كبيت بشار الذى صرح فيه بالتشبيه وهو :

أو كبدر السماء غير قريب حين يوفى والضوء فيه اقتراب

وكبيت المتنبى :

كأنها الشمس يعيى كفَّ قابضه شعاعها ويراه الطرف مقتربا

فان قلت : فهذا من قولك يؤدى الى أن يكون الغرض من ذكر الشمس بيان حال المرأة فى القرب من وجه والبعد من وجه آخر دون المبالغة فى وصفها بالحسن وإشراق الوجه وهو خلاف المعتاد لأن الذى يسبق الى القلوب أو يقصد من نحو قولنا : هى كالشمس أو هى شمس — الجمالُ والحسن والبهاء [1] فالجواب أن الأمر وان كان على ما قلت فانه فى نحو هذه الأحوال التى يقصد فيها الى بيان أمر غير الحسن يصير كالشىء الذى يعقل من طريق العرف وعلى سبيل التبع ، فاما أن يكون الغرض الذى له وضع الكلام فلا . واذا تأملت قوله : * فقلت لأصحابى هى الشمس ضوءها * وقول بشار : « أو كبدر السماء » وقول المتنبى « كأنها الشمس » علمت أنهم جعلوا جل غرضهم أن يصيبوا لها شبها فى كونها قريبة بعيدة وهو القياس أيضاً . فأما حديث الحسن فدخل فى القصد على الحد الذى مضى فى قوله :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الاشراق فى كل بلد

فكما أن هذا لم يضع كلامه لجعل النعمة كالشمس فى الضياء والاشراق. ولكنها عمت [2] كما تعم الشمس باشراقها ، كذلك لم يضع هؤلاء أبياتهم

---

(١) الجمال خبر لان الذى يسبق الى القلوب

(٢) قال شيخنا أصله ولكن لانها عمت الخ

على أن يجعلوا المرأة كالشمس والبدر فى الحسن ونور الوجه بل أموانحو المعنى الآخر ، ثم حصل هذا لهم من غير أن احتاجوا فيه الى تجشم . واذا كان الأمر كذلك فلم يقل ان النعمة إنما عمت لأنها شمس ولكن أراك لعمومها وشمولها قياساً ، وتحرى أن يكون ذلك القياس من شيء شريف له بالنعمة شبه من جهة أوصافه الخاصة فاختار الشمس . وكذلك لم يرد ابن أبى عيينة أن يقول انها انما دنت ونأت لأنها شمس أو لأنها الشمس بل قاس أمرها فى ذلك كما عرفتك : وأما العباس فانه قال انها انما كانت بحيث لاتنال ووجب اليأس من الوصول اليها لأجل أنها الشمس فاعرفه فرقاً واضحاً .

ومما هو على طريقة بيت العباس فى الاحتجاج وان خالفه فيما أذكره لك قول الصابئ فى بعض الوزراء يهنئه بالتخلص من الاستتار :

صح أن الوزير بدر منير ... اذ توارى كما توارى البدور
غاب لا غاب ثم عاد كما كا ... ن على الأفق طالعا يستنير
لاتسلني عن الوزير فقد بيَّـ ... ـنتُ بالوصف أنه سابور
لاخلا منه صدر دَست اذا ما ... قرَّ فيه تقرُّ منه الصدور(١)

فهو كما تراه يحتج أن لا مجاز فى البين فان ذكر البدر وتسمية الممدوح به حقيقة واحتجاجه صريح لقوله صح أنه كذلك . وأما احتجاج العباس وصاحبه فى قوله : * قد زر أزراره على القمر * فعلى طريق الفحوى . فهذا وجه الموافقة . وأما وجه المخالفة فهو أنهما ادَّعيا الشمس والقمر بأنفسهما

(١) الدست بالفتح المجلس و يطلق على البيت وعلى الوسادة وعلى الثوب وعلى الحيلة والخديعة والنوبة من الغلبة كما يقال فى الشطرنج ونحوه : الدست لى والدست على «ش»

وادعى الصابئ بدراً لا البــدر على الاطلاق . ومن ادّعاء الشمس على الاطلاق قول بشار :

بعثت بذكرها شعرى وقدمت الهوى شركا
فلمـا شاقهـا قولى وشب الحب فاحتنكا
أتتنى الشمس زائرة ولم تك تبرح الفلـكا
وجدت العيش فى سعدى وكان العيش قد هلـكا

فقوله : « ولم تك تبرح الفلـكا » يريك أنه ادعى الشمس نفسها

وقال أشجع يرثى الرشيد فبدأ بالتعريف ثم نــكّر فخلط إحدى الطريقتين بالأخرى وذلك قوله :

غربت بالمشرق الشمـ ـسُ فقل للعين تدمع
ما رأينـا قط شمساً غربت من حيث تطلع

فقوله : « غربت بالمشرق الشمس » على حد قول بشار : « أتتنى الشمس زائرة » فى أنه خيّل اليك شمس السماء . وقوله بعد : « مارأينا قط شمساً » يفتِر[1] أمر هذا التخييل ويميل بك الى أن تـكون الشمس فى قوله : « غربت بالمشرق الشمس » غير شمس السماء أعنى غير مدّعى انها هى وذلك مما يضطرب عليه المعـنى ويقلق لأنه اذا لم يدّع الشمس نفسها لم يجب أن تـكون جهة خراسان شرقا لها واذا لم يجب ذلك لم يحصل ماأراده من الغـرابة فى غروبهـا من حيث تطلع . وأظن الوجـه فيه أن تتأول تنـكيره للشمس فى الثانى على قولهم : خرجنا فى شمس حارّة . يريدون فى يوم كان للشمس فيه حرارة وفضل توقد ، فيصير كأنه قال : ماعهدنا يوماً غربت فيه

(١) يفتر من الافتار يضيق أو يفتر من التفتير أى يجعله فاترا «ش» والمؤدى واحد

الشمس من حيث تطلع وهوت في جانب المشرق . وكثيراً ما يتفق فى كلام الناس ما يوهم ضربا من التنكير فى الشمس كقولهم : « شمس صيفية » وكقوله : * والله لاطلعت شمس ولاغربت * ولا فرق بين هذا وبين قول المتنبى :

لم يُرَ قَرنُ الشمس فى شرقه فشكت الأنفس فى غربه[1]

ويجىء التنكير فى القمر والهلال على هذا الحد فنه قول بشار :

أملى لا تأت فى قمر بحديث واتق الدُّرَعا[2]
وتوَقّ الطيب ليلتنا انه واشٍ اذا سطعا

فهذا بمعنى : لاتأت فى وقت قد طلع فيه القمر . وهكذا قول عمر بن أبى ربيعة :

وغاب قُمير كنت أرجو غيوبه وروّح رعيانٌ ونوّم سُمرُ[3]

ظاهره يوهم أنه كقولك : جاءنى رجل ، وليس كذلك فى الحقيقة لأن الاسم لايكون نكرة حتى يعم شيئين وأكثر وليس هنا شيئان يعمهما اسم القمر[4] وهكذا قول أبى العتاهية :

تسر اذا نظرت الى هلال ونقصك اذ نظرت الى الهلال

---

(١) قوله : «فشكت» معطوف على « يُر» أى لم ير الشروق مقرونا بالشك فى الغروب بل من رأى الشمس شارقة أيقن بغروبها

(٢) الدرع « كصرد» ثلاث ليال تلى البيض سميت بذلك لاسوداد اوائلها وبياض سائرها

(٣) روّح الرعيان : اى ردوا ابلهم الى المراح والسمر جمع سامر وهو المحادث ليلا والبيت من القصيدة المشهورة التى انشدها عمر بن عباس (رضى الله عنهما) فحفظها من مرة واحدة ومطلعها : أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر ولام ابن عباس بعض أصحابه على حفظه هذه القصيدة فقال منكرا لومه : « أمن آل نعم » ؟ يستجيدها

(٤) أى بحسب مايرى الناس بابصارهم فيجرى فيه كلامهم وشعرهم . والواقع الذى ثبت بالنظر فى المرايا الفلكية أن فى السماء أقمارا متعددة تابعة لبعض الدرارى فالمشترى منها له اربعة اقمار

ليس المنكر غير المعرف ، على أن للهلال فى هذا التنكير فضل تمكن ليس للقمر[١] ألا تراه قد جمع فى قوله تعالى . (يسألونك عن الأهلة) ولم يجمع القمر على هذا الحد

ومن لطيف هذا التنكير قول البحترى :

وبدرين أنضيناهما بعد ثالث أكلناه بالايجاف حتى تمحقا

ومما أتى مستكرهاً نابيا يتظلم منه المعنى وينكره قول أبى تمام :

قريب الندى نائى المحل كأنه هلال قريب النور ناء منازله

سبب الاستكراه وأن المعنى ينبو عنه أنه يوهم بظاهره ان ههنا أهلة ليس لها هذا الحكم أعنى أنه يتناءى مكانه ويدنو نوره ، وذلك محال ، فالذى يستقيم عليه الكلام أن يؤتى به معرفا على حده فى بيت البحترى :

كالبدر أفرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

فان قلت أقطع وأستأنف فأقول « كأنه هلال » وأسكت ثم أبتدئ وآخذ فى الحديث عن شأن الهلال بقولى « قريب النور ناء منازله » أمكنك[٢] ولكنك تعلم ما يشكوه اليه المعنى من نبو اللفظ وسوء ملاءمة العبارة . واستقصاء هذا الموضع يقطع عن الغرض وحقه أن يفرد له فصل

***

وأعود الى حديث المجاز واخفائه ودعوى الحقيقة وحمل النفس على تخيلها . فمما يدخل فى هذا الفن ويجب أن يوازن بينه وبين مامضى قول سعيد بن حميد .

(١) يعنى أن الهلال أشد قبولا للتنكير و يجرى فيه معناه بخلاف القمر «ش»
(٢) أمكنك جواب فان قلت

وعد البـدر بالزيارة ليـلا ... فاذا ماوفى قضيت نذورى
قلت سـيدى ولِم تؤثر اللـ ... ـيل على بهجة النهار المنير ؟
قال لى لاأحب تغيير رسمى ... هكذا الرسم فى طلوع البدور

قالوا وله فى ضده :

قلت زورى فأرسلت ... أنا آتيــك سحره
قلت فالليـل كان أخـ ... ـفى وأدنى مسره
فأجابت بحجـة ... زادت القلب حسره
أنا شمس وانمـا ... تطلع الشمس بكره

وينبغى أن تعلم أن هذه القطعة ضد الأولى من حيث اختار النهار وقتاً للزيارة فى تلك والليل فى هذه فأما من حيث يختلف جوهر الشعر ويتفق خصوصا من حيث ينظر الآن فمثل وشبيه ؛ وليس بضد ولا نقيض .

ثم اعـلم انا إن وازنّا بين هاتين القطعتين وبين ماتقـدم من بيت العباس « هى الشمس مسكنها فى السماء » وما هو فى صورته وجدناها أمراً بين أمرين — بين ادعاء البـدر والشمس أنفسهما ، وبين إثبات بدر ثان وشمس ثانيـة ، ورأينا الشاعر قد شاب فى ذلك الانـكار بالاعتراف ، وصادَفت صورةُ المجـاز تُعرِضُ عنك مرة وتعرض لك أخرى . فقوله « البـدر » بالتعريف مع قوله « لاأحب تغيير رسمى » وتركـه أن يقول : رسم مثلى يخيل اليـك البـدر نفسه ، وقوله « فى طلوع البدور » بالجمع دون أن يفرد فيقول « هكذا الرسم فى طلوع البدور » يلتفت بك الى بدر ثان ويعطيك الاعتراف بالمجاز على وجـه . وهكذا القول فى القطعة الثانيـة لأن قولك « أنا شمس » بالتنكير اعتراف بشمس ثانيـة أو كالاعتراف .

ومما يدل دلالة واضحة على دعوى الحقيقة ولا يستقيم الا عليها قول المتنبي :

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معاً

أراد فأرتني الشمس والقمر ثم غلب اسم القمر كقول الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

لولا تخيل أنها الشمس نفسها لم يكن لتغليب اسم القمر والتعريف بالألف واللام معنى . وكذلك لولا ضبطه نفسه حتى لايجرى المجاز والتشبيه فى وهمه لكان قوله « فى وقت معاً » لغواً من القول فليس بعجيب أن يتراءى لك وجه غادة حسناء فى وقت طلوع القمر وتوسطه السماء ، وهذا أظهر من أن يخفى . وأما تشبيه أبى الفتح لهذا البيت بقول القائل :

واذا الغزالة فى السماء ترفعت وبدا النهار لوقته يترجل (١)

أبدت لوجه الشمس وجهاً مثله تلقى السماء بمثل ماتستقبل

فتشبيه على الجملة ومن حيث أصل المعنى وصورته فى المعقول فأما الصورة الخاصة التى تحدث له بالصنعة فلم يعرض لها .

ومما له طبقة عالية فى هذا القبيل وشكل يدل على شدة الشكيمة وعلو المأخذ قول الفرزدق :

أبى أحمد الغيثين صعصعة الذى متى تخلف الجوزاءُ والدلو يمطر

أجار بنات الوائدين ومن يجر على الموت تعلم أنه غير مخفر (٢)

---

(١) ترجلت الشمس: ارتفعت. وترجل النهار ارتفع قال * وهاج به لما ترجلت الضحى *

(٢) رواية الأغانى يعلم بالبناء للمفعول . والفرزدق: الرغيف الضخم وهو لقب غلب على الشاعر المشهور وكان وجهه غليظا جهما واسمه همام بن غالب بن صعصعة الذى يفتخر به فى البيت الأول فالمراد بقوله (أبى) جده وكان مشهورا فى الجاهلية بشراء البنات اللائى يراد وأدهن لتخليصهن من الموت. والمخفر مزيل الخفارة وهى اسم من خفره اذا حماه ومنعه وأمنه .

أفلا تراه كيف ادعى لأبيه اسم الغيث ادعاء من سلم له ذلك ومن لايخطر بباله أنه مجاز فيه ومتناول له من طريق التشبيه وحتى كأن الأمر فى هذه الشهرة بحيث يقال : أى الغيثين أجود ؟ فيقال صعصعة ، وحتى بلغ تمكن ذلك فى العرف الى أن يتوقف السامع عند إطلاق الاسم ، فاذا قيل أتاك الغيث لم تعلم أيراد صعصعة أم المطر . وان أردت أن تعرف مقدار ماله من القوة فى هذا التخييل وأن مصدره مصدر الشيء المتعارف الذى لاحاجة به الى مقدمة يبنى عليها نحو أن تبدأ فتقول : أبى نظير الغيث وثان له وغيث ثان ، ثم تقول : وهو خير الغيثين لأنه لايختلف إذا اختلفت الأنواء [1] فانظر الى موقع الاسم فانك تراه واقعاً موقعاً لاسبيل لك فيه الى حل عقد التثنية [2] وتفريق المذكورين بالاسم وذلك أن (أفعل) لاتصح اضافته الى اسمين معطوف أحدهما على الآخر فلا يقال : جاءنى أفضل زيد وعمرو ، ولا أبى أعلم بكر وخالد عندى . بل ليس الا أن تضيف الى اسم مثنى أو مجموع فى نفسه نحو أفضل الرجلين وأفضل الرجال وذلك ان أفعل التفضيل بعض ما يضاف اليه أبداً فحقه أن يضاف الى اسم يحويه وغيره . واذا كان الأمر كذلك علمت أن اللفظ بالتشبيه والخروج عن صريح جعل اللفظ للحقيقة متعذر عليك إذ لايمكنك أن تقول . أبى أحد الغيث والثاني له والشبيه به،ولا شيئاً من هذا النحو ، لأنك تقع بذلك فى إضافة أفعل الى اسمين معطوف أحدهما على الآخر .

وإذ قد عرفت هذا فانظر الى قول الآخر :

---

(١) أى لاتختلف أوقاته وحق التعبير : لايتخلف اذا تخلفت الأنواء . قاله وكتبه شيخنا .

(٢) وفى نسخة (البنية) .

قد قحط الناس فى زمانهم حتى اذا جئت جئت بالدّرر [١]
غيثان فى ساعة لنا اتفقا فمرحبا بالأمير والمطر

فانك تراه لايبلغ هذه المنزلة وذلك أنه كلام من يثبته الآن غيثاً ولا يدعى فيه عرفا جارياً وأمراً مشهوراً متعارفاً يعلم كل واحد منه مايعلمه . وليس يتعذر أن يقول : غيث وثان للغيث اتفقا [٢] . أو يقول : الأمير ثانى الغيث والغيث اتفقا . فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت فى مكانه وكان موضعه من الكلام أضن به وأشد محاماة عليه وأمنع لك من أن تتركه وترجع الى الظاهر وتصرح بالتشبيه فأمر التخييل فيه أقوى ، ودعوى المتكلم له أظهر وأتم .

واعلم أن قول البحترى :

غيثان ان جدب تتابع أقبلا وهما ربيع مؤمل وخريفه

لايكون مما نحن بصدده فى شىء لأن كل واحد من الغيثين فى هذا البيت مجاز لأنه أراد أن يشبه كل واحد من الممدوحين بالغيث . والذى نحن بصدده هو أن يضم المجاز الى الحقيقة فى عقد التثنية ولكن ان ضممت اليه [٣] قوله :

فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكا اذا الهيابة النكس كذبا [٤]

كان لك ذلك لأن أحد الضرغامين حقيقة والآخر مجاز . فان قلت فههنا شىء يردك الى ماأبيته من بقاء حكم التشبيه فى جعله إياه الغيث وذلك

(١) قحط كعلم و بضم القاف للمجهول. والدرر بالكسر جمع درة كسدرة وسدر : السحاب .

(٢) أى فيجوز حل عقد التثنية (ش) .

(٣) أى الى مانحن بصدده .

(٤) الهيابة:صيغة مبالغة من هاب أى الكثير الخوف.والنكس بالكسر: الرذل .

أن تقدير الحقيقة فى المجاز انما يتصور فى نحو بيت البحترى : « فلم أر ضرغامين » من حيث عمد الى واحد من الأسود ثم جعل الممدوح أسداً على الحقيقة قد قارنه وضامه ولا سبيل للفرزدق الى ذلك لأن الذى يقرنه الى أبيه هو الغيث على الاطلاق . واذا كان الغيث على الاطلاق لم يبق شىء يستحق هذا الاسم الا ويدخل تحته [1] واذا كان كذلك حصل منه أن لا يكون أبو الفرزدق غيثاً على الحقيقة — فالجواب أن مذهب ذلك ليس على ماتتوهمه ولكن على أصل فى التشبيه وهو أن يقصد الى المعنى الذى من أجله يشبه الفرع بالأصل كالشجاعة فى الأسد والمضاء فى السيف وينحى سائر الأوصاف جانباً وذلك المعنى فى الغيث هو النفع العام . واذا قدر هذا التقدير صار جنس الغيث كأنه عين واحدة [2] وشىء واحد واذا عاد بك الأمر الى أن تتصوره تصور العين الواحدة دون الجنس كان ضم أبى الفرزدق اليه بمنزلة ضمك الى الشمس رجلا أو امرأة تريد أن تبالغ فى وصفهما بأوصاف الشمس وتنزيلهما منزلتها كما تجده فى نحو قوله :

فليت طالعة الشمسين غائبة وليت غائبة الشمسين لم تغب

فصل

« فى الفرق بين التشبيه والاستعارة »

ان الاسم اذا قصد إجراؤه على غير ماهو له لمشابهة بينهما كان ذلك

(١) أى فجميع أفراد الغيث دخل فى لفظه فأبو الفرزدق خارج عنه بالضرورة فمتى ذكره ثانى الغيث علم أنه مجاز لأنه ليس لنا غيثان بل لاغيث الا واحد شامل لجميع أفراده وليس منها أبو الفرزدق (ش) .

(٢) أى مشخصة لا عموم فيها وذلك أنك لاحظت الغيث فى جميع أفراده جملة واحدة ونظرت اليه نظرك الى الشىء الواحد ثم شبهت به أبا الفرزدق وضممته اليه (ش)

على ما مضى من الوجهين : (أحدهما) أن يسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال [١] أنك أردته وذلك أن تقول « عنت لنا ظبية » وأنت تريد امرأة « ووردنا بحراً » وأنت تريد الممدوح ، فأنت فى هذا النحو من الكلام انما تعرف أن المتكلم لم يرد ما الاسم موضوع له فى أصل اللغة بدليل الحال أو افصاح المقال بعد السؤال أو بفحوى الكلام وما يتلوه من الأوصاف . مثال ذلك أنك اذا سمعت قوله :

ترنح الشرب واغتالت حلومهم   شمس ترجل فيهم ثم ترتحل [٢]

استدللت بذكر الشرب واغتيال الحلوم والارتحال انه أراد قينة [٣] ولو قال ترجلت شمس ولم يذكر شيئاً غيره من أحوال الآدميين لم يعقل قط انه أراد امرأة الا باخبار مستأنف أو شاهد آخر من الشواهد .

ولذلك تجد الشيء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة كما روى أن عدى ابن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط فى قوله تعالى : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) وحمله على ظاهره فقد روى أنه قال لما نزلت هذه الآية أخذت عقالا أسود وعقالا أبيض فوضعتهما تحت وسادتى فنظرت فلم أتبين ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ان وسادك لطويل عريض انما هو الليل والنهار [٤]

(والوجه الثانى) أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به فتقول : زيد أسد وهند بدر ، وهذا الرجل الذى تراه سيف صارم على أعدائك .

---

(١) أى من أول الأمر و بمجرد اللفظ .

(٢) الشرب بالفتح: جماعة الشاربين . وترجلت الشمس ارتفعت والمراد تظهر و ينبطع ضوءها .

(٣) القينة: المغنية والعازفة .

(٤) الحديث فى الصحيحين وغيرهما ولفظه « ان وسادك لعريض - وفى مسلم بوسادتك وهى أخص - « انما هو سواد الليل و بياض النهار » .

وقد كنت ذكرت فيما تقدم أن في إطلاق الاستعارة على هذا الضرب الثاني بعض الشبهة ووعدتك بكلام يجيء في ذلك وهذا موضعه .

اعلم أن الوجه الذي يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضي في الوساطة (١) أن لاتطلق الاستعارة على نحو قولنا « زيد أسد وهند بدر » ولكن نقول هو تشبيه فاذا قال : هو أسد ، لم تقل استعار له اسم الأسد ولكن تقول شبهه بالأسد، وتقول في الأول انه استعارة لاتتوقف فيه ولا تتحاشى البتة ، وان قلت في القسم الأول انه تشبيه كنت مصيباً من حيث تخبر عما في نفس المتكلم وعن أصل الغرض ، وان أردت تمام البيان قلت أراد أن يشبه المرأة بالظبية فاستعار لها اسمها مبالغة . فان قلت فكذلك فقل في قولك « زيد أسد » انه أراد تشبيهه بالأسد فأجرى اسمه عليه ألا ترى أنك ذكرته بلفظ التنكير فقلت : زيد أسد ، كما تقول زيد واحد من الأسود ، فما الفرق بين الحالين وقد جرى الاسم في كل واحد منهما على المشبه ؟ فالجواب أن الفرق بين وهو أنك عزلت في القسم الأول الاسم الأصلي عنه واطرحته وجعلته كأن ليس باسم له وجعلت الثاني هو الواقع عليه والمتناول له فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً في نفسك مكنوناً في ضميرك وصار في ظاهر الحال وصورة الكلام وقضيته كأنه الشيء الذي وضع له الاسم في اللغة وتصور أن تعلقه الوهمُ كذلك . وليس كذلك القسم الثاني لأنك قد صرحت فيه بالمشبه وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به . واذا سمع السامع قولك « زيد أسد وهذا الرجل سيف

---

(١) أي كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد شعره للقاضي أبي الحسن علي ابن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ وهو الذي ينقل المصنف عنه كثيرا .

صارم على الأعداء» استحال أن يظن ـ وقد صرحت له بذكر زيد ـ أنك قصدت أسداً وسيفاً ، وأكثر مايمكن أن يدعى تخيله فى هـذا أن يقع فى نفسه من قولك : زيد أسد ، حال الأسد فى جراءته وإقدامه وبطشه فأما أن يقع فى وهمه أنه رجل وأسـد معاً بالصورة والشخص فمحال .

ولما كان كذلك كان قصد التشبيه من هذا النحو بيناً لائحاً وكائناً من مقتضى الكلام وواجباً من حيث موضوعه حتى ان لم يحمل عليـه كان محالا فالشىء الواحد لايكون رجلا وأسداً وانما يكون رجلا وبصفة الأسد فيما يرجع الى غرائز النفوس والأخلاق أو خصوص فى الهيئة كالكراهة فى الوجه ، وليس كذلك الأول لأنه يحتمل الحمل على الظاهر على الصحة فلست بممنوع من أن تقول : عنّت لنـا ظبية وأنت تريد الحيوان ، وطلعت شمس وأنت تريد الشمس ، كقولك طلعت اليوم شمس حارة وكذلك تقول هززت على الأعـداء سيفاً ، وأنت تريد السيف ، كما تقوله وأنت تريد رجلا باسلا استعنت به ، أو رأياً ماضياً وفقت فيه ، وأصبت به من العدو فأرهبته وأثرت فيه .

واذا كان الأمـر كذلك وجب أن يفصـل بين القسمين فيسمى الأول استعارة عـلى الاطلاق ويقال فى الثانى انه تشبيه ، فأما تسمية الأول تشبيهاً فغير ممنوع ولا غريب الا انه على أنك تخبر عن الغرض وتنبئ عن مضمون الحال ، فاما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجباً له صريحاً فلا ، فان قلت : فكذلك قولك « هو أسـد » ليس فى ظاهـره تشبيه لان التشبيه يحصـل بذكر الكاف أو « مثل » أو نحوها — فالجواب أن الأمر وان كان كذلك فان موضوعه من حيث الصورة يوجب قصدك التشبيه لاستحالة

أن يكون له معنى وهو على ظاهره وله مثال من طريق العادة وهو أن مثل الاسم مثل الهيئة التي يستدل بها على الأجناس كزى الملوك وزى السوقة ، فكما أنك لو خلعت من الرجل أثواب السوقة ونفيت عنه كل شيء يختص بالسوقة وألبسته زى الملوك فأبديته للناس في صورة الملوك حتى يتوهموه ملكا وحتى لا يصلوا الى معرفة حاله إلا باخبار أو اختبار واستدلال من غير الظاهر — كنت قد أعرته هيئة الملك وزيه على الحقيقة ، ولو أنك ألقيت عليه بعض ما يلبسه الملك من غير أن تعريه من المعاني التي تدل على كونه سوقة لم تكن قد أعرته بالحقيقة هيئة الملك لأن المقصود من هيئة الملك أن يحصل بها المهابة في النفس وأن يتوهم العظمة، ولا يحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالة على أن الرجل سوقة

افرض هذه الموازنة في الشيء الواحد كالثوب الواحد يعاره الرجل فيلبسه على ثوبه أو منفرداً وانما اعتبر الهيئة وهي تحصل بمجموع أشياء وذلك أن الهيئة هي التي يشبه حالها حال الاسم لأن الهيئة تخص جنسا كما أن الاسم كذلك ، والثوب على الاطلاق لا يفعل ذلك إلا بخصائص تقترن به وتراعى معه ، فاذا كان السامع قولك « زيد أسد» لا يتوهم أنك قصدت أسداً على الحقيقة لم يكن الاسم قد لحقه ولم تكن قد أعرته إياه اعارة صحيحة ، كما أنك لم تعر الرجل هيئة الملك حين لم تزل عنه ما يعلم به أنه ليس بملك

هذا — واذا تأملنا حقيقة الاستعارة في اللغه والعادة كان في ذلك أيضاً بيان لصحة هذه الطريقة ووجوب الفرق بين القسمين ، وذاك أن من شرط المستعار أن يحصل للمستعير منافعه على الحد الذي يحصل للمالك فان

كان ثوبا لبسه كما لبسه ، وإن كان أداة استعملها فى الشىء تصلح له ، حتى ان الرائى اذا رآه معه لم تنفصل حاله عنده من حال ما هو ملك يد ليس بعارية وإنما يفضله المالك فى أن له أن يتلف الشىء جملة أو يدخل التلف على بعض أجزائه قصداً وليس للمستعير ذلك ، ومعلوم أن ما هو كالمنفعة من الاسم أن يوجب ذكره القصد الى الشىء فى نفسه ، فاذا قلت « زيد » علم أنك أردت أن تخبر عن الشخص المعلوم ، واذا قلت « لقيت أسداً » علم أنك علقت اللقاء بواحد من هذا الجنس ، واذا كان الأمر كذلك ثم وجدنا الاسم فى قولك : « عنت ظبية » يعقل من إطلاقه أنك قصدت الجنس المعلوم ولا يعلم أنك قصدت امرأة ، فقد وقع من المرأة فى هذا الكلام موقعه من ذلك الحيوان على الصحة فكان ذلك بمنزلة أن المستعير ينتفع بالمستعار انتفاع مالكه فيلبسه لبسه ، ويتجمل به تجمله ، ويكون مكانه عنده مكان الشىء المملوك ، حتى يعتقد من ينظر الى الظاهر أنه له ، ولما وجدنا الاسم فى قولك « زيد أسد » لا يقع من زيد ذلك الموقع من حيث ان ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم مطلقا عليه ومتناولا له على حد تناوله ماوضع له . وزان ذلك وزان أن يضع الرجل عند الرجل ثوباً ويمنعه أن يلبسه أو بمنزلة أن تطرح عليه طرف ثوب كان عليك فلا يكون ذلك عارية صحيحة لأنك لم تدخله فى جملته ، ولم تعطه صورة ما يختص به ويصير اليه ويخفى كونه لك دونه ، فاعرفه

***

وههنا فصل آخر من طريق موضوع الكلام يبين وجوب الفرق

بين القسمين ، وهو أن الحالة التى يختلف فى الاسم اذا وقع فيها أيسمى استعارة أم لا يسمي — هى الحالة التى يكون الاسم فيها خبر مبتدإ أو متنزلا منزلته ، أعنى أن يكون خبر كان ومفعولا ثانيا لباب علمت ؛ لأن هذه الأبواب كلها أصلها مبتدأ وخبر ، ويكون حالا لأن الحال عندهم زيادة فى الخبر فحكمها حكم الخبر فيما قصدته ههنا خصوصا ، والاسم اذا وقع فى هذه المواضع فأنت واضع كلامك لاثبات معناه وان أدخلت النفى على كلامك تعلق النفى بمعناه .

تفسير هذه الجملة أنك اذا قلت « زيد منطلق » فقد وضعت كلامك لاثبات الانطلاق لزيد . ولو نفيت فقلت « ما زيد منطلقا » كنت نفيت الانطلاق عن زيد وكذلك « كان زيد منطلقاً . وعلمت زيداً منطلقا ، ورأيت زيداً منطلقاً . » أنت فى ذلك كله واضع كلامك ومزج له لتثبيت الانطلاق لزيد ، ولو خولفت فيه انصرف الخلاف الى ثبوته . واذا كان الأمر كذلك فأنت اذا قلت : زيد أسد : ورأيت أسداً ، فقد جعلت اسم المشبه به خبراً عن المشبه. والاسم اذا كان خبراً عن الشيء كان خبراً عنه إما لاثبات وصف هو مشتق منه لذلك الشيء كالانطلاق فى قولك « زيد منطلق » أو اثبات جنسية هو موضوع لها كقولك : هذا رجل . فاذا امتنع فى قولنا « زيد أسد » أن تثبت الجنسية لزيد على الحقيقة كان لاثبات شبه من الجنس له ، واذا كنا انما نثبت شبه الجنس فقد اجتلبنا الاسم لنحدث به التشبيه الآن ونقرره وندخله فى حيز الحصول والثبوت ، واذا كان كذلك كان خليقاً بأن نسميه تشبيها اذا كان إنما جاء ليفيده ويوجبه

وأما الحالة الأخرى التى قلنا إن الاسم فيها يكون استعارة من غير

خلاف فهى حالة اذا وقع الاسم فيها لم يكن الاسم مجتلبا لاثبات معناه للشئ ولا الكلام موضوعا لذلك لأن هذا حكم لا يكون الا اذا كان الاسم فى منزلة الخبر من المبتدأ . فأما اذا لم يكن وكان مبتدأ بنفسه أو فاعلا أو مفعولا أو مضافا اليه فأنت واضع كلامك لاثبات أمر آخر غير ما هو معنى الاسم .

بيان ذلك أنك اذا قلت : جاءنى أسد ورأيت أسدا ومررت بأسد ، فقد وضعت الكلام لاثبات المجىء واقعا من الأسد ، والرؤية والمرور واقعين منك عليه . وكذلك ان قلت : الأسد مقبل ، فالكلام موضوع لاثبات الاقبال للأسد لا لاثبات معنى الاسد . واذا كان الأمر كذلك ثم قلت : عنت لنا ظبية وهززت سيفا صارماً على الأعداء — وأنت تعنى بالظبية امرأة وبالسيف رجلا ، لم يكن ذكرك للاسمين فى كلامك هذا لاثبات الشبه المقصود الآن . وكيف يتصور أن يقصد الى اثبات الشبه منهما لشيء وأنت لم تذكر قبلهما شيئا ينصرف اثبات الشبه اليه وانما يثبت الشبه من طريق الرجوع الى الحال والبحث عن خبيء فى نفس المتكلم، واذا كان كذلك بان أن الاسم فى قولك : زيد أسد — مقصور به ايقاع التشبيه فى الحال وايجابه

وأما فى قولك . عنت لنا ظبية ، وسلت سيفا على العدو ، فوُضعَ الاسم هكذا انتهازا واقتضابا على المقصود وادعاء أنه من الجنس الذى وضع له الاسم فى أصل اللغة . واذا افترقا هذا الافتراق وجب أن يفرق بينهما فى الاصطلاح والعبارة كما أنا نفصل بين الخبر والصفة فى العبارة لاختلاف الحكم فيهما بأن الخبر اثبات فى الوقت للمعنى ، والصفة تبيين وتوضيح وتخصيص

بأمر قد ثبت واستقر وعرف ، فكما لم نرض لاتفاق الغرض فى الخبر والصفة على الجملة واشتراكهما اذا قلت « زيد ظريف وجاءنى زيد الظريف » فى التباس زيد فى الظرف واكتسائه له أن نجعلهما فى الوضع الاصطلاحى شيئاً واحداً ولا نفرق بتسميتنا هذا خبرا وذاك صفة ، كذلك ينبغى أن لا يدعونا اتفاق قولنا : جاءنى أسد : وهززت سيفاً صارماً ، وقولنا : زيد أسد وسيف صارم — فى مطلق التشبيه — الى التسوية بينهما وترك الفرق من طريق العبارة ، بل وجب أن نفرق فنسمى ذاك استعارة وهذا تشبيهاً فان أبيت إلا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم الثانى فينبغى أن تعلم أن اطلاقها لا يجوز فى كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه عليه بسهولة وذلك نحو قولك : هو الأسد وهو شمس النهار ، وهو البدر حسنا وبهجة ، والقضيب عطفا [1] وهكذا كل موضع ذكر فيه المشبه به بلفظ التعريف . فان قلت « هو بحر وهو ليث ووجدته بحراً » وأردت أن تقول إنه استعارة كنت أعذرَ أشبه بأن تكون على جانب من القياس ، ومتشبثا بطرف من الصواب ، وذلك أن الاسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن ادخال حرف التشبيه عليه ، فلو قلت هو كأسد وهو كبحر ، كان كلاما نازلا غير مقبول كما يكون قولك هو كالأسد ، إلا أنه وإن كان لا تحسن فيه الكاف فانه يحسن فيه « كأن » كقولك : كأنه أسد ، أوما يجرى مجرى « كأن » فى نحو « تحسبه أسداً وتخاله سيفاً » فان غمض [2] مكان الكاف وكأن بأن يوصف الاسم

«١» عطفا المرء — قيل وغيره — جانباه من لدن رأسه الى وركيه وقد يكون اللفظ هنا عطفا بالفتح أى تمايلا «ش»

«٢» غمض من بابى نصر وضرب غمضا وغموضا أى غاب اوخفى

الذى فيه التشبيه بصفة لا تكون فى ذلك الجنس وأمر خاص غريب فقيل : هو بحر من البلاغة ، وهو بدر يسكن الأرض ، وهو شمس لا تغيب . وكقوله :

شمس تألَّقُ والفراق غروبها   عنا وبدر والصدود كسوفه

فهو أقرب الى أن تسميه استعارة لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه اذ لا تصل الى الكاف حتى تبطل بنية الكلام وتبدل صورته فتقول : هو كالشمس المتألقة إلا أن فراقها هو الغروب وكالبدر إلا أن صدوده الكسوف

وقد يكون فى الصفات التى تجىء فى هذا النحو والصلات التى توصل بها مايختل به تقدير التشبيه فيقرب حينئذ من القبيل الذى تطلق عليه الاستعارة من بعض الوجوه وذلك مثل قوله :

أسد دم الأسد الهزبر خضابه   موت فريص الموت منه ترعد[1]

لا سبيل لك الى أن تقول هو كالأسد وهو كالموت لما يكون فى ذلك من التناقض لأنك اذا قلت هو كالأسد فقد شبهته بجنس السبع المعروف ومحال أن تجعله محمولا فى الشبه على هذا الجنس[2] أولا ثم تجعل دم الهزبر الذى هو أقوى الجنس خضاب يده ، لأن حملك له عليه فى الشبه دليل على أنه دونه ، وقولك بعد « دم الهزبر من الأسود خضابه » دليل على أنه فوقها . وكذلك محال أن تشبهه بالموت المعروف ثم تجعله يخافه ، وترتعد منه أكتافه وكذا قوله :

سحاب عدانى سيله وهو مسبل   وبحر عدانى فيضه وهو مفعم

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا   وموضع رحلى منه أسود مظلم

«١» الفريص جمع فريصة وهى لحمة بين الثدى والكتف وقيل بين الجنب والكتف ترعد عند الفزع ولهذا قال المصنف فيما يأتى ترعد منه أكتافه . وارعد بضم الهمزة اخذته الرعدة وهى بالكسر الرجفة من برد اوخوف

«٢» أى ملحقا به قاله شيخنا

إن رجعت فيه التشبيه الساذج فقلت هو كالبدر ثم جئت تقول : أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رحلى مظلم لم يضىء به ، كنت كأنك تجعل البدر المعروف يلبس الأرض الضياء ويمنعه رحلك ، وذلك محال وإنما أردت أن تثبت من الممدوح بدراً مفرداً له هذه الخاصة العجيبة التى لم تعرف للبدر ، وهذا إنما يأتى بكلام بعيد من هذا النظم ، وهو أن يقال هل سمعت بأن البدر يطلع فى أفق ثم يمنع ضوءه موضعاً من المواضع التى هى معرضة له وكائنة فى مقابلته حتى ترى الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره وفيما بينها قدر رحل مظلم يتجافى عنه ضوءه ؟ ومعلوم بعد هذا من طريقة البيت فهذا النحو موضوع على تخييل أنه زاد فى جنس البدر واحد له حكم وخاصة لم تعرف . واذا كان الأمر كذلك صار كلامك موضوعا لا لاثبات الشبه بينه وبين البدر ولكن لاثبات الصفة فى واحد متجدد حادث من جنس البدر لم تعرف تلك الصفة للبدر فيصير بمنزلة قولك : زيد رجل يقرى الضيوف ويفعل كيت وكيت . فلا يكون قصدك إثبات الصفة التى ذكرتها له فاذا خرج الاسم الذى يتعلق به التشبيه من أن يكون مقصوداً بالاثبات تبين أنه خارج عن الأصل الذى تقدم من كون الاسم لاثبات الشبه . فالبحترى فى قوله : « وبدر أضاء الأرض » قد بنى كلامه على أن كون الممدوح بدراً أمر قد استقر وثبت وإنما يعمل فى إثبات الصفة الغريبة والحالة التى هى موضع التعجب . وكما يمتنع دخول الكاف فى هذا النحو كذلك يمتنع دخول « كأن وتحسب وتخال » فلو قلت : « كأنه بدر أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رحلى منه مظلم » كان خلفاً من القول . وكذلك ان قلت « تحسبه بدرا أضاء الأرض ورحلى منه مظلم »

كان كالأول فى الضعف . ووجه بعده من القبول بين وهو أن « كأن وحسبت وخلت وظننت » تدخل اذا كان الخبر والمفعول الثانى أمرا معقولا ثابتاً فى الجملة إلا أنه فى كونه متعلقاً بما هو اسم كأن أو المفعول الأول من حسبت مشكوك فيه كقولنا « كأن زيدا منطلق » أو مجاز يقصد به خلاف ظاهره نحو « كأن زيدا أسد » فالأول على الجملة ثابت معروف والغريب هو كون زيد إياه ومن جنسه ، والنكرة فى نحو هذه الأبيات موصوفة بأوصاف تدل على أنك تخبر بظهور شئ لايعرف ولايتصور . واذا كان كذلك كان إدخال « كأن وحسبت » عليه كالقياس على المجهول :

وتأمل هذه النكتة فانه يضعف ثانيا اطلاق الاستعارة على هذا النحو أيضاً لأن موضوع الاستعارة كيف دارت القضية على التشبيه واذا بان بما ذكرت أن هذا الجنس اذا قلبت عن سره ونقرت عن خبيئه فحصوله أنك تدعي حدوث شيء هو من الجنس المذكور إلا أنه اختص بصفة غريبة وخاصية بعيدة لم يكن يتوهم جوازها على ذلك الجنس كأنك تقول : ما كنا نعلم أن ههنا بدراً هذه صفته — كان تقدير التشبيه فيه نقضا لهذا الغرض ، لأنه لامعنى لقولك أشبهه ببدر حدث خلاف البدور ما كان يعرف :

وهذا موضع لطيف جدا لا تنتصف منه إلا باستعانة الطبع عليه ، ولا يمكن توفية الكشف فيه حقه بالعبارة لدقة مسلكه ، ويتصل به أن فى الاستعارة الصحيحة مالا يحسن دخول كلم التشبيه عليه وذلك اذا قوى الشبه بين الأصل والفرع حتى يتمكن الفرع فى النفس بمداخلة ذلك

الأصل والاتحاد به وكونه إياه وذلك فى نحو النور اذا استعير للعلم والايمان والظلمة للكفر والجهل ، فهذا النحو لتمكنه وقوة شبهه ومتانة سببه قد صار كأنه حقيقة ولا يحسن لذلك أن تقول فى العلم : كأنه نور ، وفى الجهل كأنه ظلمة ، ولا تكاد تقول للرجل فى هذا الجنس « كأنك قد أوقعتنى فى ظلمة » بل تقول : أوقعتنى فى ظلمة . وكذلك الأكثر على الألسن والأسبق الى القلوب أن تقول : فهمت المسئلة فانشرح صدرى وحصل فى قلبى نور ، ولاتقول : كأن نوراً حصل فى قلبى ، ولكن اذا تجاوزت هذا النوع الى نحو قولك : سللت منه سيفاً على الأعداء ، وجدت « كأن » حسنة هناك كثيراً كقولك : بعثته الى العدو فكأنى سللت سيفاً ، وكذلك فى نحو : زيد أسد « كأن زيداً أسد » وهكذا يتدرج الحكم فيه حتى كلما كان مكان الشبه بين الشيئين اخفى وأغمض وأبعد من العرف كان الاتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن وأكثر فى الاستعمال .

ومما يجب أن تجعله على ذُكر منك أبداً وفيه البيان الشافى أن بين القسمين تبايناً شديداً أعنى بين قولك : زيد أسد ، وقولك : رأيت أسداً . وهو ماقدمته لك من أنك قد تجد الشيء يصلح فى نحو : زيد أسد ، حيث يذكر المشبه باسمه أولا ثم يجرى اسم المشبه به عليه ولا يصلح فى القسم الآخر الذى لايذكر فيه المشبه أصلا وتطرحه . ومن الأمثلة البينة فى ذلك قول أبى تمام :

وكان المطل فى بدء وعود دخاناً للصنيعة وهى نار (١)

---

(١) المصراع الاول فى نسخة الديوان المطبوعة هكذا « وكان المدح فى عود و بدء » وقبله :

قد شبه المطل بالدخان والصنيعة بالنار ولكنه صرح بذكر المشبه وأوقع المشبه به خبراً عنه وهو كلام مستقيم . ولو سلكت به طريقة مايسقط فيه ذكر المشبه فقلت مثلا « أقبستنى ناراً لها دخان » كان ساقطاً . ولو قلت « أقبستنى نوراً أضاء أفقى به » تريد علما ، كان حسناً حسنه اذا قلت « علمك نور فى أفقى والسبب فى ذلك أن اطراح ذكر المشبه والاقتصار على الاسم المشبه به وتنزيله منزلته واعطاءه الخلافة على المقصود انما يصح اذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ماتستعير اسمه له وتستنيبه فى الدلالة وقد تقرر فى العرف الشبه بين النور والعلم وظهر واشتهر ، كما تقرر الشبه بين المرأة والظبية ، وبينها وبين الشمس ، ولم يتقرر فى العرف شبه بين الصنيعة والنار ، وانما هو شيء يضعه الآن أبو تمام ويتمحله ويعمل فى تصويره فلا بد له من ذكر المشبه والمشبه به جميعا حتى يعقل عنه ماريده ويبين الغرض الذى يقصده ، والا كان بمنزلة من يريد اعلام السامع أن عنده رجلا هو مثل زيد فى العلم مثلا فيقول له « عندى زيد » ويسومه أن يعقل من كلامه انه أراد أن يقول عندى رجل مثل زيد أو غيره من المعانى وذلك تكليف علم الغيب ؛ فاعرف هذا الأصل وتبينه فانك تزداد به بصيرة فى وجوب الفرق بين الضربين وذلك انهما لو كانا يجريان مجرى واحداً فى حقيقة الاستعارة لوجب أن يستويا فى القضية حتى اذا استقام وضع الاسم فى أحدهما استقام وضعه فى الآخر فاعرفه .

رأيت صنائعا معكت فأمست ذبائح والمطال لها شفار
نسيب البخل مذ كانا والا يكن نسب فبينهما جوار
لذلك قيل بعض المنع أدنى الى مجد وبعض الجود عار

معكت بالبناء للمفعول مطلت يقال معكه دينه وبدينه اذا مطله .

فان قلت : فما تقول فى نحو قولهم لقيت به أسداً ورأيت به ليثاً ؛ فانه[1] مما لاوجه لتسميته استعارة ، ألا تراهم قالوا : لئن لقيتَ فلاناً ليلقينك منه الأسد ، فأتوا به معرفة على حده اذا قالوا : احذر الأسد . وقد جاء على هذه الطريقة مالا يتصور فيه التشبيه فيظن انه استعارة وهو قوله عز وجل : (لهم فيها دار الخلد) والمعنى والله أعلم أن النار هى دار الخلد وأنت تعلم أن لامعنى ههنا لأن يقال ان النار شبهت بدار الخلد إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشىء يسمى دار الخلد كما تقول فى زيد : انه مثل الأسد . ثم تقول : هو الأسد وانما هو كقولك : النار منزلهم ومسكنهم ، نعوذ بالله منها . وكذا قوله * يأبى الظلامة منه النوفلُ الزفر[2] * المعنى على أنه النوفل الزفر ، وليس النوفل الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد فيقال انه شبه الممدوح به وانما هو صفة كقولك هو الشجاع وهو السيد وهو النهاض بأعباء السيادة . وكذا قوله :

ياخير من يركب المطى ولا   يشرب كأسا بكف من بخلا

لايتصور فيه التشبيه وانما المعنى أنه ليس ببخيل .

هذا وانما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة اذا جرى بوجه على مايدعى أنه مستعار له والاسم فى قولك لقيت به أسداً ولقينى منه الأسد لا يتصور جريه على المذكور بوجه لأنه ليس بخبر عنه ولا صفة له ولا حال وانما هو بنفسه مفعول لقيت وفاعل لقينى ولو جاز أن يجرى الاسم

---

(١) قوله فانه الخ جواب فان قلت (ش) .

(٢) النوفل الرجل المعطاء . والزفر الشجاع وعلى هذا كلام المصنف فى جعلهما وصفين ولكن من معانى النوفل البحر ومن معانى الزفر الأسد .

هاهنا مجرى الاستعارة المتناولة المستعار له لوجب أن يقول فى قوله :

حتى اذا جن الظلام واختلط جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط (١)

« انه استعار اسم الذئب للمذق » وذلك بين الفساد . وكذا نحو قوله :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد (٢)

لا يكون استعارة وان كنت تجد من يفهم البيت قد يقول : أراد بالأسد النعمان أو شبهه بالأسد . لأن ذلك بيان للغرض . فأما القضية الصحيحة وما يقع فى نفس العارف ويوحيه نقد الصيرف فان الأسد واقع على حقيقته حتى كأنه قال : ولا قرار على زأر هذا الأسد — وأشار الى الأسد خارجا من عرينه ، مهدداً موعداً بزئيره . وأى وجه للشك فى ذلك وهو يؤدى الى أن يكون الكلام على حد قولك ولا قرار على زأر من هو كالأسد ؟ وفيه من العى والفجاجة شىء غير قليل (٣) .

هذا — ومن حق غالط غلط فى نحو ما ذكرت على قلة عذره أن لا يغلط فى قول الفرزدق :

قياماً ينظرون الى سعيد كأنهم يرون به هلالا

ولا يتوهم أن « هلالا » استعارة لسعيد لأن الحكم على الاسم بالاستعارة

---

(١) المذق بالفتح مصدر بمعنى اسم المفعول من مذق اللبن والشراب أى مزجه فأكثر من الماء فيه فهو ممذوق ومذيق . والمذقة الطائفة أو الدفعة منه ويكنى الذئب بأبى مذقة لأن لونه يشبه اللبن الممزوج بالماء . وههنا يصح التشبيه المشار اليه برؤية الذئب ولا تصح الاستعارة كما قال المصنف .

(٢) زأر الأسد وزئيره معروف وفعله من باب فتح وضرب ، شبه وعيد أبى قابوس بزئير الأسد فى أنه لا يقر للمهدد به قرار .

(٣) قوله الفجاجة بالفتح حالة الفاكهة ونحوها قبل النضج . والفج بالكسر الذى لم ينضج من الفواكه وغيرها واستعارها للكلام .

مع وجود التشبيه الصريح محال جار مجرى أن يكون كل اسم دخل عليه كاف التشبيه مستعاراً . واذا لم يغلط فى هذا فالباقى بمنزلته فاعرفه .

فصل

« فى الاتفاق فى الأخذ والسرقة . والاستمداد والاستعانة »

اعلم أن الشاعرين اذا اتفقا لم يخل ذلك من أن يكون فى الغرض على الجملة والعموم أو فى وجه الدلالة على الغرض . والاشتراك فى الغرض على العموم أن يقصد كل واحد منهما وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء ، أو حسن الوجه والبهاء ، أو وصف فرسه بالسرعة أو ماجرى هذا المجرى ، وأما وجه الدلالة على الغرض فهو أن يذكر مايستدل به على إثباته له الشجاعة والسخاء مثلا وذلك ينقسم أقساما منها التشبيه بما يوجد هذا الوصف فيه على الوجه البليغ والغاية البعيدة كالتشبيه بالأسد وبالبحر فى البأس والجود ، وبالبدر والشمس فى الحسن والبهاء والانارة والاشراق ومنها ذكر هيآت تدل على الصفة من حيث كانت لاتكون الا فيمن له الصفة كوصف الرجل فى حال الحرب بالابتسام وسكون الجوارح وقلة الفكر كقوله :

كأن دنانيرا على قسماتهم وان كان قد شف الوجوه لقاء[٢]

وكذلك الجواد يوصف بالتهلل عند ورود العفاة والارتياح لرؤية المجتدين[٣] والبخيل بالعبوس والقطوب وقلة البشر مع سعة ذات

(١) الضمير فى كانت للهيآت والصفة مثل الشجاعة والهيئة كالابتسام (ش) .

(٢) القسمات : الوجوه وأراد أنها تشرق فى الحرب . وشفه الهم والمرض والحب أوهنه وأذابه والمراد بالوجوه وجوه المحار بين غير الممدوحين (ش) .

(٣) العفاة كالقضاة بمعنى المجتدين وهم طلاب الفضل والجدا .

اليد ومساعدة الدهر .

وأما الاتفاق فى عموم الغرض فما لا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة ، لاترى من به حس يدعى ذلك ويأبى الحكم بأنه لايدخل فى باب الأخذ ، وانما يقع الغلط من بعض من لايحسن التحصيل ولا ينعم التأمل فيما يؤدى الى ذلك حتى يدعى عليه فى المحاجة أنه بما قاله قد دخل فى حكم من يجعل أحد الشاعرين عيالا على الآخر فى تصور معنى الشجاعة وأنها مما يمدح به ، وان الجهل مما يذم به ، فأما أن يقوله صريحاً ويرتكبه قصداً فلا .

وأما الاتفاق فى وجه الدلالة على الغرض فيجب أن ينظر فان كان مما اشترك الناس فى معرفته وكان مستقراً فى العقول والعادات فان حكم ذلك وان كان خصوصا فى المعنى حكم العموم الذى تقدم ذكره ، من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء ، وبالبدر فى النور والبهاء ، وبالصبح فى الظهور والجلاء ، ونفى الالتباس عنه والخفاء ، وكذلك قياس الواحد فى خصلة من الخصال على المذكور بذلك والمشهور به والمشار اليه سواء كان ذلك ممن حضرك فى زمانك أو كان ممن سبق فى الأزمنة الماضية والقرون الخالية ، لان هذا مما لايختص بمعرفته قوم دون قوم ، ولا يحتاج فى العلم به الى روية واستنباط وتدبر وتأمل ، وانما هو فى حكم الغرائز المركوزة فى النفوس ، والقضايا التى وضع العلم بها فى القلوب .

وان كان مما ينتهى اليه المتكلم بنظر وتدبر ، ويناله بطلب واجتهاد ، ولم يكن كالأول فى حضوره إياه وكونه فى حكم مايقابله [1] الذى لامعاناة عليه فيه ولا

---

(١) أى بمنزلة ماهو بين يديه وتجاهه يقابله بوجهه لايحجبه عنه شىء (ش) .

حاجة به الى المحاولة والمزاولة والقياس والمباحثة والاستنباط والاستثارة ، . بل كان من دونه حجاب يحتاج الى خرقه بالنظر ، وعليه كِمٌّ يفتقر الى شقه بالتفكر (١) وكان دراً فى قعر بحر لابد له من تكلف الغوص عليه ، وممتنعاً فى شاهق لايناله الا بتجشم الصعود اليه ، وكامناً كالنار فى الزند لايظهر حتى يقتدحه ، ومشابكا لغيره كعروق الذهب التى لاتبدى صفحتها بالهوينا بل تنال بالحفر عنها ، وبعرق الجبين فى طلب التمكن منها ، — نعم اذا كان هذا شأنه ، (٢) وههنا مكانه ، وبهذا الشرط يكون امكانه ، فهو الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية ، وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر وأن الثانى زاد على الأول ونقص عنه ، وترق الى غاية أبعد من غايته ، أو انحط الى منزلة هى دون منزلته .

واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامى ، والظاهر الجلى ، والذى قلت ان التفاضل لايدخله ، والتفاوت لايصح فيه ، انما يكون كذلك منه ما كان صريحا ظاهراً لم تلحقهُ صنعة ، وساذجا لم يعمل فيه نقش ، فأما اذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة ، ودخل اليه من باب الكناية والتعريض ، والرمز والتلويح فقد صار بما غير من طريقته ، واستؤنف من صورته ، واستُجد له من المِعرض (٣) ، وكسى من ذلك التعرض ، (٤) داخلا فى قبيل الخاص الذى يملك بالفكرة والتعمل ، ويتوصل اليه بالتدبر والتأمل ،

(١) الكم بالكسر: الغلاف الذى يحيط بالثمر والزهر وينشق عنه .

(٢) شأنه بالرفع لان الغرض أن يخبر عن الشأن بهذا ــ لأن «هذا» معناه الأحوال المتقدمة وهى المجهولة التى يحتاج أن يخبر بها عن الشأن (ش) .

(٣) المعرض كمنبر هو الثوب الذى تجلى به العروس وتقدم .

(٤) المراد من التعرض الطلب (ش) .

وذلك كقولهم وهم يريدون التشبيه « سلبن الظباء العيون » كقول بعض العرب .

سلبن ظباء ذى نفر طلاها ونجل الأعين البقر الصوارا (١)

وكقوله :

ان السحاب لتستحي اذا نظرت الى نداك فقاسته بما فيها

وكقوله :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارها الا بوجه ليس فيه حياء

وكقوله :

واهتز فى درع الندى فتحركت حركات غصن البانة المتأود

وكقوله :

فأقصيت من قرب الى ذى مهابة أقابل بدر الأفق حين أقابله

الى مسرف فى الجود لو ان حاتما لديه لأمسى حاتم وهو عادله

فهذا كله فى أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ولكن كنى لك عنه وخودعت فيه وأتيت به من طريق الخلابة فى مسلك السحر ومذهب التخييل ؛ فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن منيع الجانب ، لايدين لكل أحد ، يأبى العطف لا يدين به الا للمروى المجتهد ، واذا حققت النظر فالخصوص الذى تراه ، والحالة التى تراها تنفى الاشتراك (٢) وتأباه ، انما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولا عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر المعروف ، بل هو فى حد لحن القول والتعمية اللذين يتعمد فيهما

(١) الطلا بالضم جمع طلية وهى الأعناق ونجل الأعين من إضافة الصفة الى الموصوف . والصوار بالضم وبالكسر القطيع من بقر الوحش والمعنى سلبن البقر أعينها النجل .

(٢) جملة تنفى الاشتراك مفعول ثان لتراها . وقوله بعدها انما هما الخ خبر قوله : فالخصوص . . والحالة . . والضمير فى « انهم جعلوا التشبيه » يعود الى الشعراء الذين روى أبياتهم (ش) .

الى إخفاء المقصود حتى يصير المعلوم اضطراراً يعرف امتحانا واختبارا، كقوله :

مررت بباب هند فكلَّ متنى   فلا والله ما نطقت بحرف

فكما يوهمك باتفاق اللفظ أنه أراد الكلام ، وان الميم موصولة باللام ، كذلك المشبه اذا قال : « سرقن الظباء العيون » فقد أوهم أن ثم سرقة وان العيون منقولة اليها من الظباء ، وإن كنت تعلم اذا نظرت أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الظباء فى الحسن والهيئة وفترة النظر . وكذلك يوهمك بقوله « إن السحاب لتستحيي » ان السحاب حى يعرف ويعقل ، وأنه يقيس فيضه بفيض كف الممدوح فيخزى ويخجل ، فالاحتفال والصنعة فى التصويرات التى تروق السامعين وتروعهم ، والتخيلات التى تهز الممدوحين وتحركهم ، وتفعل فعلا شبيها بما يقع فى نفس الناظر الى التصاوير التى يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر ، فكما أن تلك تعجب وتخلب ، وتروق وتونق ، وتدخل النفس من مشاهدتها ، حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويغشاها ضرب من الفتنة لاينكر مكانه ، ولايخفى شأنه ، فقد عرفت قضية الأصنام وما عليه أصحابها من الافتتان بها ، والاعظام لها ، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويشكله من البدع ، ويوقعه فى النفوس من المعانى التى يتوهم بها الجامد الصامت ، فى صورة الحى الناطق ، والموات الأخرس ، فى قضية الفصيح المعرب ، والبين المميز ؛ والمعدوم المفقود فى حكم الموجود المشاهد كما قدمت القول عليه فى باب التمثيل حتى يكسب الدنى رفعة ، والغامض القدر نباهة .

وعلى العكس يغض من شرف الشريف ، ويطأ من قدر ذى العزة

المنيف ، ويظلم الفضل ويتهضمه ، ويخدش وجه الجمال ويتخونه (١) ، ويعطى الشبهة سلطان الحجة ،ويرد الحجة الى صيغة الشبهة ، ويصنع من المادة الخسيسة بدْعا يغلو فى القيمة ويعلو ، ويفعل من قلب الجواهر ، وتبديل الطبائع ، ماترى به الكيمياء وقد صحت ، ودعوى الإكسير وقد وضحت ، الا أنها روحانية تتلبس بالأوهام والأفهام ، دون الأجسام والأجرام ، وكذلك قال : (٢)

يرى حكمة مافيه وهو فكاهة　　ويقضى بمايقضى بهوهو ظالم

وقال :

عليم بابدال الحروف وقامع　　لكل خطيب يقمع الحق باطله

وقال ابن سكرة فأحسن :

والشعر نار بلا دخان　　وللقوافى رقى لطيفة
لو هُجِى المسك وهو أهل　　لكل مدح لصار جيفة
كم معتل فى المحل سام　　هوت به أحرف خفيفة

وقد عرفت ما كان سبيله من أمر القبيلة الذين كانوا يعيرون بأنف الناقة حين قال الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم　　ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فنفى العار ، ووضح الافتخار ، وجعل ما كان نقصاً وشينا ، فضلا وزيناً ، وما كان لقبا ونبزاً يسوء السمع شرفا وعزاً يرفع الطرف ، وما ذاك إلا بحسن الانتزاع ، ولطف القريحة الصناع ، والذهن الناقد فى دقائق

«١» يتخونه بتشديد الواو يتنقصه. قال ابن دريد * لم يتخون جسمه مس الضوى *
«٢» فى النسخة الاخرى : ولذلك قال

الاحسان والابداع ، كما كساهم الجمال من حيث كانوا عروا منه ، وأثبتهم فى نصاب الفضل من حيث نُفوا عنه ، فلرب أنف سليم قد وضع الشعر عليه حده فجدعه ، واسم رفيع قلب معناه حتى حط به صاحبه ووضعه ، كما قال :

يا حاجب الوزراء انك عندهم   سعد ولكن أنت سعد الذابح

ومن العجيب فى ذلك قول القائل فى كثير بن احمد :

لو علم الله فيه خيراً   ماقال «لاخير فى كثير»

فانظر من أى مدخل دخل عليه ، وكيف بالهوينا هدى البلاء اليه ، وكثير هذا هو الذى يقول فيه الصاحب : « ومثل كثير فى الزمان قليل » فقد صار الاسم الواحد وسيلة الى الهدم والبناء ، والمدح والهجاء ، وذريعة الى التزيين والتهجين

ومن عجيب ماتفق فى هذا الباب قول ابن المعتز فى ذم القمر واجترائه بقدرة البيان على تقبيحه وهو الأصل والمثل ، وعليه الاعتماد والمعول فى تحسين كل حسن ، وتزيين كل مزين ، وأول مايقع فى النفوس ، اذ أريد المبالغة فى الوصف بالجمال ، والبلوغ فيه غاية الكمال ، فيقال وجه كأنه القمر وكأنه فلقة قمر (١) . ذلك لثقته بأن هذا القول اذا شاء سحر ، وقلب الصور ، وانه لا يهاب أن يخرق الاجماع ، ويسحر العقول ويقتسر الطباع ، وهو :

ياسارق الأنوار من شمس الضحى   يامثكلى طيب الكرى ومنغصى
أما ضياء الشمس فيك فناقص   وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطائل   متسلخ بهقا كلون الأبرص

(١) الفلقه بالفتح نصف الشىء المفلوق كالنواة وبالكسر القطعة من الشىء

وقد علم أنه ليس فى الدنيا مثلة أخزى وأشنع ، ونكال أبلغ وأفظع ، ومنظر أحق بأن يملأ النفوس انكاراً ، وتنزعج القلوب استفظاعا له واستنكاراً ، ويُغرى الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، من أن يصلب المقتول ويشبح فى الجذع[١]. ثم قد ترى مرثية أبى الحسن لابن بقية حين صلب وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يستنكر من أحوال المصلوب الى خلافها ، وتأول فيها تأويلات أراك فيها وبها ما يقضى منه العجب :[٢]

علوٌّ فى الحياة وفى الممات ... بحق أنت احدى المعجزات[٣]
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا ... وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدهما اليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك فى النفوس تبيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثقات
وتشعل عندك النيران ليلا ... كذلك كنت أيام الحياة[٤]
ركبت مطية من قبلُ زيدٌ ... علاها فى السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيها تأس ... تباعد عنك تعيير العداة
أسأت الى الحوادث فاستثارت ... فأنت قتيل ثأر النائبات

«١» أى يثبت عليه منتصبا ممدود اليدين من شبح الجلد ونحوه اذا مد بين أعواد مشدودا بها لئلا يتقلص

«٢» يفنى منه العجب

«٣» ويروى الشطر « لحق أنت احدى المعجزات »

«٤» يعنى نيران الضيافة المعهودة عند أجواد العرب كانوا يوقدونها فى البادية ليلا ليهتدى بها الضيفان

ولو انى قدرت على قيامى بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافى ونحت بها خلال النائحات
ولكنى أصبّر عنك نفسى مخافة أن أعد من الجناة
ومالك تربة فأقول تسقى لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى برحمات غواد رائحات

ومما هو من هذا الباب الا أنه مع ذلك احتجاج عقلى صحيح قول المتنبى .

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

فحق هذا أن يكون عنوان هذا الجنس وفى صدر صحيفته ، وطرازاً لديباجته ، لأنه دفع للنقص وابطال له ، من حيث يشهد العقل للحجة التى نطق بها بالصحة ، وذلك أن الصفات الشريفة شريفة بأنفسها وليس شرفها من حيث الموصوف . وكيف والأوصاف سبب التفاضل بين الموصوفات فكان الموصوف شريفا أوغير شريف من حيث الصفة ولم تكن الصفة شريفة أو خسيسة من حيث الموصوف . واذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يعترض على الصفات الشريفة بشىء ان كان نقصاً فهو فى خارج منها ، وفيما لا يرجع اليها أنفسها ولا حقيقتها ، وذلك الخارج ههنا هو كون الشخص على صورة دون صورة . واذا كان كذلك كان الأمر فمقدار ضرر التأنيث اذا وجد فى الخلقة على الأوصاف الشريفة مقداره اذا وجد فى الاسم الموضوع للشىء الشريف ، لأنه فى أن لا تأثير له من طريق العقل فى تلك الأوصاف فى الحالين على صورة واحدة ؛ لأن الفضائل التى بها فضل الرجل على المرأة لم تكن فضائل لأنها قارنت صورة التذكير وخلقته ولا أوجبت ما أوجبت من التعظيم لاقترانها بهذه الخلقة دون تلك ، بل

إنما أوجبته لأنفسها ومن حيث هى ، كما أن الشىء لم يكن شريفا أو غير شريف من حيث انث اسمه أو ذكر ، بل يثبت الشرف وغير الشرف للمسميات من حيث أنفسها وأوصافها ، لامن حيث أسماؤها ، لاستحالة أن يتعدى من لفظ هو صوت مسموع نقص أو فضل الى ماجعل علامة له فاعرفه

واعلم أن هذا هو الصحيح فى تفسير هذا البيت والطريقة المستقيمة فى الموازنة بين تأنيث الخلقة وتأنيث الاسم ، لا أن يقال إن المعنى أن المرأة اذا كانت فى كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال الممدوحة كانت من حيث المعنى رجلا وان عدت فى الظاهر امرأة ، لأجل أنه يفسدمن وجهين :أحدهما أنه قال * ولاالتذكير فخر للهلال * ومعلوم أنه لايريد أن يقول : ان الهلال وان ذكر فى لفظه فهو مؤنث فى المعنى ، لفساد ذلك ، ولأجل أنه ان كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلا لتأنيث المؤنثة على معنى انها فى المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيرا ، فأى معنى لان يعود فينحى على التذكير وينغض منه ويقول : انه ليس بفخر للهلال ؟ هذا بين التناقض

فصل

فى حدى الحقيقة والمجاز

واعلم أن كل واحد من وصفى المجاز والحقيقة اذا كان الموصوف به المفرد غير حده اذا كان موصوفا به الجملة : وانا نحدهما فى المفرد : كل كلمة أريد بها ما وقعت له فى وضع واضع — وان شئت قلت : فى مواضعة —

وقوعاً لايستند فيه الى غيره فهى حقيقة . وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه كلغة تحدث فى قبيلة من العرب أو فى جميع العرب أو فى جميع الناس مثلا أو تحدث اليوم . ويدخل فيها الأعلام منقولة كانت كزيد وعمرو أو مرتجلة كغطفان . وكل كلمة استؤنف بها(١) على الجملة مواضعة أو ادُّعى الاستئناف فيها .

وانما اشترطت هذا كله لان وصف اللفظة بأنها حقيقة أو مجاز حكم فيها من حيث إن لها دلالة على الجملة لا من حيث هى عربية أو فارسية أو سابقة فى الوضع أو محدثة مولدة ، فمن حق الحد أن يكون بحيث يجرى فى جميع الألفاظ الدالة . ونظير هذا نظير أن تضع حداً للاسم والصفة فى أنك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغة غير لغة العرب وجدته يجرى فيها جريانه فى العربية ، لأنك تحد من جهة لا اختصاص لها بلغة دون لغة . ألا ترى أن حدك الخبر بأنه « ما احتمل الصدق والكذب » مما لايخص لساناً دون لسان . ونظائر ذلك كثيرة وهو أحد ماغفل عنه الناس ودخل عليهم اللبس فيه حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم قوانين عقلية ، وان مسائله كلها مشبهة باللغة فى كونها اصطلاحا يتوهم عليها النقل والتبديل . ولقد فحش غلطهم فيه ، وليس هذا موضع القول فى ذلك .

وان أردت أن تمتحن هذا الحد فانظر الى الى قولك « الأسد » تريد به السبع فانك تراه يؤدى جميع شرائطه لأنك قد أردت به مايعلم أنه وقع له فى وضع واضع اللغة . وكذلك تعلم أنه غير مستند فى هذا الوقوع الى شىء غير السبع أى لايحتاج أن يتصور له أصل أداه الى السبع من

(١) وفى نسخة الاستانة «لها»

أجل التباس بينهما وملاحظة . وهذا الحكم اذا كانت الكلمة حادثة ولو وضعت اليوم متى كان وضعها كذلك . وكذلك الاعلام . وذلك أنى قلت : « ماوقعت له فى وضع واضع أو مواضعة » على التنكير ولم أقل فى وضع الواضع الذى ابتدأ اللغة أو فى المواضعة اللغوية فيتوهم أن الاعلام أو غيرها مما تأخر وضعه عن أصل اللغة يخرج عنه . ومعلوم أن الرجل يواضع قومه فى اسم ابنه فاذا سماه زيداً فحاله الآن فيه كحال واضع اللغة حين جعله مصدراً لزاد يزيد وسبق واضع اللغة فى وضعه للمصدر المعلوم لايقدح فى اعتبارنا لأنه يقع عند تسميته به ابنه وقوعاً باتاً ولا تستند حاله هذه الى السابق من حاله بوجه من الوجوه .

وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ماوقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول فهو مجاز . وان شئت قلت : كل كلمة جزت بها ماوقعت له فى وضع الواضع الى مالم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ماتجوز [1] بها اليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز . ومعنى الملاحظة هو أنها تستند فى الجملة الى غير هذا الذى تريده بها الآن الا أن هذا الاستناد يقوى ويضعف . بيانه مامضى من أنك اذا قلت : رأيت أسداً ، تريد رجلا شبيهاً بالأسد لم يشتبه عليك الأمر فى حاجة الثانى الى الأول إذ لايتصور أن يقع الأسد للرجل على هذا المعنى الذى أردته على التشبيه على حد المبالغة وايهام أن معنى من الأسد

(١) تجوز بضمتين وتشديد الواو المكسورة فعل ماض مبنى للمفعول وهو من التجوز فى الشىء الترخص فيه وعد ما يتوهم فيه الجواز جائزا ومنه تجوز فى الصلاة اذا خففها وتجوز فى أخذ الدراهم اذا جوزها ولم يردها ثم استعملوه فى المجاز من الكلام . أو تجوز مضارع كتقول من جزت العقبة اذا قطعتها وجاوزتها

حصل فيه الا بعد أن تجعل كونه اسماً للسبع إزاء عينيك . فهذا اسناد تعلمه ضرورة ، ولو حاولت دفعه عن وهمك حاولت محالا فتى عقل فرع من غير أصل ومشبه من غير مشبه به ؟ وكل ماطريقه التشبيه فهذا سبيله ، أعنى كل اسم جرى على الشيء للاستعارة فالاسناد فيه قائم ضرورة .

وأما ماعدا ذلك فلا يقوى استناده هـذه القوة حتى لو حاول محاول أن ينكره أمكنه فى ظاهر الحال ، ولم يلزمه به خروج الى المحال ، وذلك كاليد للنعمة ، لو تكلف متكلف فزعم أنه وضع مستأنف أو فى حكم لغة مفردة لم يمكن دفعه الا برفق وباعتبار خفى وهو ماقدمت من أنا رأيناهم لا يوقعون هـذه اللفظة على ماليس بينه وبين هـذه الجارحة التباس واختصاص . ودليل آخر وهو أن اليد لاتكاد تقع للنعمة الا وفى الكلام اشارة الى مصدر تلك النعمة والى المولى لها ، ولا تصلح حيث تراد النعمة مجردة من اضافة لها الى المنعم أو تلويح به . بيان ذلك أن تقول اتسعت النعمة فى البلد ، ولا تقول اتسعت اليد فى البلد ، وتقول اقتنى نعمة ، ولا تقول اقتنى يداً . وأمثال ذلك تكثر اذا تأملت . وانما يقال : جلت يده عندى ، وكثرت أياديه لدى . فتعلم أن الأصل صنائع يده وفوائده الصادرة عن يده وآثار يده ، ومحال أن تكون اليد اسماً للنعمة هكذا على الاطلاق ثم لاتقع موقع النعمة . لو جاز ذلك لجاز أن يكون المترجم للنعمة باسم لها فى لغة أخرى واضعاً اسمها من تلك اللغة فى مواضع لاتقع النعمة فيها من لغة العرب وذلك محال .

ونظير هـذا قولهم فى صفة راعى الابل : ان له عليها أصبعاً ، أى أثراً حسناً ، وأنشدوا :

ضعيف العصا بادى العروق ترى له ... عليها اذا ماأجدب الناس اصبعا

وأنشد شيخنا رحمه الله مع هذا البيت قول الآخر : * صلب العصا بالضرب قد دمّاها * أى جعلها كالدمى[(١)] فى الحسن . وكأن قوله « صلب العصا » وان كان ضد قول الآخر « ضعيف العصا » فانهما يرجعان الى غرض واحد وهو حسن الرعية والعمل بما يصلحها ويحسن أثره عليها ، فأراد الأول بجعله ضعيف العصا انه رفيق بها مشفق عليها لايقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة ، فهو يتخير مالان من العصى . وأراد الثانى انه جيد الضبط لها عارف بسياستها فى الرعى ، يزجرها عن المراعى التى لاتحمد ، ويتوخى بها ماتسمن عليه ، ويتضمن أيضا أنه يمنعها عن التشرد والتبدد ، وانها لما عرفت من شدة شكيمته وقوة عزيمته تنساق وتستوثق فى الجهة التى يريدها من غير أن يجدد لها فى كل حال ضرباً وقال آخر : * صلب العصا جاف عن التغزل * فهذا لم يبين مابينه الآخر — وأعود الى الغرض —

فأنت الآن لاتشك أن الاصبع مشار بها الى اصبع اليد وان وقوعها بمعنى الأثر الحسن ليس على أنه وضع مستأنف فى إحدى اللغتين ألا تراهم لايقولون : رأيت أصابع الدار ، بمعنى آثار الدار ، وله أصبع حسنة وأصبع قبيحة ، على معنى أثر حسن وأثر قبيح ، ونحو ذلك . وانما أرادوا أن يقولوا له عليها أثر حذق ، فدلوا عليه بالاصبع لان الأعمال الدقيقة لها اختصاص بالأصابع وما من حذق فى عمل يد الا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع

---

(١) الدمى جمع دمية (كغرفة) وهى الصورة من العاج ويضرب بها المثل فى الحسن .

واللطف فى رفعها ووضعها كما يعلم فى الخط والنقش وكل عمل دقيق وعلى ذلك قالوا فى تفسير قوله عز وجل (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) أى نجعلها كخف البعير فلا تتمكن من الأعمال اللطيفة، فكما علمت ملاحظة الأصبع لأصلها وامتناع أن تكون مستأنفة بأنك رأيتها لا يصح استعمالها حيث يراد الأثر على الاطلاق (١) ولا يقصد الاشارة الى حذق فى الصنعة وأن تجعل أثر الاصبع أصبعاً كذلك ينبغى أن تعلم ذلك فى اليد لقيام هذه العلة فيها أعنى ان لم تجعل أثر اليد يداً لم تقع للنعمة مجردة من هذه الاشارات وحيث لا يتصور ذلك كقولنا اقتنى نعمة فاعرفه .

ويشبه هذا فى أن عبر عن أثر اليد والأصبع باسمهما وضعهم الخاتم موضع الختم كقولهم : عليه خاتم الملك وعليه طابع من الكرم والحصول أثر الخاتم والطابع قال :

وقلن حرام قد أحل بربنا   وتترك أموال عليها الخواتم

وكذا قول الآخر :

اذا فضت خواتمها وفكت   يقال لها دم الودج الذبيح (٢)

وأما تقدير الشيخ أبى على فى هذين البيتين حذف المضاف وتأويله على معنى « وتترك أموال عليها نقش الخواتم » « واذا فض ختم خواتمها » فبيان لما يقتضيه الكلام فى أصله دون أن يكون الأمر على خلاف ما ذكرت من جعل أثر الخاتم خاتماً . وأنت اذا نظرت الى الشعر من جهته الخاصة به وذقته بالحاسة المهيأة لمعرفة طعمه لم تشك فى أن الأمر على ما أشرت لك اليه ويدل على أن المضاف قد وقع فى المنسأة وصار كالشريعة المنسوخة .

---

(١) قوله بانك متعلق بعلمت .

(٢) الكلام فى الخمرة .

تأنيث الفعل فى قوله « اذا فضت خواتمها » ولو كان حكمه باقياً لذكرت الفعل كما تذكره مع الاظهار (١) ولاستقصاء هذا موضع آخر .

وينظر الى هذا المكان قولهم « ضربته سوطا » لأنهم عبروا عن الضربة التى هى واقعة بالسوط باسمه وجعلوا أثر السوط سوطا ، ويعلم على ذلك أن تفسيرهم له بقولهم ان المعنى ضربته ضربة بسوط بيان لما كان عليه الكلام فى أصله وان ذلك قد نسى ونسخ وجعل كأن لم يكن فاعرفه .

وأما اذا أريد باليد القدرة فهى إذن أحن (٢) الى موضعها الذى بدئت منه واضبث بأصلها (٣) لأنك لاتكاد تجدها تراد معها القدرة الا والكلام مثل صريح ومعنى القدرة منتزع من اليد مع غيرها أو هناك تلويح بالمثل ، فمن الصريح قولهم : فلان طويل اليد يراد فضل القدرة ، فأنت لو وضعت القدرة ههنا فى موضع اليد أحلت كما أنك لو حاولت فى قول النبى صلى الله عليه وسلم — وقد قالت له نساؤه صلى الله عليه وسلم : أيتنا أسرع لحاقا بك يارسول الله ؟ فقال « أطولكن يداً » يريد السخاء والجود وبسط اليد بالبذل ، أن تضع موضع اليد شيئاً مما أريد بهذا الكلام خرجت عن المعقول ، وذلك أن الشبه مأخوذ من مجموع الطول واليد مضافا ذلك الى هذه . وطلبه من اليد وحدها طلب الشىء على غير وجهه .

ومن الظاهر فى كون الشبه مأخوذاً مابين اليد وغيرها قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) المعنى على أنهم

---

(١) يريد اظهار المضاف المحذوف الذى هو نقش .
(٢) فى النسخة الأخرى (أجن) بالجيم بدل أحن .
(٣) أضبث تفضيل من ضبث بالشىء (كضرب) اذا قبض عليه قبضا شديدا .

أمروا باتباع الأمر فلما كان التقدم بين يدى الرجل خارجاً عن صفة المتابع له ضرب له جملة هذا الكلام مثلا للاتباع فى الأمر ، فصار النهى عن التقدم متعلقاً باليد نهياً عن ترك الاتباع . فهذا مما لايخفى على ذى عقل أنه لاتكون فيه اليد بانفرادها عبارة عن شىء كما يتوهم أنها عبارة عن النعمة ومتناولة لها كالوضع المستأنف حتى كأن لو لم تكن قط اسم جارحة وهكذا قول النبى صلى الله عليه وسلم « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » المعنى وان كان على قولك وهم عون على من سواهم ؛ فلا تقول ان اليد بمعنى العون حقيقة بل المعنى أن مثلهم مع كثرتهم فى وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة فكما لايتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضا وأن تختلف بها الجهة فى التصرف كذلك سبيل المؤمنين فى تعاضدهم على المشركين ، لان كلمة التوحيد جامعة لهم ، فلذلك كانوا كنفس واحدة ، فهذا كله مما يعترف لك كل أحد فيه بأن اليد على انفرادها لاتقع على شىء فيتوهم لها نقل من معنى الى معنى على حد وضع الاسم واستئنافه .

فأما ماتكون اليد فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل دون التصريح حتى ترى كثيراً من الناس يطلق القول أنها بمعنى القدرة ويجريها مجرى اللفظ يقع لمعنيين فكقوله تعالى : (والسموات مطويات بيمينه) تراهم يطلقون أن اليمين بمعنى القدرة ويصلون اليه قول الشماخ .

اذا ماراية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين [1]

---

(١) قبل البيت :

رأيت عرابة الأوسى يسمو الى الخيرات منقطع القرين

كما فعل أبو العباس فى الكامل فانه أنشد البيت ثم قال قال أصحاب المعانى معناه بالقوة ، وقالوا مثل ذلك فى قوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) وهذا منهم تفسير على الجملة ، وقصد الى نفى الجارحة بسرعة ، خوفاً على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه ، جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين ، ولم يقصدوا الى بيان الطريقة والجهة التى منها يحصل على القدرة والقوة . واذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل ، وكما انا نعلم فى صدر هذه الآية وهو قوله عز وجل (والارض جميعاً قبضته يوم القيامة) أن محصول المعنى على القدرة ثم لانستجيز أن نجعل القبضة اسماً للقدرة بل نصير الى القدرة من طريق التأويل والمثل ، فنقول ان المعنى والله أعلم أن مثل الارض فى تصرفها تحت أمر الله وقدرته وأنه لايشذ شىء مما فيها عن سلطانه عز وجل ، مثل الشىء يكون فى قبضة الآخذ له منا والجامع يده عليه — كذلك حقناً أن نسلك بقوله « مطويات بيمينه » هذا المسلك فكان المعنى والله أعلم انه عز وجل يخلق فيها صفة الطى حتى ترى كالكتاب المطوى بيمين الواحد منكم ، وخص اليمين لتكون أعلى وأفخم للمثل . واذا كنت تقول « الأمر كله لله » فتعلم أنه على سبيل أن لاسلطان لاحد دونه ولا استبداد وكذلك اذا قلت للمخلوق « الأمر بيدك » أردت المثل وأن الأمر كالشىء يحصل فى يده من حيث لايمتنع عليه — فما معنى التوقف فى أن اليمين مثل وليست باسم للقدرة ، وكاللغة المستأنفة ؟ ومن أين يتصور ذلك وأنت لاتراها تصلح حيث لاوجه للمثل والتشبيه ؟ فلا يقال : هو عظيم اليمين بمعنى عظيم القدرة ، وقد عرفت يمينك على هذا ، كما تقول عرفت قدرتك ، وهكذا شأن البيت ، اذا حسنت النظر وجدته اذا لم تأخذه من طريق المثل

ولم تأخذ مجموع المعنى من مجموع التلقي واليمين على حد قولهم « تقبله بكلتا اليدين » وكقوله :

ولكن تلقت باليدين ضمانتي وحل بفلج والقنافذ عودي (١)

وقبل هذا البيت

لعمرك ماملت ثواء ثويها دليجة إذ ألقى مراسي مقعد(٢)

وهو يشكوك الى طبع الشعر (٣) ورأيت المعنى يتألم ويتظلم . وإن أردت أن تختبر ذلك فقل :

اذا ماراية رفعت لمجد تناولها عرابة باليمين

ثم انظر هل تجد ما كنت تجد إن كنت ممن يعرف طبع الشعر ، ويفرق بين التفه الذى لا يكون له طعم ، وبين الحلو اللذيذ ؟ . ومما يبين ذلك من جهة العبارة أن الشعر كما تعلم لمدح الرجل بالجود والسخاء لأنه سأل الشماخ عما أقدمه فقال : جئت لأمتار . فأوقر رواحله تمراً وبراً وأتحفه بغير ذلك

واذا كان كذلك كان المجد الذى تطاول له ومد اليه يده من المجد الذى أراده أبو تمام بقوله :

توجع أن رأت جسمي نحيفا كأن المجد يدرك بالصراع

ولو كان فى ذكر البأس والبطش وحيث تراد القوة والشدة لكان حمل اليمين على صريح القوة أشبه ، وبأن يقع منه فى القلب معنى يماسك أجدر ، فان قال أراد تلقاها بجد وقوة رغبة ، قيل فينبغي أن يضع اليمين فى مثل هذه

(١) الضمانة : المرض كالزمانة . وفلج والقنافذ موضعان

(٢) الثواء : الاقامة والثوى « بوزن فعيل » الضيف والمراسي جمع مرساة لانجر السفينة ويقال ألقى مراسيه أى أقام والمقعد بالضم من يصاب بداء القعاد وهو داء يقعد من يصاب به

(٣) الجملة حال من ضمير وجدته وقوله «ورأيت» معطوف على وجدته

المواضع (١) ومن التزم ذلك فالسكوت عنه أحسن . ومازال الناس يقولون للرجل اذا أرادوا حثه على الأمر وأن يأخذ فيه بالجد « أخرج يدك اليمنى » وذاك أنها أشرف اليدين وأقواهما والتى لاغناء للاخرى دونها ؛ فلا عنى إنسان بشىء إلا ابدأ بيمينه فهيأها لنيله . ومتى ماقصدوا جعل الشىء فى جهة العناية جعلوه فى اليد اليمنى، وعلى ذلك قول البحترى :

وإن يدى وقد أسندت أمرى | اليه اليوم فى يدك اليمين

« اليه » يعنى الى يونس بن بغا وكان حظيا عند الممدوح وهو المعتز بالله ولو أن قائلا قال :

إذا ماراية رفعت لمجد | ومكرمة مددت لها اليمينا

لم تره عادلا باليمين عن الموضع الذى وضعها الشماخ فيه . ولو أن هذا التأويل منهم كان فى قول سليمان بن قتة العدوى :

بنى تيم بن مرة ان ربى | كفانى أمركم وكفا كمونى
فحيوا ما بدا لكم فانى | شديد الفرس للضغن الحرون (٢)
يعانى فقدكم أسد مدل | شديد الأسر يضبث باليمين (٣)

لكانوا أعذر فيه ؛ لأن المدح مدح بالقوة والشدة . وعلى ذلك فان اعتبار الأصل الذى قدمت وهو أنك لاترى اليمين حيث لا معنى لليد يقف بنا

---

(١) يريد بهذا الوضع أن يستعملها فى هذا المعنى استعمالا حقيقيا لامثلا

(٢) الفرس : مصدر فرس الأسد فريسته « كضرب » اذا دق عنقها ثم توسع فيه فاستعمل فى القتل مطلقا . والضغن « ككتف » المنطوى على الحقد . والحرون : الصعب لاينقاد

(٣) المدل المجترىء والاسر مصدر اسر « كضرب » أى قبض وأخذ وهو قبا يصنعه رجل بآخر فلا يقال أسر الشىء . وشد الله أسره أحكم ربط أعضائه بالاعصاب ويضبث : يقبض بكفه بشدة وتقدم

على الظاهر كأنه قال : اذا ضبث ضبث باليمين

ومما يبين موضع بيت الشماخ اذا اعتبرت (١) به قول الخنساء :

اذا القوم مدوا بأيديهم الي المجـد مد اليه يداً
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعداً

اذا رجعت الى نفسك لم تجد فرقاً بين أن يمد الى المجد يداً وبين أن يتلقى رايته باليمين ، وهذا إن أردت الحق أبين من أن تحتاج فيه الى فضل قول إلا أن هذا الضرب من الغلط كالداء الدوى حقه أن يستقصى فى الـكى عليه والعلاج منه ، فجنايته على معانى ماشرف من الـكلام عظيمة ، وهو مادة للمتـكلفين فى التأويلات البعيدة والأقوال الشنيعة

ومثل من توقف فى التفات هذه الأسامى الى معانيها الأول وظن أنها مقطوعة عنها قطعاً يرفع الصلة بينها وبين ما جازت اليه مثل من اذا نظـر فى قوله تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) فرأى المعـنى على الفهـم والعقل أخذه ساذجا (٢) وقبله غفلا ، وقال القلب ههنا بمعنى العقل ، وترك أن يأخذه من جهته ، ويدخل الى المعنى من طريق المثل ، فيقول انه حين لم ينتفع بقلبه ، ولم يفهم بعد أن كان القلب للفهم جعل كأنه قد عدم القلب جملة وخلع من صدره خلعاً ، كما جعل الذى لا يعى الحـكمة ولا يعمل الفـكر فيما تدركه عينه وتسمعه أذنه كأنه عادم للسمع والبصر ، وداخل فى العمى والصمم ويذهب (٣) عن أن الرجل اذا قال : قد غاب عنى قلبى ، وليس يحضرنى

(١) أى اعتبرت بذلك الذى يبين موضع بيت الشماخ «ش»
(٢) وجملة أخذه جواب اذا نظر . .
(٣) و يذهب معطوف على قوله قال القلب ههنا بمعنى العقل الخ «ش»

قلبي، فانه يريد أن يخيل الى السامع أنه قد فقد قلبه دون أن يقول غاب عنى علمى وعزب عقلى ، وإن كان المرجع عند التحصيل الى ذلك كما أنه اذا قال : لم أكن ههنا ، يريد شدة غفلته عن الشيء ، فهو يضع كلامه على تخييل أنه كان غاب هكذا بجملته وبذاته ؛ دون أن يريد الرجل الاخبار بأن علمه لم يكن هناك

وغرضى بهذا أن أعلمك أن من عدل عن الطريقة فى الخفى ، أفضى به الأمر الى أن ينكر الجلى ؛ وصار من دقيق الخطأ الى الجليل ، ومن بعض الانحراف الى ترك السبيل ، والذى جلب التخليط والخبط الذى تراه فى هذا الفن ، أن الفرق بين ان يكون التشبيه مأخوذاً من الشيء وحده ، وبين أن يؤخذ ما بين شيئين ، وينتزع من مجموع كلام ، هو كما عرفتك فى الفرق بين الاستعارة والتمثيل ، من أن من القول ما تدخل فيه الشبهة على الانسان من حيث لا يعلم ، وهو[1] من السهل الممتنع ، يريك أن قد انقاد وبه اباء ، ويوهمك ان قد أثرت فيه رياضتك وبه بقية شماس ،

ومن خاصيته أنك لا تفرق فيه بين الموافق والمخالف ، والمعترف به والمنكر له ، فانك ترى الرجل يوافقك فى الشيء منه ويقر بأنه مثل حتى اذا صار الى نظير له خلط اما فى أصل المعنى واما فى العبارة ، فالتخليط فى المعنى كما مضى من تأول اليمين على القوة ، وكذكرهم ان القلب فى الآية يعنى العقل ثم عدهم ذلك وجها ثانيا . والتخليط فى العبارة كنحو ماذكره بعضهم فى قوله :

هون عليك فان الأمور بكف الاله مقاديرها

فانه استشهد به فى تأويل خبر جاء فى عظم الثواب على الزكاة اذا كانت

---

(١) أى الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذا من الشيء الواحد أو ما بين شيئين

من الطيب ثم قال : الكف ههنا بمعنى السلطان والملك والقدرة . قال : وقيل الكف ههنا بمعنى النعمة . والخبر هو مارواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن أحدكم اذا تصدق بالتمرة من الطيب ولا يقبل الله الا الطيب جعل الله ذلك فى كفه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه[1] حتى يبلغ بالتمرة مثل أحد » ما يظن بمن نظر فى العربية يوما أن يتوهم أن الكف تكون على هذا الاطلاق وعلى الانفراد بمعنى السلطان والقدرة والنعمة ، ولكنه أراد المثل فأساء العبارة ! الا أن من سوء العبارة ما أثر التقصير فيه أظهر ، وضرره على الكلام أبين ، فاستقصاء هذا الباب لايتم حتى يفرد بكلام والوجه الرجوع الى الغرض . ويجب أن يعلم قبل ذلك أن خلاف من خالف فى اليد واليمين وسائر ماهو مجاز لامن طريق التشبيه الصريح أو التمثيل لايقدح فيما قدمت من حد الحقيقة والمجاز ، لأنه لايخرج فى خلافه عن واحد من الاعتبارين ، فمتى جعل اليمين على انفرادها تفيد القوة فقد جعلها حقيقة ، وأغناها عن أن تستند فى دلالتها الى شيء ، وان اعترف بضرب من الجار الى الحاجة والنظر اليها فقد وافق فى أنها مجاز ؟ وكذا القياس فى الباب كله فاعرفه

(١) الفلو : بالفتح وتشديد الواو كعدو وبالكسر المهر اذا فصل عن أمه. وقال بعضهم المهرا والجحش اذا فطما أو بلغ سنة وجمعه أفلاء كأعداء ومعنى بلوغ التمرة مثل أحد أن ثوابها يكون فى عظمه كذلك الجبل

فصل

« فى المجاز العقلى والمجازاللغوى والفرق بينهما »

والذى ينبغى أن يذكر الآن حد الكلمة فى الحقيقة والمجاز الا أنك تحتاج أن تعرف فى صدر القول عليها ومقدمته أصلا وهو المعنى الذى من أجله اختصت الفائدة بالجملة ولم تجز حصولها بالكلمة الواحدة كالاسم الواحد والفعل من غير اسم يضم اليه . والعلة فى ذلك أن مدار الفائدة فى الحقيقة على الاثبات والنفى ، ألا ترى أن الخبر أول معانى الكلام وأقدمها والذى تستند سائر المعانى اليه وتترتب عليه وهو ينقسم الى هذين الحكمين . واذا ثبت ذلك فان الاثبات يقتضى مثبتا ومثبتاله نحو انك اذا قلت : ضرب زيد أو زيد ضارب فقد أثبت الضرب فعلا أو وصفا وكذلك النفى يقتضى منفياً ومنفياً عنه فاذا قلت : ماضرب زيد ، ما زيد ضارب . فقد نفيت الضرب عن زيد وأخرجته عن أن يكون فعلا له . فلما كان الأمر كذلك احتيج الى شيئين يتعلق الاثبات والنفى بهما فيكون أحدهما مثبتا والآخر مثبتا له ، وكذلك يكون أحدهما منفيا والآخر منفياً عنه ، فكان ذانك الشيئان المبتدأ والخبر والفعل والفاعل ، وقيل للمثبت وللمنفى مسند وحديث وللمثبت له والمنفى عنه مسند اليه ومحدّث عنه. واذا رمت الفائدة أن تحصل لك من الاسم الواحد أو الفعل وحده صرت كأنك تطلب أن يكون الشيء الواحد مثبتا ومثبتا له ومنفيا ومنفياً عنه وذلك محال

فقد حصل من هذا أن لكل واحد من حكمى الاثبات والنفى حاجة الى تقييده مرتين ، وتعلقه بشيئين ، تفسير ذلك أنك اذا قلت : ضرب زيد ،

فقد قصدت إثبات الضرب لزيد فقولك « اثبات الضرب » تقييد للاثبات باضافته الى الضرب ثم لا يكفيك هذا التقييد حتى تقيده مرة أخرى فتقول : اثبات الضرب لزيد . فقولك « لزيد » تقييد ثان وفى حكم إضافة ثانية . وكما لايتصور أن يكون ههنا اثبات مطلق غير مقيد بوجه أعنى أن يكون اثباتا ولامثبت لهولاشيء يقصد بذلك الاثبات اليه لا صفة ولا حكم ولا موهوم بوجه من الوجوه ، كذلك لايتصور أن يكون ههنا اثبات مقيد تقييداً واحداً نحو إثبات شيء فقط دون أن تقول : اثبات شيء لشيء : كما مضى من اثبات الضرب لزيد . والنفى بهذه المنزلة فلا يتصور نفى مطلق ولا نفى شيء فقط ، بل يحتاج الى قيدين كقولك نفى شيء عن شيء

فهذه هي القضية المبرمة الثابتة التى تزول الراسيات ولا تزول . ولا تنظر الى قولهم : فلان يثبت كذا أى يدعى انه موجود وينفى كذا أى يقضى بعدمه كقولنا : أبو الحسن يثبت مثال جحدب (بفتح الدال) وصاحب الكتاب ينفيه لأن الذى قصدته هو الاثبات والنفى فى الكلام

ثم اعلم أن فى الاثبات والنفى بعد هذين التقييدين حكما آخر هو كتقييد ثالث وذلك أن للاثبات جهة وكذلك النفى ، ومعنى ذلك أنك تثبت الشيء للشيء مرة من جهة وأخرى من جهة غير تلك الأولى . وتفسيره أنك تقول ضرب زيد فتثبت الضرب فعلا لزيد . وتقول مرض زيد فتثبت المرض وصفا له ، وهكذا سائر ما كان من أفعال الغرائز والطباع وذلك فى الجملة على مالا يوصف الانسان بالقدرة عليه نحو كرُم وظرُف وحسن وقبح وطال وقصر . وقد يتصور فى الشيء الواحد أن تثبته من

الجهتين جميعاً وذلك فى كل فعل دل على معنى يفعله الانسان فى نفسه نحو قام وقعد . اذا قلت قام زيد ، فقد أثبت القيام فعلا له من حيث تقول فعل القيام وأمرته بأن يفعل القيام ، وأثبته أيضاً وصفاً له من حيث ان تلك الهيئة موجودة فيه وهو فى اكتسابه لها كالشخص المنتصب والشجرة القائمة على ساقها التى توصف بالقيام لامن حيث كانت فاعلة له بل من حيث كان وصفاً موجوداً فيها

واذ قد عرفت هذا الأصل فههنا أصل آخر يدخل فى غرضنا وهو أن الأفعال على ضربين : متعد وغير متعد ، فالمتعدى على ضربين ضرب يتعدى الى شيء هو مفعول به كقولك : ضربت زيداً « زيداً » مفعول به لأنك فعلت به الضرب ولم يفعله بنفسه و « ضرب » يتعدى الى شيء هو مفعول على الاطلاق وهو فى الحقيقة كفعل . وكل ما كان مثله فى كونه عاما غير مشتق من معنى خاص كصنع وعمل وأوجد وأنشأ ، ومعنى قولى « من معنى خاص » انه ليس كضرب الذى هو مشتق من الضرب أو أعلم الذى هو مأخوذ من العلم . وهكذا كل ما كان له مصدر ذلك المصدر فى حكم جنس من المعانى فهذا الضرب [1] اذا أسند الى شيء كان المنصوب له مفعولا لذلك الشيء على الاطلاق كقولك فعل زيد القيام . فالقيام مفعول فى نفسه وليس بمفعول به . وأحق من ذلك أن تقول : خلق الله الاناسى ، وأنشأ العالم ، وخلق الموت والحياة . المنصوب فى هذا كله مفعول مطلق [2] لا تقييد فيه اذ من المحال أن يكون معنى « خلق العالم » فعل

(١) يريد بهذا الضرب نحو فعل وصنع الخ

(٢) يريد بمطلق معناه اللغوى فلا يشكل على القيدين بظواهر الألفاظ فيحسبون أنه المفعول المطلق الاصطلاحى ثم يتكلفون الأجوبة

الخلق به كما تقول فى « ضربت زيداً » فعلت الضرب بزيد ، لأن الخلق من خلق كالفعل من فعل فلو جاز أن يكون المخلوق كالمضروب لجاز أن يكون المفعول نفسه كذلك حتى يكون معنى فعل القيام فعل شيئا بالقيام وذلك من شنيع المحال

واذ قد عرفت هذا فاعلم أن الاثبات فى جميع هذا الضرب أعنى فيما منصوبه مفعول وليس مفعولا به يتعلق بنفس المفعول . فاذا قلت : فعل زيد الضرب ، كنت أثبت الضرب فعلا لزيد وكذلك تثبت العالم فى قولك « خلق الله العالم » خلقا لله تعالى ولا يصح فى شىء من هذا الباب أن تثبت المفعول وصفا [1] البتة وتوهم ذلك خطأ عظيم وجهل نعوذ بالله منه

وأما الضرب الآخر وهو الذى منصوبه مفعول به فانك تثبت فيه المعنى الذى اشتق منه فعل فعلا للشىء كاثباتك الضرب لنفسك فى قولك : ضربت زيداً ، فلا يتصور أن يلحق الاثبات مفعوله لأنه اذا كان مفعولا به ولم يكن فعلا لك استحال أن تثبته فعلا واثباته وصفا أبعد فى الاحالة فأما قولنا فى نحو : ضربت زيداً انك اثبت زيداً مضروباً فان ذلك يرجع الى أنك تثبت الضرب واقعا به منك ، فاما أن تثبت ذات زيد لك فلا يتصور ، لأن الاثبات معنى لابد له من جهة ولا جهة ههنا . وهكذا اذا قلت أحيا الله زيدا كنت فى هذا الكلام مثبتاً الحياة فعلا لله تعالى فى زيد . فأما ذات زيد فلم تثبتها فعلا لله بهذا الكلام وانما يتأتى لك ذلك بكلام آخر نحو أن تقول : خلق الله زيداً وأوجده وما شاكله مما لا يشتق

(١) أى كما أثبته وصفا فى فعل القيام . وقوله من « هذا الباب » أى باب خلق الله الاناسى الخ

من معنى خاص كالحياة والموت ونحوهما من المعانى

واذ قد تقررت هذه المسائل فينبغى أن تعلم أن من حقك اذا أردت أن تقضى فى الجملة بمجاز أو حقيقة أن تنظر اليها من جهتين (احداهما) أن تنظر الى ماوقع بها من الاثبات أهو فى حقه وموضعه أم قد زال عن الموضع الذى ينبغى أن يكون فيه ؟ و (الثانية) أن تنظر الى المعنى المثبت أعنى ماوقع عليه الاثبات كالحياة فى قولك أحيا الله زيدا ، والشيب فى قولك أشاب الله رأسى أثابت هو على الحقيقة أم قد عدل به عنها ، واذا مثل لك دخول المجاز على الجملة من الطريقين عرفت اثباتها على الحقيقة منها .

فمثال مادخله المجاز من جهة الاثبات دون المثبت قوله :

وشيب أيام الفراق مفارق وأنشرن نفسى فوق حيث تكون

وقوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومر العشى

المجاز واقع فى اثبات الشيب فعلا للايام ولكر الليالى وهو الذى أزيل عن موضعه الذى ينبغى أن يكون فيه لأن من حق هذا الاثبات أعنى اثبات الشيب فعلا أن لا يكون الا مع أسماء الله تعالى فليس يصح وجود الشيب فعلا لغير القديم سبحانه ، وقد وجه فى البيتين كما ترى الى الأيام والليالى ، وذلك مالا يثبت له فعل بوجه لا الشيب ولا غير الشيب . وأما المثبت فلم يقع فيه مجاز لأنه الشيب وهو موجود كما ترى . وهكذا اذا قلت : سرنى الخبر وسرنى لقاؤك . فالمجاز فى الاثبات دون المثبت لأن المثبت هو السرور وهو حاصل على حقيقته

ومثال مادخل المجاز فى مثبته دون اثباته قوله عز وجل : « أو من

كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس) وذاك أن المعنى والله أعلم على أن جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب على حد قوله : (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا) فالمجاز في المثبت وهو الحياة فأما الاثبات فواقع على حقيقته لأنه ينصرف الى أن الهدى والعلم والحكمة فضل من الله وكائن من عنده . ومن الواضح في ذلك قوله عز وجل (فأحيينا به الارض بعد موتها) وقوله (ان الذى أحياها لمحيي الموتى) جعل خضرة الارض ونضرتها وبهجتها بما يظهره الله تعالى فيها من النبات والأنوار والأزهار وعجائب الصنع حياة لها فكان ذلك مجازاً في المثبت من حيث جعل ماليس بحياة حياة على التشبيه فأما نفس الاثبات فمحض الحقيقة لأنه اثبات لما ضرب الحياة مثلا له فعلا لله تعالى ولا حقيقة أحق من ذلك .

وقد يتصور أن يدخل المجاز للجملة من الطريقين جميعاً وذلك أن يشبه معنى بمعنى وصفة بصفة فيستعار لهذه اسم تلك ثم تثبت فعلا لما لايصح الفعل منه أو فعل تلك الصفة فيكون أيضا في كل واحد من الاثبات والمثبت مجاز كقول الرجل لصاحبه : أحيتني رؤيتك . يريد آنستني وسرتني ونحوه فقد جعل الأنس والمسرة الحاصلة بالرؤية حياة أولا ثم جعل الرؤية فاعلة لتلك الحياة . وشبيه به قول المتنبي :

وتحيي له المال الصوارم والقنا ويقتل مايحيي التبسم والجدا

جعل الزيادة والوفور حياة في المال وتفريقه في العطاء قتلا ثم أثبت الحياة فعلا للصوارم والقتل فعلا للتبسم مع العلم بأن الفعل لايصح منهما . ونوع منه « أهلك الناس الدينار والدرهم » جعل الفتنة هلاكاً على المجاز ثم أثبت الهلاك فعلا للدينار والدرهم وليسا مما يفعلان فاعرفه .

وإذ قد تبين لك المنهاج فى الفرق بين دخول المجاز فى الاثبات وبين دخوله فى المثبت وبين أن ينتظمهما وعرفت الصورة فى الجميع فاعلم أنه اذا وقع فى الاثبات فهو متلق من العقل فاذا عرض فى المثبت فهو متلق من اللغة فان طلبت الحجة على صحة هذه الدعوى فان فيما قدمت من القول ماينها لك ويختصر لك الطريق الى معرفتها وذلك أن الاثبات اذا كان من شرطه أن يقيد مرتين كقولك اثبات شىء لشىء ولزم من ذلك أن لا يحصل الا بالجملة التى هى تأليف بين حديث ومحدث عنه ومسند ومسند اليه علمت أن مأخذه العقل وانه القاضى فيه دون اللغة لأن اللغة لم تأت لتحكم بحكم أو لتثبت وتنفى وتنقض وتبرم فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أو ليس بفعل له وان المرض صفة له أو ليس بصفة له شىء يضعه المتكلم ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب أو اعتراف أو انكار وتصحيح أو افساد فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللغة فى ذلك بسبيل ولا منه فى قليل ولا كثير :

واذا كان كذلك كان كل وصف يستحقه هذا الحكم من صحة وفساد وحقيقة ومجاز واحتمال واستحالة فالمرجع فيه والوجه الى العقل المحض وليس للغة فيه حظ فلا تحلى ولا تمر ، والعربى فيه كالعجمى والعجمى كالتركى لأن قضايا العقول هى القواعد والأسس التى يبنى غيرها عليها ، والأصول التى يرد ماسواها اليها.

فأما اذا كان المجاز فى المثبت كنحو قوله تعالى : (فأحيينا به الارض) فانما كان مأخذه اللغة لأجل أن طريقه المجاز بأن أجرى اسم الحياة على ماليس بحياة تشبيهاً وتمثيلا ثم اشتق منها وهى فى هذا التقدير الفعل الذى

هو « أحيا » واللغة هي التي اقتضت أن تكون الحياة اسماً للصفة التي هي ضد الموت فاذا تجوز في الاسم فأجرى على غيرها فالحديث مع اللغة فاعرفه .

ان قال قائل في أصل الكلام الذي وضعته على أن المجاز يقع تارة في الاثبات وتارة في المثبت وأنه اذا وقع في الاثبات فهو طالع عليك من جهة العقل وبادلك من أفقه ، واذا عرض في المثبت فهو آتيك من ناحية اللغة : ما قولكم ان سويت بين المسئلتين وادعيت أن المجاز بينهما جميعاً في المثبت وأنزل هكذا فأقول: الفعل الذي هو مصدر فعل قد وضع في اللغة للتأثير في وجود الحادث كما أن الحياة موضوعة للصفة المعلومة فاذا قيل « فعل الربيع النور » جعل تعلق النور في الوجود بالربيع من طريق السبب والعادة فعلا ، كما تجعل خضرة الارض وبهجتها حياة والعلم في قلب المؤمن نوراً وحياة . واذا كان كذلك كان المجاز في أن جعل ماليس بفعل فعلا وأطلق اسم الفعل على غير ما وضع له في اللغة كما جعل ماليس بحياة حياة وأجرى اسمها عليه فاذا كان ذلك مجازاً لغوياً فينبغي أن يكون هذا كذلك .

فالجواب أن الذي يدفع هذه الشبهة أن تنظر الى مدخل المجاز في المسئلتين فان كان مدخلهما (١) من جانب واحد فالأمر كما ظننت وان لم يكن كذلك استبان لك الخطأ في ظنك . والذي يبين اختلاف دخوله فيهما انك تحصل على المجاز في مسئلة الفعل بالاضافة لا بنفس الاسم فلو قلت اثبت النور فعلا لم تقع في مجاز لأنه فعل الله تعالى وانما تصير الى المجاز اذا قلت اثبت النور فعلا للربيع . وأما في مسألة الحياة فانك تحصل على المجاز باطلاق الاسم فحسب من غير اضافة وذلك قولك : اثبت بهجة

(١) في النسخة الأخرى « فاذا كان يدخلهما »

الارض حياة أو جعلها حياة . أفلا ترى المجاز قد ظهر لك فى الجملة من غير ان أضفتها الى شىء أى من غير ان قلت لكذا . وهكذا اذا عبرت بالنفى تقول فى مسئلة الفعل جعل ماليس بفعل للربيع فعلا له . وتقول فى هذه : جعل ماليس بحياة حياة وتسكت ولا تحتاج أن تقول : جعلت ماليس بحياة للارض حياة للارض بل لامعنى لهذا الكلام لأنه يقتضى أنك أضفت حياة حقيقة الى الارض وجعلتها مثلا تحيا بحياة غيرها وذلك بين الاحالة . ومن حق المسائل الدقيقة أن تتأمل فيها العبارات التى تجرى بين السائل والمجيب وتحقق فان ذلك يكشف عن الغرض ويبين جهة الغلط . وقولك « جعل ماليس بفعل فعلا » احتذاء لقولنا : جعل ماليس بحياة حياة — لايصح لأن معنى هذه العبارة أن يراد بالاسم غير معناه لشبه يدعى أو شىء كالشبه ، لا أن يعطل الاسم من الفائدة فيراد بها ماليس بمعقول فنحن اذا تجوزنا فى الحياة فأردنا بها العلم فقد أودعنا الاسم معنى وأردنا به صفة معقولة كالحياة نفسها ولا يمكنك أن تشير فى قولك « فعل الربيع النور » الى معنى تزعم أن لفظ الفعل ينقل عن معناه اليه فيراد به حتى يكون ذلك المعنى معقولا منه كما عقل التأثير فى الوجود وحتى تقول لم أرد به التأثير فى الوجود ولكن أردت المعنى الفلانى الذى هو شبيه به أو كالشبيه أو ليس بشبيه مثلا ، الا أنه معنى خلف معنى آخر على الاسم إذ ليس وجود النور يعقب المطر أو فى زمان دون زمان ، فما يعطيك معنى فى المطر أو فى الزمان فتؤديه بلفظ الفعل فليس الا أن تقول لما كان النور لايوجد الا بوجود الربيع توهم للربيع تأثير فى وجوده فأثبت له ذلك اثبات الحكم أو الوصف لما ليس له قضية عقلية لاتعلق لها فى صحة وفساد باللغة فاعرفه .

ومما يجب ضبطه فى هـذا الباب أن كل حكم يجب فى العقل وجوباً حتى لايجوز خلافه فاضافته الى دلالة اللغة وجعله مشروطا فيها محال لأن اللغة تجرى مجرى العلامات والسمات ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ماجعلت العلامة دليلا عليه وخلافه ، فانما كانت « ما » مثلا علما للنفى لأن ههنا نقيضاً له وهو الاثبات . وهكذا انما كانت « من » لما يعقل لأن ههنا مالا يعقل . فمن ذهب يدعى أن فى قولنا فعل وصنع ونحوه دلالة من جهة اللغة على القادر فقد أساء من حيث قصد الاحسان لأنه والعياذ بالله يقتضى جواز أن يكون ههنا تأثير فى وجود الحادث لغير القادر حتى يحتاج الى تضمين اللفظ الدلالة على اختصاصه بالقادر ، وذلك خطأ عظيم . فالواجب أن يقال : الفعل موضوع للتأثير فى وجود الحادث فى اللغة والعقل قد قضى وبت الحكم بأن لاحظ فى هذا التأثير لغير القادر وما يقوله أهل النظر من أن من لم يعلم الحادث موجوداً من جهة القادر عليه فهو لم يعلمه فعلا لايخالف هذه الجملة بل لايصح حق صحته الا مع اعتبارها وذلك أن للفعل اذا كان موضوعاً للتأثير فى وجود الحادث وكان العقل قد بين بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة استحالة أن يكون لغير القادر تأثير فى وجود الحادث وأن يقع شيء مما ليس له صفة القادر ، فمن ظن الشيء واقعاً من غير القادر فهو لم يعلمه فعلا لأنه لايكون مستحقاً هذا الاسم حتى يكون واقعاً من غيره ، ومن نسب وقوعه الى مالا يصح وقوعه منه ولا يتصور أن يكون له تأثير فى وجوده وخروجه من العدم فلم يعلمه واقعاً من شيء البتة ، واذا لم يعلمه واقعاً من شيء لم يعلمه فعلا كما أنه اذا لم يعلمه كائناً بعد ان لم يكن لم يعلمه واقعاً ولا حادثاً فاعرفه .

واعلم انك ان أردت أن ترى المجاز وقد وقع فى نفس الفعل والخلق ولحقهما من حيث هما لا اثباتهما واضافتهما فالمثال فى ذلك قولهم فى الرجل يشفى على هلكة ثم يتخلص منها : هو انما خلق الآن ، وانما أنشىء اليوم ؛ وقد عدم ثم أنشىء نشأة ثانية ، وذلك أنك تثبت ههنا خلقاً وانشاء من غير أن يعقل ثابتاً على الحقيقة بل على تأويل وتنزيل وهو ان جعلت حالة إشفائه على الهلكة عدماً وفناء وخروجا من الوجود حتى أنتج هذا التقدير أن يكون خلاصه منها ابتداء وجود وخلقاً وإنشاء ، أفيمكنك أن تقول فى نحو « فعل الربيع النور » بمثل هذا التأويل فتزعم أنك أثبت فعلا وقع على النور من غير ان كان ثم فعل ومن غير أن يكون النور مفعولا ؟ أو هو مما يتعوذ بالله منه وتقول الفعل واقع على النور حقيقة وهو مفعول مجهول على الصحة الا أن حق الفعل فيه أن يثبت لله تعالى وقد تجوز باثباته للربيع ؟ أفليس قد بان أن التجوز ههنا فى اثبات الفعل للربيع لا فى الفعل نفسه فان التجوز فى مسئلة المتخلص من الهلكة حيث قلت « انه خلق مرة ثانية » فى الفعل لا فى اثباته فلك كيف نظرت فرق بين المجاز فى الاثبات وبينه فى المثبت ، وينبغى أن تعلم أن قولى فى المثبت مجاز ليس مرادى أن فيه مجازاً من حيث هو مثبت ولكن المعنى أن المجاز فى نفس الشىء الذى تناوله الاثبات نحو انك أثبت الحياة صفة للارض فى قوله تعالى (يحيي الارض بعد موتها) والمراد غيرها فكان المجاز فى نفس الحياة لافى اثباتها هذا — واذا كان لايتصور اثبات شىء لالشىء استحال أن يوصف المثبت من حيث هو مثبت بأنه مجاز أو حقيقة .

ومما ينتهى فى البيان الى الغاية أن يقال للسائل : هبك تغالطنا بأن

مصدر فعل نقل أولا عن موضوعه فى اللغة ثم اشتق منه فقل لنا مانصنع بالأفعال المشتقة من معانى خاصة كنسج وصاغ ووشى ونقش ؟ أتقول اذا قيل نسج الربيع وصاغ الربيع ووشى أن المجاز فى مصادر هذه الأفعال التى هى النسج والوشى والصوغ أم تعرف انه فى اثباتها فعلا للربيع ؟ وكيف تقول ان فى أنفسها مجازاً وهى موجودة بحقيقتها ؟ بل ماذا يغنى عنك دعوى المجاز فيها لو أمكنك ولا يمكنك أن تقتصر عليها فى كون الكلام مجازاً أعنى لاتملك ان تقول إن الكلام مجاز من حيث لم يكن ائتلاف تلك الأنوار نسجاً ووشياً وتدع حديث نسبتها الى الربيع جانباً ، هذا — وههنا مالا وجه لك لدعوى المجاز فى صدور الفعل كقولك « سرنى الخبر » فان السرور بحقيقته موجود والكلام مع ذلك مجاز . واذا كان كذلك علمنا ضرورة أن ليس المجاز الا فى اثبات السرور فعلا للخبر وإيهام انه أثر فى حدوثه وحصوله ويعلم كل عاقل أن المجاز لو كان من طريق اللغة لجعل ماليس بالسرور سروراً . فأما الحكم بأنه فعل للخبر فلا يجرى فى وهم أنه يكون من اللغة بسبيل فاعرفه .

فان قال : النسج فعل معنى وهو المضامة بين أشياء وكذلك الصوغ فعل الصورة فى الفضة ونحوها واذا كان كذلك قدرت أن لفظ الصوغ مجاز من حيث دل على الفعل والتأثير فى الوجود حقيقة من حيث دل على الصورة كما قدرت أنت فى « أحيا الله الارض » ان أحيا من حيث دل على معنى فعل حقيقة ، ومن حيث دل على الحياة مجاز . قيل ليس لك أن تجىء الى لفظ أمرين فتفرق دلالته وتجعله منقولا عن أصله فى أحدهما دون الآخر . لو جاز هذا لجاز أن تقول فى اللطم الذى هو ضرب باليد أن

يجعل مجازاً من حيث هو ضرب ، وحقيقة من حيث هو باليـد ، وذلك محال لان كون الضرب باليد لاينفصل عن الضرب فكذلك كون الفعل فعلا للصورة لاينفصل عن الصورة ، وليس الأمر كذلك فى قولنا : أحيا الله الارض ، لان معنا هناك لفظين أحدهما مشتق وهو « أحيا » والآخر مشتق منه وهو « الحياة » فنحن نقدر فى المشتق منه انه نقل عن معناه الأصلى فى اللغة الى معنى آخر ثم اشتق منه « أحيا » بعد هذا التقدير ومعه وهو مثل لفظ اليد ينقل الى النعمة ثم يشتق منه « يديت » فاعرفه [1] .

ومما يجب أن يعلم فى هـذا الباب أن الاضافة فى الاسم كالاسناد فى الفعل فكل حكم يجب فى اضافة المصدر من حقيقة أو مجاز فهو واجب فى اسناد الفعل ، فانظر الآن الى قولك : أعجبنى وشى الربيع الرياض وصوغه تبرها وحوكه ديباجها . هـل تعلم لك سبيلا فى هـذه الاضافات الى التعلق باللغـة وأخذ الحكم عليها منها ؟ أم تعلم امتناع ذلك عليك ؟ وكيف والاضافة لاتكون حتى تستقر اللغة ويستحيل أن يكون للغـة حكم فى الاضافة ورسم حتى يعلم بها ان حق الاسم أن يضاف الى هذا دون ذلك . واذا عرفت ذلك فى هذه المصادر التى هى الصوغ والوشى والحوك فضع مصـدر فعل الذى هو عمدتك فى سؤالك وأصـل شبهتك موضعها وقل ماترى الى فعـل الربيع لهـذه المحاسن ثم تأمل هل تجد فصلا بين اضافته واضافة تلك ؟ فاذا لم تجد الفصل البتة فاعلم صحة قضيتنا وانفض يدك بمسئلتك ودع النزاع عنك والى الله تعالى الرغبة فى التوفيق .

---

(١) يدى فلان (كوفى) أصاب يده . ويدى (كرضى) ويدى (مجهول) أصابه بر من آخر .

فصل

قال أبو القاسم الآمدى فى قول البحترى :

فصاغ ماصاغ من تبر ومن ورق وحاك ماحاك من وشى وديباج

صوغ الغيث وحوكه النبات ليس باستعارة بل هو حقيقة ولذلك لا يقال : هو صائغ، ولا كأنه صائغ . وكذلك لا يقال : حائك وكأنه حائك . على أن لفظة حائك خاصة فى غاية الركاكة اذا أخرج على ما أخرجه عليه أبو تمام فى قوله :

اذا الغيث غادى نسجه خلت أنه خلت حقُبُ حرس له وهو حائك(١)

وهذا قبيح جداً والذى قاله البحترى « وحاك ماحاك » حسن مستعمل ، فانظر مابين الكلامين لتعلم مابين الرجلين .

قد كتبت هذا الفصل على وجهه والمقصود منه منعه أن تطلق الاستعارة على الصوغ والحوك ـ وقد جعلا فعلا للربيع ـ واستدلاله على ذلك بامتناع أن يقال : وكأنه صائغ وكأنه حائك . اعلم أن هذا الاستدلال كأحسن ما يكون إلا أن الفائدة تتم بأن تبين جهته ومن أين كان كذلك .

(١) الضمير فى (نسجه) للروض. وغاداه. باكره . وأول الشطر الثانى على مافى الديوان (أتت حقبة) الخ قال فى المصباح . الحقب : الدهر والجمع أحقاب مثل قفل واقفال ـ وضم القاف للاتباع لغة ويقال الحقب ثمانون سنة . والحقبة بمعنى المدة والجمع حقب ـ مثل سدرة وسدر . وقيل الحقبة ـ أى بالكسر ـ مثل الحقب أى بالضم اه قال شيخنا فى الدرس ان تأنيث الفعل (خلت) باعتبار معنى الحقب بالضم وهو المدة أو على أنها بضم ففتح جمع حقبة بالكسر وهى المدة وحرس بالمهملة يريد بها طويلة والحرس بالفتح الدهر ويقال حرس (كعلم) أى عاش طويلا

والقول فيه أن التشبيه كما لايخفى يقتضى شيئين مشبها ومشبهاً به ، ثم ينقسم الى الصريح وغير الصريح . فالصريح أن تقول « كأن زيداً الأسد » فتذكر كل واحد من المشبه والمشبه به باسمه ، وغير الصريح أن تسقط المشبه به من الذكر وتجرى اسمه على المشبه كقولك : رأيت أسداً . تريد رجلا شبيها بالأسد إلا أنك تعير اسمه مبالغة وايهاما أن لا فصل بينه وبين الأسد وأنه قد استحال الى الأسدية . فاذا كان الأمر كذلك وأنت تشبه شخصا بشخص فانك اذا شبهت فعلا بفعل كان هذا حكمه ، فأنت تقول مرة : كأن تزيينه لكلامه نظم در . فتصرح بالمشبه والمشبه به . وتقول أخرى : انما ينظم دراً ، تجعله كأنه ناظم دراً على الحقيقة . وتقول فى وصف الفرس . كأن سيره سباحة وكأن جريه طيران طائر ، هذا اذا صرحت واذا أخفيت واستعرت قلت : يسبح براكبه ، ويطير بفارسه . فتجعل حركته سباحة وطيرانا

ومن لطيف ذلك ما كان كقول أبى دلامة يصف بغلته :

أرى الشهباء تعجن اذ غدونا برجليها وتخبز باليمين

شبه حركة رجليها حين لم تثبتا على موضع تعتمد بهما عليه وهوتا ذاهبتين نحو يديها بحركة يدى العاجن فانه لايثبت اليد فى موضع بل يزلها الى قدام وتزول من عند نفسها لرخاوة العجين ، وشبه حركة يديها بحركة يد الخابز من حيث كان الخابز يثنى يده نحو بطنه ويحدث فيها ضربا من التقويس ، كما تجد فى يد الدابة اذا اضطربت فى سيرها ولم تقف على ضبط يديها ؛ وأن ترمى بها الى قدام ، وأن تشد اعتمادها حتى تثبت فى الموضع الذى تقع عليه فلا تزول عنه ولاتنثنى ؛ وأعود الى المقصود .

فاذا كان لاتشبيه حتى يكون معك شيئان ، وكان معنى الاستعارة أن تغير لفظ المشبه بلفظ المشبه به ولم يكن معنا فى « صاغ الربيع » أو « حاك الربيع » الا شيء واحد وهو الصوغ أو الحوك كان تقدير الاستعارة فيه محالا جاريا مجرى أن يشبه الشيء بنفسه وتجعل اسمه عارية فيه وذلك بين الفساد ، فان قلت : أليس الكلام على الجملة معقوداً على تشبيه الربيع بالقادر فى تعلق وجود الصوغ والنسج به فكيف لم يجز دخول « كأن » فى الكلام من هذه الجهة ؟ فان هذا التشبيه ليس هو التشبيه الذى يعقد فى الكلام (١) ويفاد بكأن والكاف ونحوهما ، وانما هو عبارة عن الجهة التى راعاها المتكلم حين أعطي الربيع حكم القادر فى اسناد الفعل اليه . ووزانه وزان قولنا انهم يشبهون « ما » بليس فيرفعون بها المبتدأ وينصبون بها الخبر فيقولون : مازيد منطلقاً ، فنخبر عن تقدير قدروه فى نفوسهم وجهة راعوها فى اعطاء « ما » حكم « ليس » فى العمل ، فكما لايتصور أن يكون قولنا « مازيد منطلقاً » تشبيها على حد « كأن زيداً الأسد » كذلك لا يكون « صاغ الربيع » من التشبيه فكلامنا اذن فى تشبيه منقول منطوق به وأنت فى تشبيه معقول غير داخل فى النطق — هذا — وان يكن ههنا تشبيه فهو فى الربيع لافى الفعل المسند اليه واختلافنا فى صاغ وحاك هل يكون تشبيها واستعارة أم لافلا يلتقى التشبيهان أو يلتقى المشئم والمعرق

وهذا هو القول على الجملة اذا كانت حقيقة أو مجازا وكيف وجه الحد فيها ، فكل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه فهى حقيقة ولن تكون كذلك حتى تعرى من التأول ، ولا فصل

(١) قوله فان هذا التشبيه الخ هو جواب فان قلت الخ

بين أن تكون مصيبا فيما أفدت بها من الحكم أو مخطئا ، وصادقا أو غير صادق . فمثال وقوع الحكم المفاد موقعه من العقل على الصحة واليقين والقطع قولنا : خلق الله تعالى الخلق وأنشأ العالم وأوجد كل موجود سواه فهذه من أحق الحقائق وأرسخها فى العقول ، وأقعدها نسبا فى المعقول ، والتى ان رمت أن تغيب عنها غبت عن عقلك ، ومتى هممت بالتوقف فى ثبوتها استولى النفى على معقولك ، ووجدتك كالمرمى به من حالق الى حيث لا مقر لقدم ، ولا مساغ لتأخر وتقدم ، كما قال أصدق القائلين جلت أسماؤه ، وعظمت كبرياؤه ، (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) ، وأما مثال أن توضع الجملة على أن الحكم المفاد بها واقع موقعه من العقل وليس كذلك إلا أنه صادر عن اعتقاد فاسد وظن كاذب فمثل ما يجىء فى التنزيل من الحكاية عن الكفار نحو (وما يهلكنا الا الدهر) فهذا ونحوه من حيث لم يتكلم به قائله على أنه متأول بل أطلقه بجهله وعماه اطلاق من يضع الصفة فى موضعها ، لا يوصف بالمجاز ولكن يقال عند قائله انه حقيقة ، وهو كذب وباطل ؛ واثبات لما ليس بثابت ، أو نفى لما ليس بمنتف ، وحكم لا يصححه العقل فى الجملة بل يرده ويدفعه ، الا أن قائله جهل مكان الكذب والبطلان فيه أو جحد وباهت

ولا يتخلص لك الفصل بين الباطل وبين المجاز حتى تعرف حد المجاز ، وحده أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول فهى مجاز ومثاله ما مضى من قولهم « فعل الربيع » وكما جاء فى الخبر

« ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم » (١) قد أثبت الانبات للربيع.

(١) قال الازهرى : وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم « ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم » فان أبا عبيد فسر الحبط وترك من تفسير هذا الحديث أشياء لا يستغنى أهل العلم عن معرفتها فذكرت الحديث على وجهه لافسر منه كل ما يحتاج من تفسير . قال ـ وذكر سنده الى أبى سعيد الخدرى أنه قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال : « انى أخاف عليكم بعدى مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » قال فقال رجل : أو يأتى الخير بالشر يارسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم و رأينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرحضاء وقال « أين هذا السائل » وكانه حمده فقال « انه لايأتى الخير بالشر وان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر فانها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وإن هذا المال خضرة حلوة ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى المسكين واليتيم وابن السبيل ـ أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وانه من يأخذه بغير حقه فهو كالآكل الذى لا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة » قال الازهرى : وإنما تقصيت رواية هذا الخبر لانه اذا بتر استغلق معناه وفيه مثلان ضرب أحدهما للمفرط فى جمع الدنيا مع منع ما جمع من حقه . والمثل الآخر ضربه للمقتصد فى جمع المال وبذله فى حقه . فأما قوله صلى الله عليه وسلم : « وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا » فهو مثل الحريص والمفرط فى الجمع والمنع وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التى تحلوليها الماشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك كذلك الذى يجمع الدنيا و يحرص عليها و يشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب . وأما مثل المقتصد المحمود فقوله صلى الله عليه وسلم « إلا آكلة الخضر فانها أكلت حتى اذا امتلأت خواصرها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت » وذلك أن الخضر ليس من أحرار البقول التى تستكثر منها الماشية فتهلكها أكلا ولكنه من الجنبة التى ترعاها بعد هيج العشب و يبسه قال : وأكثر مارأيت العرب يجعلون الخضر ما كان أخضر من الحلى الذى لم يصفر والماشية ترتع منه شيئا شيئا ولاتستكثر منه فلا تحبط بطونها . قال : وقد ذكره طرفة فبين أنه من نبات الصيف =

وذلك خارج عن موضعه من العقل لان اثبات الفعل لغير القادر لا يصح

= فى قوله :

كبنات المخر يمأدن اذا أنبت الصيف عساليج الخضر

فالخضر من كلاء الصيف فى القيظ وليس من أحرار بقول الربيع والنعم لاتستوبله ولا تحبط بطونها عنه .وقال : و بنات مخر أيضا وهى سحائب يأتين قبيل الصيف قال : وأما الخضارة فهى من البقول الشتوية وليست من الجنبة فضرب النبي صلى الله عليه وسلم آكلة الخضر مثلا لمن يقتصد فى أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف فى قمها والحرص عليها وانه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ألا تراه قال فانها اذا أصابت من الخضر استقبلت عين الشمس فثلطت و بالت . واذا ثلطت فقد ذهب حبطها وانما تحبط الماشية اذا لم تثلط ولم تبل واتطمت عليها بطونها . وقوله : « الا آكلة الخضر » معناه لكن آكلة الخضر . وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم « ان هذا المال خضرة حلوة » فهو ههنا الناعمة الغضة اه لسان العرب . وفيه والحبط أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها مافيها اه

وفى العبارة ألفاظ غريبة على طلاب العلم فى هذا العصر نفسرها ونضبطها وهى الرحضاء بضم الراء وفتح الحاء المهملة العرق الكثير . ويلم مضارع ألم ومعناه هنا يقارب . وثلط (كضرب) سلح رقيقا لينا بسهولة . وأحرار العشب الرقيق الرطب منه وقالوا : أحرار البقول ماأكل منه غير مطبوخ كالخس وهو مجاز . وقال أبو الهيثم : أحرار البقول مارق منها و رطب ، وذكورها ما غلظ منها وخشن ، والجنبة بالفتح هى كما قال الازهرى اسم لنبوت كثيرة وهى كلها عروق سميت جنبة لانها صغرت عن الشجر الكبار وارتفعت عن التى لا أرومة لها فى الارض. وقال غيره هي ماله أصل غامض فى الارض والخضر بفتح فكسر ضرب من الجنبة واحدته بالهاء (خضرة)، والحلى (كعلى) ماابيض من يبيس النصى وهو (بوزنه) نبات سبط من أفضل المراعى. ونبات المخر فى بيت طرفة و يقال نبات مخر سحائب بيض رقاق تأتى قبل (كعنق) الصيف .وقوله يمأدن من مأد النبات يمأد اهتز وتروى وجرى فيه الماء والمراد تتحرك و يضطرب فيها ماؤها . والعساليج جمع عسلوج وهو قضيب الشجر والكرم ونحوه أول ماينبت

فى قضايا العقول إلا أن ذلك على سبيل التأول وعلى العرف الجارى بين الناس أن يجعلوا الشىء اذا كان سبباً أو كالسبب فى وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل. فلما أجرى الله سبحانه العادة وأنفذ القضية أن تورق الأشجار وتظهر الأنوار وتلبس الأرض ثوب شبابها فى زمان الربيع صار يتوهم فى ظاهر الأمر ومجرى العادة كأن لوجود هذه الأشياء حاجة الى الربيع فأسند الفعل اليه على هذا التأويل والتنزيل

وهذا الضرب من المجاز كثير فى القرآن فنه قوله تعالى : (تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) وقوله عز اسمه : (واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) وفى الأخرى (فنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) وقوله (وأخرجت الأرض أثقالها) وقوله عز وجل (حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) أثبت الفعل فى جميع ذلك لما لا يثبت له فعل اذا رجعنا الى المعقول على معنى السبب وإلا فمعلوم أن النخلة ليست تحدث الأكل ولا الآيات توجد العلم فى قلب السامع لها ، ولا الأرض تخرج الكامن فى بطنها من الاثقال ولكن اذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز فيها وأودع جوفها . واذا ثبت ذلك فالمبطل والكاذب لا يتأول فى اخراج الحكم عن موضعه واعطائه غير المستحق ، ولا يشبه كون المقصود سببا بكون الفاعل فاعلا بل يثبت القضية من غير أن ينظر فيها من شىء الى شىء ، ويرد فرعاً الى أصل ، وتراه أعمى أكمه يظن مالا يصح صحيحاً ، ومالا يثبت ثابتا ، وما ليس فى موضعه من الحكم موضوعا موضعه . وهكذا المتعمد للكذب يدعى أن الأمر على ماوضعه تلبيساً وتمويها وليس هو من التأول .

والنكتة أن المجاز لم يكن مجازاً لأنه اثبات الحكم لغير مستحقه بل لأنه

أثبت لمـا لا يستحق تشبيهاً ورداً له الى ما يسـتحق ، وانه ينظر من هذا الى ذاك ، واثباته ما أثبت للفرع الذى ليس بمستحق يتضمن الاثبات للأصل الذى هو المستحق ، فلا يتصور الجمع بين شـيئين فى وصف أو حكم من طـريق التشـبيه والتأويل حتى يبدأ بالأصل فى اثبات ذلك الوصف والحـكم له . ألا تراك لاتقدر على أن تشـبه الرجل بالأسد فى الشجاعة مالم تجعل كونها من أخص أوصاف الأسد وأغلبهـا عليه نصب عينيك ، وكذلك لايتصور أن يثبت المثبت الفعل للشىء على أنه سبب مالم ينظر الى ما هو راسخ فى العقل من أن لافعل على الحقيقة الا للقادر ، لأنه لو كان نسب الفعل الى هذا السبب نسبة مطلقة لايرجع فيها الى حكم القـادر والجمع بينهما من حيث تعلق وجوده بهـذا السبب من طريق العادة كما يتعلق بالقادر من طريق الوجوب لمـا اعترف بأنه سبب ولا دعى أنه أصل بنفسه مؤثر فى وجود الحـادث كالقادر ، وان تجاهل متجاهل فقال بذلك على ظهور الفضيحة واسراعهـا الى مدعيـه كان الـكلام عنـده حقيقة ولم يكن من مسئلتنا فى شىء ، ولحق بنحو قول الـكفار « وما يهلـكنا الا الدهر » وليس ذلك المقصود فى مسئلتنا لأن الغرض ههنا ماوضع فيه الحـكم واضـعه على طريق التأول فاعرفه

ومن أوضح ما يدل على أن اثبـات الفعل للشىء لأنه سبب يتضمن اثباته للمسبب من حيث لا يتصور دون تصوره أن تنظـر الى الأفعـال المســـندة الى الأدوات والآلات كقولك : قطع السكين وقتل السـيف . فانك تعـلم أنه لا يقع فى النفس من هذا الاثبات صورة ما لم تنظر الى اثبات الفعل لمعمل الأداة والفاعل بها ، فلو فرضت أن لا يكون ههنا قاطع بالسكين

ومصرف لهـا أعناك [١] أن تعقل من قولك «قطع السكين» معـنى بوجـه من الوجوه . وهذا من الوضوح بحيث لا يشك عاقل فيه ، وهذه الأفعال المسـندة الى من تقع تلك الأفعال بامره كقولك «ضرب الأمير الدراهم وبنى السور» لاتقوم فى نفسك صورة لاثبات الضرب والبناء فعلا للامير بمعنى الأمر به حتى تنظر الى ثبوتهما للمباشر لهما على الحقيقة ، والأمثلة فى هذا المعنى كثيرة تتلقاك من كل جهة وتجدها أنى شئت

واعلم أنه لا يجوز الحـكم على الجملة بأنها مجاز الا بأحد أمرين فاما أن يكون الشىء الذى أثبت له الفعل مما لايدعى أحد من المحقين والمبطلين أنه مما يصح أن يكون له تأثير فى وجود المعنى الذى أثبت له وذلك نحو قول الرجل : محبتك جاءت بى اليك . وكقول عمرو بن العاص فى ذكر الـكلمات التى استحسنها : هن مخرجاتى من الشام ، فهذا مالا يشتبه على أحد أنه مجاز ، واما أنه يكون قد علم من اعتقاد المتـكلم أنه لايثبت الفعل الا للقادر ، وأنه ممن لا يعتقد الاعتقادات الفاسدة كنحو ماقاله المشركون وظنوه من ثبوت الهلاك فعلا للدهر فاذا سمعنا نحو قوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبيـ ـر كر الغداة ومر العشى

وقول أبى الاصبع :

أهلكنا الليل والنهار معاً والدهر يغدو مصمما جذعا [٢]

كان طريق الحـكم عليه بالمجاز أن تعلم اعتقاد التوحيد اما بمعـرفة أحوالهم

(١) أعناك : أتعبك، أى أوقعك فى العناء

(٢) مصمما : ماضيا فى سيره . والدهر جذع أى شاب دائما لا يهرم ويسمى الدهر الازلم الجذع وهو مجاز وأصل الازلم مايقطع طرف اذنه من كرام الابل والشاء والجذع ما قبل الثنى

السابقة أو بأن تجد فى كلامهم من بعد اطلاق هذا النحو ما يكشف عن قصد المجاز فيه كنحو ماصنع أبو النجم فانه قال أولا :

قد أصبحت أمُّ الخيار تدعى على ذنبا كله لم أصنع
من أن رأت رأسى كرأس الاصلع ميز عنه قنزعا عن قنزع (١)
مرُّ الليالى ابطئى أو اسرعى

فهذا على المجاز وجعل الفعل لليالى ومرورها الا أنه خفى غير بادى الصفحة ثم فسر وكشف عن وجه التأول ، وأفاد أنه بنى أول كلامه على التخيل ، فقال :

أفناه قيلُ الله للشمس اطلعى حتى اذا واراك أفق فارجعى

فبين أن الفعل لله وانه المعيد والمبدئ والمنشئ والمفنى ، لأن المعنى فى «قيل الله» أمر الله ، واذ جعل الفناء بأمره فقد صرح بالحقيقة ، وبين ما كان عليه من الطريقة ،

واعلم أنه لا يصح أن يكون قول الكفار « وما يهلكنا الا الدهر » من باب التأويل والمجاز وأن يكون الانكار عليهم من جهة ظاهر اللفظ وان فيه ايهاما للخطأ . كيف وقد قال تعالى بعقب الحكاية عنهم : (وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) والمتجوز أو المخطئ فى العبارة لا يوصف بالظن ، انما الظان من يعتقد أن الأمر على ما قاله وكما يوجبه ظاهر كلامه ، وكيف يجوز أن يكون الانكار من طريق اطلاق اللفظ دون اثبات الدهر فاعلا للهلاك وأنت ترى فى نص القرآن ما جرى فيه اللفظ على اضافة فعل

(١) المعروف فى الشطر الرابع روايتان احداهما «طير عنها قنزعا » الخ . والاخرى « صير عنه » والقنزع جمع قنزعة وهى الشعر حوالى الرأس ، وقيل فى وسط الرأس خاصة

الهلاك الى الريح مع استحالة أن تكون فاعلة ؟ وذلك قوله عز وجل (مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) وأمثال ذلك كثير .

ومن قدح فى المجاز وهم أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطا عظيما وتهدف لما لا يخفى . ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به حتى تحصل ضروبه وتضبط أقسامه إلا للسلامة من مثل هذه المقالة ، والخلاص مما نحا نحو هذه الشبهة ، لكان من حق العاقل أن يتوفر عليه ، ويصرف العناية اليه ، فكيف وبطالب الدين حاجة ماسة اليه من جهات يطول عدها ، وللشيطان من جانب الجهل به مداخل خفية يأتيهم منها فيسرق دينهم من حيث لا يشعرون ، ويلقيهم فى الضلالة من حيث ظنوا أنهم يهتدون ؟ وقد اقتسمه البلاء فيه من جانبي الافراط والتفريط ، فمن مغرور مغرى بنفيه دفعة ؛ والبراءة منه جملة ، يشمئز من ذكره ، وينبو عن اسمه ، يرى أن لزوم الظواهر فرض لازم ، وضرب الخيام حولها حتم واجب ، وآخر يغلو فيه ويفرط ، ويتجاوز حده ويخبط ، فيعدل عن الظاهر والمعنى عليه ، ويسوم نفسه التعمق فى التأويل ولا سبب يدعو اليه

أما التفريط فما تجد عليه قوما فى نحو قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) وقوله (وجاء ربك * و : الرحمن على العرش استوى) وأشباه ذلك من النبو عن أقوال أهل التحقيق . فاذا قيل لهم إن الاتيان والمجيء انتقال من مكان الى مكان ، وصفة من صفات الأجسام ، وان الاستواء إن حمل على ظاهره لم يصح الا فى جسم يشغل حيزاً ويأخذ مكانا ، والله عز وجل خالق الأماكن والأزمنة ، ومنشئ كل ما تصح عليه الحركة والنقلة

والتمكن والسكون ، والانفصال والاتصال ، والمماسة والمحاذاة وان المعنى على : الا أن يأتيهم أمر الله ، وجاء أمر ربك ، وان حقه أن يعبر بقوله تعالى (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) وقول الرجل آتيك من حيث لا تشعر — يريد أنزل بك المكروه ، وافعل ما يكون جزاء لسوء صنيعك فى حال غفلة منك ، ومن حيث تأمن حلوله بك[1]. وعلى ذلك قوله :

أتيناهم من أيمن الشق عندهم ويأتى الشقى الحين من حيث لا يدرى

نعم اذا قلت ذلك للواحد منهم رأيته ان أعطاك الوفاق بلسانه فبين جنبيه قلب يتردد فى الحيرة ويتقلب ، ونفس تفر من الصواب وتهرب ، وفكر واقف لا يجيء ولا يذهب ، يحضره الطبيب بما يبرئه من دائه ، ويريه المرشد وجه الخلاص من عنائه ، ويأبى الا نفاراً عن العقل ، ورجوعا الى الجهل ، لا يحضره التوفيق بقدر ما يعلم به أنه اذا كان لا يجرى فى قوله تعالى « واسئل القرية » على الظاهر لأجل علمه أن الجماد لا يُسأل ، مع أنه لو تجاهل متجاهل فادعى أن الله تعالى خلق الحياة فى تلك القرية حتى عقلت السؤال وأجابت عنه ونطقت لم يكن قال قولا يكفر به ، ولم يزد على شيء يعلم كذبه فيه ، فمن حقه أن لا يجثم ههنا على الظاهر[2] ولا يضرب الحجاب دون سمعه وبصره حتى لا يعى ولا يراعى مع ما فيه اذا أخذ على ظاهره من التعرض للهلاك والوقوع فى الشرك

فأما الافراط فيما يتعاطاه قوم يحبون الاغراب فى التأويل ، ويحرصون

---

(١) الضمير فى حلوله للمكروه أو ما يكون جزاء الخ

(٢) جملة «فمن حقه» الخ جواب قوله «اذا كان لا يجرى» الخ . الجثم والجثوم من الطائر والانسان وغيرهما التلبد بالارض والمراد هنا شدة التمسك

على تكثير الوجوه ، وينسون أن احتمال اللفظ شرط فى كل ما يعدل به عن الظاهر ، فهم يستكرهون الألفاظ على الأمثلة من المعانى يدعون السليم من المعنى الى السقيم ، ويرون الفائدة حاضرة وقد أبدت صفحتها وكشفت قناعها ، فيعرضون عنها حباً للتشوف (١) وقصداً الى التمويه وذهابا فى الضلالة .

وليس القصد ههنا بيان ذلك فأذكر أمثلته ، على أن كثيراً من هذا الفن يرغب عن ذكره لسخفه ، وانما غرضى بما ذكرت أن أريك عظم الآفة على الجهل بحقيقة المجاز وتحصيله ، وأن الخطأ فيه مورط صاحبه ، وفاضح له ومسقط قدره ، وجاعله ضحكة يتفكه به (٢) وكاسيه عاراً يبقى على وجه الدهر . وفى مثل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين (٣) » وليس حمله روايته وسرد ألفاظه ، بل العلم بمعانيه ومخارجه ، وطرقه ومناهجه ، والفرق بين الجائز والممتنع ، والمنقاد المصحب ، والنافى النافر (٤)

وأقل ما كان ينبغى أن تعرفه الطائفة الأولى وهم المنكرون للمجاز أن التنزيل كما لم يقلب اللغة فى أوضاعها المفردة عن أصولها ، ولم يخرج الالفاظ عن دلالتها ، وأن شيئا من ذلك ان زيد اليه ، ما لم يكن قبل الشرع يدل عليه ، أو ضمن ما لم يتضمنه أتبع ببيان من عند النبى صلى الله عليه وسلم وذلك كبيانه للصلاة والحج والزكاة والصوم — كذلك لم يقض بتبديل

(١) التشوف : التزين

(٢) الضحكة بضم فسكون : من يضحك عليه الناس

(٣) المراد بالغالين المبتدعة و بالمبطلين الذين يتعمدون الباطل و ينتحلون من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مايؤيد باطلهم

(٤) المصحب اسم فاعل من اصحب له الرجل والدابة انقادا له وذلاوحقيقته دخل فى الصحبة : وقوله « النافى » من اللازم أى البعيد المتجافى والتحقيق ان سبب الافراط والتفريط هو الجهل

عادات أهلها ، ولم ينقلهم عن أساليبهم وطرقهم ، ولم يمنعهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف والاتساع . وكذلك كان من حق الطائفة الأخرى أن تعلم أنه عز وجل لم يرض لنظم كتابه الذى سماه هدى وشفاء ، ونوراً وضياء ، وحياة تحيا بها القلوب ، وروحا تنشرح عنه الصدور ، ماهو عند القوم الذين خوطبوا به خلاف البيان ، وفى حد الاغلاق والبعد من التبيان ، وانه تعالى لم يكن ليعجز بكتابه من طريق الالباس والتعمية ، كما يتعاطاه الملغز من الشعراء ، والمحاجى من الناس ، كيف وقد وصفه بأنه «عربى مبين»

هذا وليس التعسف الذى يرتكبه بعض من يجهل التأويل من جنس ما يقصده أصحاب الألغاز والأحاجى ، بل هو شيء يخرج عن كل طريق ويباين كل مذهب ، وانما هو سوء نظر منهم ووضع الشيء فى غير موضعه ، واخلال بالشريطة ، وخروج عن القانون وتوهم أن المعنى اذا دار فى نفوسهم وعقل من تفسيرهم فقد فهم من لفظ المفسر وحتى كأن الألفاظ تنقلب عن سجيتها ، وتزول عن موضوعها ، فتحمل ماليس من شأنها أن تحتمله ، وتؤدى مالا يوجب حكمها أن تؤديه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(هذا كلام فى ذكر المجاز وفى بيان معناه وحقيقته)

« وفيه بيان المنقول والمشترك والمجاز المرسل وعلاقته »

المجاز مفعل من جاز الشيء يجوزه اذا تعداه . واذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلى أو جاز هو مكانه الذى وضع فيه أولا

ثم اعلم بعد أن فى اطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطا وهو أن يقع نقله على وجه لايعرى معه من ملاحظة الأصل . ومعنى الملاحظة أن الاسم يقع لما تقول انه مجاز فيه بسبب بينه وبين الذى تجعله حقيقة فيه نحو ان اليد تقع للنعمة وأصلها الجارحة لأجل أن الاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم ، وما يقتضيه ظاهر البنية وموضوع الجبلة . ومن شأن النعمة أن تصدر عن اليد ومنها تصل الى المقصود بها والموهوبة هى منه . وكذلك الحكم اذا أريد باليد القوة والقدرة لأن القدرة أكثر مايظهر سلطانها فى اليد ، وبها يكون البطش والأخذ والدفع والمنع ، والجذب والضرب والقطع ، وغير ذلك من الأفاعيل التى تخبر فضل أخبار عن وجوه القدرة وتنبئ عن مكانها ولذلك تجدهم لايريدون باليد شيئا لا ملابسة بينه وبين هذه الجارحة بوجه

ولوجوب اعتبار هذه النكتة فى وصف اللفظ بأنه مجاز لم يجز استعماله فى الألفاظ التى يقع فيها اشتراك من غير سبب يكون بين المشتركين كبعض الاسماء المجموعة فى الملاحن مثل ان الثور يكون اسما للقطعة الكبيرة من الاقط والنهار اسم لفرخ الحبارى والليل لولد الكروان كما [1] قال :

أكلت النهار بنصف النهار وليلا أكلت بليل بهيم

---

(١) الاقط بالتثليث و بفتح الهمزة مع تثليث القاف و بكسرتين: الجبن المتخذ من اللبن الحامض. والحبارى بالضم والقصر: طائر يضرب به المثل فى البلاهة والحمق لانها اذا غيرت عشها نسيته وحضنت بيض غيرها ، يقال« هو أبله من الحبارى . وكل شىء يحب ولده الا الحبارى » واللفظ يطلق على الذكر والانثى وهو ممنوع من الصرف معرفا ومنكرا . والكروان بالتحريك هو كما فى المصباح : طائر طويل الرجلين أغبر نحو الحمامة وله صوت حسن : وقيل هو الحجل

وذلك أن اسم الثور لم يقع على الأقط لأمر بينه وبين الحيوان المعلوم ولا النهار على الفرخ لأمر بينه وبين ضوء الشمس أداه اليه وساقهُ نحوه

والغرض المقصود بهذه العبارة — أعنى قولنا المجاز — أن تبين أن للفظ أصلا مبدوءاً به فى الوضع ومقصوداً ، وإن جريه على الثانى انما هو على سبيل النقل الى الشىء من غيره ، وكما يعبق الشىء برائحة مايجاوره ، وينصبغ بلون ما يدانيه ، ولذلك تراهم لا يطلقون المجاز فى الاعلام إطلاقهم لفظ النقل فيها حيث قالوا : العلم على ضربين منقول ومرتجل ، وان المنقول منها يكون منقولا عن اسم جنس كأسد وثور وزيد وعمرو ، أو صفة كعاصم وحارث ، أو فعل كيزيد ويشكر ، أو صوت كببَّه (١) فأثبتوا لهذا كله النقل من غير العلمية الى العلمية ، ولم يروا أن يصفوه بالمجاز فيقولوا مثلا ان « يشكر » حقيقة فى مضارع شكر ومجاز فى كونه اسم رجل ، وان حجراً حقيقة فى الجماد ومجاز فى اسم الرجل ، وذلك أن الحجر لم يقع اسما للرجل لالتباس كان بينه وبين الصخر على حسب ما كان بين اليد والنعمة وبينها وبين القدرة ولا كما كان بين الظهر الحامل وبين المحمول فى نحو تسميتهم المزادة راوية وهى اسم للبعير الذى يحملها فى الأصل وكتسميتهم البعير حفضاً وهو اسم لمتاع البيت الذى يحمل عليه — ولا كنحو مابين الجزء من الشخص وبين جملة الشخص كتسميتهم الرجل عيناً اذا كان ربيئة ، والناقة ناباً — ولا كما بين النبت والغيث وبين السماء والمطر حيث قالوا : رعينا الغيث . يريدون النبت الذى الغيث سبب فى كونه ، وقالوا أصابنا السماء . يريدون المطر . وقال « تلقه الأرواح والسمى » (٢) وذلك أن فى هذا كله تأولا

(١) سيأتى تفسيره « ص ٣٥٣ »

(٢) السمى : جمع سماء بمعنى المطر . والارواح : الرياح

وهو الذى أفضى بالاسم الى ما ليس بأصل فيه ، فالعين لما كانت المقصودة فى كون الرجل ربيئة صارت كأنها الشخص كله ، إذ كان لولا هداها لايعى شيئا مع فقدها ، والغيث لما كان النبت يكون عنه صار كأنه هو ، والمطر لما كان ينزل من السماء عبروا عنه باسمها .

واعلم أن هذه الأسباب الكائنة بين المنقول والمنقول عنه تختلف فى القوة والضعف والظهور وخلافه فهذه الأسماء التى ذكرتها اذا نظرت الى المعانى التى وصلت بين ماهى له وبين ما ردت اليه وجدتها أقوى من نحو ماتراه فى تسميتهم الشاة التى تذبح عن الصبى اذا حلقت عقيقته عقيقة (١) وتجد حالها بعدُ أقوى من حال العقيرة فى وقوعها للصوت فى قولهم : رفع عقيرته . وذلك انه شىء جرى اتفاقا ولا معنى يصل بين الصوت وبين الرجل المعقورة . على أن القياس يقتضى أن لايسمى مجازاً ولكن يجرى مجرى الشىء يُحكم فيه بعد وقوعه كالمثل اذا حكى فيه كلام صدر عن قائله من غير قصد الى قياس وتشبيه بل الاخبار عن أمر من قصَده بالخطاب كقولهم « الصيف ضيعت اللبن » (٢) .

ولهذا الموضع تحقيق لا يتم الا بأن يوضع له فصل مفرد . والمقصود الآن غير ذلك لأن قصدى فى هذا الفصل أن أبين أن المجاز أعم من

(١) العقيقة: شعر كل مولود من الناس والبهائم يولد وهو عليه .

(٢) المثل يضرب لمن ضيع الشىء فى وقته وعاد يطلبه بعد فواته وسببه أن امرأة كرهت زوجها الوسر فطلقها فتزوجت بمملق وأرسلت تستميح زوجها الأول فقاله فالتاء مكسورة . ويروى أن الأسود بن هرمز طلق امرأته العنود الشنية وتزوج بامرأة جميلة غنية من قومه فحدث ماأوجب طلاقها ثم راسل الاولى فقالته فى بيتين من الشعر ، فأيهما كان السابق ؟

الاستعارة وأن الصحيح من القضية فى ذلك أن كل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن أعنى علم الخطابة ونقد الشعر [١] والذين وضعوا الكتب فى أقسام البديع يجرى على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله الى غيره للتشبيه على حد المبالغة .

قال القاضى أبو الحسن فى أثناء فصل ذكرها فيه: وملاك الاستعارة تقريب الشبه ومناسبة المستعار للمستعار منه . وهكذا تراهم يعدونها فى أقسام البديع حيث يذكر التجنيس والتطبيق والتوشيح ورد العجز على الصدر [٢] وغير ذلك من غير أن يشترطوا شرطا ويعقبوا ذكرها بتقييد فيقولوا ومن البديع الاستعارة التى من شأنها كذا . فلولا أنها عندهم لنقل الاسم بشرط التشبيه على المبالغة إما قطعاً وإما قريباً من المقطوع عليه لما استجازوا ذكرها مطلقة غير مقيدة . يبين ذلك انها ان كانت تسارق

---

(١) لم يقل علماء البيان لان البيان لم يكن قبله علما بل هو الذى جعله علما بهذا الكتاب وانما خاض الباحثون فى نقد الكلام فى بعض مسائله ولم يضعوا لها حدودا ولا رسوما اصطلاحية تكون بها علما أو فنا .

(٢) كتب شيخنا فى تفسير هذه الاصطلاحات مانصه :

التطبيق المطابقة كقوله تعالى (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) والتوشيح كون فاتحة دالة بمعناها على خاتمته كقول أبى فراس :

اذا ماثار سيف الدين ثرنا كما هيجت آسادا غضابا
أسنته اذا لاقى طعانا صوارمه اذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

ورد العجز على الصدر: تكرير كلمة فى الشطرين من الشعر أو الفقرتين من النثر كقول بعضهم :

سريع الى ابن العم يلطم وجهه وليس الى داعى الندى بسريع

المجاز (١) وتجرى مجراه حتى يصلح لكل ماتصلح له (٢) فذكرها فى أقسام البديع يقتضى أن كل موصوف بأنه مجاز فهو بديع عندهم حتى يكون اجراء اليد على النعمة بديعاً وتسمية البعير حَفَضاً والناقة ناباً والربيئة عيناً والشاة عقيقة بديعاً كله ، وذلك بين الفساد .

وأما ماتجده فى كتب اللغة من ادخال ماليس طريق نقله التشبيه فى الاستعارة كما صنع أبو بكر بن دريد فى الجمهرة فانه ابتدأ باباً فقال : (باب الاستعارات) ثم ذكر فيه أن الوغى اختلاط الأصوات فى الحرب ثم كثرت وصارت الحرب وغى وأنشد :

أضامة من دونها الثلاثين لها وغى مثل وغى الثمانين (٣)

يعنى اختلاط أصواتها . وذكر قولهم « رعينا الغيث والسماء » يعنى المطر وذكر ماهو أبعد من ذلك فقال : الخرس ماتطعمه النفساء ثم صارت

(١) فسر شيخنا تسارق بقوله تنظر اليه وتميل اليه . وأرى أنها محرفة أصلها تساوقه بالواو أى تشاركه فى المساق أو السياق الواحد ويفسرها فى المعنى مابعدها .

(٢) قوله « حتى يصلح لكل ماتصلح له » صححه شيخنا بالعكس وبينه فى الدرس فى حاشية نسخته بأن معنى الأصل : حتى يصلح المجاز لكل ماتصلح له الاستعارة (قال) وهذا غير مايراه أو يريده « أى المؤلف » فالصواب حتى تصلح الاستعارة لكل ما يصلح له المجاز كما أصلحناه اهـ وأقول الظاهر من السياق أنه لافرق بين الضبطين هنا لان كلا منهما مراد فقوله « حتى يصلح لكل ماتصلح له » يستلزم عكسه وهو . وتصلح لكل مايصلح له . ولكن هذا لايستلزم ذاك لان كل استعارة مجاز ولا عكس كما حققه المصنف ، وأنكر على المتكلمين فى البديع ونقد الشعر أنهم لم يفرقوا هذه التفرقة كما أنكر عليهم هنا وقال ان كلامهم بين الفساد فتأمل .

(٣) الاضامة: الجماعة من الرجال .

الدعوة للولادة خرسا(١) والاعذار الختان وسمى الطعام للختان إعذاراً وان الظعينه أصلها المرأة فى الهودج ثم صار البعير والهودج ظعينة ، والخطر ضرب البعير بذنبه جانبي وركيه (٢) ثم صار مالصق من البول بالوركين خطراً . وذكر أيضا الراوية بمعنى المزادة والعقيقة وذكر فيما بين ذكره لهذه الكلم أشياء هى استعارة على الحقيقة على طريقة أهل الخطابة ونقد الشعر لأنه قال : الظمأ العطش وشهوة الماء ثم كثر ذلك حتى قالوا « ظمئت الى لقائك » . وقال الوَجور ماأوجره الانسان من دواء أو غيره (٣) ثم قالوا أوجره الرمح اذا طعنه فى فيه .

فالوجه فى هذا الذى رواه من اطلاق الاستعارة على ماهو تشبيه كما هو شرط أهل العلم بالشعر وعلى ماليس من التشبيه فى شيء ولكنه نقل اللفظ عن الشيء الى الشيء بسبب اختصاص وضرب من الملابسة بينهما وخلط أحدهما بالآخر انهم كانوا (٤) نظروا الى مايتعارفه الناس فى معنى العارية وانها شيء حول عن مالكه ونقل عن مقره الذى هو أصل فى استحقاقه الى ماليس بأصل ، ولم يراعوا عرف القوم . ووزانهم فى ذلك وزان من يترك عرف النحويين فى التمييز واختصاصهم له بما احتمل أجناساً مختلفة كالمقادير والاعداد وما شاركها فى أن الابهام الذى يراد كشفه منه هو احتماله الاجناس فيسمى الحال مثلا تمييزاً من حيث انك اذا قلت « راكباً » فقد ميزت المقصود وبينته كما فعلتَ ذلك فى قولك : عشرون درهما

---

(١) المعروف فى طعام النفساء الخرسة بالتاء، وأما الخرس فهو طعام الولادة وكلاهما بالضم .

(٢) الخطر بالفتح و بكسر مع سكون الطاء فيها .

(٣) الوجور بالفتح ويضم وهو مايوجر أى يصب فى الحلق .

(٤) قوله انهم كانوا الخ خبر قوله فالوجه .

ومنوان سمنا وقفيزان براً ولى مثله رجلا ولله دره رجلا . وليس هـــذا المذهب بالمذهب المرضى بل الصواب أن تقصر الاستعارة على ما نقله نقل التشبيه للمبالغة لأن هذا نقل يطرد على حد واحد وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة فالتطفل به على غيره فى الذكر وتركه مغموراً فيما بين أشياء ليس لها فى نقلها مثل نظامه ولا أمثال فوائده ضعف من الرأى وتقصير فى النظر .

وربما وقع فى كلام العلماء بهذا الشأن الاستعارة على تلك الطريقة العامية الا أنه لا يكون عند ذكر القوانين وحيث تقرر الاصول . ومثاله أن أبا القاسم الآمدى [1] قال فى أثناء فصل يبحث عن شىء اعترض به على البحترى فى قوله :

---

(١) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى الأديب صاحب كتاب المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء والموازنة بين أبى تمام والبحترى توفى سنة ٣٧٠ وتقدم ذكره قال فى الموازنة : « ومما نسبوا فيه البحترى الى سوء القسمة قوله :

فكأن مجلسه المحجب محفل   وكأن خلوته الخفية مشهد

وقالوا انه ليس فى المصراع الثانى من الفائدة الا مافى الأول لان مجلسه المحجب هى خلوته الخفية وقوله محفل كقوله مشهد . والمعنى عندى صحيح لان المجلس المحجب قد يكون فيه الجماعة الذين يخصهم وفى الأكثر الأعم لا يسمى مجلسا الا وفيه قوم . ألا ترى الى قول مهلهل * واستب بعدك يا كليب المجلس * أى أهل المجلس على الاستعارة فجعل البحترى مجلسه الذى احتجب فيه مع من يخصه كالمحفل والمحفل هو الجمع الكثير . والخلوة الخفية قد يكون متفردا و يكون معه محبوبه فبينها و بين المجلس فرق أى فكأنه اذا خلا خلوة خفية ففيها معه من يشاهده ومن يشاهده يجوز أن يكون واحدا أو اثنين والمحفل لا يكون الا عددا كثيرا ، فهذا أيضا فرق صحيح بين المحفل والمشهد . وانما أراد البحترى أنه لا يفعل فى مجلسه المحجب الا ما يفعله اذا حضره من يشاهده : ينسبه الى شدة التصون وكرم السريرة » اهـ .

فكأن مجلسه المحجب محفل وكأن خلوته الخفية مشهد

ان المكان لايسمى مجلساً الا وفيه قول . ثم قال : ألا ترى الى قوم المهلهل * واستبَّ بعدك ياكليب المجلس * على الاستعارة . فأطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون فى الأمور وليس المجلس اذا وقع على القوم من طريق التشبيه بل على وجه وقوع الشيء على مايتصل به وتكثر ملابسته إياه ، وأى شبه يكون بين القوم ومكانهم الذى يجتمعون فيه ؟ الا أنه لايعتد بمثل هذا فان ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة :

وقال الآمدى نفسه : ثم قد يأتى فى الشعر ثلاثة أنواع أخر يكتسى المعنى العام بها بهاء وحسناً حتى يخرج بعد عمومه الى أن يصير مخصوصا. ثم قال : وهذه الأنواع هى التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس . فهذا نص فى موضع القوانين ، على أن الاستعارة من أقسام البديع ولن يكون النقل بديعاً حتى يكون من أجل التشبيه على المبالغة كما بينت لك واذا كان كذلك ثم جعل الاستعارة على الاطلاق بديعاً فقد أعلمك أنها اسم للضرب المخصوص من النقل دون كل نقل فاعرفه .

واعلم أنا اذا أمعنا النظر وجدنا المنقول من أصل التشبيه على المبالغة أحق بأن يوصف بالاستعارة من طريق المعنى ، بيان ذلك أن ملك المعير لايزول عن المستعار واستحقاقه إياه لايرتفع ، فالعارية انما كانت عارية لأن يد المستعير يد عليها مادامت يد المعير باقيــــة وملكه غير زائل ، فلا يتصور

= وأول بيت المهلهل الذى استشهد بمصراعه الآمدى * نبئت أن النار بعدك أوقدت * وبعده .

وتكلموا فى أمر كل عظيمة لوكنت شاهدهم بها لم ينبسوا

أن يكون للمستعير تصرف لم يستفده من المالك الذى أعاره ولا أن تستقر يده مع زوال اليد المنقول عنها . وهذه جملة لاتراها الا فى المنقول نقل التشبيه لأنك لاتستطيع أن تتصور جرى الاسم على الفرع من غير أن تخرجه الى الأصل : كيف ولا يعقل تشبيه حتى يكون ههنا مشبه ومشبه به ، هذا والتشبيه ساذج مرسل فكيف اذا كان على معنى المبالغة وعلى أن تجعل الثانى كأنه انقلب مثلا الى جنس الأول فصار الرجل أسداً وبحراً وبدراً ، والعلم نوراً ، والجهل ظلمة ، لأنه اذا كان على هذا الوجه كانت حاجتك الى أن تنظر به الى الأصل أمس لأنه اذا لم يتصور أن يكون ههنا سبع من شأنه الجراءة العظيمة والبطش الشديد كان تقديرك شيئا آخر يتحول الى صفته ويصير فى حكمه من أبعد المحال .

وأما ما كان منقولا لا لأجل التشبيه كاليد فى نقلها الى النعمة فلا يوجد ذلك فيه لأنك لاتثبت للنعمة باجراء اسم اليد عليها شيئا من صفات الجارحة المعلومة ولا تروم تشبيهاً بها البتة لامبالغاً ولا غير مبالغ ، فلو فرضنا أن تكون اليد اسماً وضع للنعمة ابتداء ثم نقلت الى الجارحة لم يكن ذلك مستحيلا . وكذلك لو ادعى مدع أن جرى اليد على النعمة أصل ولغة على حدتها وليست مجازاً لم يكن مدعياً شيئا يحيله العقل . ولو حاول محاول أن يقول فى مسئلتنا قولا شبيهاً بهذا فرام تقدير شىء يجرى عليه اسم الأسد على المعنى الذى يريده بالاستعارة مع فقد السبع المعلوم ومن غير أن يثبت استحقاقه لهذا الاسم فى وضع اللغة رام شيئا فى غاية البعد .

(وعبارة أخرى) العارية من شأنها أن تكون عند المستعير على صفة شبيهة بصفتها — وهى عند المالك — ولسنا نجد هذه الصورة الا فيما نقل نقل

التشبيه للمبالغة دون ماسواه ، ألا ترى أن الاسم المستعار يتناول المستعار له ليدل على مشاركته المستعار منه فى صفة هى أخص الصفات التى من أجلها وضع الاسم الأول ، أعنى أن الشجاعة أقوى المعانى التى من أجلها سمى الأسد أسداً وأنت تستعير الاسم للشيء على معنى إثباتها له على حدها فى الأسد فأما اليد ونقلها الى النعمة فليست من هذا فى شيء لأنها لم تتناول النعمة لتدل على صفة من أوصاف اليد بحال . ويحرر ذلك نكتة وهى أنك تريد بقولك رأيت أسداً أن تثبت للرجل الأسدية ولست تريد بقولك : له عندى يد ، أن تثبت للنعمة اليدية وهذا واضح جداً .

واعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة والجحفلة فى مكان الشفر ونظائره التى قدمت ذكرها فى الاستعارة [١] وأضنّ باسمها أن يقع عليه ، ولكنى رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها فكرهت التشدد فى الخلاف واعتددت به فى الجملة ، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة ، وكان وزان ذلك أن يقال المفعول على ضربين مفعول صحيح ومشبه بالمفعول فيتجوز باعتداد المشبه بالمفعول فى الجملة ثم يفصل بالوصف ، ووجه شبه هذا النحو الذى هو نقل الشفة الى موضع الجحفلة بالاستعارة الحقيقية لأنك تنقل الاسم الى مجانس له ، ألا ترى أن المراد بالشفة والجحفلة عضو واحد وانما الفرق أن هذا من الفرس وذاك من الانسان ، والمجانسة والمشابهة من واد واحد فأنت تقول : أعير الشيء اسم الموضوع له هنالك (أى فى الانسان) ههنا (أى فى الفرس)

---

(١) قوله « فى الاستعارة » متعلق بأعد أو بذكرها ويكون مايتعلق بأعد محذوفا مثل المذكور .

لأنَّ أحدهما مثل صاحبه وشريكه فى جنسه كما أعرت الرجل اسم الأسد لأنه شاركه فى صفته الخاصة به وهى الشجاعة البليغة وليس لليد مع النعمة هذا الشبه إذ لا مجانسة بين الجارحة وبين النعمة ، وكذا لاشبه ولا جنسية بين البعير ومتاع البيت وبين المزادة وبين البعير ، ولا بين العين وبين جملة الشخص فاطلاق اسم الاستعارة عليه بعيد ولو كان اللفظ يستحق الوصف بالاستعارة بمجرد النقل لجاز أن توصف الأسماء المنقولة من الأجناس الى الأعلام بأنها مستعارة فيقال حجر مستعار فى اسم الرجل ولزم لذلك فى الفعل المنقول نحو يزيد ويشكر وفى الصوت نحو « ببه » فى قوله :

لأنكحنَّ ببه جارية خِدَبَّه (١)
مكرمة محبَّة تجب أهل الكعبة

وذلك ارتكاب قبيح وفرط تعصب على الصواب ويلوح ههنا شىء وهو أنا وان جعلنا الاستعارة من صفة اللفظ فقلنا اسم مستعار وهذا اللفظ استعارة ههنا وحقيقة هناك ، فانا على ذلك نشير بها الى المعنى من حيث قصدنا باستعارة الاسم أن نثبت أخص معانيه للمستعار له ، يدلك على ذلك قولنا : جعله أسداً وجعله بدراً وجعل للشمال يداً ، فلولا أن استعارة الاسم للشىء تتضمن استعارة معناه له لما كان لهذا الكلام معنى لأن جعل لا يصلح الا حيث يراد اثبات صفة للشىء كقولنا : جعلته أميراً وجعلته لصاً تريد أنه أثبت له الامارة واللصوصية ، وحكم جعل اذا تعدى الى مفعولين حكم

(١) ببة : حكاية صوت صبى . وهو لقب عبد الله بن الحارث وقد قالت والدته هند بنت أبى سفيان وهى ترقصه : « لانكحن ببه» الخ والخدبة السمينة . « وتجب أهل الكعبة » معناه المرادتغلب نساء قريش فى حسنها

صير فكما لا تقول صيرته أميراً الا على معنى أنك أثبت له صفة الامارة كذلك لم يقل : جعلته أسداً ، الا على أنه أثبت له معنى من معانى الاسود ولا يقال : جعلته زيداً ، بمعنى سميته زيداً ، ولا يقال للرجل : اجعل ابنك زيداً ، بمعنى سمه زيداً ، ولا يقال لفلان ابن فجعله زيداً (١) أى سماه زيدا وانما يدخل الغلط فى ذلك على من لا يحصل هذا الشأن

فأما قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا) فانما جاء على الحقيقة التى وصفتها وذلك أنهم أثبتوا للملائكة صفة الاناث واعتقدوا وجودها فيهم ، وهذا الاعتقاد صدرعنهم لتمثلها فى أذهانهم بصور الاناث وما صدر من الاسم أعنى اطلاق اسم البنات . وليس المعنى أنهم وضعوا لها لفظ الاناث أو لفظ البنات اسما من غير اعتقاد معنى واثبات صفة ، هذا محال لايقوله عاقل ، أو ما يسمعون قول الله عز وجل (أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسئلون) فان كانوا لم يزيدوا على اجراء الاسم على الملائكة ولم يعتقدوا اثبات صفة ومعنى فأى معنى لأن يقال : (أشهدوا خلقهم) — هذا ولو كانوا لم يقصدوا اثبات صفة ولم يفعلوا أكثر من أن وضعوا اسما لما استحقوا الا اليسير من الذم ، ولما كان هذا القول كفرا منهم ، والأمر فى ذلك أظهر من أن يخفى ، ولكن قد يكون للشىء المستحيل وجوه فى الاستحالة فتذكر كلها وان كان فى الواحد منها مايزيل الشبهة ويتم الحجة

(١) لعل أصله : ولد لفلان ابن الخ ليكون فجعله معطوفا على ولد والا تصل جعله

وجهها ، ومطلقة بحسب ماتأذن فيه العقول وترسمه ، أو معدولا بها عن مراسمها نظماً لها فى سلك التخييل ، وسلوكا بها فى مذهب التأويل

فاذا قلنا مثلا : خطٌ أحسن مما وشاه الربيع أو صنعه الربيع ، كنا قد ادعينا فى ظاهر اللفظ أن للربيع فعلا أو صنعا وأنه شارك الحى القادر فى صحة الفعل منه ، وذلك تجوز به من حيث المعقول لامن حيث اللغة ، لأنه إن قلنا إنه مجاز من حيث اللغة صرنا كأنا نقول ان اللغة هي التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد ، وإنها لو حكمت بأن الجماد يصح منه الفعل والصنع والوشى والتزيين ، والصبغ والتحسين ، لكان ماهو مجاز الآن حقيقة ، ولعاد ماهو الآن يتأول ، معدوداً فيما هو حق محصل ، وذلك محال . وإنما يتصور مثل هذا القول فى الكلم المفردة نحو اليد للنعمة وذاك انه يصح أن يقال لو كان واضع اللغة وضع اليد أولا للنعمة ثم عداها الى الجارحة لكان حقيقة فيما هو الآن مجاز ومجازاً فيما هو حقيقة ، فلم يكن بواجب من حيث المعقول أن يكون لفظ اليد اسما للجارحة دون النعمة ، ولافى العقل أن شيئا بلفظ أن يكون دليلا عليه أولى منه بلفظ ، لاسيا فى الأسماء الأول التى ليست بمشتقة . وإنما وزان ذلك وزان أشكال الخط التى جعلت أمارات لأجراس الحروف المسموعة فى أنه لايتصور أن يكون العقل اقتضى اختصاص كل شكل منها بما اختص به دون أن يكون ذلك لاصطلاح وقع وتواضع اتفق . ولو كان كذلك لم تختلف المواضعات فى الألفاظ والخطوط ، ولكانت اللغات واحدة ، كما وجب فى عقل كل عاقل يحصل مايقول أن لايثبت الفعل على الحقيقة إلا للحى القادر

فان قلت فان اللغة رسمت أن يكون « فعلَ » لاثبات الفعل للشئ

كما زعمت ولكنا اذا قلنا : فعل الربيع الوشيَ أو وشى الربيع . فاننا نريد بذلك معنى معقولا وهو أن الربيع سبب فى كون الأنوار التى تشبه الوشى (١) فقد نقلنا الفعل عن حكم معقول وضع له الى حكم آخر معقول شبيه بذلك الحكم ، فصار ذلك كنقل الأسد عن السبع الى الرجل الشبيه به فى الشجاعة أفتقول : الأسد على الرجل مجاز من حيث المعقول لامن حيث اللغة كما قلت فى صيغة فعل اذا أسندت الى مالا يصح أن يكون له فعل : إنها مجاز من جهة العقل لامن جهة اللغة ؟ فالجواب أن بينهما فرقا وإن ظننتهما متساويين . وذلك أن « فَعلَ » موضوع لاثبات الفعل للشئ على الاطلاق والحكم فى بيان من يستحق هذا الاثبات وتعيينه الى العقل ، وأما الأسد فموضوع للسبع قطعا واللغة هى التى عينت المستحق بها ، وبرسمها وحكمها ثبت هذا الاستحقاق والاختصاص ، ولولا نصها لم يتصور أن يكون هذا السبع بهذا الاسم أولى من غيره . فاما استحقاق الحى القادر أن يثبت الفعل له واختصاصه بهذا الاثبات دون كل شيء سواه فبفرض العقل ونصه لاباللغة فقد نقلت الأسد عن شيء هو أصل فيه باللغة لا بالعقل . وأما فعل فلم تنقله عن الموضع الذى وضعته اللغة فيه لانه كما مضى موضوع لاثبات الفعل للشئ فى زمان ماض وهو فى قولك « فعل الربيع » باق على هذه الحقيقة غير زائل عنها ولن يستحق اللفظ الوصف بأنه مجاز حتى يجرى على شيء لم يوضع له فى الأصل . وإثبات الفعل لغير مستحقه ولما ليس بفاعل على الحقيقة لا يخرج فَعلَ عن أصله ولا يجعله جاريا على شيء لم يوضع له لأن الذى وضع له فَعلَ هو اثبات الفعل للشئ فقط فاما وصف

(١) أى سبب فى وجودها

ذلك الشيء الذى يقع هذا الاثبات له فخارج عن دلالته وغير داخل فى الوضع اللغوى بل لايجوز دخوله فيه لما قدمت من استحالة أن يقال ان اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد وما فى ذلك من الفساد العظيم فاعرفه فرقا واضحاً وبرهانا قاطعا

وههنا نكتة جامعة وهى أن المجاز فى مقابلة الحقيقة فما كان طريقاً فى أحدهما من لغة أو عقل فهو طريق فى الآخر . ولست تشك فى أن طريق كون الاسد حقيقة فى السبع اللغة دون العقل واذا كانت اللغة طريقا للحقيقة فيه وجب أن تكون هى أيضا الطريق فى كونه مجازاً فى المشبه بالسبع اذا أنت أجريت اسم الاسد عليه فقلت : رأيت أسداً ، تريد رجلا لاتميزه عن الأسد في بسالته وإقدامه وبطشه . وكذلك اذا علمت أن طريق الحقيقة فى إثبات الفعل للشيء هو العقل فينبغى أن تعلم أنه أيضاً الطريق الى المجاز فيه . فكما أن العقل هو الذى دلك حين قلت : « فعل الحى القادر » أنك لم تتجوز وأنك واضع قدمك على محض الحقيقة ، كذلك ينبغى أن يكون هو الدال والمقتضى اذا قلت « فعل الربيع » أنك قد تجوزت وزلت عن الحقيقة فاعرفه

فان قال قائل : كان سياق هذا الكلام وتقريره يقتضى أن طريق المجاز كله العقل وان لاحظ للغة فيه ، وذاك أنا لا نجرى اسم الأسد على المشبه بالأسد حتى ندعى له الأسدية وحتى نوهم أنه حين أعطاك من البسالة والبأس والبطش ماتجده عند الأسد صار كأنه واحد من الأسود قد استبدل بصورته صورة الانسان . وقد قدمت أنت فيما مضى ما بين أنك لا تتجوز فى اجراء اسم المشبه به على المشبه حتى تخيل الى نفسك أنه هو بعينه .

فإذا كان الأمر كذلك فأنت فى قولك : رأيت أسداً . متجوز من طريق المعقول ، كما أنك كذلك فى فعل الربيع . واذا كان كذلك عاد الحديث الى أن المجاز فيهما جميعاً عقلى فكيف قسمته قسمين لغوى وعقلى ؟

فالجواب أن هذا الذى زعمت — من أنك لاتجرى اسم الشبه به على المشبه حتى تدعى أنه قد صار من ذلك الجنس نحو أن تجعل الرجل كأنه فى حقيقة الأسد — صحيح كما زعمت لا يدفعه أحد ، وكيف السبيل الى دفعه وعليه المعول فى كون التشبيه على حد المبالغة وهو الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المرسل . إلا أن ههنا نكتة أخرى قد أغفلتها وهى أن تجوزك هذا الذى طريقه العقل يفضى بك الى أن تجرى الاسم على شيء لم يوضع له فى اللغة على كل حال فتجوز بالاسم على الجملة الشيء الذى وضع له فمن ههنا جعلنا اللغة طريقا فيه

فان قلت : لا أسلم أنه جرى على شيء لم يوضع له فى اللغة لأنك اذا قلت لا تجريه على الرجل حتى تدعى له أنه فى معنى الأسد لم تكن قد أجريته على مالم يوضع له . وإنما كان يكون جاريا على غير ماوضع له أن لو أجريته على شيء لتفيد به معنى غير الأسدية ، وذلك مالا يعقل ، لأنك لاتفيد بالأسد فى التشبيه أنه رجل مثلا أو عاقل أو على وصف لم يوضع هذا الاسم للدلالة عليه البتة — قيل لك ، قصارى حديثك هذا أنا أجرينا اسم الأسد على الرجل المشبه بالأسد على طريق التأويل والتخييل ، أفليس على كل حال قد أجريناه على ماليس بأسد على الحقيقة ؟ وألسنا (١) قد جعلنا له مذهبا لم يكن

(١) القاعدة أن يقال « أولسنا » لان أداة الاستفهام لها الصدارة فهو كقوله : أفليس الخ وما أرى سكوت شيخنا عن تصحيحها الا سهوا لا لوجه رآه ككون اللفظ محكيا أو فى معنى المحكى كقوله الآتى : وأهو مستحق الخ

له فى أصل الوضع ، وهنا قد ادعينا للرجل الاسدية حتى استحق بذلك أن نجرى عليه اسم الأسد . أترانا نتجاوز فى هذه الدعوى حديث الشجاعة حتى يدعى الرجل صورة الاسد وهيئته وعبالة عنقه ومخالبه وسائر أوصافه الظاهرة البادية للعيون ؟ ولئن كانت الشجاعة من أخص أوصاف الأسد وأمكنها فان اللغة لم تضع الاسم لها وحدها ، بل لها فى مثل تلك الجثة ، وهاتيك الصورة والهيبة ، وتلك الانياب والمخالب — الى سائر ما يعلم من الصور الخاصة فى جوارحه كلها ، ولو كانت وضعته لتلك الشجاعة التى تعرفها وحدها لكان صفة لا اسما ، ولكان كل شىء يفضى فى شجاعته الى ذلك الحد مستحقا للاسم استحقاقا حقيقيا لاعلى طريق التشبيه والتأويل

واذا كان كذلك فانا وان كنا لم ندل به على معنى لم يتضمنه اسم الأسد فى أصل وضعه فقد سلبناه بعض ما وضع له وجعلناه للمعانى التى هى باطنة فى الاسد وغريزة وطبع به وخلق مجردة عن المعانى الظاهرة التى هى جثة وهيئة وخلق ، وفى ذلك كفاية فى ازالته عن أصل وقع له فى اللغة ونقله عن حد جريه فيه الى حد آخر مخالف له . وليس فى فعل اذا تجوّز فيه شىء من ذلك ، لانا لم نسلبه لا بالتأويل ولا غير التأويل شيئا وضعته اللغة لانه كما ذكرتُ غير مرة لاثبات الفعل للشىء من غير أن يتعرض لذلك الشىء ماهو وأهو مستحق لان يثبت له الفعل أو غير مستحق ، واذا كان كذلك كان الذى أرادت اللغة به موجوداً فيه ثابتا له فى قولك « فعل الربيع » ثبوته اذا قلت « فعل الحى القادر » لم تتغير له صورة ولم ينقص منه شىء ولم يزل عن حد الى حد فاعرفه

فان قلت . قد علمنا أن طريق المجاز ينقسم الى ماذكرت من اللغة

والمعقول وان « فعل » فى نحو فعل الربيع مما طريقه المعقول ، وان نحو الأسد اذا قصد به التشبيه واستعير لغير السبع طريق مجازه اللغة وبقى أن تعلم لم خصصت المجاز اذا كان طريقه العقل بأن توصف به الجملة من الكلام دون الكلمة الواحدة ؟ وهلا جوزت أن يكون فعلَ على الانفراد موصوفاً به ؟ فان سبب ذلك أن المعنى الذى له وضع فعلَ لا يتصور الحكم عليه بمجاز أو حقيقة حتى يسند الى الاسم وهكذا كل مثال من أمثلة الفعل لأنه موضوع لاثبات الفعل للشيء فما لم يبين ذلك الشيء الذى تثبته له وتذكره لم يعقل أن الاثبات واقع موقعه الذى تجده مرسوماً به فى صحف العقول أم قد زال عنه وجازه الى غيره — هذا وقولك « هلا جوزت أن يكون فعل على الانفراد موصوفا به » محال بعد أن نثبت أن لامجاز فى دلالة اللفظ وانما المجاز فى أمر خارج عنه :

فان قلت : أردت هلا جوزت أن تنسب المجاز الى معناه وحده وهو اثبات الفعل فيقال هو اثبات فعل على سبيل المجاز — فان ذلك لايتأتى أيضا الا بعد ذكر الفاعل لأن المجاز أو الحقيقة انما يظهر ويتصور من المثبت والمثبت له والاثبات . واثبات الفعل من غير أن يقيد بما وقع الاثبات له لايصح الحكم عليه بمجاز أو حقيقة فلا يمكنك أن تقول : اثبات الفعل مجاز أو حقيقة — هكذا مرسلا وانما تقول : اثبات الفعل للربيع مجاز واثباته للحى القادر حقيقة :

واذا كان الأمر كذلك علمت أن لاسبيل الى الحكم بأن ههنا مجازاً وحقيقة من طريق العقل الا فى جملة من الكلام . وكيف يتصور خلاف ذلك ووزان الحقيقة والمجاز العقليين وزان الصدق والكذب ، فكما يستحيل

وصف الكلم المفردة بالصدق والكذب وأن يجرى ذلك فى معانيها مفرقة غير مؤلفة فيقال « رجل — على الانفراد — كذب أو صدق » كذلك يستحيل أن يكون ههنا حكم بالمجاز أو الحقيقة وأنت تنحو نحو العقل الا فى الجملة المفيدة فاعرفه أصلا كبيراً ، والله الموفق للصواب والمسئول أن يعصم من الزلل بمنه وفضله .

فصل

« فى الحذف والزيادة وهل هما من المجاز أم لا »

واعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها الى حكم ليس هو بحقيقة فيها . ومثال ذلك أن المضاف اليه يكتسى اعراب المضاف فى نحو (واسأل القرية) والأصل واسأل أهل القرية . فالحكم الذى يجب للقرية فى الأصل وعلى الحقيقة هو الجر ، والنصب فيها مجاز ، وهكذا قولهم « بنو فلان تطؤهم الطريق » يريدون أهل الطريق ، الرفع فى الطريق مجاز لأنه منقول اليه عن المضاف المحذوف الذى هو الأهل والذى يستحقه فى أصله هو الجر .

ولا ينبغى أن يقال ان وجه المجاز فى هذا الحذفُ ، فان الحذف اذا تجرد عن تغيير حكم من أحكام ما بقى بعد الحذف لم يسم مجازاً . ألا ترى أنك تقول : زيد منطلق وعمرو . فتحذف الخبر ثم لا توصف جملة الكلام من أجل ذلك بأنه مجاز ، وذلك لأنه لم يؤد الى تغيير حكم فيما بقى من الكلام ، ويزيده تقريراً أن المجاز اذا كان معناه أن تجوز بالشىء موضعه وأصله فالحذف بمجرده لا يستحق الوصف به لان ترك الذكر واسقاط

الكلمة من الكلام لايكون نقلا لها عن أصلها انما يتصور النقل فيما دخل تحت النطق .

واذا امتنع أن يوصف المحذوف بالمجاز بقى القول فيما لم يحذف ، وما لم يحذف ودخل تحت الذكر لايزول عن أصله ومكانه حتى يغير حكم من أحكامه أو يغير عن معانيه ، فأما وهو على حاله (١) والمحذوف مذكور فتوهم ذلك فيه من أبعد المحال فاعرفه .

واذا صح امتناع أن يكون مجرد الحذف مجازاً أو تحقّ صفة باقى الكلام بالمجاز من أجل حذف كان على الاطلاق دون أن يحدث هناك بسبب ذلك الحذف تغير حكم على وجه من الوجوه — علمت منه أن الزيادة فى هذه القضية كالحذف فلا يجوز أن يقال ان زيادة (ما) فى نحو « فبما رحمة » مجاز أو أن جملة الكلام تصير مجازاً من أجل زيادته فيه . وذلك أن حقيقة الزيادة فى الكلمة أن تعرى من معناها وتذكر ولا فائدة لها سوى الصلة ويكون سقوطها وثبوتها سواء ، ومحال أن يكون ذلك مجازاً لأن المجاز أن يراد بالكلمة غير ماوضعت له فى الأصل أو يزاد فيها أو يوهم شىء ليس من شأنها ، كايهامك بظاهر النصب فى القرية أن السؤال واقع عليها . والزائد الذى سقوطه كثبوته لايتصور فيه ذلك .

فأما غير الزائد من أجزاء الكلام الذى زيد فيه فيجب أن ينظر فيه فان حدث هناك بسبب ذلك الزائد حكم تزول به الكلمة عن أصلها جاز حينئذ أن يوصف ذلك الحكم أو ماوقع فيه بأنه مجاز ، كقولك فى نحو قوله تعالى (ليس كمثله شىء) ان الجر فى المثل مجاز لأن أصله النصب

---

(١) أى على حاله قبل أن يحذف المحذوف (ش)

والجر حكم عرض من أجل زيادة الكاف . ولو كانوا إذ جعلوا الكاف مزيدة لم يعملوها لما كان لحديث المجاز سبيل على هذا الكلام . ويزيده وضوحاً أن الزيادة على الاطلاق لو كانت تستحق الوصف بأنها مجاز ينبغى أن يكون كل ماليس بمزيد من الكلم مستحقاً الوصف بأنه حقيقة حتى يكون الأسد فى قولك رأيت أسداً — وأنت تريد رجلا — حقيقة . فان قلت : المجاز على أقسام والزيادة من أحدها . قيل : هذا لك اذا حددت المجاز بحد تدخل الزيادة فيه ، ولا سبيل لك الى ذلك لأن قولنا « المجاز » يفيد أن تَجُوز بالكلمة موضعها فى أصل الوضع وتنقلها عن دلالة الى دلالة أو ماقارب ذلك .

وعلى الجملة فانه لايعقل من المجاز أن تسلب الكلمة دلالتها ثم لاتعطيها دلالة أخرى وان تخليها من أن يراد بها شىء على وجه من الوجوه ووصف اللفظ بالزيادة يفيد أن لايراد بها معنى وأن يجعل كأن لم يكن لها دلالة قط .

فان قلت : أو ليس يقال ان الكلمه لاتعرى من فائدة ما ولا تصير لغواً على الاطلاق حتى قالوا ان نحو (ما) فى نحو « فبما رحمة من الله » تفيد التوكيد ؟ فأنا أقول : ان كون (ما) تأكيداً نقل لها عن أصلها ومجاز فيها . وكذلك أقول ان كون الباء المزيدة فى « ليس زيد بخارج » لتأكيد النفى مجاز فى الكلمة لأن أصلها أن تكون للالصاق — فان ذلك على بعده لايقدح فيما أردت تصحيحه لأنه لايتصور أن تصف الكلمة من حيث جعلت زائدة بأنها مجاز ومتى ادعينا لها شيئاً من المعنى فاننا نجعلها من تلك الجهة غير مزيدة ، ولذلك يقول الشيخ أبو على فى الكلمة اذا كانت تزول عن أصلها من وجه ولا تزول من آخر « معتد بها من

وجه غير معتد بهـا من وجه » كما قال فى اللام من قولهم « لا أبا لزيد » جعلها من حيث منعت أن يتعرف الأب بزيد معتداً بهـا ومن حيث عارضها لام الفعل [١] من الأب التى لاتعود الا فى الاضافة نحو أبو زيد وأبا زيد غير معتد بهـا وفى حـكم المقحمة الزائدة ، وكـذلك توصف (لا) فى قولنا « مررت برجـل لا طويل ولا قصير » بأنها مزيدة ولـكن على هـذا الحد فيقال هى مزيدة غير معتد بهـا من حيث الاعراب [٢] ومعتد بهـا من حيث أوجبت نفى الطول والقصر عن الرجل ولولاها لـكانا ثابتين له . وتطلق الزيادة على (لا) فى نحو قوله تعالى (لئـلا يعلم أهل الـكتاب أن لايقدرون) لأنها لاتفيد النفى فيما دخلت عليه ولا يستقيم المعنى الا على إسقاطها. ثم ان قلنا ان (لا) هـذه المزيدة تفيد تأكيد النفى الذى يجىء من بعـد فى قوله (أن لايقدرون) وتؤذن به ، فانا نجعلها من حيث أفادت هـذا التأكيد غير مزيدة وانما نجعلها مزيدة من حيث لم تفد النفى الصريح فيما دخلت عليـه كما أفادته فى المسألة [٣] .

واذا ثبت أن وصف الـكلمة بالزيادة نقيض وصفهـا بالافادة علمت أن الزيادة من حيث هى زيادة لاتوجب الوصف بالمجـاز . فان قلت : تـكون سبباً لنقل الـكلمة عن معنى هو أصـل فيها الى معنى ليس بأصل — كـدت تقول قولا يجوز الاصغاء اليه وذلك ـ ان صح ـ نظير ماقدمت من أن الحذف

(١) أى التى تظهر فى الفعل فى نحو أبوت وأبيت أى صرت أبا وأبوته إباوة بالـكسر صرت له أبا .

(٢) أى لأن الوصفين مجروران على النعت بدون دخل لا .

(٣) حقق الأستاذ فى الدرس ان (لا) فى (لئلا يعلم أهل الـكتاب) من آخر سورة الحديد أصلية أى يمنحكم الله ماذكر فى الآية قبلها بالتقوى والايمان بالرسول لتيكون العاقبة عدم علم أهل الـكتاب (أن لايقدرون على شىء من فضل الله) .

أو الزيادة قد تكون سبباً لحدوث حكم فى الكلمة تدخل من أجله فى المجاز كنصب القرية فى الآية وجر المثل فى الأخرى فاعرفه .

واعلم أن من أصول هذا الباب أن من حق المحذوف أو المزيد أن ينسب الى جملة الكلام لا الى الكلمة المجاورة له فأنت تقول اذا سئلت عن القرية : فى الكلام حذف والأصل أهل القرية ثم حذف الأهل ، يعنى حذف من بين الكلام وكذلك تقول : الكاف زائدة فى الكلام والأصل ليس مثله شيء ، ولا تقل هى زائدة فى « مثل » إذ لو جاز ذلك لجاز أن يقال ان (ما) فى « فبما رحمة » مزيدة فى الرحمة أو فى الباء ، وان (لا) مزيدة فى (يعلم) وذلك بيّن الفساد ، لأن هذه العبارة انما تصلح حيث يراد أن حرفا زيد فى صيغة اسم أو فعل على أن لا يكون لذلك الحرف على الانفراد معنى ولا تعده وحده كلمة ، كقولك : زيدت الياء للتصغير فى قولك رجيل والتاء للتأنيث فى ضاربة . ولو جاز غير ذلك لجاز أن يكون خبر المبتدأ اذا حذف فى نحو « زيد منطلق وعمرو » محذوفاً من المبتدأ نفسه على حد حذف اللام من يد ودم ؛ وذلك مالا يقوله عاقل ، فنحن اذا قلنا ان الكاف مزيدة فى (مثل) فانما نعنى أنها لما زيدت فى الجملة وضعت فى هذا الموضع منها . والأصح فى العبارة أن يقال : الكاف فى (مثل) مزيدة يعنى الكاف الكائنة فى مثل مزيدة كما تقول : الكاف التى تراها فى مثل مزيدة ، ولذلك تقول : حذف المضاف من الكلام ولا تقول : حذف المضاف من المضاف اليه ، وهذا أوضح من أن يخفى ولكنى استقصيته لأنى رأيت فى بعض العبارات المستعملة فى المجاز والحقيقة مايوهم ذلك فاعرفه .

ومما يجب ضبطه هنا أيضا أن الكلام اذا امتنع حمله على ظاهره حتى

يدعو الى الى تقدير حذف أو إسقاط مذكور كان على وجهين (أحدهما) أن يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع الى غرض المتكلم ومثله الآيتان المتقدم تلاوتهما ، ألا ترى أنك لو رأيت « سل القرية » فى غير التنزيل لم تقطع بأن ههنا محذوفا ؟ لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربت وباد أهلها فأراد أن يقول لصاحبه واعظا ومذكراً أو لنفسه متعظاً ومعتبراً : سل القرية عن أهلها وقل لها ماصنعوا . على حد قولهم : سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فانها ان لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً . وكذلك ان سمعت الرجل يقول ليس كمثل زيد أحد . لم تقطع بزيادة الكاف وجوزت أن يريد ليس كالرجل المعروف بمماثلة زيد أحد .

(والوجه الثاني) أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره ولزوم الحكم بحذف أو بزيادة من أجل الكلام نفسه لامن حيث غرض المتكلم به ، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزئى الجملة كالمبتدإ فى نحو قوله تعالى « فصبر جميل » وقوله « متاع قليل » لابد من تقدير محذوف ولا سبيل الى أن يكون له معنى دونه سواء كان فى التنزيل أو فى غيره فاذا نظرت الى « صبر جميل » فى قول الشاعر :

يشكو الى جملى طول السرى صبر جميل فكلانا مبتلى

وجدته يقتضى تقدير محذوف كما اقتضاه فى التنزيل ، وذلك أن الداعى الى تقدير المحذوف ههنا هو أن الاسم الواحد لايفيد والصفة والموصوف حكمهما حكم الاسم الواحد ، وجميل صفة للصبر . وتقول للرجل : من هذا ؟ فيقول : زيد ، يريد هو زيد فتجد هذا الاضمار واجبا لأن الاسم الواحد

لا يفيد ، وكيف يتصور أن يفيد الاسم الواحد ومدار الفائدة على إثبات أو نفى وكلاهما يقتضى شيئين : مثبت ومثبت له ومنفى ومنفى عنه .

وأما وجوب الحكم بالزيادة لهذه الجهة فكنحو قولهم : بحسبك أن تفعل وكفى بالله . ان لم تقض بزيادة الباء لم تجد للكلام وجهاً تصرفه اليه وتأويلا تتأوله عليه البتة ، فلابد لك من أن تقول : ان الأصل حسبك أن تفعل وكفى الله . وذلك أن الباء اذا كانت غير مزيدة كانت لتعدية الفعل الى الاسم وليس فى « بحسبك أن تفعل » تعدية بالباء الى حسبك . ومن أين أن يتصور أن يتعدى الى المبتدأ فعل والمبتدأ هو المعرى من العوامل اللفظية ؟ وهكذا الأمر فى « كفى » أو أقوى ، وذلك أن الاسم الداخل عليه الباء فى نحو « كفى بزيد » فاعل كفى ، ومحال أن تعدى الفعل الى الفاعل بالباء أو غير الباء ، ففى الفعل من الاقتضاء للفاعل مالا حاجة معه لى متوسط وموصل ومعد ، فاعرفه ، والله أعلم بالصواب .

(تم الكتاب والحمد لله)